المآذن

رحلة الشموخ والشروخ

محمد السيد سالم

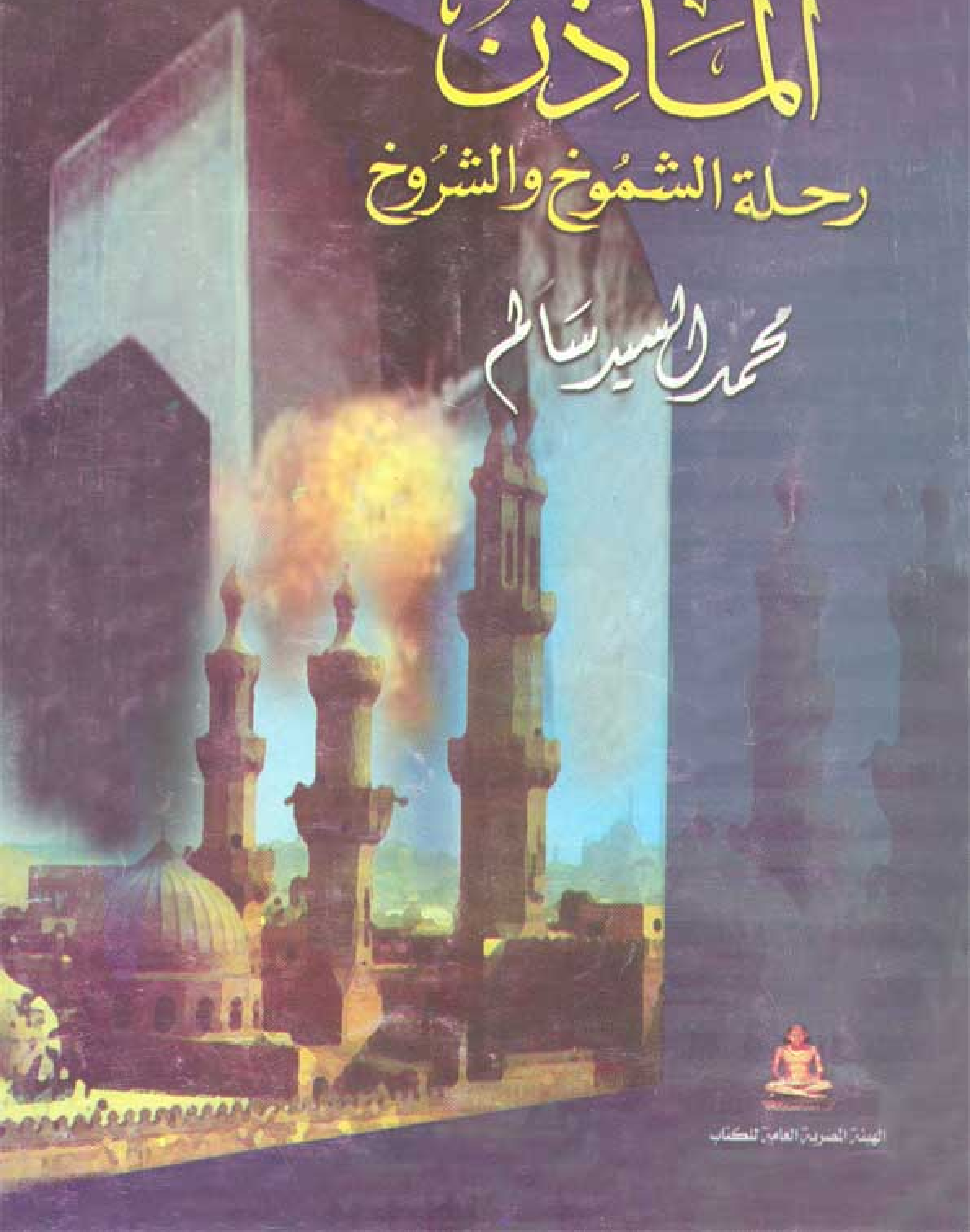

الهيئة المصرية العامة للكتاب

المآذن

رحلة الشموخ والشروخ

محمد السيد سالم

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٧

سالم: محمد السيد.

المآذن.. رحلة الشموخ والشروخ/محمد السيد سالم. – القـــاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. ٢٠٠٧.

٥٢٠ص : ٢٤سم.

تدمك ٣ ٦١٦ ٤١٩ ٩٧٧

١- الآثار الإسلامية في الهند.

٢- المآذن.

(أ) العنوان:

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٧/٣٩٨٤

~~I.S.B.N ٩٧٧ – ٤١٩ – ٦١٦ – ٣~~

ديوى ٩١٥,٣٠٣

(والواجب أن نكون هداة.. وقد أمرنا الله أن نكون هداة، وقد ائتمننا دينه ننشره ما وجـــدنا إلي نشره سبيل، وأمرنا أن نكون دعاة إلى الخير نصنع هذا كله لا لشيء إلا لنكون جديرين بهذا الدين الذي حمله العرب فحملوا أمانته)

طه حسين

حين هبط جدة

في يناير ١٩٥٥

مدخل

* هل يجب أن نعيد كتابة التاريخ؟

بالطبع.. لماذا؟.. لأن التاريخ ليس شيئًا يكتب مرة واحدة، ولكنه مادة تكتب مئات المرات، وتعاود كتابتها باستمرار، سواء بظهور معلومات مستجدة عن أي صفحة من صفحات التاريخ، أو بسبب تطور في مذاهب التاريخ وفلسفاته، وظهور أدوات فكرية جديدة تستخدم في فهم التاريخ، أو بسبب أبسط وهو ظهور أي كاتب أو مؤرخ يجد في نفسه القدرة والرغبة على أن يدلي بدلوه في التعرض لموضوع ما من موضوعات التاريخ.

- أليس من المألوف أننا إذا أردنا الرجوع إلى موضوع من موضوعات التاريخ أن نعود إلى الفهارس، فنجد عشرات الكتب أو المئات، حسب أهمية الموضوع المكتوبة عنه؟.

ويمضي الأستاذ أحمد بهاء الدين في مقاله حول (إعادة كتابة التاريخ – مجلة العربي/ مارس ١٩٨٠) فيقول:

كتابة التاريخ أذن، تاريخ فرد أو أمة أو عالم، عملية بطبيعتها متجددة، لا يصدر قرار ببدئها، ولا يصدر قرار بإيقافها.. وليس في هذا جديد.. كل ما في الأمر أن الشعوب في مراحل يقظتها الفكرية تزداد اهتمامًا بتاريخها، كما تزداد اهتمامًا بحاضرها ومستقبلها، فاليقظة لا تكون إلا شاملة، وبالتالي تشتد حركة التأليف عن التاريخ، ويزداد الناس إقبالاً على قراءته.. وفي حالات الخمول تنام الأمم عن ماضيها ومستقبلها معها، تستسلم لما وجدته مكتوبا عنها من قبل، وما بعد ترى أنه (مكتوب لها) في المستقبل.

الأمر البديهي الثاني، هو أنه كما أن التاريخ ليس شيئًا يكتب مرة واحدة، كذلك فإنه ليس شيئا تكتبه جهة واحدة.

ولعل هذا الأمر الثاني أكثر بديهية من الأمر الأول، فليس هناك فرد ولا جهة ولا دولة، ولا مجموعة دول تحتكر كتابة التاريخ حتى لو كان تاريخها، فلو أراد أحد أن يكتب عن تاريخ العرب أو الصين أو بلاد واق الواق، فلا يوجد أحد يملك منعه من ذلك، ولا يملك فرد ولا مجتمع أن يمنع الغير من الكتابة عنه، وكلما كانت الحضارة غنية، تعدد جنسيات الذين يكتبون عنها، بل أن جامعة أمريكية. مثلا. قد تنفق الملايين لترسل علماءها إلى أبعد بلاد الدنيا لعمل حفريات ودراسات تاريخية عن موضوع لا صلة لها به، ذلك أن التاريخ

والحضارات ملك مشترك للمعرفة الإنسانية كلها، ومرة أخرى نجد أن الشعوب كلما زادت تقدما، صاحب ذلك اهتمامها بحضارات العالم كله.

في مصر، نجد أن الذين اكتشفوا حجر رشيد وفكوا أسرار اللغة الهيروغليفية، فرنسيون، والذين كشفوا آثار وكنوز توت عنخ آمون انجليز، والذين ينقبون عن آثار مدينة الفسطاط من جامعات أمريكية، وحضارة العرب أشبعها (المستشرقون) كتابة وتحليلاً، ونحن ترجمنا عنهم استفدنا بهم، وهم روس وألمان وإنجليز وفرنسيون وهولنديون.. إلى آخره.

وأصحاب أي تاريخ يفرحون باهتمام الآخرين بهم، فيما كان كل هؤلاء مستشرقون- مثلاً. ليهتموا بالحضارة العربية، ويقيموا لها مراكز الأبحاث في جامعاتهم وأقساما خاصة في متاحفهم لولا أنها حضارة غنية وتاريخيها مهم، وأنها حلقة جوهرية في التاريخ الإنساني كله.

لا شك فيما قاله كاتبنا الراحل/ أحمد بهاء الدين منذ أكثر من عشرين عاما.. حول ضرورة (إعادة كتابة التاريخ) – ومع هذا يبدو أنه رغم زيادة عدد الباحثين في حقل التاريخ فقد ندرت الموضوعات، خاصة إذا ما كانت النظرة إليها نظرة تقليدية، تنظر إلى عملية البحث التاريخي على أنه تجميع أكبر قدر من المعلومات، وحشرها بين غلاف كتاب أو رسالة، ويظل الباحث يتخبط على غير هدى، وبلا فلسفة تهديه أو منهاج يقوده.. وتكون النتيجة ولادة بحث ميت، بطريقة ميتة.

أن المادة التاريخية واحدة، لكن طرق معالجتها هي التي تتفاوت حسب قدرة المؤخر.. ومن ثم فقبل الشروع في الإبحار إلى مجاهل البحث التاريخي لابد من التجهيز الجيد والإعداد الواعي.

ومع كل هذا وذاك، فالبعض قد يتساءل عن جدوى الاهتمام بالتاريخ كله، خاصة في عصر تعصف به الاضطرابات والمتغيرات ووصل الإنسان فيه أعظم الإنجازات العلمية.. وهؤلاء يتساءلون: أليس من الأجدى أن ننسى الماضي وننظر إلى الحاضر والمستقبل؟!.. ومن السهل بالطبع تقييد ذلك الرأي، باعتبار أن هذا الاضطراب الذي نعانيه والمتغيرات التي نواجهها لا يمكن معالجتها إلا بالنفاذ إلى جذورها، واستئصال أسبابها والوقوف عند عللها وأسبابها وطبيعتها ومداها.

ونحن العرب أحرص الناس على تلك الحقيقة، لأن التاريخ يطل علينا من نوافذ متعددة، والتاريخ العربي بأمجاده وتقاليده وبطولاته من أهم مقومات ودعائم القوة، وعندما نتحرى عن أسباب وعلل النكبات والمآسي والأخطاء التي حلت بنا، نجد أنفسنا نرجع بدون وعي إلى التاريخ، وكتب التراث نقرأ فيها ونستنتج.. ولعل أبلغ دليل على ذلك أن العالم

الفيلسوف ابن خلدون كتب مقدمته الرائعة، التي تعتبر أبرز آثار التفكير التاريخي والاجتماعي – عندما وجد العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر وقد انقسم إلى دول متناحرة، تغير علها جحافل الغزاة، من التيموريين وغيرهم، فآثار ذلك في نفسه تساؤلات كثيرة، عن أسباب نشوء الأمم وتطورها وتداعيها.

هنا نتوقف.. لنبدأ ببحث قضية الهدف الحقيقي والفائدة المباشرة لعلم التاريخ؟

يرتكب خطأ فادحا من يظن أن دراسة التاريخ ليس لها فائدة، لأنه لو لم يكن مفيدا، ما بقى علما من أهم العلوم الإنسانية، (فالناس) – كما قال كونفيوشيوس – حكيم الصين في القرن السادس ق.م.

(.. منذ قديم الزمن يدرسون الماضي بهدف تطوير أنفسهم. أن دراسة التاريخ تعلم الناس كيف يلتقون، ويتعرفون على سالف الأجداد، وأفكارهم، رغم آلاف من السنين، التي تفصل بين الطرفين).

.. إن طلب المعرفة غريزة عند الإنسان، ولكي يكون هذا الإنسان واعيا يجب أن يلم بقدر من الثقافة التاريخية، أن المواطن الملم بالقراءة عادة يقرأ الصحف ليشبع غريزة البحث والمعرفة.. بالرغم من أن الصحف لا تقدم الحقائق كاملة والتي سوف تصبح فيما بعد (قرائن تاريخية) لأن الدعاية والمبالغة والتزوير والتشهير ظاهرة واضحة في الصحف في العصور الحديث، حتى الماضي القديم لم يخل أبدا من التزوير والتشهير.

ولقد عرف نابليون كيف يثير حماس جنوده قبل بدء معركة إمبابة، عندما خطب فيهم قائلاً:

(أن أربعين قرنا من الزمان تنظر إليكم من فوق الأهرامات).

بل أن خصمه في المعركة وهو مراد بك خطب في جنوده خطبة مماثلة تذكرهم بالتاريخ الإسلامي المجيد، لكي يلهب حماسهم للقتال، ورد المعتدين.

فالتاريخ أن كان مجيدا يمكن أن يكون باعثا للإحياء القومي ومحركا لطاقات الشعوب، لأن به وفيه تتمثل الكبرياء الوطني، ففي أعمال الأجداد العظام دائما نموذجا أمسى، ومثلاً تتحدى به الأجيال، وما من نهضة حديثة من النهضات، وما من معرفة كسبها الجنود إلا وكان التاريخ باعثا وملهما.

وهي إحدى الفوائد العلمية لدراسة التاريخ.

أن التاريخ المجيد يلهم الحاضر، ويجعلنا نتفهم واقعنا وما يدور حولنا، لأن الهدف من دراسة التاريخ هو الكشف عن الحاضر وتفهمه، فنحن ندرس تاريخ الشعوب، ولقادة العظام وتاريخ المعارك التي غيرت وجه التاريخ، وتاريخ الصراعات والمشاكل الدولية التي تنعكس مشاكلها على مشكلات العصر الحديث.

فإن لم نتفهم مواطن الخلاف في الماضي، فلن نتفهم نتائجها في الحاضر فالحاضر هو نتيجة لتفاعل أحداث الماضي، كما أن المستقبل سوف يكون نتيجة لتفاعل أحداث الحاضر.

فالتاريخ قضايا وحلول، كل فترة هي نتيجة لقضية سابقة.. وهي في نفس الوقت مسألة لأحداث المستقبل.

لهذا فاختيار الموضوعات التاريخية يجب أن يكون في ضوء الأحداث والقضايا التي تهم الحاضر وتساهم في حلولها.

واهتمام المؤرخ يجب إلا يكون منعزلا عن الحاضر ومشكلاته ومتطلباته، ومن هذا المنطلق، وتحت مشاعل نيران معادية باتت تهدد الحاضر العربي، وإعصار امتد إلى المستقبل الإسلامي، كان لابد من التفكير في المآذن.. المآذن التي ظلت على مدى قرون ترتفع شامخة، ثم أصبحت بمرور زمن الهزائم والأطماع تعاني شروخا امتدت عبر سنين المؤامرات من أيام الحملة الصليبية وحتى الإصابة بالطاعون الإسرائيلي حتى أصبح المسلمون صيدًا حلالاً، حين وقع الهجوم الانتحاري الذي تعرضت له واشنطن ونيويورك في سبتمبر ٢٠٠١، فأشعل حريق حرب شهد العالم بدايتها ولم يشهد بعد نهايتها، اتجهت الأنظار إلى الشرق الأوسط، وعلى وجه التحديد إلى الشعوب العربية والإسلامية، تبحث عن ثنايا الشوارع الضيقة، والفسيفساء الملونة، والتاريخ الحافل بالصراعات.. وربما تحت العباءات السابغة، أو وراء اللحى المرسلة والعيون الساهمة عن أسماء وعلامات وتواريخ تدل على الطريق إلى مرتكبي الهجوم ومديريه ومخططيه. فهناك وهناك. كما أكتشف بعضهم أخيرًا. تكمن مستودعات كراهية دفينة، ونفوس مترعة بمشاعر الظلم والمرارة، وضحايا حروب ومعاناة مثقلة بالمهانة، عميت عنها عيون الغرب، وتعامت عنها النظم الحاكمة.

وها هي أمريكا التي جلست طوال عشرة أعوام منذ نهاية الحرب البادرة، متربعة على عرش من الرخاء والهيمنة والقوة العسكرية المطلقة التي لا ينازعها أحد، متحصنة وراء أسوار من العظمة والتفرد، نجد نفسها في موقف غريب، تبحث فيه عن الجذور التي أنبتت هذا العنف الموجه ضدها هي بالذات، وتطرح على نفسها وعلى مفكريها وخبرائها سؤالاً مُلحا لخصته إحدى المجلات في عبارة واحدة هي: لماذا يكرهون أمريكا؟ هل هو صراع بين

الحضارات كما تنبأ هنتجتون؟ أم أن له أسبابًا غائرة في أعماق الحضارة الإسلامية كفكر ودين؟ أم أنها بعض تجليات العجز الذي مُنيت به النظم العربية الحاكمة بإخفاقها في تطبيق الديمقراطية وتحقيق التقدم لدى شعوبها؟

وكان طبيعيًا في ضوء هذه التساؤلات أن تتردد – على لسان بيرلسكوني مثلاً. أصداء أفكار عنصرية قابعة في تلافيف العقل الأوروبي والغربي بصفة عامة منذ عصور الاستعمار، تضع شعوب الشرق في مرتبة أدنى، تجعلها غير قادرة على الانفتاح والإنتاج والتطور، وتظل بحكم قيمتها المتخلفة، تدور في صراعات عابثة غير عقلانية تفضي بها إلى التآكل والانتحار، وذهبت تفسيرات أخرى إلى أن ما ينعم به الغرب – وأمريكا في المقدمة – من رخاء وتقدم ورفاهية، وهو الذي يثير حقد وكراهية شعوب فقيرة مطحونة ومحرومة من كل شيء.. وشخصية مثل بن لادن وتنظيم القاعدة، وجماعات مثل طالبان، هي التعبير الكامل عن مشاعر الغيرة والحسد والكراهية المدمرة الموجهة ضد الحضارة الغربية، هذه الصورة هي الصورة التي سعت وسائل الإعلام الغربية إلى تجسيدها للعالم الإسلامي، الذي يتربع بن لادن في القلب منه، علامة على وضع حضاري ومستوى فكري، وعداء ديني يختزل فيه العرب كل الأسباب التي أدت إلى الأحداث الأخيرة.

وبغض النظر عن الأسباب الحقيقية التي صنعت ظاهرة الإرهاب وكانت مسئولة عن ولادة طالبان وبن لادن، وعن الأساليب الإرهابية التي استخدمتها الدول الكبرى في بسط نفوذها الاستعماري تارة والاقتصادي والسياسي تارة أخرى، فإن الحديث عن العنف الأعمى والإرهاب الوحشي الذي أدى إلى سقوط عدة آلاف من الضحايا الأبرياء، فتح الباب أمام جدل واسع النطاق، أعيد فيه إنتاج واستحضار الصور النمطية للإنسان العربي والمسلم في العقل الغربي والأمريكي. وكانت هذه الصور هي عريضة الاتهام التي وجهت إلى مئات من العرب والمسلمين الذين يعيشون في الغرب، والذين كان عليهم أن يواجهوا أسباب الريبة والشك، ويدافعوا عن أنفسهم أصابع الاتهام وملاحقات الشرطة في الشوارع والمطارات.

فالعربي بملامحه الشرقية العربية، وأسمائه وعاداته وأسلوب حياته وجذوره الثقافية وأزيائه، بنسائه ورجاله وأطفاله، إما أن يظهر في صورة بدوي جاهل حملته ثروة النفط التي لابد له فيها على ظهرها، فلا يعرف في الحياة شيئًا غير بعثرة أمواله في صالات القمار ومخادع النساء، أو يظهر في صورة عصابية متعصبة، تتسم بالجلافة والغلظة وانعدام الذوق والسلوك، مرشح دائمًا لكي يلعب دور الإرهابي الذي يخطف الطائرات، ويلقى القنابل على الأبرياء، ويفجر المباني والسفارات لأنه يعادي المعرفة والتقدم، ويكره حضارة الغرب ولا يجد نفسه فيها.

هم يسألون أنفسهم في الغرب: لماذا يكرهوننا؟ ونحن لابد أن نسأل أنفسنا في الشرق نفس السؤال.. هل هذه الصورة النمطية الناطقة بالاحتقار والاستعلاء هي التي تولد لديهم تلقائيا مشاعر الغرائبية والخوف من الآخر؟ أم أن هناك تيارًا معاديًا – لأسباب سياسية. هو الذي يغذي هذه المشاعر ويضخمها ويلح عليها في البيئة الثقافية التي يعيش فيها المواطن العادي في الغرب؟ أم أن لدينا بالفعل من جوانب النقص والقصور والممارسات السلبية ما يشجع على تثبيت هذه الصورة النمطية، وتطويلها في أي لحظة من اللحظات إلى أداة للهجوم، أو سلاح للضغط، أو مبرر للعداء؟

لقد آن الأوان – وباب الجدل حول هذا الموضوع مفتوح على مصراعيه في العالم كله – أن ننظر نحن داخل ذواتنا، ونعيد تقييم أوضاعنا، ونفتش عن جوانب القصور التي تولد لدى الآخرين تجاهنا. وفي الغرب بالذات. نظرة الاستخفاف أحيانًا، والاتهام وإساءة الظن أحيانًا أخرى. والعداء والاستعداء والاستبعاد في كثير من الأحيان.

هناك إجابات كثيرة قد يضيق المقام عن ذكرها..

ولكن أول ما يتبادر إلى الذهن، هو وجود حاجز ثقافي حال دون تعريف الغرب بمنجزات الحضارة العربية والإسلامية، وغيّب عن الفكر الأمريكي – والأوروبي بدرجة أقل – الإسهام الثقافي والحضاري للشعوب العربية والإسلامية، فلا يكاد يهتم بها أو يطلع عليها غير دائرة محدودة من المثقفين والأكاديميين، أو الدبلوماسيين ورجال الأعمال الذين تقودهم ظروفهم إلى هذه الأصقاع، وحيث تغيرت وتبدلت المعايير التي يقاس بها التقدم الحضاري والإبداع الثقافي، فإن غياب الإسهامات العربية عن الحضور العالمي في الفن والموسيقى والأدب والسينما من ناحية، وفي مجال العلوم والتكنولوجيا من ناحية أخرى، لم يدع لشعوب الغرب فرصة للتعرف على الحياة العقلية والفكرية المعاصرة، وإذا أتيح له أن يطلع عليها جاءته مشوهة باهتة. ونحن من جانبنا لم نصنع شيئًا للتغلب على هذا القصور، ويكفي للدلالة على ذلك أن يكون فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل للآداب هو أول احتكاك حقيقي بيننا وبين الغرب. وأن يكون فوز زويل بنوبل في العلوم هو أول اقتحام عربي حضاري لعلوم الغرب وتقنياته المعاصرة.

يأتي بعد ذلك عامل آخر نتحمل نحن مسئوليته بالدرجة الأولى، يعود إلى إخفاقنا كمسلمين في تقديم الإسلام وفكرة ومبادئه الحقيقية إلى العالم المعاصر.. مستنيرا متحررا من الجمود والتخلف. قادرًا على مواكبة التجديد والتقدم والقيم الإنسانية التي تحكم العصر. فبينما نجحت المسيحية في تجديد نفسها خلال القرنين الثامن والتاسع عشر، أخفق مشروع التجديد في الفكر الإسلامي الذي قاده محمد عبده، وسيطرت على الفكر الديني تيارات الجمود

والمحافظة وتغليب النقل على العقل، فإذا العالم الخارجي لا يرى من الإسلام غير أكثر وجوهه جمودًا وتخلفًا وتطرفًا. ليصبح نموذج "طالبان" هو النموذج الذي يراه العالم ويحاكم الإسلام والمسلمين به.. وحين وقعت أزمة تماثيل بوذا، لم تفلح أكبر المراجع الإسلامية في إقناع "طالبان" بالتراجع. ولم ير الغرب من الإسلام غير هذا الوجه القبيح الذي يحرِّم خروج النساء وتعليمهن. ويمنع الموسيقى والتليفزيون. ويمنع حلق اللحى.. إلى آخر قائمة طويلة يصعب حصرها. ودلني على دولة ترفع شعار الإسلام وتتدثر به، استطاعت أن تقتحم أبواب العصر وأن ترتفع بمستوى شعبها علمًا وعملاً إلى مستوى معقول يضاهي دولاً أوروبية متوسطة القيمة لم يكن لها في التاريخ الإنساني إسهام يعتد به.

يتصل بذلك من قريب، غياب الشرعية السياسية التي تقوم عليها الدولة الحديثة في عالمنا المعاصر.. شرعية السلطة، وشرعية الحكم، وشرعية العدالة، الأمر الذي وضع الشعوب العربية على هامش المسرح الدولي. فلم يعد أحد يأخذ الشعوب العربية مآخذ الجد، إلا بقدر ما تفرضه المصالح العاجلة، والانفجارات السياسية المفاجئة.. والنظرة السائدة إلى ظاهرة الإرهاب في هذا الجزء من العالم، هي أنها نتاج طبيعي لنظم الحكم القائمة، أو هي جزء من تكوين شعوبها التي – بالفطرة والغريزية– لا تعرف معنى الحرية والمدنية والديمقراطية، بل تحكمها ثقافة الخوف والقهر، وهي ثقافة لابد أن تفضي بالضرورة إلى ثقافة الإرهاب.

هذه أسباب وعلل لا يعقل لنا أن نعلقها على صدام الحضارات، أو على إرث تاريخي من الكراهية والحروب الدينية والخلافات الثقافية. بل يجب أن نتحمل نحن مسئوليتها. ونبحث لها عن حلول من داخلنا وليس من خارجنا.. فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم!

وهذا التغيير لابد أن يعود بنا إلى تاريخ العرب الذين ما لبثوا وبعد فترة وجيزة على وفاة الرسول الكريم أن انطلقوا بمآذن الإسلامي من بيدائهم انطلاق الجني العملاق من قمقمه. فإذا هم بعد انصرام قرن من الزمان قد امتدت ساحات مآذنهم وسلطانهم من نهر جيجون في آسيا الوسطى. إلى أقصى شمال أفريقيا عند المحيط الأطلسي، وباتوا يحكمون شعوبا شديدة التباين في عاداتها وأخلاقها وبيئاتها وحضاراتها عن أهل شبه الجزيرة.. وأسسوا مدنا جديدة وسكنوا مدنا قائمة تزخر بسكان هم الآن في حاجة إلى شريعة أكثر تعقيدًا وأوفى تفصيلاً من تلك التي كانت كافية لأن تحكم مجتمعنا في بساطة مجتمع مكة والمدينة.. خاصة وقد واجه المسلمون ظروفا لم يتحدث القرآن عنها، أو تحدث عنها ولم يورد بصددها غير مبادئ عامة دون تفصيل.

إزاء هذا التوسع الجغرافي الهائل وإزاء ضغط الظروف التاريخية دائبة التغيير واختلاف الزمان والمكان تلمس المسلمون وفقاؤهم الدليل الهادي.. وقد كان من الطبيعي أن تقودم تقواهم التي تلمس الدليل عند المصدر عينه الذي نزل الوحي عليه وبلغ رسالة السماء فكان شرع الجيل التالي للصحابة، وجيل التابعين، يجمع روايات النبي وأفعاله. واتخذ من هذه السنة مصدرا ثانيًا للشريعة، لا يعلوه غير القرآن.

وارتفع صرح الكتابة التاريخية عند المسلمين:

وقد كان من بين أعلامها الأوائل محمد بن جرير الطبري (٨٣٩ – ٩٢٣هـ) والذي بدأ محدثا فمفسرا للقرآن. فمؤرخا. وبالرغم من أننا نحل تفسيره مكانة أعلى بكثير من مكانة تاريخية.

وكان هناك أيضًا المجددون، فقد تحول المسعودي مثلا (توفى عام ٩٥٦م) عن الحوليات التي أرخ فيها الطبري للحوادث سنة بعد سنة إلى سردها في رواية واحدة متصلة. مستغنيا عن الإسناد، بل وعن ذكر المصادر إلا فيما ندر.. وقد حقق المسعودي واليعقوبي تحرير الكتابة التاريخية من قالبها (الديني) وجعلاها علما مستقلا.

ثم خطأ مسكويه (توفي عام ١٠٣٠م) خطوة أوسع في هذا السبيل، وهو الذي شهد له الكافة بأن مؤهلاته لكتابة التاريخ كانت أعظم من مؤهلات الطبري، أقيمت له ميزة كبيرة وفرتها معرفة الشخصية بمشاهير رجال عصره، وقدرته على الحصول على المعلومات من مصادرها الأصلية، أضف إلى ذلك أنه كان ملما بمناهج الإدارة وأساليب الحرب. مما يسر له وصف الأحداث وصف عارف، والحكم على التصرفات والسياسات حكم واقف على دقائقها. وبينما نجد الطبري مثلاً في ذكر اقتصاديات الدولة، نجد مسكويه يضيق ويدقق ويوضح ذلك الجانب الحيوي في التاريخ السياسي.

وقد بلغت الكتابة التاريخية عند المسلمين ثروتها بمقدمة ابن خلدون (١٣٢٢ – ١٤٠٦م) فبالرغم من أن تاريخه لدول العالم الإسلامي. غدا شمال أفريقيا – مقدمة اعتمادا كبيرًا على من سبقه من المؤرخين، خاصة الطبري وابن الأثير، فإن مقدمة الكتاب أحلت صاحبها مكانة سامية في تاريخ الفكر الإنساني، وهي التي وصفها المؤرخ البريطاني (أرنولد توينبي) بقوله: (إن ابن خلدون وضع فيها فلسفة وقاعدة للتاريخ لا نشك في أنها أعظم عمل من نوعه قام به عقل بشري في أي زمان ومكان).. وقد عالج ابن خلدون فيما ما نسميه الآن (الظواهر الاجتماعية). وما يسميه هو (أحوال الاجتماع الإنساني). راميًا إلى الكشف عن القواني التي تخضع لها هذه الظواهر من نشأتها وتطورها. وهي قوانين لم يعن أحد من قبل

ابن خلدون بالكشف عنها. ولا درسها قبله كما تدرس ظواهر الفلك والطبيعة والكيمياء، ووظائف الأعضاء وما إلى ذلك من العلوم.

غير أنه يمضي السنين، وبازدياد تحرر المؤرخين المسلمين من تأثير الفقهاء ورقابتهم، وانفصال الكتابة التاريخية عن علوم الدين، أثار المؤرخون عداوة للفقهاء وريبتهم، وهما عداوة وريبة تحولت إلى حرب مريرة على المؤرخين في عصور الانحطاط الفكري في الدولة الإسلامية.. وقد أسفرت هذه الحرب عن انتصار الفقهاء، وعن اضطرار المؤرخين إلى تبني موقف من أحداث الماضي شبيه بموقف الفقهاء منها.. وأضحى الهدف من الكتابات التاريخية هو الهدف الذي حدده الفقهاء للمؤرخين.. إلا وهو أن يكون علم التاريخ وأدب التراجم وسيلة من وسائل غرس القيم الدينية والمبادئ الأخلاقية الرفيعة، والمثل العليا. لا تسجيل الحقائق بأكبر قدر مستطاع من الموضوعية بعد تمحيص ما تجمع منها لدى المؤرخ من أجل معرفة كنه الإدارة الإلهية.

وكان أن بدأت الأقلام تمتد إلى التاريخ والتراجم والسيرة النبوية ذاتها لطمس بعض الحقائق، أو اختراع القصص من أجل التخفيف من تأثير معين وتقويته، على أساس من التشكك في قيمة الحقيقة ما لم تكن تخدم غرضا أخلاقيا أو دينيا.. ومن هنا بدأت تتكون نظرة المسلمين الرومانسية إلى تاريخهم وأبطال ماضيهم.. وأضحت للحقيقة التاريخية مكانة تقل في الأهمية بكثير عن هدف الوعظ. وبيان نماذج السلوك التي ينبغي على المتقين أن يحذوا حذوها أو يتجنبوها.. ومثل هذه النظرة إلى التاريخ وشخصياته لا شك في أنها لا يمكن أن تخدم الفهم السليم لمجريات الأمور والأحداث التاريخية.

ثم جاء الغزو العثماني للأقطار العربي بما صحبه من موات فكري، فانصرفت غالبية المسلمين عن القراءة إلى في كتب الأدعية والحديث والشعر والحكايات الشعبية وإدارات للمؤلفات التاريخية ظهرها حتى نسيت ماضيها أو كادت.. حتى أهمل العلماء والمشايخ الكتابة في هذا الميدان إلى أن ظهر الجبرتي في مستهل القرن الماضي بكتابه الخالد (عجائب الآثار) فأعطى دفعة جديدة للكتابة التاريخية عند المسلمين.

مقدمة

وأنني بالمناسبة أدين بالفضل للأستاذ أحمد حامد الذي كان لكتابه (هكذا دخل الإسلام ٣٦ دولة) الذي حفزني على استكمال كتابة القيم، خاصة عندما بدأه بمقدمة كتب في آخرها (.. وبإمكان كل مسلم، في أي مكان في العالم، أن يكون داعية للإسلام. وأن يكون علامة مضيئة).

إن رحلة الإسلام إلى بلاد العالم والتي انطلقت كما أسلفنا من نهر جيجون في آسيا الوسطى إلى أقصى شمال أفريقيا عند المحيط الأطلسي في حاجة إلى نظرة جديدة واستطلاع آخر يواكب ما أصبحت عليه تلك البلاد الإسلامية الآن وبعد أن مر عليه هذا الزمن الذي حولها لصيد حلال، لهذا لن نكتفي في هذا الكتاب البحثي ببداية تاريخ الفتوح الإسلامية وكيفية تعاملها مع الأحوال ومختلف الظروف بل سوف نقفز من هناك إلى حيث وصلت الآن أحوال تلك البلاد التي مدت يدها للإسلام وفتحت أبوابها وقلوبها لتعاليمه وأسلوب حياته.

وبالطبع ليس بين أيدينا دراسة تفصيلية كاملة ودقيقة عن الصورة الجغرافية الراهنة لتوزيع الإسلام في العالم. حقا أن كتب المستشرقين والدراسات الإسلامية (الإسلامولوجيا) كما يسمونها تحفل بأكثر من مسح تخطيطي أو بيان إحصائي للمسلمين في هذه القارة أو تلك. أو لانتشار الإسلام التاريخي هنا وهناك.. ولكنها في الأعم الأغلب لا تعدو أن تكون خطوطا عريضة أو ومضات سريعة متناثرة.. وكثيرا ما تعتمد على أرقام قديمة أو غير وثيقة، وأحيانا قد لا تتحرى النزاهة العلمية المطلقة.

لهذا.. فإننا مازلنا بحاجة إلى دراسة متكاملة ترسم جغرافية الإسلام من حيث هو غطاء روحي واسع الانتشار، بالغ الخطورة في الحياة اليومية المعاصرة المادية والثقافية، والاقتصادية والسياسية لقطاع كبير من البشرية.

إن ما نرجوه أن يقدم هذا الكتاب أرضية عامة ونقطة ابتداء صالحة لمزيد من التعمق والتمحيص. إنه مدخل تعرض فيه كيف كان الفتح الإسلامي.. وكيف صار وأصبح بعد انتشار العقيدة..

وهيا بنا نخطو عبر القارات والمحيطات والعوالم الشتى.. نعيد عجلة التاريخ إلى الوراء.. وتعود بها إلى الحاضر بكل ما فيه من فوران وزلازل ودمار وتغيرات رهيبة وعاتية، ولنحدد أولاً أسباب فتح العرب للممالك والأمصار.

كان سبب الفتح عملية مزج قوية بين الأمة الفاتحة والأمم المفتوحة: مزج في الـــدم، والنظم الاجتماعية، والآراء العقلية، والعقائد الدينية، وقد عمل على هذا المزج أمور أهمها:

- تعاليم الإسلام في الفتح.
- دخول كثير من أهل البلاد المفتوحة في الإسلام.
- الاختلاط من العرب وغيرهم من سكنى البلاد.

ونبدأ أولاً: بـــ(تعاليم الإسلام في الفتح)

كانت هذه التعاليم تقضى بأنه إذا أراد المسلمون غزو بلد وجب عليهم: أولا أن يدعوا إلى الدخول في الإسلام. فإن اسلموا كانوا هم وسائر المسلمين سواء، جاء في الحديث: (أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دمائهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، وإن لم يسلموا دعوهم إلى أن يُسلّموا بلادهم للمسلمين يحكمونها، ويبقـوا على دينهم – إن شاءوا – ويدفعوا الجزية [1] فإن قبلوا ذلك كان لهم ما للمسلمين وعليهم مـا عليهم، وكانوا في ذمة المسلمين يحمونهم ويدافعون عنهم، ومن أجـل هـذا يـسمون (أهـل الذمة)[2]. وإن لم يقبلوا الإسلام ولا الدخول تحت حكمه ودفع الجزية أعلنت علـيهم الحـرب وقوتلوا، وفي أثناء القتال يحل للمسلمين أن يقتلوا المحاربين، أو من يعين على الحرب، فأمـا المرأة والطفل والشيخ الفاني والأعمى والمقعد ونحوهم فلا يجوز قتلهم، ما لم يكن أحـدهم ذا رأي في الحرب يؤلب على المسلمين، كما فعل رسول الله بدريد بن الصمت فقـد قتلـه يـوم حنين، وهو شيخ كبير ضرير، لأنه كان يدبر لقومه ويـؤلبهم علـى المـسلمين، وأن طلـب المحاربون صلحا أثناء الحرب أجيبوا إليه متى رأى الأمام ذلك (وإن جنحوا للسلم فأجنح لها) ووجب إذ ذاك تنفيذ الشروط حسب ما تعاقدوا، وإن لم يكن صلح وانتصر المـسلمون وفـتح البلد، فهناك أسرى حرب، وهناك أهل البلد المفتوح الذين لم يكونوا في الجيش المحارب، فأما الأسرى فإنا نجد أنه ورد فيهم في القرآن (حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء)، وهي تدل على أن ليس للإمام في الأسرى إلا أن يمن عليهم ويطلقهم، أو يأخـذ مـنهم مالا فدية لهم، أو يفتدى الرجل المسلم بالرجل المحارب.. ومن ناحية أخرى كان رسـول الله

---

(1) يراد بالجزية ضريبة على الرأس، يدفعها غير قتل العرب الوثنيين من نصارى ويهود ومجوس وصابئة يدفعها الرجل فقط (لا النساء ولا الصبيان).

(2) أهل الذمة غير عبده الأوثان من العرب أو المرتدين عن الإسلام، فهؤلاء لا تقبل مـنهم الجزيـة، بـل يخيرون بين الإسلام والقتال.

صلى الله عليه وسلم يفعل أحد هذين الأمرين أحيانا، كان يقتل الأسير أحيانا، ويسترق أحيانا، ففي يوم بدر عقبة بن أبي معيط، وقد أتى به أسيرا، وقتل بني قريضة وقد نزلوا علـى حكـم سعد، وفادى بجماعة من المشركين أساري المسلمين الذين أسروا ببدر، ومن على ثمامة بـن أثال الحنفي بالعتق وهو أسير في يده، واسترق نساء هوازن وذراريهم.. كل هذا جعل أئمـة الفقهاء يختلفون في حكم الأسرى، رغم أن الظاهر من هذه الأربعـة يبـدو متروكـا للأمـام يتصرف في كل حالة. روى رجل من أهل الشام ممن كان يحرس عمر بن عبد العزيز، قال: رأيت عمر رحمه الله قتل أسيرا إلا واحدا من الترك، كان جئ به، وقيل: (يا أمير المؤمنين لو كنت رأيت هذا – يشير إلى أحدهم – وهو يقتل المسلمين لكثر بكاؤك عليهم!) فقـال عمـر: فدونك فاقتله، فقام إليه فقتله.

وأما أهل البلد المفتوح غير المحاربين، فالأمام مخير بين استرقاقهم وتركهم أحـرارا يدفعون الجزية، ولكن عمر – وإليه المرجع في كثير من هذه المسائل – تـرك أهـل سـواد العراق أحرارا، وفرض على كل شخص من الموسرين في العالم ثمانية وأربعـين درهمـا، وغير الموسرين أربعة وعشرين.

وإذا استُرق أو أهل البلد المفتوح وزعت الغنائم فتخُمَّس. ومعنى التخمس أن يعطـى خمسها لليتامى والمساكن وابن السبيل، وأربعة الأخماس تعطـى للغـانمين: للراجـل سـهم، وللفارس سهمان.

ومن هذا ترى أن الفتح الإسلامي كان يستتبع رقا، وهذا الرق هو الذي كان له الأثـر الأكبر في عملية المزج.. والرق كان نظاما شائعا في العالم. وكل ما كانت تختلف فيه الأمـم حسن معاملة الرقيق أو سؤوها، فكان اليهود يسترقون، وقد أمرت الديانـة اليهوديـة بحـسن معاملة الرقيق، وحددت زمن الاسترقاق بسبع سنين يصبح الرقيق بعدها حرا، واسترق اليونان في تاريخ طويل، وقد منح القانون الروماني للمالك الحق في أماته عبده أو استحيائه، وجعلـه مستبدا غير مسئول عن تعرفه في عبده، وكثر الرقيق في عهدهم، حتى ذكر بعض مؤرخيهم: إن الأرقاء في الممالك اليونانية يبلغون في العدد ثلاثة أمثال الأحرار، وأخذت أحوال الأرقـاء تتعدل من حيث المعاملة، ومن حيث القانون من القرن الثاني للمسيح.

وكان العرب في جاهليتهم يغزو بعضهم بعضا، ويـستولون علـى رجـال بعقـبهم ونسائهم فيكونوا أرقاء، وكان لهم أسواق يباع فيها الرقيق، جاء في (أسد الغابة) أن زيد بـن حارثة مولى رسول الله كان في قضاعة وأمه من طيئ، أصابه سباء في الجاهليـة، لأن أمـه خرجت تزور قومها (بني معن) فأغارت عليهم خيل (بني القيم بن حسر) فأخذوا زيدا فقـدموا

به سوق عكاظ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد، وهي وهبتــه لرســول الله فأعتقه.

وفي الحديث عن على ﷺ قال: (خرج عبدان إلى رسول الله ﷺ يوم الحديبيــة قبــل الصلح، فكتب إليه مواليهم يقولون يا محمد والله ما خرجوا إليك رغبة في دينك، وإنما هربــوا من الرق، فقال ناس ردهم إليهم، فغضب ﷺ من ذلك، وأبى أن يردهم.. وكان هؤلاء الأرقــاء في الجاهلية وعلى عهد رسول الله منهم عرب، ومنهم غير ذلك سود وبيض، وكــان هــؤلاء البيض من المماليك التي حول الجزيرة العربية، وكثيرا من الصحابة جرى عليهم الرق كبلال وكان حبشيا، وسلمان كان فارسيا، وصهيب وكان يلقب بالرومي (لأن الروم أسرته من الأيلة ونشأ بالروم.. الخ) وأهدى رسول الله حسان بن ثابت (سيرين) وكانت أمه قبطية فولدت عبــد الرحمن بن حسان.

وقد اتبع نظام الاسترقاق في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، فكان مــن أســر فــي الغزوات يجوز استرقاقه، كالذي في غزوة بني المصطلق.. جاء في ســيرة ابــن عــشام (أن رسول الله ﷺ أصاب منهم – من بنى المصطلق وهم عرب من خزاعة – سببا كثيــرا فــشا قسمه في المسلمين).

ولما انتشر الإسلام لم يعد يقبل من العربي إلا الإسلام أو القتال، فأصبح غير محــل للاسترقاق، حتى لو وقع أسيرا فإما أن يسلم وإما أن يقتل.

ولما كثرت الفتوح كثر الاسترقاق من الأمم المفتوحة كثرة هائلة، ووزع المــسترقون رجالا ونساء وذراري على العرب الفاتحين، حتى يرى المسعودي أن الزبير بن العوام كان له ألف عبد وألف أمه.

وهذا الرقيق يعد مملوكا للسيد كالمتاع، له الحق في بيعه وهبته، وإذا كان أمــة جــاز للسيد أن يستمتع بها.

ولا يقيد الملك بعدد، فيصح أن يكون للرجل عدد كبير من العبيد، كما يصح أن يكون في بيته عدد من الإماء، وإذا ولدت الأمة من سيدها فالولد ابنه وتسمى هي (أم ولــد) وتبقــى ملكا له بعد ولادتها يستمتع بها، ولكن لا يجوز له أن يبيعها أو يهبها، وإذا مات عنهــا فهــي حرة.

وقد أوجب الإسلام حسن معاملة الرقيق، وحبب إلى المالك العتق، وجعله كفارة عــن كثير من الجرائم.

وللمالك أن يعتق عبده أو أمته، أي أن يرد له حريته، ولكن تبقى هناك صلة بين المعتلق والمعتق، وهذه الصلة تسمى (الولاء) ويظل المعتق ينسب إلى من أعتقه، فيقولون زيد بن حارثة مولى رسول الله، أي عتيقه.. وإن كانت أنثى فهي مولاته، والجمع موال. وإذا كان المعتق من قبيلة، فقد ينسبون المولى إلى هذه القبيلة، فيقولون مولى بني هاشم، وأبو مولى ثقيف، وأحيانًا يعدون عن ذلك بقولهم: الهاشمي بالولاء، أو الأموي بالولاء وهكذا.. ويظهر أثر هذه الصلة فيما إذا مات المعتق من غير وارث فإن المعتق يرثه.

وقد كانوا أحيانًا يبيعون الولاء مع بقاء الرق.. وهناك نوع آخر من الولاء ليس سببه العتق، وإنما سببه أن يسلم رجل على يد رجل آخر، ويتعاقد معه فيكون ولاؤه له. وقد يطلق ذلك بمعنى أوسع من ذلك، فكثير من كتب الأدب والتاريخ تطلق هذه الكلمة على كل من دخل الإسلام من غير العرب سواء استرق أو لم يسترق. بل ورد هذا الاستعمال في كتب الفقه أيضا حيث سمى العجم موالي لفتح بلادهم عنوة بأيدي العرب.

هذا هو نظام الولاء من الوجهة القانونية، أما تاريخيًا فيظهر أن الولاء لم يكن له هذا المعنى عند العرب في الجاهلية، وإنما كان يطلق (موالي الرجل) على حلفائه وعلى ورثته من يني عمه وإخوته وسائر عصيته.

هذا النظام من الرق والولاء كان له أكبر الأثر في الحياة العقلية، فكثير من رجال البلاد المفتوحة ونساءهم وزعوا – كأنهم غنائم – على الجيش العربي، فكان لكل جندي تقريبا عبيد وأماء يستخدمهم في حوائجه، يستولد الأماء إن شاء، فنتج من هذا أن البيت العربي دخلت فيه عناصر أخرى فارسية، ورومانية أو سورية أو مصرية أو بربرية، فلم يعد البيت العربي بيتا عربيا، بل بيتا مختلطا، ورب البيت هو العربي، كما أن هؤلاء الأماء كن يلدن أولادا يحملون الدين معا، الدم العربي من جهة الأب، والدم الأجنبي من جهة الأم، وكان عدد هذا النوع كثيرا لكثرة الفتوح التي فتحها المسلمون في عهد عمر ومن بعده، وكثير من هذه البلاد فتحت عنوة، فكان أهلها وغزاتها عرضة للأسر والسبي، حتى أكبر الأسر وأعظمها جاها، ذكر الزمخشري في كتابه (ربيع الأبرار): (أن الصحابة رضي الله عنهم لما أتوا المدينة بسبي فارس في خلافة عمر بن الخطاب كان فيهم ثلاث بنات ليزدجر (ملك الفرس) فباعوا السبايا، وأمر عمر ببيع بنات يازدجرد أيضا، فقال علي بن أبي طالب: إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهم من بناة السوقة، فقال على بن أبي طالب: إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهم من بناة السوقة، فقال: كيف الطريق إلى العمل معهن؟ قال: يقومن، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن، فقومن، فأخذهن على بن أبي طالب، فدفع واحدة لعبد الله بن عمرو، وأخرى لولده حسين، وأخرى لمحمد بن أبي بكر الصديق، فأولد عبد الله ولده سالما،

وأولد الحسين زين العابدين، وأولد محمد ولده القاسم، فهؤلاء الثلاثة بنو خاله وأمهاتهم بنات يازدجرد، ويشك بعض الباحثين في نسبة هؤلاء البنات على يزدجرد، ولكن لم يكن هناك شك في أنهن من خيرة بنات الفرس.. جاء في كتاب الكامل للمبرد: (وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد، حتى نشأ فيهم على بن الحسين، والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله فقاموا أهل المدينة فقها وورعا، فرغب الناس في السراري.

هؤلاء الرقاء والموالى أنتجوا في الجيل الثاني لعهد الفتح عددا عديدا منهم من بعد من سادات التابعين، وخير المسلمين، ومن حملة لواء العلم في الإسلام.

أما بالنسبة لدخول البلاد المفتوحة في الإسلام

فقد دخل في الإسلام كثير من أهل البلاد المفتوحة، وامتزجوا بالعرب كأنهم منهم، جاء في فتوح البلدان للبلاذري: (إن أبرويز كان وجه إلى الديلم فأتى أربعة آلاف وكانوا خدمه وخاصته، ثم كانوا على تلك المنزلة بعده، وشهدوا القادسية مع رستم، فلما قتل وانهزم المجوس، واعتزلوا وقالوا ما نحن كهؤلاء، ولا لنا ملجأ، وأثرنا عندهم غير جميل! والرأي لنا أن ندخل معهم في دينهم، فنعزيهم، فاعتزلوا، فقال سعد: ما لهؤلاء؟ فأتاهم المغيرة بن شعبة فسألهم عن أمرهم، فأخبروه بخبرهم وقالوا ندخل في دينكم، وشهدوا فتح المدائن مع سعد، وشهدوا فتح جلولا، ثم تحولوا فنزلوا الكوفة مع المسلمين).

وقد كان الباعث للناس على الدخول في الإسلام مختلفا، فمنهم من دخل فيه مؤمنا بحسن مبادئه وصدقها، وساعد ذلك بساطة العقيدة الإسلامية وسهولة فهمها.

ومنهم من دخل فيه فرارا من الجزية. لما علم أن من رضى أن يبقى عله دينه تضرب عليه الجزية، فإذا أسلم رفعت عنه، حتى لقد هال بعض الأمراء دخول الناس في الإسلام فرارا من الجزية، وكتب عمال الحجاج إليه: (إن الخراج قد انكسر، وإن أهل الذمة قد اسلموا ولحقوا الأمصار).. فأخذ الحجاج منهم الجزية مع أسلامهم، وجعل قراء البصرة يبكون لما يرون، ومنهم من كان يسلم فرارا مما يشعر من المهانة، فالإسلام هو دين الحكام والولاة ورجال الدولة، وهو الدين الذي يعتز به من انتسب إليه، وغيره من الأديان كان مكروها ممقوتا في الدولة، وإن أبيح لمعتنقيه أن يأتوا بشعائره، كما أن بعض الولاة لم يكن يرعى تعاليم الدين وتسامحه في الذميين، فكان يسومهم سوء العذاب، فاضطروا أن يفروا من دينهم إلى الإسلام.

ثم (الاختلاط في السكنى)

وهذا هو العامل الثالث في الامتزاج.. فبعد الفتح صارت البلاد مسكونة بالفاتحين والمفتوحين جميعا، اشتركوا في الحركة الاجتماعية والاقتصادية.

يقول (ولهوسن):

(.. إن أكثر من نصف سكان الكوفة كانوا من الموالى.. وكان هؤلاء الموالى يحتكرون الحرف والصناعة والتجارة، وكان أكثرهم فرسا في جنسهم وفي لغتهم، جاءوا الكوفة أسرى حرب، ثم دخلوا في الإسلام، ثم اعتقهم مالكوهم العرب، فكانوا موالى لهم، وبذلك صاروا أحرارا، ولكنهم ظلوا في حاجة إلى حماية سادتهم، فهم حاشية العرب وأتباعهم في السلم والحرب، وكذلك سائر البلاد أصبح فيهم العنصر العربي والعنصر الأجنبي ممتزجين تمام الامتزاج، في فارس والشام ومصر والمغرب، حتى جزيرة العرب نفسها لم تعد جزيرة العرب.. بل صارت جزيرة المسلمين جميعا، فقد كانت (المدينة) مقر الخلافة في عهد الفتوح الكبرى – عهد عمر – فكان يقصدها الرسل وذو الحاجات من الأمم الأخرى، ويأتي إليها الأسرى، لأن التعاليم كانت تقضي ألا توزع الغنائم والسبي في البلاد المفتوحة، إنما يؤتى بها إلى مقر الخلافة ثم توزع.. فامتلأت المدينة وما حولها بالعناصر غير العربية، وكانت مكيدة قتل عمر مدبرة من بعض سكانها من الفرس، ومنفذها أبو لؤلؤة الفارسي.

كما كانت مكة والمدينة مقصد الحجاج والزائرين من الداخلين في الإسلام من بقاع الأرض، وهكذا جعل جزيرة العرب شائعة بين المسلمين، تختلط فيها العناصر المختلفة، وشأنها في ذلك شأن الممالك الأخرى المفتوحة، ليس من فارق إلا أن العنصر العربي في جزيرة العرب أكثر، والعنصر الأجنبي في الممالك أعظم.

كل هذه العوامل كان لها أثرها في الامتزاج، فالعادات الفارسية والرومانية امتزجت بالعادات العربية، وقانون الفرس والقانوني الروماني امتزجا بالأحكام التي أوضحها القرن والسنة، وحكم الفرس وفلسفة الروم امتزجت بحكم العرب، ونمط الحكم الفارسي ونمط الحكم الروماني امتزجا بنمط الحكم العربي. وبالإجمال كل مرافق الحياة والنظم السياسية والاجتماعية والطبائع العقلية تأثرت كبيرا بهذا الامتزاج.

وإذا كانت هذه الأمم المفتوحة أرقى من العرب مدنية وحضارة وأقوى نظما اجتماعية. كان من الطبيعي أن تسود مدينتهم وحضارتهم ونظمهم.. وإذا كان العرب هم العنصر القوي الفاتح عدلوا هذه النظم بما يتفق وعقليتهم، فسادت في البلاد المفتوحة النظم

التي كانت متبعة من قبل الفتح، كنظام الدواوين ونحوه، واقر على ما كان عليه، حتى لغة الدواوين نفسها ظلت اللغة الأصلية إلى عهد عبد الله بن مروان.

دخل كثير من هؤلاء المغلوبين في الإسلام، ولهم حكمة وأمثال وشعر وأدب، وبعضهم لهم علوم مدونة وكتب مطولة، قد مرنوا على تدوين العلوم والبحث العلمي، فلما استقروا في الإسلام واطمأنوا إليه أخذوا هم وأبناؤهم يطبقون منهجهم العلمي الذي ألفوه وألفه أبائهم.

حتى العقيدة الإسلامية لم تخل من تأثر بهذا الامتزاج، باعتبار أن الفارسي أو السوري النصراني أو الروماني أو القبطي إذا دخل في الإسلام فلازالت عنده كل العقائد التي ورثها من أبائه وأجداده قرونا، كما أن فهمه للإسلام لن يرقى إلى ما يريده الإسلام من تعاليمه، فلفارس صورة للإله غير صورة النصراني الروماني، وهما غير صورة النصراني المصري.. وللألفاظ المستعملة في الديانات كجهنم والجنة وإبليس والملائكة والآخرة والنبي ونحو ذلك من معان عند كل من هؤلاء تخالف المعاني التي يتصورها الآخر، وبالتالي فإن هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام من الأمم الأخرى لم يلموا به كما ألم العرب، حتى المخلصون منهم في اعتناقهم الإسلام، ففهم كل قوم مشوبا بكثير من تقاليدهم الدينية القديمة، وفهموا ألفاظه قريبة من الألفاظ التي كانت تستعمل في دياناتهم، والشواهد على ذلك كثيرة.. وقد روى الأزدي في كتابه (فتوح الشام) من أن رجلا من مسلمي الشام تصالح مع آخر على أن يرعى له غنمه في نظير أن يهبه زوجته تبيت عنده، وقد دعاهما عمر بن الخطاب فأقرا بأن ليس عندهما علم بحرمة ذلك، وكالذي ذكره ابن عبد ربه في (العقد الفريد) من تشدد الموالى في الدين تشددا لا يعرفه عرب البادية.

وقد ظهر تأثير هؤلاء القوم في أوائل القرن الأول الهجري بظهور الذاهب المختلفة، ولعل ذلك أخاف عمر بن الخطاب عند الفتح، وقد روى ضيفة الدينوري في كتابه (الأخبار الطول): (أن المسلمون أصابوا يوم جلولاء غنيمة لم يغنموا مثلها قط، وسبوا سبيا كثيرا من بنات أحرار فارس.. فذكروا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول: اللهم أني أعوذ بك من أولا سبايا الجلوليات، فأدرك أبناؤهن قتال صفين).. وهكذا استعاذ عمر بالله من سبايا الجلوليات، ومن كل الموالي ونسلهم، فقد كانت لهم عصبية سياسية غير العصبية العربية وضدها. ولها تقاليد دينية لابد أن ينزعوا إليها، ويخالفوا بهذه النزعة الإسلام العربي في بساطته.

لقد كان الامتزاج قويا شديدا، وكانت الموالي وأشباههم لهم أثر في كل مرافق الحياة، وإنه كانت هناك حروب في المسائل الاجتماعية، كالحروب البدنية بين الجنود، تلك التي لم

يعن المؤرخون بتفصيلها وهي أولى بالعناية.. فقد كانت حرب بين الإسلام والديانات الأخرى، وكانت حرب بين اللغة العربية وأمال الأمم الأخرى، وكانت حرب بين النظم الاجتماعية العربية البسيطة، وبين النظم الاجتماعية الفارسية والرومية.

ولئن كانت الحروب البدنية قد انتهت بفتوح أبى بكر وعمر وعثمان، فإن الحروب الأخرى ظلت قائمة بعد ذلك طويلا.. وأصبحت المملكة الإسلامية مجالا فسيحا لهذه الحروب تتنازع فيها الآمال.. فالفرس يحنون إلى مملكتهم القديمة.. ويعتقدون أنها أرقى من العرب، ولهم نظام خاص، وقانون فارسي كان يسود المملكة الفارسية، وإسلام يستمد منه قانون يوافقهما أحيانا، ويخالفهما أحيانا، وفرس مجوس ظلوا مجوسا، وفرس أسلموا.

والروم كذلك، وكان لهم نظام مغاير، وقانون روماني كان يسود المستعمرات الرومانية، وكان ثمة روم نصارى، وروم أسلموا، وكذلك كان هناك مصريون نصارى ومصريون أسلموا، ويهود في هذه البلاد وتلك (ظلوا يهودا) ويهود أسلموا، واجتمعت وامتزجت اللغة العربية والفارسية والقبطية واليونانية والعبرية.. كل هذه النزعات واللهجات كانت في حروب مستمرة، وكانت المملكة الإسلامية هي موطن القتال، ومع هذا لم يصلنا من وقائعها إلا النزر اليسير، فلم تعد الأمة الإسلامية أمة عربية، لغتها واحد، ودينها واحد، وخيالها واحد، كما كان الشأن في عهد الرسول ﷺ، بل كانت الأمة الإسلامية جملة أسم، وجملة نزعات، وجملة لغات تحارب، وكانت الحرب سجالا، فقد ينتصر الفرس، وقد ينتصر العرب، وقد ينتصر الروم.

والحق أن العرب وإن اتخذوا في النظم السياسية والاجتماعية، وما إلها من فلسفة وعلوم ونحو ذلك فقد انتصروا في شيئين عظيمين: اللغة والدين، فأما لغتهم فقد سادت هذه الممالك جميعها، وانهزمت اللغات الأصلية للبلاد، وصارت هي لغة السياسة وهي لغة العلم.. وظل هذا الانتصار حليف العرب في أكثر هذه الممالك إلى اليوم.. وكذلك الدين فقد ساد هذه الإفطار واعتنقوه، وقل من بقى من سكان هذه البلاد على دينه الأصلي.

ومع انتصار هذين العنصرين – اللغة والدين – فقد تأثر كل منهما أثناء هذه الحروب، فاللغة لم تعد سليقة وفشا فيها اللحن، حتى احتاجت إلى قوانين النحو فقال: لئن أصلحتموه انكم لأول من أفسده).. قال أبو عبيدة: (ليته سمع لحن صفوان وخافقان ومومل ابن خاقان).

وكذلك غلبت على اللغة كلمات أعجمية، وكذلك في الدين فهو وإن انتصر فقد تأثر، فتفرق المسلمون فرقا، ووضعت المذاهب المختلفة، وشرح القرآن نفسه بما ورد في الكتب

الأخرى من أقاصيص بدء الخليقة وما إلى ذلك، وظلت هذه الفرق– وحتى الآن – تتجــادل بالقول أحيانا، وبالسيف أحيانا.

الفصل الأول

الملامح الجغرافية لمواقع المآذن الإسلامية في العالم:

اختلف الخبراء في تعيين حدود العالم الإسلامي.. رغم وجود مناطق إسلامية معروفة تشغل قلب العالم القديم ومعظم جزر جنوب شرق آسيا، ويرجع السبب في ذلك أن الرقعة التي يشغلها المسلمون في العالم لا تشكل إقليما نستطيع أن نضع له حدوده الفاصلة التي تميزه عن غيره من الأقاليم.

وتشتمل هذه المساحة الهائلة على عدد كبير من الدول والوحدات السياسية يدين معظم سكانها أو بعضها بالدين الإسلامي، ومن ثم يشكل المسلمون أغلبية أو أقلية تتفاوت كبرا وصغرا من مجموع سكان هذه الدول والوحدات السياسية.

تتكون غالبية أراضي العالم الإسلامي على هيئة كتلة متصلة في النصف الشمالي من أفريقيا والربع الجنوبي من آسيا.. وهي بذلك تمتد من خط طول ٥١٨ غربا عند الساحل الغربي لشمال أفريقيا حتى خط طول ٥٩٠ شرقا حيث إقليم سينكيانج الصيني وإقليم كشمير وباكستان.. أما عن امتداد رقعة العالم الإسلامي بالنسبة لخطوط العرض فهي تمتد من خط الاستواء عند الصومال حتى عرض ٥٥٥ شمالا عند الحدود الشمالية لجمهورية كازاخستان الإسلامية في وسط أسيا.

والجدير بالذكر أن مساحة هذه الكتلة الضخمة تبلغ ٢٨,٥مليون كيلو متر مربع، أي نحو ٣١% من مساحة العالم.. وهي تشمل ما يزيد عن ٥٤% من عدد المسلمين في العالم.

ويلاحظ في توزيع المسلمين أنه لا يأخذ نمطا واحدا، وإنما تتركز المجموعات الكبرى منهم في جهات معينة أبرزها باكستان، وعلى الأطراف الشمالية والجنوبية من هذا النطاق.

وهناك كتلة إسلامية أخرى تتمثل في جزر وأشباه جزر جنوب شرقي آسيا. وهي تشتمل بصفة أساسية على دولتي أندونسيا وماليزيا، إلا أنها أقل كثيرا من الكتلة السابقة سواء من حيث المساحة التي تصل إلى ١,٨ مليون كيلو متر مربع، أو من حيث السكان حيث يحتل عدد المسلمين نحو ٣% من عدد سكان العالم، وحوالي ١٧,٥ من عدد المسلمين في العالم.. وتنحصر هذه الكتلة من خطي طول ٥٩٩ و ٥١٤٥ شرقا، وبين خطي عرض ٥١٥ جنوب خط الاستواء ٥٥٨٢ شماله.

على أن هناك مساحات صغيرة بين الكتلتين الرئيسيتين سالفتي الذكر، تسود فيها غالبية مسلمة توجد في داخل أقطار غير إسلامية، أهمها في الهند والصين؛ حيث قدر عدد

المسلمين في الأولى بأكثر من ١٠٠مليون مسلم، أما في خارج قارتي آسيا وأفريقيا فالإسلام موجود على هيئة أقليات، أهمها في دول البلقان ودول شرق أوربا وغربها.

كان من نتيجة هذا الامتداد للعالم الإسلامي أن أصبح مشتملا على عدد كبير من الأقاليم المناخية والنباتية: من الإقليم الاستوائي إلى الإقليم المداري والإقليم الصحراوي وإقليم البحر المتوسط حتى الإقليم المعتدل البارد.. ويعني ذلك تنوع وتعدد الثروة النباتية والحيوانية والزراعة في أنحاء العالم الإسلامي. ولعل ما يبرز لنا عظم هذه المساحة إنها تقتر من مساحة الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة معا (٢١,٧ مليون كم^{٢}).. أو ما يقرب من مساحة قارة إفريقيا (٢٠,٢ مليون كم^{٢}).

أهمية مواقع المآذن الإسلامية في العالم:

يشغل العالم الإسلامي موقعا إستراتيجيا ممتازا بين مناطق العالم الأخرى نتيجة لامتداده فوق مساحة شاسعة تتعدد فيها الجبهات وتتنوع الظروف الجغرافيا.. فمعظم دول هذا العالم تطل على عدد كبير من المسطحات المائية المفتوحة تمثل بحق أهم طرق المواصلات البحرية في العالم.

فمن جهة الغرب يطل العالم الإسلامي على المحيط الأطلسي الشمالي الذي يمر به أكثر من ٥٢% من تجارة العالم بواسطة سفن نقل البضائع أو ناقلات البترول.

كما يطل هذا العالم في جزئه الشمالي الغربي على البحر الأبيض المتوسط الذي يمتد على هيئة ذراع خارج من شرق المحيط الأطلسي، ولهذا البحر أهميته البالغة في حركة النقل والمواصلات العالمية، بل كان في الواقع أولى المدارس الملاحية في العالم.. وما يميزه كذلك كونه جزء رئيسي من أقصر الطرق الملاحية في العالم التي تربط الشرق بالغرب أو المحيطين الأطلسي والهندي، ومما يبرز أهمية الدول الإسلامية في هذا البحر تحكمها في مداخله.. ويسيطر الغرب على الساحل الجنوبي لمضيق جبل طارق. كما تتحكم مصر في المدخل الجنوبي لهذا البحر (قناة السويس)، وتسيطر تركيا كذلك على مضيق البسفور والدردنيل اللذين يربطان البحر المتوسط بالبحر الأسود، والجدير بالذكر أن البحر الأسود يعد أهم طريق لاتصال روسيا بالبحار الدفيئة.

أما من جهة الجنوب فيطل العالم الإسلامي بجبهة طويلة على المحيط الهندي، وكما هو الحال بالنسبة للبحر الأبيض يتحكم المسلمون في أهم مداخل هذا المحيط، فهناك مضيق باب المندب الذي يقع تحت سيطرة اليمن من جهة والصومال من جهة أخرى.. أما من جهة

الشرق فيعتبر مضيق (ملقا) هو المدخل الرئيسي للمحيط الهندي وهو يقع في أراض إسلامية حيث تشرف عليه ماليزيا من ناحية واندونيسيا من ناحية أخرى.

كذلك يمتد من المحيط الهندي ذراعان مائيان هامان جهة الشمال الغربي وهما البحر الأحمر والخليج العربي اللذان يتعمقان في أراض إسلامية صرفة. فالبحر الأحمر عبارة عن بحيرة إسلامية لأن سواحله الشرقية هي سواحل إسلامية لليمن والسعودية والأردن، كما أن سواحله الغربية تتبع مصر والسودان واريتريا والصومال. لذلك يعتبر سواحل الخليج العربي بأكملها سواحل لأقطار إسلامية.

أما أقصى شرق العالم الإسلامي، فتطل سواحل بعض الجزر الإسلامية التابعة لأندونيسيا.

وقد كان لموقع العالم الإسلامي أهمية بالغة في التطور الحضاري للعالم، نتج عن ذلك طريق الاحتكاك الحضاري بين الشعوب الإسلامية وغيرها من الشعوب الأخرى سواء بواسطة طرق التجارة البرية أو البحرية منذ مئات السنين. وقد كان طريق الحرير منذ أقدم العصور أحد هذه الطرق البرية الهامة حيث كان يمتد من شرق البحر المتوسط حتى بلاد الصين.. ونشأت على طول هذا الطريق مراكز حضارية إسلامية هامة مثل طشقند وسمرقند وبخارى.

ومن هنا بدأت إسهامات الإسلام المتعددة في الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية ومنها:

إشعاعاته العلمية:

لم يكن اهتمام الإسلام بالعلم وحثه عليه محضر توصية كلامية ذهبت أدراج الرياح، وإنما صار هذا الاهتمام واقعا حيا مشهودا وملموسًا وبعيد الأثر، انعكس في المقابلة اللفظية بين "الجاهلية" و "الإسلام".. هذا التعبير البالغ الدلالة هو مقابلة بين "الجهالة" وبين "العلم والنور والمعرفة"، ما قبل الإسلام كان جهالة وجاهلية، فأتى الإسلام فحول الجهالة علما ونورا ومعرفة.. حسبك أن تراجع الحياة العقلية والفكرية والأدبية والعلمية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، وحالها بعد الإسلام.. أن تراجع هذه الحياة العقلية والفكرية والأدبية والعملية في أي قطر امتدت إليه دعوة الإسلام، قبل وبعد انتشاره هذه الدعوة، حتى في الأقطار ذات الحضارات القديمة السابقة، كحضارة الفرس في فارس "إيران".. أو حضارة البابليين والآشوريين في العراق، أو الحضارة الفرعونية في مصر، أو الحضارات الغابرة في اليمن والشام والمغرب العربي.. سترى بغير عناء أن الإسلام أحدث طفرة هائلة، ليس فقط في أمور

ألإيمان والعقيدة، وإنما في الحياة العقلية والفكرية والأدبية والعلميـــة.. لـــم يـــشذ عـــن هـــذه الملحوظة قطر من الأقطار التي وصلتها دعوة الإسلام.

بزغ في الحياة العقلية والأدبية والعلمية والفكرية نجوم قـــدموا للحـــضارة الإنـــسانية مؤلفات فذة..

* **(جابر بن حيان)** في الكيميا.. قال عنه برتيلو: (أن لجابر حيان فـــي الكيمـــا مـــا لأرسطو في المنطق).

(الخوارزمي) واضع الجبر وعلم الحساب.

(الكندي) الفيلسوف. وصفه العالم الشهير (كاردانوا) بأنه من الأثنى عشر عبقريا الذين هم من الطراز الأول في الذكاء أو على حد قول ابن النديم (فأفضل دهره وواحد عصره فـــي معرفة العلوم بأسرها، وفيلسوف العرب، كان عالما بالطب والفلـــسفة والحـــساب والهندســـة والمنطق وتزليف اللحون، وطبائع الأعداد)، أو على حد تعبير (باكون Bacon): (أنه معا بن الهيثم وفي الصف الأول مع بطليموس).

(الجاحظ): عبقري الأدب العربي الذي قال فيه ابن العميد (إن كتبه تعلم العقـــل أولاً، الأدب ثانيا).

(ثابت بن قرة) لإيجاد حساب التكامل والتفاضل.

(التباني) صاحب النظريات المهمة والبحوث المبتكرة في الفلـــك والجبـــر وحـــساب المثلثات، وأحد أشهر عشرين فلكيا في العالم كله.

(أبو بكر الرازي) حجة الطب الذي جمع بين الطب والكيمياء، وخصصت له جامعـــة (برنستون) في الولايات المتحدة، أضخم ناحية في أجمل أبنيتها كما تره كأحد أعلام الحضارة الخالدين.

(الفارابي) المعلم الثاني في الفلسفة بعد أرسطو، وصاحب المؤلفات التي ناهزت المائة في علوم الفلسفة والنجوم والمنطق والعدد والهندسة والموسيقى، وصاحب كتـــاب لأراء أهـــل المدينة الفاضلة، وكتاب الموسيقى الكبير.

(البوزجاني) صاحب الباع الكبير في تقدم العلوم الرياضية والفلكية.

(ابن يونس) المصري الذي سبق جاليليو في اختراع بندول الساعة، من مشاهير الرياضيين والفلكيين.

(الزخاوي) الذي بقى كتابه في الجراحة العمدة المعتمد عند جراحي أوروبا حتى نهاية القرن السابع عشر.

(ابن سينا) الفيلسوف العالم الطبيب الفلكي الذي قال عنه (سارطون) إنه أعظم علماء الإسلام، ومن أشهر مشاهير العلماء العالميين، صاحب موسوعة القانون في الطب، والمؤلفات العريضة في الفلسفة والطبيعيات والإلهيات والنفس والمنطق والرياضيات والأخلاق، سحرت عبقريته علماء الشرق والغرب، ولقبه بعضهم بأرسطو الإسلام وأبو قراط، وجعله (دانتي) بين أبقراط وجالينوس.

(ابن الهيثم) صاحب الآثار الخالدة في الطبيعة والرياضيات، وصاحب الفضل الأول على (علم البصريات).

(البيروني) الذي قال عنه العالم الألماني الشهير (سخاو) إنه: (أعظم عقلية عرفها التاريخ، صاحب البحوث والمبتكرات النادرة في الرياضيات والفلسفة والتاريخ).

(ابن حزم) الأندلسي الوزير صاحب المواهب والعبقريات في المعارف والعلوم والفلسفة والشعر والأدب والتاريخ.

(الغزالي) حجة الإسلام وحسبه هذا اللقب تعبيرا عن مكانته وما أعطاه.

(ابن ماجه) الفيلسوف الأندلسي المبرز، صاحب البحوث المشهودة في الطب والفلك والرياضيات.

(الشريف الإدريسي) أشهر جغرافي العرب والإسلام، وصاحب أول نموذج للكرة الأرضية، وأقرب خريطة للعالم، وأسبق الخرائط لمنابع النيل – دون طائرات ولا مناطيد – وضع ذلك كله ووضع كتابه الضافي في الجغرافيا (نزعة المشتاق في اختراق الآفاق)، الذي بقى المصدر المعتمد لعلماء أوروبا لأكثر من ثلاثة قرون.

(ابن طفيل) الفيلسوف الأندلسي صاحب (حي بن يقظان) و (ابن رشد) الذي وصفه (بيكون) بأنه الفيلسوف المتين المتعمق الذي صحح كثيرا من أغلاط الفكر الإنساني، وأضاف إلى ثمرات العقول ثروة قيمة لا يستغنى عنها.

(الخازن) صاحب كتاب (ميزان الحكمة) الذي وصفه (سارطون) بأنه من أجل الكتب العلمية وأروع ما أنتجته القريحة البشرية في القرون الوسطى.

(ابن البيطار) أعظم عالم نباتي ظهر في القرون الوسطى.

(نصر الدين الطوس) أحد الأفذاذ، وصاحب الباع والمؤلفات القيمة في الفلك والرياضيات.

(ابن خلدون) صاحب التاريخ الكبير، والمقدمة الشهيرة له، وواضع علم الاجتماع.

هذا غير أسماء ضخمة هائلة في الأدب والفقه والعلوم والتاريخ والشعر (ابن إسحق، والوافدي، وابن سعد، والمسعودي، والبلاذري، وحنين بن اسحق، وابن مأسويه، واليهودي موسى بن ميمون، والصفدي، وداود الأنطاكي، وابن حوقل، والمقريزي، وابن تغرى بردي، وابن إياس، وابن بطوطة، والقفطي، وابن الخطيب، ومالك، وأبو حنيفة، والشافعي، وابن حنبل، وابن النديم، والشهرستاني، والسهروردي، والشوكاني، والبغدادي، والمعري، والمبرد، وابن عساكر، والطبري، وابن مسكوية، والقرطبي، والألوسي، وابن المفقع، وابن كثير، والبلاقلاني، وإسحاق بن سليمان الإسرائيلي، وابن الأثير، والجبرتي، وياقوت الحموي، وأبو حيان التوحيدي، والمراكشي، والمقري صاحب نفح الطبيب، والقلقشندي، وابن تيميه، وعبد الجبار، والزركشي، وابن خلكان، والخليل، والمتنبي، وسيبويه، والأصمعي، وأبو خلال العسكري، وابن هشام، وابن حجر العسقلاني، وابن عبد ربه، وأبو علي القالي صاحب الأمالي، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وأبو دواد، والنسائي، والزمخشري، والنسفي، والبيضاوي، وابن رشيق، والاصطخري، والسيوطي، وشمس الدين الضهبي، وابن عربي، وحاجة خليفة، ومحمد بن عبد البر الأندلسي، والثعالبي، وعيسى المسيحي، والشيباني، وابن القيم الجوزية، ولآبي، والأصبهاني). هؤلاء النجوم ملأوا العالم الإسلامي على اتساعه.. في مصر والعراق والشام وآسيا وأفريقيا والأندلس.

هؤلاء الأعلام وغيرهم كثير لا يتسع المقام لمجرد ذكر أسمائهم، نهضوا بحضارة هائلة شملت جميع الأقطار التي دخلها الإسلام في شبه الجزيرة العربية، وفي الشام والعراق وفارس ومصر والمغرب العربي والهند وهضبة الأناضول والأندلس، وعلى امتداد الوطن الإسلامي في آسيا وأفريقيا وعبر البحر إلى الأندلس في أوروبا، كما ملأوا الحياة الفكرية والعلمية والعقلية والأدبية والطبية والفلكية والفلسفية والموسيقية والجغرافية وعلوم الكتاب والفقه والتاريخ وفنون الأدب، ملئوها فنونا وتصانيف وكتبا لم تترك شاردة ولا واردة إلا اقتحمتها وبأستاذية وجدية وتمكن وإخلاص عميق، حسبك أن تتصفح موسوعات أحمد أمين

"فجر وضحى وظهر الإسلام"، ومصطفى صادق الرافعي "تاريخ آداب اللغة العربي"/ أو "عالم الإسلام" للدكتور حين مؤنس، وموسوعات جورجي زيدان "تاريخ آداب اللغة العربية وتـاريخ التمدن الإسلامي"، وموسوعة الدكتور حسن إبـراهيم حـسن "تـاريخ ألإسـلام الـسياسي والاجتماعي" و "تاريخ الحكماء" للقفطي، وفهرست "ابن الندمي" وحاجي خليفة و "تاريخ الأدب العربي" للمستشرق "كارل بروكلمان" ودائرتي المعارف الإسلامية والبريطانية وغيرها، لترى رأي العين أن الإسلام باحتفائه بالعقل والعلم قد دفع الأقطار التي امتدت إليها دعوتـه ودفـع الإنسانية من ورائها إلى نهضة وحضارة هائلة متميزة ظلت نورا وضاء للبـشرية ومقدمـة أساسية للحضارة العالمية التي نراها اليوم.

الكتابة عن الحضارة الإسلامية واستقصاء إنتاجها وأعلامها تحتاج إلى مجلداته، وإنما أردت فقط أن ألفت الأنظار إليها، ولا أدري ما الذي يقعد خطاب الدعوة الديني عن تقديم هذه الحضارة إلى شبابنا وإلى العالم؟! إن الدين الذي يقيم هذه الحضارة ليس ولا يمكن أن يكـون دين خنجر وقنبلة ومدفع! الدين الذي تنمو وتزدهر في رحابه هذه الحضارة دين يورى بمبادئ وقيم سامية، ويورى بفهم عميق اعتنقه أبناؤه لجوهر هذا الدين الـذي أراده الله تعـالى دينـا للعاملين، واتخذ من العقل والعلم سبيلا لعمار الحياة لا لتخريبها، جاء الإسلام فقـضى علـى الكهانة وفتح الباب للطب الطبيعي على مصراعيه لأنه أبطل المداواة بالسحر والشعوذة، وفتح الباب للعلم والتعلم واتخاذ الأسباب، فنبغ في رحابه أطباء أفذاذ: ابـن الهيـثم وابـن النفـيس والزهاوي وغيرهم.. في عهد المقتدر بالله العباسي، دعى إلى الامتحان في بغداد نحو تسعمائة طبيب، وهم غير الأساتذة الثقات الذي تجاوزوا مرتبـة الامتحـان، قـدم علمـاء الحـضارة الإسلامية أنفس المؤلفات والموسوعات الطبية التي عاشت عليها أوروبا قرونا.. "القانون" لابن سينا و "الحاوي" للرازي، وكتب ابن الهيثم في البصريات، ونظريات الزهراوي في الجراحة، واقترنت بحوثهم في الطب ببحوثهم في الكيمياء الحديثة، فلم يعرف العلم شيئًا عن "القلويـات" المعروفة في مصطلحات الكيمياء باسمها العربي Al-Kali، ولم يظهر وصف مـاء الفـضة الحامض المستخدم في التجارب الكيميائية، إلا من كتب جابر بن حيان صاحب الفضل أيـضا فيما عرفه الأوروبيون عن ملح النوشادر وماء الذهب والبوتاس وزيت الزاج وبعض السموم، وكتب الرازي التي تلقى الأوروبيون منها تقسيم المواد الكيميائيـة إلـى نباتيـة وحيويانيـة ومعدنية، وأدق تقسيمات المواد المعدنية، والبيروني الذي كان يهتدى إلى قـانون الجاذبيـة، ولكن أراء مهدت لنيوتن سبيل الاهتداء إليه جاء في كتاب "الحـضارة الأوروبيـة" للأسـتاذة جيمس وستفال طوسون، وفرانكلين شارلز بام وفان نوستراند: "في خلال قـرنين نقـل إلـى

العربية كل ما خلفه الإغريق من التراث العلمي على التقريب، وأصبحت بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة مراكز لامعة لدراسة العلم وتلقينه".

الإسلام دعوة "عالمية" ليس فقط لأنه قدم للعالم هذه الحضارة، وإنما أيضا لأنه يتعايش مع كل الأديان والحضارات.. تعايش سلام وتعايش حضارة.. وفي حضارة الإسلام عاش علماء وأطباء ومؤرخون.. ولم تغلق الحضارة الإسلامية بابها قط قبل عالم ولا عطاء نفع البشرية.. فمنهم من اعتنق الإسلام، ومنهم من بقى على دينه.. فلم تغلق الحضارة الإسلامية في وجهه الأبواب.. كان الإسلام هو الذي قضى على طب الكهانة والخرافة والتنجيم والسحر والشعوذة، وفتح الباب على مصراعيه للطب الطبيعي.. دون اشتراط جواز مرور بانتماء ديني أو عرقي.. ففي حجة الوداع، أمر النبي عليه السلام – الحارث بن كلده – وكان على غير دين الإسلام – بأن يعالج سعد بن أبي وقصا، وقال له: "عالج سعدا مما به".. وذكر القرآن الكريم لقمان الحكيم فقال: "ولقد أتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله".. (لقمان/١٢).. وكثر اشتغال المسيحيين بالطب في ظل الدولة الإسلامية، ونبغ الأطباء فيها بين نصارى الشرق في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة الغربية تحرم صناعة الطب لأن المرض عقاب من الله لا ينبغي للإنسان أن يصرفه عمن استحقه، وظل الطب محجورا عليه في الغرب بهذه الحجة إلى ما بعد انقضاء العهد المسمى بعهد الإيمان في مستهل القرن الثاني عشر للميلاد إبان الحضارة الأندلسية والإسلامية.. وفي أخبار الحكماء للقفطي من اشتهروا ومن لم يشتهروا من الفلاسفة والحكماء في صدر الإسلام، منهم المسلم ومنهم غير المسلم.. بل برزت أسماء لعلماء من الغرباء عن السلالة العربية، ومن موسوعات الطب الإسلامية مالا نظير له في الضخامة وعمق البحث على قدر ما كان متاحا في زمانها.. ومنها ما ترجم إلى اللاتينية فنقل علم الطب في أوروبا نقلة هائلة لا ينكرها أحد. ترجمت موسوعة كتاب القانون في الطب لابن سينما، و"الحاوي" للرازي وهو أكبر من كتاب ابن سينا وأوسع منه مادة وموضوعا وترجمت كتب ابن الهيثم في البصريات، وكان ابن يونس المصري هو الذي اخترع "الرقاص" في القرن التاسع الميلادي، وتوالى من بعده ضبط حركاته وانتظام ذبذباته.. وترجع معظم الأقوال تاريخ "الإبرة المغناطيسية" إلى ملاحي الدولة الإسلامية مسلمين وغير مسلمين.. واشتهر في المشرق الإسلامي وجغرافيون عظماء أضافوا إلى العلم أحسن التحقيقات عن طريق الأرصاد الفلكية ومشاهد الرحلات وتمحيص الروايات منهم البيروني وابن بطوطة وابن جبير.. لعل أعظمهم الشريف الإدريسي صاحب أول خريطة للعالم قبل أن تتوافر الطائرات والمناطيد ووسائل الرصد والقياس الحديثة، وهو الذي سبق – على غير ما يعرف الكثيرون. إلى بيان الحقيقة عن منابع النيل في خرائطه بمتحف سان مارتين الفرنسي ترسم النيل أتيا من بحيرات إلى

جنوب خط الاستواء.. وهذه الحضارة الإسلامية الحية فتحت كنوزها وفرصها للجميع، وعم فضلها الجميع بغير تمييز لجنس أو دين، ولم يتح لليهود – رغم غلظة رقابهم وحرصهم بفكرة "الجيتو" على التمايز وعدم الانخراط في النسيج العام – لم يتح لهم في حضارة من الحضارات ما أتيح لهم في ظل الحضارة الإسلامية.. وكان موسى بن ميمون – اليهودي – من أشهر الأطباء الذين لمع نجمهم في الأندلس، وكان موسى قطاوي باشا – اليهودي– وزيرا للمالية في مصر في القرن الماضي.. وفي عصر الخلافة الفاطمية استوزر العزيز بالله الفاطمي (٩٧٥ –٩٩٦م) واستتاب في الشام رجلا يهوديا يدعى منشا بن إبراهيم. صحيح أنه مال وظلم وأثار السخط، ومع ذلك تبقى دلالة استخدامه آية على "عالمية" الحضارة الإسلامية واتساعها وسماحتها برغم التاريخ الأسود لليهود مع كل الحضارات بما فيها الحضارة الإسلامية!!

لقد تناول الأوروبيون مشعل العلم من يد الحضارة الإسلامية فاستضاءوا به بعد ظلمة، وبلغوا بفضله ما بلغوه من هذا الضياء العميم الذي تتباهي به الآن الحضارة الغربية.. لقد بقى أثر الحضارة الإسلامية شاهدا على ما قدمته للغرب في آلاف المصطلحات المنحوتة من ألفاظ عربية.. في اللغات الأوروبية.. في الملاحة مثل ألفاظ Eelouque من الفلك، وAmiral من أمير البحر، و Arsenal، من دار الصناعة، وAvala من كلمة حوالة.. وفي علم الفلك، مثل ألفاظ Altaref من الطرف، وCurso من كرسي الجوزاء وCaph من الكف، وArkab من العرقوب.. أما في الأسبانية فبلغت الألفاظ العربية في قاموسيها ما يحصى بالمئات.. ناهيك عن أثر الموسوعات الطبية التي ترجمت إلى اللغات اللاتينية، ورسالة الغفران للمعري في الكوميديا الإلهية، وألف ليلة في حكاية "بوكاشيو".. "الصاحات العشرة".. وسرفانتس صاحب دون كيشوت الذي عاش سنوات في الجزائر ونضج أسلوبه بما تلقاه من عبارات وأمثال عربية، وأثر "حي بن يقظان" لابن طفيل إلى غير ذلك مما لا يتسع المجال لاستقصائه.

أمامي الآن كتاب "العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي".. تأليف العلامة الإيطالي الدوميلي، ونقله على العربية الأستاذان الدكتور عبد الحليم النجار والدكتور محمد يوسف موسى.. وقام بمراجعته عن الأصل الفرنسي والتقديم له الدكتور حسين فوز أحد أعلام التنوير الكبار.. في هذا الكتاب الضافي الذي قدمته الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية سنة ١٩٦٢، ويا ليتها تعيد طبعه أو يتولى ذلك مشروع مكتبة الأسرة، ينوه الدكتور حسين فوزي في تقديمه إلى أن تسميه الكتاب بالعلم العربي – وهي ليست دقيقة على الإطلاق – لا تحجب أن الكتاب يتناول العلم الذي ازدهر من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر في البلاد التي سادها الإسلام، وأن عدم تسمية ذلك بالعلم الإسلامي مردة إلى أنه ساهم بقسط من إنضاج ذلك العلم كثير من المسيحيين والزرادشتيين (المجوس) والوثنيين.. وعندي أن هذه النقطة بالذات

هي الأدعى للالتزام بالتسمية الصحيحة "العلم الإسلامي".. لأن التسامح الإسلامي الذي أعطى هذه المساحة لغير المسلمين في المساهمة في الحضارة الإسلامية هو أحد أبرز عناصر ومقومات هذه الحضارة والدين الإسلامي نفسه، وأكثره دلالة على أنه دين عالمي.. تعايش ويتعايش مع جميع الأديان والحضارات.

هذا الكتاب جامع لتاريخ هذه العلوم التي توهجت في ظل الحضارة الإسلامية، وسرد مستفيض لما ألف فيها بالعربية والفارسية والسريانية.. ونظرة على فهرست الكتاب – فيما قال الدكتور حسين فوزي في تقديمه – كفيلة ببيان أهمية هذا الكتاب كسجل كامل لهذه العلوم.. نأتها، وأعلامها، والأصول التي ترتد إليها، ورجال الدول الذين شجعوا عليها، وحركة الترجمة من وإلى في عصر هذه النهضة الإسلامية الكبرى، وحركة نقل علومها إلى اللغات الأوروبية من أول فجر "الرينسانس" حتى الآن.

لهذا كان لابد من إثارة أشواق المسلمين، وضمائر الآخرين، للانفتاح على هذه الحضارة الإسلامية، والإلمام بما أنتجته وما قدمته.. حتى يعرف من قد لا يعرف من المسلمين، ويعرف المتطاولون على الإسلام، المهاجمون له وللمسلمين، أن هذا دين عالمي، قوامه العقل والفهم والعلم.. اهتم ولا يزال بعمارة الحياة.. وصلاح الأحياء.

هذا ما كان في زمان المآذن الشامخة.. أما اليوم في حاضر شروخها.. فمفزع:

حقا مفزع أمر هذا العالم الذي يشهد سباقا محموما بين فريقين: فريق من الجنرالات والساسة الذين يدقون طبول الحرب وكأنهم في حفلة رقص سواء كل ما فيها يثير شهوة الافتراس! من إيقاع موسيقى الموت الجنائزية.. وصور لجماجم فوق الحائط وإغراءات تمنح منذ الآن لمن يوافق على حفلة الدمار دون أن يستخدم حق الفيتو وبطاقات إغواء أشبه بتذاكر اليانصيب أو "التامبولا" تتيح لحامليها الاشتراك اللاحق في سحب الجوائز واقتسام غنائم ما بعد الحرب من عقود النفط والمقاولات.

وربما غيرها من العقود الأخرى!! أما الفريق الأخرى فمجموعة من المتظاهرين وأنصار البيئة والمفكرين والحالمين والمؤمنين، مازالوا، بالكيل الواحد وكرامة الإنسان.. وهم يحاولون في يأس أن يسود صوت الحوار على فحيح دعوة الصراع ويصلون لأجل أن تبقى موسيقى الحياة تصدح في أرجاء الأرض بدلا عن أنات الضحايا وصراخ الأطفال فهل يعني هذا المشهد أن العالم قد انقسم بالفعل إلى أشرار وأخيار؟! وإلى أين المصير في ظل هذا الإيقاع المجنون والمتسارع لحركة الأحداث والذي يكاد يؤدي بالعالم كله إلى حالة من الفوضى السياسية، والخراب الروحي.. والتيه الإنساني؟! وهل تكون تلك هي اللحظة

التاريخية المناسبة لإعادة رسم الحدود.. واصطناع الكيانات والـدويلات.. وتوزيـع عقـود المقاولات أرضاء لهؤلاء الذين يحكمون العالم من وراء ستار؟! هؤلاء الأشرار الجـدد فـي إنسانية هائجة منغلقة من شركات نفط كبرى تشم جيدا رائحة البترول مقابل الغذاء.. مـع أن النفط كما يمكن أن يكون أيضا مقابل الحب!! وجماعات وأحزاب تـضلل ناخبيهـا وتخفـى ضعفها السياسي باصطناع أجواء الحرب.. وقوى يمينية وصهيونية تحاول اسـتغلال لحظـة الفوضى التي يمر بها العالم لتكرس فكرها وعقائدها وتخرج خرائطها من جـوف الماضـي لتصنع للآخرين كابوس الدمار بينما هي تستعد لإحياء ذلك الحلم القديم إياه؟!

ومع هذا.. ورغم كل المؤامرات والتهديدات وقوى الـشر والبغـي فالإسـلام ديـن حضارة، وليس دين خنجر أو قنبلة، تعايش مع كل الأديان ولم تغلق حضارته الباب امام عالم أو غطاء مهما كان انتماؤه العرقي.. كما تناول الأوروبيون مشعل العلوم من أيـدي علمائـه فاستضاءوا بنوره. وبلغوا بفضله ما يتباهون به اليوم.

وهيا نتحدث عن الإسلام وما حققه من إشـعاعات علميـة لعلهـم يتـذكرون الـذين يتربصون به، ويسعون للقضاء عليه..

الفصل الثاني

الجغرافية التاريخية لانتشار المآذن الإسلامية

أولاً: في آسيا

مقدمة

كان لظهور الإسلام في شبه جزيرة العرب أثر كبير في انتشاره في العالم القديم المعروف في ذلك الوقت، ويرجع ذلك إلى أهمية الموقع الجغرافي لشبه الجزيرة، فقد كان يحيط بها – قبل ظهور الإسلام – الدولة الفارسية والدولة البيزنطية من الشمال والشمال الشرقي والشمال الغربي.. وقد فتح المسلمون هذه البقاع تمهيدًا لنشر الإسلام، وبذلك انتشر في منطقة الهلال الخصيب، وفي بلاد فارس حتى حدود الهند في منتصف القرن السابع الميلادي.. وفي بداية القرن الثامن فتح العرب حوض نهر السند.. وكان ذلك مقدمة لانتشار الإسلام في شبه القارة الهندية وجنوب غرب آسيا.

على أن انتشار الإسلام في باقي جهات آسيا واتساع العالم الإسلام بوضعه الحالي في هذه القارة جاء نتيجة لعوامل جغرافية أهمها:

النشاط الذي قام به الملاحون العرب بارتياد سواحل جنوب آسيا وشرقها منذ الألف الأولى قبل الميلاد. فقد ارتاد هؤلاء الملاحون سواحل الهند والملايو وجزر جنوب شرق آسيا وسواحل الصين، وقد قامت هجرات عربية في أثر هذا النشاط نتج عنه استقرار بعض تلك الجماعات في الملايو وجزر الهند الشرقية.

وقد كان لاستمرار هذه الصلات التجارية والهجرات بعد ظهور الإسلام مهدا لانتشار الإسلام في السهل الساحلي للصين، فيما بين كانتون وشنغهاي، وعلى السواحل الغربية للهند وفي بلاد الملايو وجزر أندونيسيا وأرخبيل سولو جنوب الفلبين.

النشاط التجاري البحري بعد ظهور الإسلام، فقد امتد لأوطان القبائل التركية والمغولية في وسط آسيا في الإقليم الذي حمل اسمهم (تركستان) إلى الشمال الشرقي في البلاد الإسلامية، وقد نشأت صلات بطبيعة الحال بين هؤلاء الأتراك وبين المسلمين في مناطق الحدود واعتنقوا الإسلام، واستعان بهم الخليفة المعتصم في منتصف القرن التاسع الميلادي وعين منهم حرسًا له، وارتقى بعضهم إلى مناصب هامة في الدولة، ودخلت هجرات تركية إلى النظام الشرقي من الدول الإسلامية واعتنقت الإسلام.. وقد لعب أيضًا التجار المسلمون دورًا هاما في نشر الإسلام بين القبائل التركية والمغولية في المراكز التجارية على طريق القوافل القديمة بين الصين وبلاد شرق البحر الأبيض المتوسط عبر تركستان.

ولابد لنا من ضوء يسلط على انتشار الإسلام في آسيا منذ بدايته.

انتشار الإسلام في آسيا

بدأ المسلمون منذ عهد أبي بكر ينطلقون خارج شبه الجزيرة العربية لنشر دين الله والتبشير به في الأراضي المجاورة عند الفرات شرقًا.. وفي عهد عمر في عام ٦٣٥م، شق المسلمون طريقهم لقهر إمبراطورية الساسانيين في فارس، فعبروا نهر الفرات بعد أن التحموا في القادسية بجيش يزدجر الثالث وهزموا الفرس الذي تقهقروا نحو الشرق بيد أن المسلمون تبعوا الفرس وعبروا نهر دجلة، والتقوا بهم في (نهاوند) في قلب جبال زاجروس وهزموهم في تلك الموقعة، حتى أن المسلمون سموها (فتح الفتوح) إذا انفتحت أمامهم بلاد فارس بعد ذلك.

كذلك هز المسلمون أركان الإمبراطورية البيزنطية هزا عنيفا في نفس هذه الفترة، فبعد أن فتح خالد بن الوليد مدينة دمشق عام ٦٣٧م، قابل جيش الروم على ضفاف اليرموك وهزمه، ثم تقدم لفتح حلب أنطاكية (التي كانت عاصمة سوريا) وبيت المقدس، وكان هناك جيش عربي آخر قادة معاوية إلى مقدمات جبال طورس في أرمينيا، كما استطاع عمرو بن العاص بجيش عربي آخر أن يفتح أرض مصر.

وهكذا لم تكن عشر سنوات قد انقضت على وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام حتى كان العرب قد خلقوا دولة عظيمة امتدت في إفريقيا من خليج سدرة في تونس إلى جبال البامير في وسط آسيا، ومن جبال القوقاز شمالاً إلى بلاد اليمن جنوبا.. والواقع أن العرب بذلوا كثيرًا من الجهد في المعارك التي خاضوها لفتح هذه الأراضي الجديدة.. لهذا سرعان ما تحول هؤلاء البدو الذين عاشوا أصلا في الصحراء إلى الاستقرار في ألأرض الجديدة، واعتنوا بممتلكاتهم وبنوا المدن ودفعوا الضرائب حتى لغير المسلمين في بعض الأحيان فهؤلاء البدو الذين اهتدوا بالدين الحنيف عن رضى واقتناع، لم يحاولوا فرض دينهم على شعوب البلاد التي فتحوها بقوة السيف وإنما راحوا يبشرون بما آمنوا به، وفي الوقت نفسه احترموا قوانين وعادات ومعتقدات سكان البلاد التي فتحوها.

وكان العرب قد استطاعوا أيضا أن يتقدموا في عام ٦٢٥م إلى منطقة التركستان بوسط آسيا، فوصلوا إلى نهر جيمون (أمورايا) ومدينة كابول بعد عشر سنوات من تلك السنة.

وتوقف الفتح العربي في نهاية القرن السابع توقفا مؤقتا بسبب بعض المنازعات الداخلية، ولكن الزحف الإسلامي استؤنف من جديد عام ٧٠٦م؛ حيث استطاع قتيبة بن المسلم حاكم خراسان (أفغانستان حاليا) أن يفتح سمرقند ويقترب من بحر آرال، كما فتح إقليم قرغانه سنة ٧١٢م، ودخل الأراضي الصينية في العام التالي، إذ وصل مدينة كشجر سنة ٧١٢م،

وهي من أهم واحات وسط آسيا (حوض تاريم) الواقعة على طرق القوافل التجارية، خاصة طريق الحرير.

وكان العرب قد فتحوا من قبل مدينة كابول في عام ٦٦١م، ومنها اتجهوا لفتح الهند عام ٧١١م، فقد قاد محمد بن القاسم جيشه العربي عبر جبال بلوخستان الفسيحة والمقفرة إلى مقاطعة السند الأدنى عام ٧١٢م، ثم اتجه من هناك شمالاً نحو إقليم البنجاب، وهي الجهات التي تكون دولة باكستان في الوقت الحاضر.

وبهذا تصبح الحدود الشمالية، والشمالية الشرقية للدولة الإسلامية قد تجاوزت أراضي القبائل التركية.. ورغم أن المسلمين لاقوا في أول الأمر الكثير من مقاومة القبائل التركية، خاصة قبائل (البوغر) إلا أن الأتراك في مناطق الحدود اتصلوا المسلمين واعتنقوا الإسلام.. وقد استعان بهم الخليفة المعتصم في منتصف القرن التاسع الميلادي، وعين منهم حرسا له وارتقى بعضهم إلى مناصب هامة في الدولة، كما وصلت هجرة تركيا إلى النطاق الشرقي من الدولة الإسلامية واعتنقت الإسلام، كذلك لعب تجار المسلمين دورا هاما في نشر الإسلام بين القبائل التركية والمغولية في المراكز التجارية في طرق القوافل القديمة بين الصين وبلاد شرق البحر المتوسط عبر إقليم التركستان.

وهناك طريقان هامان من هذه الطرق البرية عبر وسط آسيا، طريق الحرير: وهو طريق يمتد من بحر قزوين على نهر أموداريا شمال البامير إلى ممر يوصل إلى مدينة كشمير على نهر ثاريم أو مدينة يرقند في جنوبها، ومن أيهما إلى سرداريا – ثم مدينة كركند في إقليم فرغانة، ومنها يمتد الطريق على طول الأطراف الشمالية لجبال تيان شان إلى حوض زنجاريا – عبر بوابة زنجاريا ثم عبر صحراء جولبي وشمال ثنية هونج حتى بكين.

ورغم ما صاحب غارات قبائل الأتراك والمغول من عنف وتخريب وسفك الدماء، والتي قاموا بها على أطراف الدولة العربية بعد ضعف الدولة العباسية، إلا أنه كان للترك فضل كبير في نشر الإسلام في جنوب شرقي أوروبا، وفي منطقة شمال القوقاز، وكذلك في وسط آسيا حتى جبال التاي شرقًا، بل وداخل الأراضي الصينية نفسها، وإن كان انتشار الديانة البوذية في الصين قد حدد انتشار الإسلام من هذه الناحية.

كما أن الفرس كانوا يقومون برحلات تجارية إلى الصين في عصر الساسنيين – أي قبل ظهور الإسلام– كما أن العرب ورثوا هذه التجارة في عصر الخلفاء الأمويين فازدهرت بها معيشتهم.. وكان هذا الطريق البحري الممتد من الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية إلى كانتون بالصين، أطول طريق استخدمه الإنسان على نحو منتظم قبل التوسع الأووربي في

القرن السادس عشر، ولا تنبئنا المصادر العربية كثيرًا عن الزمن الذي جاء فيه العرب إلى الصين أول مرة، والطريقة التي جاءوا بها.. ولكن مما لا شك فيه أن فتح العرب للسند بعد ٧١٢م، قد أتاح لهم الاقتراب من الشرق الأقصى.. قبل زوال الخلافة الأموية (عام ٧٤٩م) فر بعض الشيعة من الاضطهاد في خراسان، وأقاموا في جزيرة بأحد الأنهار الكبيرة في الصين تجاه أحد الموانئ، هكذا تقول الرواية التي حفظها المروزي حوالي عام ١١٢٠م.. وهو يصف تلك الجالية بأنها كانت لا تزال قائمة في عصر متأخر، وإنها كانت تشتغل بالوساطة في التجارة بين أهل الصين والأجانب.

وكان تولي العباسيين للخلافة قوة جديدة دفعت بالتجارة البحرية إلى الأمام، واستمرت التجارة العربية في مناطق الشرق الأقصى، وكان الساحل مليار بالهند أهمية اقتصادية لدى المسلمين، فقد كان مصدر الخشب الساج الذي كانت تصنع منه السفن، والاستفادة مما فيها من أشجار جزر الهند، وكان هناك طريق بحري آخر إلى الصين، يستمر حول الجزء الجنوبي من سيلان ثم مباشرة إلى جزر تيكوبار، ثم إلى ميناء كلابار (والتي عرفت بالملايو).

وقد ازدادت أهمية هذا الطريق في القرن العاشر الميلادي نتيجة لتغير بعض الظروف، فبعد أن نهبت مدينة كانتو نتيجة ثورة هونج تشاد عام ٨٧٨م، واستمرت فترة من الفوضى في الصين امتدت حتى بداية أسرة سونج عام ٩٦٠م.. وعندما انقطعت الرحلات المباشرة إلى كانتون أخذ العرب والصينيون يتلاقون في كلابار على الساحل الغربي لشبه جزيرة ملقا (الملايو) وكانت عندئذ جزءا من إمبراطورية أندونيسيا، وكان العرب يبحرون أيضًا إلى سومطرة في القرن العاشر، على أن الرحلة إلى الصين لم تنقطع تمامًا.

بهذا يتضح أن الصلات التجارية القديمة والهجرات العربية بهد ظهور الإسلام إلى مناطق جنوب شرق آسيا قد مهدت لانتشار الإسلام في السهل الساحلي للصين بين كانتون وشنغهاي.. وعلى السواحل الغربية للهند وفي الملايو والجزر الأندونسية.. كما أن التجار العرب الذين استقروا في جزيرة سيلان استطاعوا أن ينشروا الإسلام في جزيرة المالديف، التي تحول سكانها إلى الدين الإسلامي في حوالي عام ١١٥٢م، وجزر اندمان ونيوكوبار.

كذلك يرجع انتشار الإسلام في الملايو بطريقة حاسمة إلى حوالي عام ١٢٠٠٠م، بينما كان الإسلام قد أخذ ينتشر فعلاً منذ القرن الحادي عشر في الجزر الإندونيسية التي كان قد سادها الإسلام تمامًا في القرن الخامس عشر – فيما عدا جزيرة بالي الصغيرة التي تراجعت إليها الهندوسية آنذاك.

كذلك دخل كثير من سكان الجزر الجنوبية من الفلبين في الدين ألإسلامي بتأثير المد الإسلامي الأندونيسي، ولم تفلح محاولات الإسبان الذين استعمروا هذه الجزر فيما بعد في تحويل هؤلاء السكان عن الإسلام.

.. ولنمض في رحلة المآذن عبر تاريخ الإسلام في بلدان آسيا.

١- الهند

في البداية ظهر الإسلام في الجزيرة العربية، فأصبحت مدينة الرسول أول عاصمة إسلامية.. ثم انتقلت هذه العاصمة بدورها إلى دمشق مركز الأمويين ولما سقطت الدولة الأموية أصبحت بغداد مركز الثقافة، ومعهد العلوم الإنسانية.. كما أصبحت قرطبة في الأندلس في هذه الأيام مهد الحضارة، ومنبع العلوم والفنون، بالإضافة إلى دور مصر الإسلامية التي انتقلت إلى الحضارة الإسلامية.. وصارت جزءًا من تاريخ الإسلامي والمسلمين.. والتاريخ حضارة، والحضارة عقيدة، والحديث عن هذا كله يستغرق كتبا، لا كتابا واحدًا فما البال يجمعه في بضع صفحات. أن السعي بين الجامعات والمعاهد والمراكز الإسلامية التي انتشرت في جميع أنحاء شبه القارة الهندية فوق الاحتمال، وأكبر من أي جهد يمكن بذله.

العودة إلى الماضي إلى قصة الإسلام في الهند:

كيف بدأت؟.. وكيف حكمت الهند حكما إسلاميا زهاء ثمانية قرون ونصف متواصلة؟.. وكيف تأسست الإمبراطورية الإسلامية العظيمة؟ التي تركت بصماتها الحضارية على معالم الحياة التي تعيشها الهند اليوم.. أنها تعيش اليوم في إطار هذه الحضارة الإسلامية!.. وكيف كافح المسلمون مع أخوانهم من المواطنين من أجل الاستقلال والحرية والحياة؟

متى دخل الإسلام الهند:

يرجع تاريخ العلاقات بين العرب والهند إلى العصور المتوغلة في القدم، وهي علاقات تمتد عبر آلاف السنين، فالتجارة والبحارة العرب منذ قرون قبل الإسلام.. كانوا ينقلون محاصيل ومنتجات أفريقيا والشرق الأوسط إلى الهند وسيلان وبورما والصين واليابان وغيرها.. وكانوا بالتالي ينقلون منتجات هذه البلاد إلى أفريقيا والشرق الأوسط.

وكانت مراكز تجارية في سواحل الهند الغربية عند شواطئ ملبار ومستعمرات مستقلة في جنوبها.. وكانت تروق للعرب كلمة هند، فسموا بناتهم بهذا الاسم يقول الشاعر:

أخالد قد علقتك بعد هند   فشيبني الخوالد والهنود

وقال آخر:

إلا لا أبالي اليوم ما فعلت هند   إذا بقيت عندي الحمامة والورد

ولما انبثق نور الإسلام، علم ملوك الهند وفلاسفتها بالدين الجديد، وقيل أن ملك (ملبار) سافر لمقابلة الرسول.. وفي أثناء عودته مات وأوصى الدعاة الذين كانوا في رفقته بأن يمضوا في حمل الدعوة من بعده.. وكان من بين هؤلاء مالك بن دينار وأقاربه ولما وصولا بلدة كدنجلور، ومنحهم وزير الملك الحدائق، ولما استقروا بنو مسجدا، وتوجه بعضهم إلى عدد من البلاد، يدعون الناس للإسلام ويبنون المساجد، وفي مكتبة المكتب الهندي بلندن مخطوطتان باللغة العربية تشرحان قصة إسلام الملك السابق.. وبدأ العرب القادمون من الجزيرة العربية يقومون بالدعوة مع المواطنين الذين اعتنقوا الإسلام، ويتعلمون العربية ليفهموا القرآن والحديث، وتكونت مراكز إسلامية جديدة، تحدث عنها ابن بطوطة عندما زار الهند قائلاً: (.. ومدينة هيلي معظمه عند المسلمين والكفار بسبب مسجدها الجامع فإنه عظيم البركة ومشرق النور. وركاب البحر ينذرون له النذور الكثيرة وله خزانة مال عظيمة تحت نظر الخطيب حسين حسن الوزان كبير المسلمين، وبهذا المسجد جماعة من الطلبة يتعلمون العلم. ولهم مرتبات من مال المسجد، وله مطبخ فيه الطعام للوارد والصادر. لإطعام الفقراء من المسلمين بها).

وساحل (ملبار) في فتح الهند في عهد الخلفاء الراشدين.. فوصلت طلائع المسلمين إلى (إثانة) و(بروش) على الساحل الغربي في الهند، وظل القواد المسلمين يطرقون أبواب الهند حتى توجه القائد الشاب محمد بن قاسم الثقفي (سنة ٩٢هـ - ٧٧١م) على رأس حملة أعدها له عمه الحجاج ابن يوسف الثقفي في زمن الوليد بن عبد الملك، فوصلت إلى (ملتان) وأرست الحملة قواعد أول دولة إسلامية في الهند.. وتوالت حملات المسلمين في عهد العباسيين حتى فتحت السند وكشمير.

الغزنيون والغوربون:

ويعتبر الفاتح الحقيقي للهند هو البطل الإسلامي المجاهد محمود الغزنوني الذي أمضى ربع قرن من الزمان من حكمه في حرب وجهاد حتى ضم شمال غرب الهند والبنجاب لإمبراطوريته في وسط آسيا، وأصبحت دلهي عاصمة ثانية له.. وقد كان محاربا بطلا، وسلطانا أديبا ضم بلاطه الفارابي والفردوسي والبيروني الذي ألف كتابه (القانون المسعودي في الرياضة للبيروني) في عهد مسعود ابن محمود الغزنوني واشتق اسم كتابه من اسمه.. وجاءت بعد ذلك دولة الغوريين التي انفصلت عن الأفغانيين.. وأصبحت بذلك أول دولة إسلامية مستقلة في الهند.

دولة المماليك:

واقتصر الحكم على عهد غياث الدين وأخيه شهاب، وبعد مقتله شغل الغوريون بالخلافات والحروب فاستقل بالحكم المملوك قطب الدين (بدأ حكمه سنة ٦٠٢هـ - ١٢٠٦م). وتجلت مواهب قطب الدين في الحكم والإدارة واهتم بإصلاح البلاد وبناء المساجد وخاصة في عاصمة (دلهي) التي أنشأ فيها مسجد (قوة الإسلام) تخليدا لذكرى استيلائه عليها.

أول امرأة تحكم الهند:

وظل المماليك يحكمون شمال بعد قطب الدين واختاروا رجال الدولة شمس الدين التمسن وتولت بعده أول امرأة حكمت الهند وهي (رضية) التي لبس ملابس أخوها الأصغر، وانتقل الحكم بعد وفاته إلى أسرة غياث الدين بلين.. ثم جاء جلال الدين فيروز شاه فقتله ابن أخيه علاء الدين الخلجي واستولى على العرش سنة ١٦٩٦م.. وأضاف إلى مسجد (قوة الإسلام) البوابات الضخمة التي مازالت أحدها باقية وتسمى (علاني دروازة).. وهكذا حكمت الهند حتى القرن الخامس عشر حتى بدأ الحكم الغولي.

دلهي ودهلي:

إن الزائر لدلهي لابد أن يرى وبوضوح مدينة تظللها الأشجار والخمائل تختبئ بينها بيوت حديثة الطراز، وسبع مدن قديمة، أولها بنيت سنة ٩١٨م وكان اسمها الأصلي (دهلي) وهي كلمة تعني (التربة اللينة).. ثم جاء الإنجليز فحرفوا الاسم (دهلي) إلى (دلهي).

وفي الطريق إلى داخل المدينة سوف تلوح للزائر من بعيد قبه بيضاء ناصعة البياض هي قبة (المسجد الجامع) أكبر مساجد الهند إطلاقا وأعظمها.

وعند دخول مدينة (دلهي) القديمة والوقوف عند الساحة الشاسعة الخضراء التي تتوسط بين المسجد الجامع.. والقلعة الحمراء سيتم اللقاء بمزيج من عبق التاريخ العتيق، وصدى الآذان، تردده منارات المساجد المنتشرة في مساء دلهي. وبدأت تنهال على الخيال صور الماضي التليد. وصفحات الأمجاد الخالدة لإمبراطورية إسلامية عظيمة. وطئ أركانها، ورفع رايتها أبطال عظماء اختلفت جنسياتهم وألسنتهم. ولكن ظللتهم جميعا الراية الإسلامية التي وجدت بين قلوبهم وغاياتهم وساوت بينهم فلا فرق بين عربي وأعجمي.. ورفرفت الراية على ربوع الهند كلها.

الإمبراطور الفنان:

وهناك بعد التقدم نحو أسوار القلعة الحمراء، وبين المروج الخضراء.. قلعة شامخة ببوابتها العاليتين. وقببها السبع الصغيرة.. تحكى قصة إمبراطور مهندس فنان.. كان يحمل بين جنبيه قلبا مترعا بالحب والوفاء والحنان، ويتملك ذوقا مرهفا يحس الجمال ويعشقه سواء أكان الجمال امرأة حسناء تتحرك وتتبختر، أو بناء شاهقًا يزهو ويترفع، ولكن هذا القلب المرهف الحساس، كان سرعان ما يتحول إلى قلب أسد هصور، إذا دارت رحى الحرب ونازل الأعداء.. إنه (شاهجان) خامس الأباطرة المغول.. وباني أجمل العمارات الإسلامية.

قصة (شاهجان) والقلعة الحمراء:

كانت (اجرا) عاصمة حكم (شاهجان) وكان يسكن قلعتها التي أضاف إليها قصورا فاخرة. ولكنها ضاقت بجيشه الكبير من الموظفين والعسكر.. أو ربما أراد أن يبتعد عن ذكرياته الحزينة بعد موت زوجته. فاختار (دلهي) عاصمة له، واختار موقعًا جديدًا عند منعطف نهر (جمنا).. ووضع حجر الأساس سنة ١٦٣٩م للقلعة الحمراء التي سميت كذلك نسبة للأحجار الحمراء التي جلبت من فتح (بور سكبري).. وفي خلال تسعة أعوام ونصف تم تشييد القلعة وجاءت النتيجة كأجمل ما يكون فن البناء، تمثل الإبداع والكمال، وتعكس ذوق الإمبراطور الفنان.

لقد كانت القلعة الحمراء مرآة لعصر الرخاء الذي كانت تعيشه البلاد، فأنها تسجل قصة الإمبراطورية وظروفها وأحوالها.. هي الفن والتاريخ.. هي الشعر والحياة.. هي الهندسة والنحت.. هي العواطف والناس.. وهي نتاج امتزاج عدة حضارات.. هي مجموعة من المباني في إطار واحد محاط بجدار من الأحجار الرملية الحمراء تعلوه عدة شرفات متفرقة لا يفصلها عن النهر إلا منطقة رملية تتصارع فيها الوحوش، ويتسلى الإمبراطور بضراوة صراعها، وفيما عدا هذه الناحية كان يحيط بالقلعة خندق عميق يملأ بالماء.. وللقلعة

بوابتان رئيسيتان بنفس التصميم والطراز بوابة دلهي. وكانت مواجهة للمدينة وينتصب عند مدخلها تماثيل القبلة يعلو كلا منها بطل من الأبطال تشملها الرهبة عند تأملها.. أما البوابة الأخرى فهي بوابة (لاهور) يرتفع قوسها ٤٠ دما من سطح الأرض وعلى جانبيها برجان مثمنان يعلو كلا منها جوسق صغير بينهما سبع قباب من المرمر الأبيض.. وكانت بوابة لاهور هي البوابة التي يذهب منها الإمبراطور لأداء الصلاة في المسجد الجامع الذي يقع في الجنوب الغربي من القلعة، ويمتد إلى الغرب من هذه البوابة الطريق الرئيسي المشهور باسم سوق ضوء القمر.. ويلي البوابة من الداخل سوق مسقوف تباع فيه الآن الهدايا التذكارية. وكان الطابق الثاني مخصصا للحراس وفرق الموسيقى الملكية التي كانت تعزف خمس مرات في اليوم حينما يدخل أو يخرج الإمبراطور.. ويؤدي الطريق بعد السوق وسط الخضرة اليانعة. والأشجار الباسقة إلى الديوان العام.. إلى قاعة كبيرة مربعة مفتوحة من الشمال والجنوب والغرب تزينها عدة صفوف من الأعمدة الحمراء طعمت بالذهب وكذلك السقف.. وفي الجدار الشرقي توجد مقصورة الإمبراطور على ارتفاع أعلى من قامة الإنسان وهي من المرمر المزخرف بالزهور الملونة والمزينة بالأحجار الكريمة والمطعمة بالذهب والفضة، وتحت المقصورة كان يجلس رئيس الوزراء على مقعده الرخامي يتلقى أوامر الإمبراطور.. أما الإمبراطور فكان يلتقي بدوره بأفراد الشعب ليستمع لشكاويهم ويحكم بينهم.

روح الإسلام:

ومن وراء هذه القاعة يقع القصر الخاص في مواجهة النهر، في المواجهة قاعتان تؤديان إلى مبنى الاستحمام والحمام البارد والحمام الساخن من المرمر الأبيض المزخرف. فصار قمة للإبداع الفني بزخارفه المطعمة بالجواهر والأحجار الكريمة في شكل زهور وبراعم ملونة. وبعد الحمام تجسيما للروح التي تعني بالنظافة.. نظافة البدن ونظافة الروح.. واستطاع الفنانون تجسيم هذا المعنى في لوحة فنية فيها روائع الفن كله.. وكذلك كانت غرفة الملابس تقع على النهر، وعلى حائطها المواجه له علقت المرايا المستوردة من (حلب) لتعكس إلى داخل الحجرة جمال المناظر الطبيعية.. أنها الحضارة الإسلامية في أجمل صورها تلك التي تجعل النظافة من الإيمان. والجمال من مطالب الحياة.

ثم هناك عند الديوان الخاص. حيث يلتقي الإمبراطور بالنبلاء والأمراء، قاعة أنيقة ترتفع عن الأرض وتتوسطها قاعدة من المرمر، كان عليها عرش الطاووس الذي سلبه (نادر شاه) سنة ١٧٣٩ وأخذه معه إلى إيران (ومحفوظ الآن في خزانة البنك المركزي بطهران لقيمته التي لا تقدر بمال).. وكانت سقوف هذه القاعة مزخرفة بالذهب والفضة، تجري فيها

(قناة الفردوس) من المرمر ينساب فيها الماء رقراقا صافيا تسبح فيه الأسماك الملونة التي طوقت رأس كل واحدة منها بطوق محلى بفصوص الياقوت واللؤلؤ. وفرشت القاعات بالسجاجيد. وعلقت على الأبواب ستائر من المخمل المطرز بوش من خيوط، الذهب والفضة.. وبين كل قاعة وأخرى وضعت ستائر من المرمر المحفور والمفرغ كزخارف (الدانتيل).. وهناك البرج المثمن حيث كان يجلس الإمبراطور ليرى شروق الشمس. لقد كان القاعات مسارح لروائع الفنون التقت فيه روائع الفن الإسلامي، وشخصياته العظيمة من زخارف ونقوش ومنحوتات مرمرية لامعة وأحجار كريمة ملونة.. وكان يحيط بهذه الروائع الهندسية حديقتان متصلتان أحداهما كانت تسمى حديقة (متعة الحياة) والثانية حديقة (ضوء القمر).. وقد تفنن المهندسون في هندسة هذه الحدائق، وشقت فيها القنوات والبحيرات، والشلالات الصناعية، وركبت عليها النافورات العديدة التي بلغ عددها ثلاثمائة نافرة واصطفت على جوانبها أواني الزهور من الذهب والفضة.. وفي الليل كانت توضع (الشمعدانات) المضيئة.. وكان عبير الورود والرياحين والأزهار المختلفة الألوان مثل البنفسج والنرجس والياسمين يملأ جو المكان عطرًا حتى لم يتمالك شاعر فارسي نفسه عندما رآه فصاح قائلاً:

إذا كان ثمة فردوس على الأرض

فهو هذا.. هو هذا.. هو هذا!!

ولم يكن بالقلعة مسجد – وكان شاهجان يؤدي الصلاة في المسجد الجامع. ولما جاء خلفه الإمبراطور العابد (أور تجزيب) بنى مسجد (اللؤلؤة) بالقرب من جناحه الخاص. وهو مسجد صغير لكنه تحفة فنية من المرمر الأبيض اللامع يتألق كاللؤلؤة. وله ثلاث قباب بصلية الشكل فوق بيت الصلاة..

المسجد الجامع:

ويعد المسجد الجامع أكبر مساجد الهند ومن أعظم مساجد الدنيا وأجملها، فقد أمر ببنائه (شاهجان) سنة ١٥٦٠. واكتمل بعد ٦سنوات. وهو قائم في الطرف الآخر من الساحة أمام القلعة الحمراء فوق قاعدة عالية تصعد إليه على درجات عريضة يبلغ عددها الأربعين، وله سور عال وثلاث بوابات كبيرة في الشمال والجنوب والشرق، ويؤدي هذا الدرج إلى تلك البوابات الكبير حيث الصحن الرحيب الفسيح، المربع المساحة.. لتبدو تلك الأعداد الهائلة من ذلك الحمام الذي يطير في موجات بين الحين والآخر فيحجب السماء.

يتوسط الصحن حوض كبير مملوء بالمياه للوضوء، وتحيط بالصحن بوائك عديدة، وأما بيت الصلاة ففي الناحية الغربية، ويتكون من ثلاثة أواوين، الأوسط منها أصغر من الآخرين وهو إيوان القبلة. وفي صدره نجد المحراب الفسيح الكبير الذي يبلغ عرضه خمسة أمتار، والمنبر صغير من المرمر الأبيض وهو بسيط ولا يزيد على عدة درجات وأرضية بيت الصلاة من المرمر أيضًا، ومقسمة إلى مستطيلات محددة لكي يقف كل فصل في مكانه في صفوف منتظمة.

ويعلو بيت الصلاة ثلاث قباب بصلية الشكل وعلى جانبيها تقوم المنارتان وهما من أجمل المنارات الهندية، فهي مغطاة بالمرمر الأبيض ومزينة بخطوط مستقيمة سوداء.. وكذلك القباب.. وفي كل ركن من الصحن يقوم جوسق صغير وجميل.. يوجد بناءان في الصحن أحدهما مصلى خاص لنساء القصر، أما الآخر فهو غرفة صغيرة بيضاء معبقة برائحة البخور تضم في خزائن ما يعتقد بأنه شعره من لحية النبي. وخفة من جلد الغزال مغطى بالورد.. كما يوجد أيضا صفحات من القرآن الكريم كتب على جلد الغزال بالخط الكوفي بيد الإمام على كرم الله وجهه.. كما يوجد أيضا صفحات أخرى بخط يد ابنه الحسين.؟. وقد انتقلت هذه الآثار من خزائن الخلفاء العباسيين إلى الهند وحافظ عليها الأباطرة حتى تم بناء المسجد الجامع. فنقلت إليه ولا تزال إلى الآن.. وقد كان هذا المسجد كما كان الأزهر الشريف ملجأ الثائرين. فقد كان الثائرون المسلمين في سنة ١٨٥٧م يجتمعون ويعلنون القرارات ضد المستعمرين الإنجليز، ولما فشلت الثورة وانتصر الإنجليز على الثائرين في (دهلي) احتلوه، ومنعوا الصلاة فيه لمدة خمس سنوات.. وهو الآن يغصى بالمصلين ولا سيما في صلاة الجمعة ويمتلئ إلى آخره في أيام الأعياد.

وأمام المسجد ساحة كبيرة يجرى تنظيمها وفيها حديقة واسعة مليئة بأحواض الماء والنافورات. وقد أقيم في وسطها مدفن للزعيم الهندي المسلم (مولانا أبو الكلام ازاد) في نفس المكان الذي كان يخطب فيه قبل وفاته بأسبوع في مؤتمر شعبي. وقد اختار زعيم الهند (نهرو) هذا المكان التاريخي مدفنا لصديقه ورفيق كفاحه من أجل الحرية والاستقلال.

إلى اجرا:

وهناك.. حيث مدينة (اجرا) بقلعتها الحمراء التي حكم منها أباطرة المغول السابقون وحيث بنى (شاهجان) تاج محل.. أجمل وأروع ما شيد الإنسان على وجه الأرض ومازال إلى اليوم من أهم عوامل جذب السياح من شتى أنحاء العالم.. فالآثار الإسلامية في الهند هي إحدى عناصر التراث الحضاري الإسلامي.. وهي تثير إعجاب الناس على اختلاف ألوانهم

ودياناتهم لما تتضمنه من قيم حضارية وإنسانية وإبداعية ولها ميزاتها الخاصة الأصيلة وسماتها الفريدة لأنها نتاج نماذج عدة حضارات وانصهار ثقافات عديدة.

ثم هناك.. وعلى بعد ٤٢ كيلو مترا إلى الجنوب الغربي تقع فتح (بورسكيري) المدينة التي أنشأها سنة ١٥٧٤م الإمبراطور (أكبر) جد (شاهجان)، والملقب بالإمبراطور التعظيم.. وهو ثالث إمبراطور في دولة المغول الذين حكموا الهند.

بداية حكم المغول في الهند:

بدأ حكم المغول في الهند حين قام ظهير الدين محمد بابر يغزر شمال الهند ودخل (دهلي) فاتحا يوم الجمعة ١٥ من رجب سنة ٩٣٢هـ - إبريل سنة ١٥٢٦م.. واستطاع هذا القائد الشجاع أن يؤسس إمبراطورية إسلامية كبرى في الهند، وكان رجل دولة وفي الوقت نفسه كان أديبا وشاعرا. ألف عدة كتب وكان يعرف العربية والفارسية والتركية التي كتب بها مذكراته (بارنامه). وقد خلفه ابنه (همايون) سنة ٩٣٧هـ - ١٥٣٠م وكان شاعرا متمسكا بأهداب الدين مثل أبيه، بارعا في الرياضيات والفلك، محبا للفن والفنانين، وكان قد تعرف بهم أثناء إقامته في إيران.. وقام بتشجيع المصورين الإيرانيين عبد الصمد الشيرازي وميرسيد على ليصوروا (مخطوطة الأميرة حمزة) وكان يقضي غالب وقته في مكتبته. ومات بين كتبه. فقد زلت قدمه وهو نازل من مكتبته ودفن في مقبرة تعد من أجمل الآثار الإسلامية بنيت عام ١٥٦٥ في عهد ابنه الأكبر.

أكبر العظيم:

نودي سلطانا سنة ١٥٥٦ ولم يبلغ الرابعة عشرة من عمره بعد. ولم يكن قد تلقى قدرا كافيا من التعليم في هذه السن المبكرة. ولكنه كان ذكيا جريئا. بدأ حياته بالتقرب للعلماء ورجال الدين يزورهم في بيوتهم. وكان له تقدير كبير للشيخ سليم السيكروري فكان يذهب إليه في (سيكرى) على ١٢ميلا من اجرا.. يذهب إليه ويسأله الدعاء، وزاد تعلقه به بعد ما نقل إليه الشيخ بشرى رآها في منامه إذ قال له: "إن الله سيرزقه بثلاثة أولاد – وقد رزق بهم فعلا بعد حرمان طويل، وسمى أولهم باسم "سليم" تبركا بالشيخ.. وزيادة في تقديره، بنى مدينة في مقر الشيخ اسماها (فتح بورسيكري) وجعلها عاصمة ملكه. وانفتح على العالم الخارجي فبدأ التسلل الأجنبي. وأحب النقاش والمجادلة فكان يجمع العلماء ورجال الدين المسلمين من جميع الطوائف والمذاهب وبرجال الدين اليهود والمجوس والمسيحيين ليتناقشوا ويتباروا، ويحضر مجالسهم فاختلطت عليه أمور العقيدة.. وزين له المتزلفون والمنافقون ابتكار دين جديد سماه (الدين الإلهي) وشاعت البدع والخزعبلات.. وابتدعت في عهده سجدة التحية للملك فكان

العلماء والأمراء يخرون له ساجدين كلما دخلوا عليه، ولكنه وطد دعائم الطوائف والأديـان. فكانت له زوجة هندوسية وأخرى مسيحية وثالثة مسلمة تركية، وفي عهده بدأت اللغة الأردية (المشتقة من الهندية والفارسية والتركية والعربية) تأخذ مكانها بين اللغات.. وفي عهده أيـضا نشطت حركة التأليف والترجمة، وأنشئت مدرسة كانت من أعظم المـدارس الفنيـة، وكـان يصحب الفنانين إلى المعارك الحربية ليصوروا حوادثها. وقد اكتمـل فـي عهـده تـصوير مخطوطة (الأمير حمزة) التي بلغ عدد صورها ألفا وأربعمائة صورة تعتز بها متاحف أوروبا وأمريكا. وقد انفق ما يزيد على الأربعين ألف جنيه إسترليني لتزيين كتـاب رزم نامـه (أي كتاب الحرب) بالصور.

الإمبراطور الشاعر:

ولتولى بعد أكبر ابنه (جهانجير) التي بدأ حكمه بإلغاء فكرة (الدين الإلهي) ليهدئ من ثورة المسلمين. وكان جهانجير فنانا مصورا وأديبا مرهف الحس مكن له استتباب الأمور بأن يقوم برحلات في طول البلاد وعرضها، يكتب يومياته بأسلوب شاعري جميل، وكان يقـضي الصيف في (كشمير) فبنى فيها كثيرا من الحدائق الجميلة المتسقة. وفي عهده بدأ التنافس على أشده بين الدول: الإنجليزية، الهولندية، البرتغالية متسترين تحت شعار التجارة. وجاء سـفير جديد لبريطانيا استطاع بمكره ودهائه أن يحظى بثقة الإمبراطور، فأعفيت التجارة الإنجليزية من الضرائب، وراحوا ينافسون التجار الهنود، وباعوا بأقل مما كانوا يبيعون فأفلست التجارة الهندية بينما انتعشت التجارة الإنجليزية التي شجعها الإمبراطور وساندها بأن سمح لها أيـضا بميناء (سورت) يتحصنون فيه.. ولم يكن يدري (جهانجير) أنه دق بعمله هذا أول مسمار في نعش إمبراطور المغول..

الإمبراطور الولهان:

ويروي التاريخ الإسلامي في الهند قصة تذكرنا بقصص ألف ليلة وليلة.. ففي عهـد (أكبر) جاء إلى الهند رجل اسمه (غياث الدين الطهراني) من إيران، وانتهز فرصـة انفتـاح الإمبراطور على الناس وأخذ يتقرب إليه، فنال الحظوة لديه وأخذ يتدرج في مناصب الدولـة. وكان له ابنة رائعة الحسن والجمال ممشوقة القوام تعرف كيف تختار الثياب الأنيقـة وتـتقن التزين بالحلي والجواهر. وكيف تمزج عطرها.

وفي عهد (جهانجير) تزوجت الفتاة الحسناء الصغيرة أحد ولاة الأقاليم.. وذاع صيت جمالها، ووصل إلى مسامع الإمبراطور الشاعر وكان أن قتل زوجا، وأصبح الطريـق أمـام الإمبراطور ممهدا فطلبها زوجة فترددت وتمنعت فهام بحبها. ولما قبلته زوجا فـي النهايـة

سماها (نورجهان) أو (نور محل) أي نور الدنيا.. وكانت قوية الشخصية فشاركت الإمبراطور الحكم. واستقبلت معه عظماء البلاد وأمراءها، وسكت النقود باسمها واسمه، وأصبح أبوها رئيسا للوزراء وأخوها (أصف) رئيسا للتشريعات الإمبراطورية. وتولى ولاية (جونبور) وامتلأ القصر بأقاربها، ولم يكن يشغلها شاغل إلا ولاية العهد وهي التي لم تنجب ولدا من الإمبراطور بينما كان ثلاثة أولاد من امرأة غيرها أكبرهم (خرم) يتمتع بشخصية قوية. وكان قائدا محنكا محبوبا بين رجال الجيش والأمراء. وقد تزوج ابنة أخيها (آصف أرجمنت بانو) التي سميت فيما بعد ممتاز محل) وأصبحت بطلة قصة أعظم حب في التاريخ.. أما الولد الثاني للإمبراطور (جهانجير) فكان اسمه (شهريار) عملت الإمبراطورة الماكرة على استمالته فزوجته ابنتها من زوجها الأول.. وأخذت تفكر بدهاء وذكاء لكي تكون ولاية العهد له.. لكن الإمبراطور خيب ظنها وما رسمت فأوصى بالملك للابن الثالث (برويز) فغضب (خرم) الوارث الشرعي لأبيه فما كان منه غلا أن انشق عليه. وكانت (برويز) في (برهانبور). وبذلك انحصر الصراع بين زوج ابنتها (شهريار) زوج بنت أخيها (خرم). لكن أخاها (آصف خان) حسن الأمر عندما مات (جهانجير) فقبض على أخته وزوج ابنتها (شهريار) فور وفاة الإمبراطور، ووصل (خرم) زوج ابنته (ممتاز محل) وتولى الحكم سنة ١٦٢٨م. وتسمى باسم محمد شهاب الدين (شاهجان) ومعناها (ملك الدنيا). أما زوجته (أرجمنت بانو) فقد اختار لها اسم (ممتاز محل).. وكانت ذات شخصية نافذة مؤثرة كعمتها (نور جهان) وكانت بعد ذلك ترافق الإمبراطور أينما ذهب حتى إلى ميادين الحرب، ولم يمضي سوى ثلاث سنوات على حكمه حتى بدأت المتاعب في منطقة (الدكن) في جنوب الهند وقرر الإمبراطور السفر بنفسه على رأس الجيش تصحبه زوجته الحبيبة (ممتاز محل) وقد تخفت في زي أمير. وكانت حاملا في الطفل الرابع عشر.. وتحقق للإمبراطور النصر على المنشقين عليه، لكنه رزئ بشي لم يكن في الحسبان. لقد تعب الإمبراطورة في الطريق وهي تضع مولودها وأحست بدنو الأجل المحتوم فطلبت من زوجها الملهوف أن يعاهدها الوفاء لها بعد رحيلها فلا يتزوج من بعدها. وأن يبني لها ضريحا ليس في العالم ما يماثله ليخلد هذا الحب الذي ربط قلبيهما طوال ١٩عاما. وماتت الزوجة الحبيبة سنة ١٦٢٠م وكانت في التاسعة والثلاثين من عمرها في مدينة (برهانبور) شمال (الدكن) ودفنوها في بلدة (زين أباد). ثم نقلوا الجسد بعد ستة شهور إلى (أكبر أباد) بجوار (اجرا) حتى يتم بناء تحفة العمران التي خلدتها على مر الزمان.

تاج محل:

وجلس الإمبراطور الحزين يبكي زوجته الراحلة، ويشارك بدموعه وأفكاره المهندسين، فقد كان البناء والتصميم هوايته، أنه يريد أن يخلد حبيبته بأثر جميل يضاهي

بهاءها، وجمالها ليكون رمزا خالدا للوفاء والحب.. وحضر (عيسى أفندي) المهندس التركي المشهور. وبدأ العمل سنة ١٦٣٢ ومعه عشرون ألف عامل عملوا اثنين وعشرين سنة.. وكان في النهاية هذا الانجاز الرائع الخالد الذي يتجلى فيه جمال التصميم واتزان الأبعاد. والتناسب بين الأجزاء، والتناسق في الزخارف والألوان.. أنه أروع الآثار الإسلامية في الشرق والغرب على السواء، لقد جاءت هذه التحفة الفنية الرائعة نتاجا للتعاون بين أخذ وعطاء لفناني الوطن الإسلامي في ذلك الزمان. فقد وفد على (أجرا) الخبراء في القباب من القسطنطينية. وفي بناء الأبراج من سمرقند، والبناؤون الماهرون من كندهار، والنقاشون من بخارى والخطاطون من بغداد.. باختصار صار خلاصة ازدهار الحضارة الإسلامية من يومها حتى اليوم..

جولة حول تاج محل:

يقع تاج محل على الضفة اليمنى من نهر (جمنا) وعلى بعد ميل ونصف من مدينة (اجرا).. وعند أول خطوة نحوه. سيبدو للناظر المدخل الخارجي الضخم من الحجر الأحمر والمرمر الأبيض وقد حفر بالحجر الأسود على إطار مرمري أبيض حول البوابة الضخمة. وبالخط الثالث المتداخل. المتشابك وبإتقان معجزة "سورة الفجر" حتى انتهت بقوله (فأدخلي في عبادي وادخلي جنتي)، وقد راعى الخطاطون المهرة عند كتابة الخط أنه كلما ارتفع وبعد عن العين كبر حجم الحرف بالتدريج حتى تبدو الكلمة المكتوبة على علو شاهق للعين في حجم الكلمة القريبة منه.. وبعد اختراق البوابة الضخمة المظلمة سيبدو من بعيد (تاج محل) مضيئًا لامعا، براقا بهي الطلعة، جميل التكوين، دقيق التصميم، تمتد أمامه حديقة مزهرة جميلة في رصيف طويل وعريض، في منتصفه بحيرة صناعية قامت في وسطها نافورات عددها أربع وعشرون، كانت في السابق تنثر ماء الورد فيملأ في شذاه الجو من حولها، كما يمكن للناظر إلى الماء أن يرى صورة (تاج محل) وقد انعكست على صفحته.. ويتوسط تاج محل أربعة مبان قامت في الحديقة الفسيحة من حوله. وقد شيدت بالحجر الأحمر، وتتميز بحرفة فريدة من نوعها وطعمت بالذهب والأحجار الكريمة، وفي الاتجاه إلى ذلك القصر الذي يحنو على رفات (ممتاز محل) يقوم ناحية اليمين مسجد.. وأمامه إلى اليسار بيت للضيافة.. ووراء هذين المبنيين قاعتان للموسيقى وهي متماثلة في البناء والتصميم والزخرفة.

وعند الدخول إلى الضريح في أحد بابيه الجانبين سوف يتم الوصول إلى مصطبة صغيرة تخلع عندها الأحذية.. وبعد الصعود بضعة درجات سوف يتضح المبنى العام للضريح وقد بنى وسطه مصطبة واسعة مربعة شيدت في كل زاوية منها منارة شاهقة ارتفاع كل منها ١٩٠ اقدما. يعلوها جوسق بديع. وكسيت بالمرمر الأبيض والأسود في خطوط متعرجة ثابتة

يخيل للرائي أنها بارزة أو مجوفة ولكنه خداع البصر فهي ملساء ناعمة نعومة المخمل، وتميل أطراف المنارات إلى الخارج، إلى الناحية المضادة للبناء الرئيسي، حتى إذا تعرضت إحـــدى المنارات للسقوط بسبب الزلازل أو غيرها فتسقط بعيدا عن الضريح.

وعند الوصول إلى المبنى الرئيسي.. سيبدو للناظر لوحة فنية من المرمـــر الأبـــيض اللامع وقد غطته نقوش على شكل زهور وبراعم وزنابق مصنوعة بدقة متناهيـــة ومطعمـــة بالأحجار الكريمة، يتوسط هذه اللوحة الفنية المدخل وحوله وفوقه نوافذ أخرى علـــى شـــاكلته ولكنها أصغر حجما، والمدخل عبارة عن بوابة ضخمة على شكل قبو، تعلوها قبة كبيرة، وبعد خطوات يكون الباب الذي يؤدي إلى الداخل، وقد كتب على واجهة القبو (سورة يس).. وعلى الباب الصغير كتبت سورة (إذا الشمس كورت) بنفس الخط الثلثي وبنفس الشكل على البوابـــة الخارجية.. البناء كله تصميم جميل روعي فيه التناسق والتـــشابه، هـــو نمـــوذج للتـــوازن. فالضريح هو المركز لهذا البناء الضخم الذي يشكل الجانب الأيمن منه سورة دقيقـــة للجانـــب الأيسر حتى في أدق تفاصيل، والزخارف والنقوش، وعند الـــدخول ســـتواجه الزائـــر قاعـــة الضريح يتوسطها (شاهد) ممتاز محل. وبجانبه شاهد أكبر منه قليلا هو لضريح زوجها (شاه جيهان) الذي عاش بعدها ستة وثلاثين عاما مع أحزانه.

وقد زخرف المكان كله بزخارف على شكل زهور. وكلها من الأحجار الكريمـــة ذات ألوان بديعة، وفي أعلى (الشاهدين) كتب (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث). "أن الذين قـــالوا ربنا ثم استقاموا".. إلى آخر الآية وعلى جوانب (الشاهد) كتبت الآيات الكريمة (أن الأبـــرار لفي نعيمن على الآرائك ينظرون) إلى بقية الآيات الكريمة.. ويقع بجوار هذه القاعدة ثمـــاني حجرات مثمنة المساحة، متشابهة خصصت لقراءة القرآن والأدعية.

وعند الخروج من هذه القاعة والهبوط إلى أسفل من فتحة ضيقة على درج داخلي إلى الطابق. على الزائر هنا أن ينحني حتى لا تصطدم رأسه.. وقد تعمد المصمم ذلك حتى يطـــر كل من يزور القبر أن ينحني بقامته تحية وإجلال، وفي الداخل يتواجد الضريحين بنفس نظام الشاهدين اللذين في الطابق العلوي وهي عبارة عن نصب بشكل صندوق مستطيل من المرمر عليه نقوش على شكل زهور من الأحجار الكريمة الثمينة. وقد كتب على قبر (ممتاز محـــل) قوله تعالى (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنتوا من رحمـــة الله) "الآيـــة" وقولـــه تعالى (كل نفس ذائقة الموت..) وعلى الجوانب كتبت أسماء الله الحسنى، وعلى واجهة المقبرة كتب عليها "مرقد بنورا ارجمند بانوبيجم مخاطب بممتاز محل توفيت سنة ١٠٤٠هـــ.

الابن يسجن أباه:

أصيب (شاه جان) في آخر حياته بسوء الحظ.. فقد أقعده المرض.. واختلف أولاده الأربعة، ودب الخلاف بينهم، ولم يحسمه إلا حرب ضروس كان النصر فيها لابنه (أورنجزيب) الذي تقدم إلى العاصمة (اجرا) واعتقل والده (شاه جان) وحدد اقامته في القلعة التي أمضى فيها حياته كسير القلب ينظر من بعيد إلى قبر زوجته (ممتاز محل).

وبعد أن استتب الأمر لاورنجزيب، احتفل بجلوسه على العرش في رمضان سنة ١٠٦٩هـ - ١٦٥٩م.. وبالرغم من أن عهده بدأ بالحروب وسفك الدماء، فأنه حكم البلاد حكما عادلا، وكان متقشفا متعبدا زاهدا. على عكس أبيه، فلم يذق طعم الخمر في حياته، ولما كان قد تربى تربية دينية على يد العلماء المتفقهين في الدين، فقد ألغى كل المظاهر المنافية لروح الإسلام. وقضى على عادة السجود للملك، وقد أمضى فترة حكمه في بناء الكثير من المدارس والمستشفيات والمساجد، وعمل على تدوين الأحكام الشريعة للعمل بموجبها، وبانتهاء عهده بدأ حكم المغول بالاضمحلال.. فاختلفت الأبناء وبدأت الثورات والفتن تظهر بين طوائف الشعب. وتولى بعده ابنه (شاه عالم بهادور). وتلاه ملوك ضعاف مختلفين متهالكون، هدتهم الحروب والثورات، وأصبحت البلاد نهبا. للجيران والأعداء من الداخل والخارج.. فيما بدأ الإنجليز يعدون الخطط للاستيلاء على شبه القارة الواسعة المترامية الأطراف، ولما تمت لهم السيطرة عليها، بلغ بهم الأمر، بعد أن انتزعوا السلطة الفعلية، أن عين الإنجليز لآخر حاكم مغولي (سراج الدين أبو ظفر بهادر شاه) مرتبا سنويا بعد أن أصبح لا نفوذ له، ووجهوا إليه إنذارا بأنه آخر ملك يسكن القلعة الحمراء بدلهي، وأن مخصصاته المالية ستنتهي بانتهاء حياته.

وازداد طغيان المستعمرين الذين أخذوا يستنزفون ثروات البلاد.. ولم يكن أمام الشعب بدًا من الثورة، فثار ثورة عارمة سنة ١٨٥٧م ساهم فيها المسلمون والهندوس، وتوجهوا إلى قلعة الحمراء مقر الملك المغولي، وجعلوه قائدا للثورة ورمزا للكفاح.. ولكن الإنجليز استطاعوا أن يبطشوا بالثورة، وقبضوا على الملك وعائلته وقتلوا أولاده على مرأى منه.. ثم نوه هو وزوجته إلى (رانجون) في بورما؛ حيث مات طريدًا شريدًا يكتب شعرًا حزينًا.

وانتهى الحكم الإسلامي في الهند الذي ظل يحكم البلاد نحو ثمانية قرون ونصف من سنة ١٠٠١م إلى ١٨٥٧م.

وأسدل الستار على عهد من أكثر عهود التاريخ وازدهارا، وترك بصماته على الحياة في الهند.. حتى أن الزائر لها يجده واضحا في ملابس الناس وهندامهم، وفي حياتهم الاجتماعية والثقافية والدينية والاقتصادية.

فقد دخل المسلمون الهند يحملون دينا جديدا، يدعو الناس إلى إله واحد، ويخدم إنسانية الفرد، فلا يقر الطبقات، ويحترم المرأة، ويعترف بحقوقها وكرامتها.. يقول جواهر لآل نهرو الزعيم الهندي في كتابه (اكتشاف الهند): "أن دخول الإسلام له أهمية تاريخية كبرى، فقد كشف الفساد الذي كان يعيش فيه المجتمع الهندي، وأظهر انقسام الطبقات والعزلة التي كانت الهند تعاني ويلاتها.. أن دعوة الإسلام إلى التآخي والمساواة التي يؤمن بها المسلمون ويعيشونها، كان لها تأثير عميق في تفكير الهندوس، وخصوصا في هؤلاء التعساء الذين حرم عليهم المجتمع الهندي المساواة والتمتع بالحقوق الإنسانية".

وعبر أحد قادة حركة التحرير ورئيس حزب المؤتمر الوطني الهندي سابقا (رامايا) بَقوله: (إن المسلمين أقروا ثقافتنا، وقووا أدارتنا، وقربوا أجزاء البلاد البعيدة بعضها إلى بعض.. لقد كان تأثيرهم عميقا في ذات البلاد وحياتها الاجتماعية).

كفاح المسلمون من أجل الحرية:

واستطاع الإنجليز أن يخمدوا ثورة سنة ١٨٥٧م، وقتلوا الرجال والنساء والأطفال، واستطاعوا أن يسيطروا على البلاد، وتعرض المواطنون للقتل والتعذيب والتشريد والظلم على المستعمر الطاغي.. وكان المسلمون بصفة خاصة هدفا لحرب إبادة، فقد اعتقد المحتلون أنهم مخططو ثورة ١٨٥٧م.

لقد استطاع المستعمر أن يسيطر على البلاد، ولكنه لم يستطع أن يقضي على جذوة الحرية المشتعلة في قلوب الوطنيين الذي ما فتئوا يجاهدون ويفكرون حتى قام المؤتمر الوطني العام سنة ١٨٨٤. وشارك المسلمون فيه، وطفق المتعلمون منهم ينشرون الوعي السياسي بين كافة المواطنين.. ومع هذا عاشت الهند كواحدة من مستعمرات التاج البريطاني منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين في صراع داخلي مرير بين الهندوس والمسلمين.. ورغم هذا جمعت المقادير بين (ازاد) و(غاندي) ليدخلا ميدان السياسة ويتجهان للعمل على أنصاف الشعب من محتله، وتخفيف قبضته عنه، وتحريره نهائيًا.

أبو الكلام ازاد:

بدأ أبو الكلام ازاد وهو يناهز العشرين من عمره، يتجه إلى الجامعات السرية الهندوسية التي تعمل في الخفاء ضد الإنجليز في المنطقة الشرقية من الهند، واقنع بعض الشباب المسلم بالاشتراك معه في هذه الجماعات.. ثم لم يلبث أن قام سنة ١٩٠٨ برحلة إلى بعض البلاد العربية: العراق، وسوريا، ومصر، وإلى تركيا.. واتصل في مصر برجال الحزب الوطني بعد وفاة مصطفى كامل.. وبتلاميذه جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، كما اتصل بشباب تركي يعمل ضد استبداد السلطان.. وعاد من رحلته متأثرا بما رأى وسمع، ولكنه كان أكثر تأثرا بمدرسة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده التي تعتمد على إحياء روح الدين الصحيح في النفوس كوسيلة من وسائل محاربة الاستعمار.. وكان (ازاد) عالما من علماء الهند المسلمين، نشأ في بيت علم وتصوف، وأضاف إلى ثقافته الدينية ما اكتسبه بجهده الخاص من ثقافة حديث، أتاحتها له اللغة الإنجليزية التي تعلمها بعد تخرجه من دراسته الدينية.. ولهذا كله تأثر بآراء جمال الدين الأفغاني ومدرسته، وعاد إلى الهند لا ليواصل نشاطه في الجمعيات السرية التي كان قد انضم إليها قبل رحلته، أو يقبع في مسجد أو مدرسة دينية يعلم فيها.. بل ليتجه اتجاها جديدا في إيقاظ المسلمين وتنبيه المسلمين إلى واجباتهم في التحرر والنهوض عن طريق الدين، وتبصير المسلمين بتعاليمه، وتقوية العقيدة في نفوسهم التي كانوا يملكونها وهي التربية الإسلامية عن طريق الدروس والخطب.

وتنفيذا لخطته انشأ مجلة (الهلال). وصدر العدد الأول منها في يونيو ١٩١٢م وكانت كما يقول: أنيقة الطباعة، قوية الدعوة، ليست على غرار ما يصدر من الصحف والمجلات الأردية المحرومة من مميزات الصحافة الحديثة.. وكان صدور (الهلال) نقطة تحول في تاريخ الصحافة الزردية حيث نالت إقبالا متقطع النظير، وأعجب بها الشعب. لا من ناحية طباعتها فقط، بل من ناحية دروسها الدينية الوطنية التي تأثروا بها تأثرا بالغا، بحيث خلقت بين المسلمين عامة حركة ثورية جديدة.. وقد اتخذت (الهلال) من يوم صدورها خطة مهاجمة الاستعمار والاستبداد، وبيان رأي الإسلام فيهما، وتوجيه المسلمين بذلك إلى التخلص منهما، وكانت بذلك تنحو نحوا مضادا لاتجاه جماعة (عليكره) التي تزعمها سير سيد أحمد خان.. وكان يدعو إلى مسالمة الاستعمال والسير في وركابه، حتى لا يظل المسلمين مبعدين عن الوظائف الحكومية وعن الاشتراك في إدارة البلاد.

وقد رحب المسلمون بالهلال وخطتها بينما أحست جماعة (عليكرة) والمستعمرون بالخطر عليهم منها، ولذا كان من الطبيعي أن يعمل الاستعمار على التخلص من هذا الصوت

الجديد الخطير. فأخذ يفرض الغرامات على المجلة لإعجازها عن الصدور، ومولانا ازاد والمحيطون به يقاومون. حتى اضطرت الحكومة أخيرًا إلى إغلاقها ومصادرة مطبعتها.

لم يستسلم أزاد:د

ومع ذلك لم يستسلم أزاد، فأصدر سنة ١٩١٥ وبعد خمسة شهور مجلة آخرة باسم (البلاغ) وسارت على الخطة نفسها، وظل يدعو المسلمين إلى التحرير من قبضة الاستعمال، إلى مقاطعته حتى ضاق الانجليزية به ذرعا فاعتقلوه، وظل معتقلا أربع سنوات حيث خرج سنة ١٩١٩م.

ومن على منبر الهلال والبلاغ أخذ مولانا أزاد يلهب الثورة في نفوس المسلمين عن طريق الدين، ومن كلماته يخاطب المسلمين (السنا من اتباع الدين القويم، وحاملين أمانة الله وخلفائه في الأرض، فما بالنا نخاف ونتخاذل ولا نجاهد حتى نصبح أحرارا ذوي سيادة، نتمتع بالكرامة، ونخطو خطوات واسعة في سبيل تخليص الأمم المستعبدة؟ وإذا أعرضنا ولم نستغل مواهبنا فسيطوى التاريخ ما خصه لنا من باب حافل بالمجد والشرف، ويفتح لنا بابا آخر يسجل فيه أمام الأجيال أن الهند سعت إلى الحركة، فلبى قوم نداءها وأحجم آخرون، واحسرتا حين يقول: إن هؤلاء كانوا أمة مسلمة، تزعم أنها قائدة الأمم وزعيمة الأقوام!!).

وفي الوقت الذي كان يثير في المسلمين روح الدين للتحرر من الاستعمار. كان يدعوهم على فهم الإسلام صحيحا، ونبذ التقليد والجمود للتخلص من البدع والخرافات.. إل.. وهي الطريقة نفسها التي كان يسير عليها الأفغاني ومدرسته في مصر، والزعماء الصلاحيون في كل مكان: الدين السليم المتحرر من الجمهور والبدع والخرافات، هو الطريق الوحيد لتحرير المسلمين، وإعادة مجدهم وحضارتهم.

ويقف مولانا أزاد في القمة من الدعوة للتحرير عن طريق الإسلام حتى قبض عليه الإنجليزي في ديسمبر ١٩٢١ بتهمة الدعوة إلى مقاطعة الإنجليز، ومقاطعة ولي عهد إنجلترا للهند، وقدمته للمحاكمة، وتولى أمر الدفاع عن نفسه في مرافعة طويلة، وكانت فرصة انتهزها لا ليقنع المحكمة ببراءته، فقد قام الدليل على إدانته حسب قوانين الحكومة. بل ليتخذ من هذه المرافعة التي كان يتبعها الجمهور وسيلة للدعوة من داخل المحكمة إلى الثورة على المستعمرين، مستمدا من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وتاريخ المسلمين سلاحه في هذه الدعوة وهذه المرافعة تعتبر بحق أثمن وثيقة تكشف عن موقف الإسلام من الاستبداد.

الإسلام والاستبداد:

عبارات كثيرة وخطب عديدة قالها مولانا أزاد حول الحرية والاستقلال والإسلام والاستبداد نقتطف منها قوله:

(أني مسلم، ولأني مسلم وجب على أن أندد بالاستبداد وقيمه، وأشهر بمساوئه، وليعلم أن الإسلام لا يعترف بالحكومة الشخصية "الفردية" ولا بحكومة عصبة من الموظفين، لأنه نظام كامل للديمقراطية، ولأنه جاء ليرد إلى النوع الإنساني حريته المغصوبة. ا، الإسلام بمجرد ظهوره أعلن أن الحق ليس في القوة، وليس هو القوة، بل الحق هو الحق، وأنه ليس لأحد من البشر أن يستعبد عباد الله).

وقولة:

(ما دام الإسلام ينهى المسلمين عن قبول حكومة إسلامية لم تشغل برأي الأمة ورضاها. فما تكون قيمة الحكومة الأجنبية المستبدة في نظر المسلمين؟

(ولعمري أن المطالبة من مسلم أن يسكت عن الحق، ولا يسمى الظلم ظلما مثل مطالبته بأن يتنازل عن حياته الإسلامية).

(الإسلام من أوله إلى آخره دعوة عامة إلى التضحية والبسالة والجرأة والاستهانة بالموت في سبيل الحق).

(وقد ابيضت عين الدهر، ولم تر مثل هذه الضحايا الكثيرة العظيمة التي قدمتها الأمة الإسلامية في كل دور من أدوار حياتها في سبيل إعلاء كلمة الحق).

(إن الإسلام أعلن حقوق الإنسان قبل ثورة فرنسا بأحد عشر قرنا، وليس مجرد إعلان، بل وضع نظاما عمليا له بالغا في الكمال منتهاه، وطبقه).

(وأنى أصرح هنا بأن – الهلال – لم تكن إلا دعوة للحرية، أو الموت، وأن ما يعمله المهاتما غاندي في بث الروح الدينية بين الهنود. كانت الهلال، قد فرغت منه سنة ١٩١٤.

(وأن من المصادفات العجيبة أن المسلمين والهندوس ما قاموا بالحركة الجريئة القوية إلا بعد أن حلت فيهم الروحانية القديمة محل المدنية (الغربية المادية).

غاندي:

وكان إشارة (أزاد) في عبارته الأخيرة عن المدينة الغربية المادية، وتهالك الناس على الأخذ بها وترك تراثهم، وكان يكمن الداء في نظر غاندي، ولهذا كان يركز جهوده على

العودة بالناس إلى الروحانية القديمة، وأبعادهم عن المدنية الغربية المادية، والتي تجرهم جـرا إلى تعظيم الغرب والخضوع له والتخلي تبعا لذلك عن حضارتهم، وخصائصهم كأمة شـرقية مغايرة في خصائصها ومقوماتها للأمم الغربية.

ولهذا يقول غاندي:

(أنني مقتنع بأن الذي سحق الهند ليس الإنجليز، وإنما الحضارة الحديثة. وهـي تـئن تحت ثقل هذا الوحش المخيف.. أن الدين عزيز جدا على، وإذا كان هناك ما أأسف لـه فهـو كون الهند قد ابتعدت عن الدين، وترددت في الكفر والإلحاد، وأنـا هنـا لا أقـصد الديانـة الهندوسية أو الإسلامية أو الزرداشية بل التي تجمع بين هذه كلها، أننا الآن ندير ظهرنا لله).

بعث الأمة:

وقد نجح (غاندي) كما نجح (أزاد) في بعث الأمة الهندية الضخمة عن طريق إحيـاء الروح الدينية فيما على اختلاف نزعاتها.

هذا ما كان في الماضي، أيام ما كان العلم الإنجليزي يرفرف على بوابة الهندي.. أما اليوم ورغم كل ما تعرض له الإسلام على يد هذا الاحتلال البغيض لم يسقط، ولم يغادر بلاد الشرق البعيدة في شبه القارة الهندية، أو من النساك والزاهدين، والأرض التي تضم اليوم أكثر من مائة مليون مسلم.. بل بقى هناك وحتى اليوم حرصا فاعلا متوهجا.. ويكفي للتدليل علـى ذلك جامعة دار العلوم.

جامعة دار العلوم (ديوبند – الهند):

تعد أقدم جامعة في شبه القارة الهندية على الإطلاق فقد أسست منذ أكثر مـن مائـة وعشرين عاما، وأشرف نخبة من خيرة العلماء، وكان من أبرز من دعا إلى إنـشائها حجـة الإسلام مولانا الشيخ محمد قاسم النانوتي، وتاريخ تلك الجامعة زاخـر بالعلمـاء والبـاحثين والفقهاء ممن لهم باع طويل في خدمة العلم وهؤلاء مكثوا يدعون. وينشرون الإسلام، حتـى أقاموا منارا عاليا للثقافة الإسلامية، وتركوا معالم وآثار على طول البلاد وعرضها، وخلفـوا تراثا علميا فيما ازدانت به المكتبة الإسلامية، إذا تحتوي مكتبة جامعة دار العلوم علـى مـا يقرب من ١٢٠ ألف كتاب في شتى المعارف والعلوم.

وتحت الجامعة مساحة شاسعة تضم دار للقرآن الكريم، ودار للتفسير وثالثة للحـديث إلى جانب العديد من دور العلم المختلفة.

وتهتم الجامعة بشكل ملموس بتدوين الحديث على المستوى الشامل رواية ودراية.

ما زال الحرص باقيًا على الإسلام:

ما زال حتى اليوم يحرص المسلمون في الهند حرصا شديدًا على الإسلام.. غير أن أروع فصول البطولة والتضحية كان كفاحهم السياسي واحتفاظهم بدينهم بعد فقد سلطانهم الإداري. فمسلمو الهند في أكثر الأقليات في العالم تمسكا بدينهم، وحتى يجعلوا لهذا التمسك قوة تسنده وتشد أزره. وتقوم سلوكه، أقاموا الكثير من المعاهد والمؤسسات الإسلامية والعربية من أهمها وأعرقها جامعة دار العلوم بديوبند التي أسست في أصعب ظروف سياسية واجتماعية للمسلمين في شبه القارة الهندية، فكانت ركيزتهم العلمية التي مدتهم بالثقافة النقية.. وقد تخرج فيها المحدث الكبير أنور شاه الكشميري، وشيخ الإسلام حسين أحمد المدني، وشيخ الإسلام شبير أحمد العثماني.. ولا غرو، فهم قد أسلموا عن يقين فلا تؤثر فيهم العواصف مهما كانت عاتية، ولا تحولهم عن دينهم دعوات الإلحاد المارقة وكانت الجامعة حصنا منيعًا ذابت أمامها شبهات المشككين حول الإسلام كالقديانية والبهائية وغيرها.

وأخيرًا كفت الموسيقى عن العزف، وجفت قناة الفردوس، وفقد إلى الأبد الدرع الذي كان يحمله المغول العظام.. ولكن.. مازالت القلعة الحمراء راسخة مرفوعة الهامة.. فما زال الهند مسلمون يحفظون تراثهم ويناضلون لتكون كلمة الله هي العليا.. ويشاركون كافة المواطنين في صنع المستقبل.. ولم تنل المحن من القلعة الحمراء، ولم تستطع معاول الحاقدين أن تزيل مجدها.. فبقيت – والمغول موتى – كلمتهم مسموعة.. فبقيت دلهي عاصمة الهند.. وعلم الحرية يرفرف خفاقا على بوابة لاهور.

بالإضافة إلى ما حدث في أكتوبر عام ١٩٧٥ حيث كان هناك حشد هائل من المسلمين الذي جاءوا من كل حدب وصوب على موعد في (لكنو) عاصمة الولاية الشمالية في شبه القارة الهندية حيث تجمعوا في ساحة ندوة العلماء يستمعون ويتعارفون ويصلون لربهم في هذا المسجد الذي ضاق بهم.

كانت المناسبة افتتاح المؤتمر الإسلامي التربوي. وكان الهدف منه بناء الإنسان المسلم وتعليمه في الهند.. وكانت وفود الدول العربية والإسلامية في مقدمة الذين حضروا هذا المؤتمر الإسلامي الكبير.

يومها افتتح المؤتمر.. ثم جاء موعد الصلاة.. ونادى المؤذن. الله أكبر.. الله أكبر.. ومع هذه الكلمات.. مع نداء الرحمن لبى الجميع ووقفوا في صفوف متلاصقة مستقيمة.. فلما ضاق بهم المسجد الكبير وساحته الشاسعة غصت بهم الطرقات، وسطوح المنازل والدور،

ووقفوا خاشعين يؤدون الصلاة وقد ولوا وجوههم شطر المسجد الحرام.. مشهد يملأ القلوب بالحب والود. مشهد الأخوان في الدين والإنسانية في هذا البلد العريق.

ولكن مع الوقت كيف يمكن لثقافة التعصب والكراهية والعنف أن تدع مآذن الهند الشمخة، ولا يتم أصابتها بالشروخ، إن ما حدث من تدمير لمسجد البابري في عام ١٩٩٢ بعد رسالة خطيرة إلى الضمير العالمي.

الهندوس واضطهاد المسلمين، وبداية الشروخ:

هذا الحدث وقع في مدينة هندية صغيرة تكاد تكون مجهولة، دمر فيه أحد المساجد التاريخية وقد فرض الحدث تحديات هائلة هندية وإسلامية وعالمية.. وربما قد يبرهن أنه إحدى العلامات المهمة في تحولات العالم الراهن.

وفي يوم السادس من ديسمبر عام ١٩٩٣ تجمع مئات الآلاف من المتهوسين الهندوس في حشد جماهيري هائل استجابة لدعوة وجهتها الأحزاب الأصولية الهندوسية بزعم القيام بمجرد مسيرة حول مسجد (البابري) بمدينة (أيوديا) بولاية (أوتار براديش) في الهند.

وخلال ساعات قليلة كان هذا الحشد الهائج قد أتم تدمير أجزاء كبيرة من هيكل هذا المسجد وإقامة ضريح رمزي للإله الهندوسي (رام) مكان بعض الأجزاء المهدمة، وذلك حتى يصبح مستحيلا أعادة بناء المسجد بالصورة التي كان عليها من قبل.

وقد وجه حادث مسجد بابري رسالة خطيرة إلى الضمير العالمي فحواها أن قوى التعصب والكراهية والعنف المستندة إلى الدين قد أنفلت عيارها وربما يصبح لها اليد الطولى في السياسة العالمية!

ولكي يتضح المعنى الكامل لهذه الرسالة يتعين وضع حادث مسجد (البابري) في سياقه العالمي، فثقافة التعصب والعنف ليست شيئًا جديدًا في الساحة السياسية الدولية.. غير أنها حتى وقت قريب كانت مجرد محور فقط من محاور عديدة للسياسة بمفهومها العام. كما كانت التيار الأضعف والغارب في الحياة السياسية الدولية، ولم تتمكن هذه الثقافة من أن تفرض نفسها كليا إلا حيثما واجهت هياكل دولة هشة وضعيفة مثلما هو الحال في أفريقيا تحت الصحراء.. وحتى في هذه الحالة كانت تلك الثقافة تهرب رسالتها عبر فكر سياسي وأيديولوجي آخر أكثر قدرة على مخاطبة ضمير العصر، ويبدو أن ذلك يتغير الآن بما يسمح بالصعود السريع لقوى التعصب والكراهية والعنف الديني والقومي والعرقي والطائفي.

انهيار السوفييت. وعجز الديمقراطية:

ولا شك أن انهيار الاتحاد السوفيتي، وخبو نجم الفكر الاشتراكي قد ساهم أكبر مساهمة في هذه النتيجة المحزنة، فقد صار المجال الجغرافي السياسي الواسع الذي شغله الاتحاد السوفيتي المنحل كتلة معقدة وملتهبة من الصراعات والمنافسات التي تدور على جميع المحاور القومية، والدينية والجبهوية، كما أن ما سببه هذا الانهيار من اختلافات خطيرة في موازين القوى بشرق وجنوب أوربا مثل فرصة ذهبية لانقضاض ثقافة التعصب والعنف والكراهية على الهياكل السياسية التي أنتجتها التوازنات الجديدة، وهو ما يظهر بوضوح في حالة يوغسلافيا.. وبعد أن اتسع مداه ليشمل البلقان، وربما يتسع أكثر فيشمل أوروبا الجنوبية والشرقية والوسطى، إلى جانب الجمهوريات الجنوبية للإتحاد السوفيتي المنحل.. كما ساهد في هذه النتيجة أيضا خواء وضعف الجيل الحالي من القيادات الأوروبية، والأزمة الأخلاقية والسياسية في أوروبا الغربية والولايات المتحدة، فقد اتجه الرأي العام في هذه التجمعات إلى تفضيل التحلل من المسئوليات السياسية لصالح التركيز على الشئون الداخلية، وكان لهذه العوامل دور مهم في عجز الديموقراطيات الغربية عن التدخل من منطلقات إنسانية وقانونية لإعادة السلام والاستقرار في المناطق التي تلتهب بثقافة التعصب في أوروبا ذاتها – كحالة البوسنة والهرسك – وفي العالم كله.

ولا شك أن انفلات ثقافة التعصب والكراهية والعنف بين الأديان والشعوب في مناطق عديدة من العالم يعود إلى أسباب اقتصادية واجتماعية وثقافية معقدة.. وهذه الأسباب تزيد أزمة الدولة عمقا كما تفاقم من إشكالية التوجيهات الأخلاقية بعيدة المدى للإنسانية ككل.. وفيما يتصل بالعالم الثالث، فإن النتيجة المباشرة لهذا الانفلات هي تعميق التخلف بكل جوانبه وتفاقم العجز عن تجاوزه يوما بعد يوم، هذا إلى جانب ما يؤدي إليه افتراس لملايين من البشر بسبب آليات العنف والمجازر البشرية في أماكن عديدة من العالم وممارسات التطهير العرقي.

وفي إطار الصورة العامة تكتسب أحداث (أيوديا) مغزاها الحقيق، فهناك أيضًا لا تعد ثقافة التعصب والكراهة والعنف الديني أمرًا جديدًا، فقد نشأت منظمات متعصبة باسم الهندوسية الأصولية منذ بداية القرن الماضي، واتخذت من اضطهاد المسلمين أحد أهم محاور عملها السياسي. وإنما يكمن الجديد ف أن هذه القوى تضخمت كثيرا وصارت تتصرف بغطرسة وثقة كاملتين، وأن الدولة المركزي والنخبة السياسية العلمانية الديموقراطية كادت تفقد السيطرة وحسن المبادرة في الموقف السياسي الداخلي الراهن.

نتائج خطيرة محتملة:

ولو تصورنا أن الهند سقطت تماما بتأثير التضخم الحلزوني لدوائر العنف تحت سيارة ثقافة وقوى التعصب والكراهة فسوف يكون لذلك نتائج إقليمية وعالمية غاية في الخطورة.

وربما تكون النتيجة الأولى هي سقوط تجربة الهند الفريدة في الديمقراطية السياسية، وسقوط هذه التجربة يضرب في الصميم الآمال المعقودة على التطور الديمقراطي في العالم الثالث ككل، وذلك أن الديمقراطية الهندية جمدت خلال نحو نصف قرن منذ استقلال الهند عام ١٩٤٧.. في الوقت الذي كانت فيه التجارب الليبرالية والديمقراطية الأخرى في العالم الثالث تسقط تباعا بتأثير عوامل معقدة، وهو ما عزز الاعتقاد الشائع بأن الديمقراطية لا تصلح في العالم الثالث، وأنها تتناقض مع ثقافته.

أما النتيجة الثانية فتتصل أيضا باحتمالات الوحدة السياسية للهند وتعرضها للتفتت على النحو نفسه الذي شهدناه في حالة الاتحاد السوفيتي والواقع أن النخبة السياسية في الهند تشعر بتوجس بالغ حيال هذا الاحتمال وهم يتحدثون عن نظرية (دومينو) مفادها أنه إذا سقطت دولة كبيرة متعددة القوميات مثل الاتحاد السوفيتي، فقد يدفع ذلك نحو سقوط دولة أخرى من التركيبة نفسها، فالهند هي مركب معقد يدفع ذلك نحو سقوط دول أخرى من التركيبة نفسها، فالهند هي مركب من الأديان والقوميات، يشكل فيها الهندوس نحو ٨٠% من السكان، ويشكل المسلمون نحو ١١% وتوزع باقي السكان بين ديانات شتى أهمها السيخ والبوذيون والمسيحيون، وأقليات دينية أصغر ومن الناحية القومية واللغوية لا يتحدث لغة الهند غير ٣٠% من السكان. ويعترف الدستور بـ ١٦ لغة إقليمية، وفوق ذلك فإن مخاوف النخبة الهندية من تدمير وحدة الهند ليست أمرًا افتراضيًا، إذا أن البلاد تشغى بالفعل بالحركات الانفصالية والعرقية والطائفية التي يذهب بعضها إلى استخدام العنف بكل صورة، بما فيها الإرهاب والاغتيال السياسي، وقد راحت السيدة أنديرا غاندي وابنها راجيف غاندي رئيسا وزراء الهند ضحية لهذه الحركات.

وإذا ما تصورنا سقوط الهند في قبضة الاتجاه العام لتفتت الدول القوميات والأديان فسوف يبعث ذلك موجة هائلة من عدم الاستقرار في جنوب آسيا، وقد تمتد هذه الموجة إلى أجزاء معينة من غرب وشمال آسيا، بما يؤدي إلى فوضى عامة.. فوزن الهند الديموجرافي وحده – حيث وصل عدد سكان الهند في أول مارس عام ١٩٩١ إلى ٨٤٤,٥ مليون نسمة

تكفي مع زيادته المطردة مع الوقت لتمويل أي حادث داخلي كبير إلى موقف إقليمي وربما عالمي كبير أيضا.

أما النتيجة الثالثة فترتبط بمجال خاص للعلاقات الدولية، وهو علاقة المسلمين بالعالم المحيط بهم، ويكتسب هذا الموضوع حساسية خاصة بالنسبة للعرب، إذا تكتسب أحداث الهند الدامية أهمية خطيرة بسبب أنها جاءت متزامنة تقريبا مع أحدات مشابهة في مناطق عديدة من العالم.

ومن المؤكد أن رد الفعل الميكانيكي هو استجابة غير سليمة من الناحيتين الأخلاقية والسياسية، غير أنه سيكون من الصعب للغاية تجاوزه جذريا بين جموع المسلمين في ظروف اضطهاد متزامن، وقد مثلت جدلية الاضطهاد هذا الأساس الموضوعي لانتشار ثقافة التعصب والكراهية والعنف بين الجماعات المنتمية للأديان الكبرى في العالم.. وكان المأمور أن ينتقل النظام الدولي من جدلية الاضطهاد الديني إلى جدلية مناقضة تقوم على التسامح والاستنارة والحوار بين الجماعات المختلفة دينيا.. ولا شك أن فشل هذا الانتقال المأمول من جدلية الاضطهاد إلى جدلية التسامح والتنوير هو أحد مظاهر خيانة التنوير كمشروع سياسي/فلسفي في النظام العالمي الراهن.

مغزى الأحداث بالنسبة للهند:

لم تنج محاولة أطراف رئيسية في السياسية الهندية تواطأت أو ساهمت في تدبير حادث هدم مسجد البابري في تصوير الحادث، وكأنه انهيار مؤقت وزائل للسيطرة على الجماهير المتعصبة التي مستها حالة من الهيستريا الدينية فجأة وبحيث لم تملك الأحزاب المنظمة للمسيرة ولا سلطات الولاية التي تنتمي لحزب بهاراتيا جاناتا دفع النتيجة النهائية، فالصحافة والأحزاب التقدمية والديمقراطية في الهند كانت قد سجلت بالصوت والصورة (بروفات) عملية الهدم قبل أن تتم فعلا ببضعة أيام. وهي بروفات كان يقودها مسئولون كبار في الأحزاب الهندوسية التي دعت للمسيرة، ووفر هؤلاء المسئولون الإطار التحريضي والتنظيمي، بل والآلات والمعدات اللازمة لعملية الهدم التي حسبت هندسيا وجربت عمليا بهدوء أعصاب ويقين كاملين.. كما أن المسئولون بحكومة ولاية أوتار براديش قد تغيبوا عمدا عن مواقع العمل حتى لا ينجح معهم أي اتصال يدعوهم للتصرف وفقا لمسئولياتهم القانونية.. وكذلك تعمد رجال البوليس الذي كانوا على مقربة من الأحداث بأعداد كبيرة تجاهل الموقف الذي كانت أحداثه تدور أمامهم وتصرفوا بسلبية كاملة وبدرجة ملحوظة من التواطؤ.

أما الحكومة المركزية التي تشكل من كبار المسئولين في حزب المؤتمر الهندي فقد تجاهلت كل التحذيرات التي توافرت بكثرة عن قرب مؤامرة الهدم، ورفضت اتخاذ التدابير الدستورية والقانونية الضرورية لمنع هذه المؤامرة وفرض القانون والنظام.

ويعد الضعف الذي ظهر من جانب الحكومة المركزية بزعامة ناراسيمهاروا أمرًا جديدًا ومثيرًا للقلق الشديد، ويمكننا أن نفهم ذلك بمضاهاة سلوك الحكومة المركزية في نهاية عام ١٩٩٢ وبداية عام ١٩٩٣. بالأداء المتميز الذي واجهت به حكومة ائتلافية ضعيفة بزعامة السيد سنج المحاولة نفسها من جانب الأحزاب الأصولية الهندوسية لهدم مسجد البابري في أكتوبر ١٩٩٠، إذ تصرفت الحكومة وقتئذ ومعها حكومة ولاية أوتار براديش التي كيقع فيها المسجد بحزم واستقامة كاملين أمام الحشود الهائلة التي تجمعت حول المسجد، وأعتقل البوليس آلاف من هؤلاء الغوغاء، بمن فيهم زعيم حزب بهاراتيا جاناتا نفسه الذي قاد محاولة هدم المسجد في ذلك الوقت.

وإذا كانت حكومة حزب المؤتمر قد ظهرت بهذا الخوار والضعف عام ١٩٩٣ بالمقارنة بحكومة سابقة عليها عام ١٩٩٠، فربما يعود ذلك إلى خشيتها من الاصطدام المباشر بالأحزاب الأصولية الهندوسية المتعصبة بالانتخابات العامة المقبلة في حينها بسبب التنامي السريع لشعبيتها وخاصة داخل الطبقة الوسطى الحديثة التي وقفت تقليديا خلف حزب المؤتمر.

ويكشف هذا التقرير عن حقيقة التحريض القومي الهندوسي المعادي للمسلمين وللأقليات الدينية الأخرى انطلاقا من ترويج مفاهيم مغلقة وجامدة ومتعصبة ومشحونة بعاطفة شديدة التطرف، هو الآن وسيلة للنفوذ وسط الرأي العام الهندوسي وطريق إلى السلطة السياسية.. وبهذا يكون برنامجها الرسمي هو تحقيق النقاء الديني/ القومي للهند، وبناء وطن قومي هندوسي أو ما يسمونه (هندورا شترا).. وقد يكون من أهم نتائج هذا الاحتمال تدمير الهند السياسية أو تدمير الديمقراطية الهندية أو كليهما معا ودفع الهند إلى الفوضى والتحلل والعنف.

وقد شوهد بالفعل نموذجا مصغرًا مما قد تنتهي إليه أمور في هذا الحالة، فخلال ثلاثة أيام من ٩-١١ يناير عام ١٩٩٣ شهدت مدينة بومباي أكبر المدن الهندية والعاصمة الصناعية التجارية للهند موجة هائلة من أعمال القتل والحرق والملاحقة ضد المسلمين الأمر الذي أسفر عن استشهاد ما يربو على ألفي مسلم وبضعة آلاف من الجرحى، وخسائر مادية هائلة، إضافة إلى نزوح مئات الآلاف من المسلمين، أو أغلبهم من مهاجري بنجلاديش والسنغال هربا بحياتهم من المدينة التي ظلت لشهور بعد ذلك في حالة شديدة من التوتر والقلق، وقد سلمت هيئات ومنظمات ديمقراطية وإسلامية هندية إلى المحاكم عشرات من الشرائط المسجلة

للاتصالات التليفونية لكبار ضباط البوليس العاملين في المدينة يتعاطفون ويحرضون فيها على عملية إحراق المساجد وأعمال القتل والملاحقة وإشعال النار في ممتلكات المسلمين.

أن إدراك المغزى الكامل لهذه الأحداث يدعو إلى محاولة تفسيرها بصورة عملية، وهنا لابد أن ندلف إلى طائفة واسعة من التفسيرات التي تتردد في الصحافة الديمقراطية في الهند وبين دوائر النخبة السياسية النهروية.

تفسيرات.. وتفسيرات:

وهكذا تشيع مصادر صحفية وحزبية نظرية قوامها: ٠

(.. أن أحداث مسجد البابري في ديسمبر وبومباي في يناير ١٩٩٣ لا المسلمين مباشرة، وإنما كان وراءها أهداف وقوى اقتصادية واجتماعية معينة).

في إحدى الصياغات لهذه النظرية يقال إن فئات معينة من المضاربين في الأرض قد حرضوا على أحداث الصراع الدينين، حتى تحرق الأكواخ الصفيحية التي تمتد لعدة كيلو مترات في بومباي، وعدد كبير آخر من المدن الهندية الكبرى، والتي عادة ما يسكنها المسلمون واللاجئون الفقراء من بنجلاديش ودول أخرى محيطة في الهند حتى يتمكنوا من بيع هذه الأراضي.

وفي صيغة أخرى يقال أن الطائفة العليا في نظام المكانات الهندي الجامد، وهي طائفة البراهما قد حرصت على التنكيل بالمسلمين ورموزهم الدينية من أجل إحياء الهندوسية الاجتماعية وبالتالي وقف التحلل الجزئي الذي أصاب نظام المكانات منذ الاستقلال، وهو الأمر الذي يعيد هذه الطائفة للسيطرة الكاملة على المجتمع الهندي من جديد، بعدما أدى التحسن النسبي في أوضاع الطوائف الدنيا وخاصة الباديت والمبنوذين إلى تمردهم على سلطة البراهما.

غير أن الصيغة الأكثر مصداقية تنسب تفاقم الصراع الديني إلى الأزمة الاجتماعية التي تسببت عن التحول الجذري في الإستراتيجية الاقتصادية للهند، فقد أقلعت حكومة نارسيمهاروا عن التقاليد الإستراتيجية والاستقلال الاقتصادي وتصنيع الهند بإمكاناتها الذاتية. وضبط مستويات الأسعار والأجور، وغير ذلك من عناصر اشتراكية الدولة.. عمدت الحكومة إلى إعادة إدماج الهند في النظام الاقتصادي العالمي، وتطبق لهذا الغرض برنامج التكيف الاقتصادي المفروض عليها من جانب صندوق النقد الدولي، وتطبق سياسات تستهدف تطبيق نظام السوق الحر، وأدى ذلك إلى أوضاع اقتصادية خانقة حيث وصل التضخم إلى معدلات

غير مسبوقة، وتعاظمت بسرعة معدلات البطالة وخاصة بين الفقراء والشباب، هذا إلى جانب استفحال المشكلات التقليدية للهند في مجالات الإسكان والصحة حتى في أكثر من المدن الهندية ثراء مثل بومباي.

شعار الثقافة الوطنية:

وهنا لابد من الإشارة إلى الدور الرئيسي لأدوات وآليات نشر ثقافة التعصب والكراهية والعنف القائم على إسناد ديني: أي إلى دور الأحزاب الأصولية الهندوسية.. ويعد حزب بهارتيا جانات أهم أقوى الأصولية الهندوسية، وهو يطرح شعارا بسيطا قوامه (الوطنية الثقافية). ويعني بذلك أن الوطنية في الهند تستند إلى الديانة (أو بالأحرى الديانات) الهندوسية.. كما يتضمن هذا الشعار نبذ مبدأ الدولة الديمقراطية العلمانية، وينادي الحزب بإحياء الوطنية الهندوسية التي يرى أنها قد همشت وفقا للدستور الهندي، وتصطدم فترة الوطنية الهندوسية أساسا مع واقع التاريخ الهندي، إذ يرى هذا الحزب أن الإمبراطوريات الإسلامية في الهند – وتحديدا الإمبراطورية المغولية – قد ظلمت الديانات الهندوسية بأن حاولت إبادتها، وهو ما عبر عنه نفسه بهدم المعابد الهندوسية، وإقامة مساجد مكانها، ولذلك يكاد الحزب أن يلخص دعوته الأيدلوجية كلها في المطالبة باستعادة مواقع المساجد الهندية التاريخية وتحويلها إلى معابد هندوسية من جديد.. وهنا تأتي أهمية المطالبة بهدم مسجد البابري الذي يرجع تاريخه إلى ٤٦٠ عاما، وهو المسجد الذي يعد من أهم معالم الإسلام في الهند.. وحيث أن هذا الحزب يعبر عن رؤى ومصالح طائفة البراهمة فمن الطبيعي أن نجده يذهب إلى حد اعتبار نظام المكانات الهندية جزء لا يتجزأ من شخصية ووطنية الهند.. وهذه الطائفة بالإضافة إلى دفاعها عن نظام الطوائف الجامد، ومحاولتها أحياءه ترفض أيضا التقاليد النهروية التي سعت لإقامة اقتصاد هندي مستقل عبر سياسة شاملة للتصنيع الوطني بالإحلال محل الواردات.. والحزب بالتالي يرفض حتى برنامج الإصلاح الاقتصادي الليبرالي الذي يطبقه حزب المؤتمر، وينادي بتطبيق برنامج أكثر جذرية حتى من ذلك الذي يطرحه صندوق النقد الدولي لضمان إدماج الهند في الاقتصاد العالمي.

العرب والتعصب الهندوسي:

تتنوع استجابة أجيال المسلمين ومدارسهم السياسية والثقافية في الهند حال المحنة التي يتعرضون لها جميعا مع تصاعد المد الأصولي الهندوسي العنيف، وخاصة بعد أحداث ٦ ديسمبر عام ١٩٩٣.. وتتطرف بعض هذه الاستجابات من أقصى درجات العنف حيث هناك

دعوة للجهاد، إلى أقصى درجات المرونة حتى تصل إلى دعوة للتفاوض مع حــزب بهارتيــا جاناتا أكبر الأحزاب الأصولية الهندوسية.

ومع هذا نرجو أن يتجاوز المسلمون في الهند هذه المحنة بالجمع بين أقصى درجــة من العقلانية والاستنارة، والنضال، جنبا إلى جنب مع كل القوى الديمقراطية في الهنــد ضــد الفاشية الدينية بكل صورها.

ولا شك أن إفراز الاستجابة السليمة لهذه المحنة هي شأن المسلمين في الهند أساســا غير أن العرب يمكنهم أيضا أن يفعلوا أشياء كثيرة لدعم النضال الديمقراطي للمــسلمين فــي الهند، ومن أجل الحيلولة دون تكرار المحنة التي واجهوها هناك في ديسمبر ١٩٩٢ وينــاير ١٩٩٣، أو تعرضهم لمحنة أكبر في المستقبل.

وفي إطار البحث عن المدخل السليم للتأثير العربي في مجال حماية المــسلمين فــي الهند، وهم أكبر تجمع إسلامي في العالم للمسلمين في دولة واحدة، يجب أن يوضع منذ البداية الحدود المناسبة للتحرك العربي، بمعنى أن هناك واجبا أخلاقيا ومعنويا على العــرب بــشأن حماية المسلمين في الهندي من التعرض لممارسات العنف، ومحاولات الإبادة أو الإزاحــة.. وفي الوقت نفسه احترام استقلال الهند وسيادتها وعدم التدخل المباشر في شــئونها الداخليــة، مادامت الدولة قادرة من حيث المبدأ على القيام بمسئولياتها القانونية فــي حمايــة مواطنيهــا جميعا، بمن فيهم المسلمون.

ما سبق ذكره تم نشره في مقال للدكتور محمد السيد سعيد بمجلة العربي (عدد أكتوبر ١٩٩٣) تحت عنوان (الهندوس واضطهاد المسلمين في الهند).. ولكن آخر ما وصلنا من أنباء حول نفس الموضوع نشر في جريدة الأهرام (عدد ١٥ يناير ٢٠٠١) تحــت عنــوان (فــشل مساعي إنهاء النزاع الدموي بالهند بين المسلمين والهندوس حول مسجد بابري) وفيــه تنقــل الجريدة عن وكالة رويتر ما يلي:

(ذكرت صحيفة هندوستان تايمز الهندية أمس أن محاولات إجراء محادثــات طائفيــة لحسم نزاع قديم بشأن تدمير مسجد بابري القديم قد فشلت بعد ن رفــض زعمــاء الهنــدوس والمسلمين عقد المباحثات – وأضافت الجريدة–.. وكان مجلس الهندوس العالمي قد أعلن فــي وقت سابق أن زعماؤه سيجرون مباحثات مع زعماء لجنة العمل الإسلامية الخاصة بمــسجد بابري في وقت لاحق في الشهر الحالي لحسم نزاع طائفي متفجر حول المسجد الــذي دمــره الهندوس عام ١٩٩٢ ويسعدون لبناء معبد في موقعه. وأشارت الصحيفة الهندية إلى أن زعيم مجلس الهندوس لن يحضر المحادثات التي كان محددا لها يوم ٣ يناير الحالي، كما رفــضتها

من قبل زعماء مسلمون.. وتجدر الإشارة إلى أن جماعات هندوسية ذات صلة بحزب بهاراتيا جاناتا الذي يتزعمه رئيس الوزراء أتال ببهاري فاجباي شنت حملة لبناء معبد في موقع المسجد الذي يعتقد الهندوس أنه مسقط رأس الإله (رام) الذي يقدسونه.. وذكرت الصحيفة أن المجلس الهندوسي يعتزم المضي قدما في حملة بناء المعبد).

إذن لم يكن الأمر شرخًا في مأذنة مسجد البابري الهندي فحسب بل كان معولا لهدم كل مآذن الهند من أساسها.

٢ – الصين

ثمة ملف ضائع من الضمير الإسلامي باسم مسلمي الصين.

ملف موجود ومفقود.. ولكن مشكلته وعقدته أنه موجود وسط أكثر بلاد العالم عزلة وتفردًا.. بل وسط أضخم وأغرب محيط بشري عرفه التاريخ.. وهو محيط شطآنه بغير نهاية – وعمقه بلا قرار، والغازة وطلاسمه منذ الأزل، وربما إلى الأبد.

في أرض الأسرار الكامنة عن آخر أطراف المعمورة ضاع ملف مسلمي الصين، وطال به الأمد في التيه، حتى كادت ملايينهم تتحول في الذاكرة الإسلامية من بشر إلى أشباح.. ومن حقيقة إلى أسطورة، ومن خبر إلى أثر!.. وبتنا نقرأ في الكتب والأبحاث عن مسلمي الصين كلاما أشبه بحكايات الجدات، التي سرعان ما ينضب معينها، وينفذ منها الكلام المباح، قبل أن تتصايح الديكة ويلوح الصباح!

ليست المشكلة في الوصول إلى الصين، فلم يعد الأمر يحتاج إلى (شجاعة الشجعان) كما كان يردد الجغرافيون العرب القدامى، وليست المشكلة في أن تدخل باب الصين الذي تعذر على الجمع اجتيازه. فوقفوا بما فيهم تجار الحرير قبل ألفي عام.. عند الحدود يسلمون ويتسلمون.

كان هذا في الماضي أما الآن فكل الأقدام تجوس في بكين، من كل لون وجنس، لا هيبة ولا تقديس، فقد أبيحت للجميع. بعد أن كانت أقدام الأباطرة وزوجاتهم وأبناءهم هي وحدها التي تنطلق على طرقاتها، وتخترق بواباتها وتستظل بجدرانها، وتتفيأ بحدائقها.. ولكن المشكلة الحقيقية رغم هذا أن تنفذ إلى أعماق الصين، لتصل إلى جوهر قضية المسلمون أو غيرهم. أن تعرف ما بداخل هذه (الشرنقة) العتيدة.. فبعد اجتياز أبواب سور الصين المرئي فأنه من رابع المستحيلات أن تنفذ وراء ملايين الأسوار غير المرئية التي تنتصب شاهقة في أعماق الصينيين، مانعة كل اختراق، ومحبطة كل عبور، وحاجبة الرؤية عن الجميع.. وهي الحقيقة التي أدركها الباحث الألماني (الكونت كيسرلنج) بعد ما أعيته ظاهرة اللاقرار لذلك المحيط الهائل. فكتب يقول: أن الصيني هو أعمق رجل في العالم.

البداية:

ونبدأ من مدينة (كانتون).. أول ما كان يتوقف عنده الرحالة والتجار العرب القدامى، الذين قدموا الصين بالبحر، وكان أولهم فيها تذكرة المصادر العمانية تاجر عماني الأصل هو

أبو عبيدة عبدالله بن القاسم.. الذي أقلع من عمان إلى كانتون حوالي عام ١٣٣هـ - ٧٥٠م) ليشتري من هناك الصبار والأخشاب، وهو الرجل الذي أطلق عليه وصف السندباد.

أما أول مدونة عربية عن رحلة بحرية إلى هذه المناطق، فقد كتبها تاجر عربي آخر أمسه سليمان، كان كثير السفر إلى الهند والصين، وقد كتب في مدونته بعد مائة عام تقريبا من رحلة أبي عبيدة، وقال فيها أن خانقو (كانتون الآن) التي ينطقها الصينيون (كوانجو) هي مرفأ السفن ومجتمع تجارات العرب وأهل الصين بعد خمسة قرون من التاجر سليمان، فقد أطلق عليها اسم صين الصين أو صين كلان. واعتبرها (من أكبر المدن وأحسنها سوقا) مضيفا أن بينها وبين سد يأجوج ومأجوج ستين يوما، رغم قوله: (ولم أر بتلك البلاد من رأي السد، ولا من رأى من رآه)!!.. هذه أذن هي بوابة الصين التي تتم فيها إجراءات الدخول.. لذلك لم يكن غريبا أن تعتبر (كانتون) – وهي المدينة الحدودية (مجتمع تجارات العرب وأهل الصين) ولا يزال شارع التاجر العربي هو الذي يتركز حوله ما تبقى من مجتمع المسلمين بالمدينة إلى الآن.

الصين من الجو:

أن مشهد الصين من الجو تبدو فيه الصين وقد أدارت ظهرها للعالم وانفصلت عنه بالصحارى والهضاب والجبال الهائلة على اليابس. وبالمحيط الأعظم من ناحية البحر وأقامت فيما بين البر والبحر عالمها المثير والفريد، الذي يتخلله خمسة آلاف نهر، وتتعلق به ألفا جزيرة، ويعيش في دروبه ألف ونصف مليون نسمة وترقد على ظهره ثروات زراعية هائلة، وفي جوفه ثروات طبيعية بلا حصر، وتظلله حضارة ٥ آلاف سنة من التاريخ المكتوب.

من الجو سوف يتضح أن الصين كائن يتعذر الإلمام به، كائن فوق الإحاطة وفوق الاستيعاب.. أن كل ما كتب عن الصين لم يقدمها، بقدر ما كان يبعد عن القدر من الرؤية التي أتيح للكتاب أن يجعلوه من تجربة ذلك العالم المثير.

ولكن المهمة أن تكون أيسر.. إن كانت محاولة للعثور على ملف مسلمي الصين، الموجود المفقود، ثم قراءة بعض صفحاته بالقدر المتاح. ورغم أن مسلمي الصين هم قطرة في ذلك البحر المترامي الشطآن، إلا أن الموضوع له مجاهله التي تحتاج إلى إلحاح واقتحام، فألغازه وطلاسمه ليست مقصورة على الحاضر وحده، ولكنها تنسحب على الماضي أيضًا، ونادرة في الكتابات العربية، وحتى الأجنبية التي اهتمت بمسلمي الصين، سواء في ماضيهم أو حاضرهم. وللدقة فإن الكتابات عن صفحات الماضي قليلة أو نادرة.. فهي تكاد أن تكون منعدمة فيما يتعلق بواقع المسلمين الآن.

لماذا فتحوا الأبواب:

لماذا فتح الصينيون الأبواب للإسلام على هذا النحو؟

والإجابة هي أن المد الإسلامي المتعاظم الآن في أنحاء كثيرة، كان لابد أن يقابل من جانب أي دولة لها مصالح مع المسلمين، وبقدر متكافئ من الاهتمام، وهم في الصين منكبون من سنوات عديدة على ترجمة ونقل العديد من الكتب الإسلامية، وعلى سبيل المثال تمت ترجمة كتب أحمد أمين (فجر وضحى وظهر الإسلام) وكتب الدكتور حسن إبراهيم (الإسلام السياسي والاقتصادي والاجتماعي) هذه الكتب وغيرها الكثير تم ترجمتها من العربية إلى الصينية.

وعندما يكون مسرح هذا المد الإسلامي هو مناطق البترول والطاقة، فإن الاهتمام بالظاهرة لابد أن يكون أعظم، والإلحاح على إقامة جسور قوية مع هذه المناطق لابد أن يكون.. وكان الغزو السوفيتي لأفغانستان في ديسمبر ٧٩. بمثابة نقطة تحول في السياسة الصينية تجاه الإسلام والمسلمين. ففي أعقابه نشطت السياسة الصينية في اتجاه دعم الإسلام والمسلمين. حتى يبدو أن ثمة فارق بين اعتداء الروس ودعم الصين.. وهذه الرسالة كانت موجهة إلى العالم الخارجي من ناحية، وإلى المسلمين الصينيين من ناحية أخرى، وهم الذين تمتد مناطق تجمعاتهم الأساسية (سينكيانج) على الحدود المتاخمة للاتحاد السوفيتي.

وقد تجسد هذا الاهتمام بالمسلمين في داخل الصين، في الدعوة لعقد المؤتمر الرابع للجمعية الإسلامية الصينية بعد ثلاثة أشهر فقط من الغزو السوفيتي لأفغانستان.. وهو المؤتمر الذي انعقد في بكين العاصمة في إبريل ٨٠ بعد غيبة ١٧ عاما (المؤتمر الأول عقد لتأسيس الجمعية سنة ١٩٥٣)، والثاني والثالث عقدا، سنتي ٥٦، ٦٣ على التوالي) ثم عقد مؤتمر آخر لمسلمي مقاطعة (سينكياج) معقل المسلمين – في أوائل يوليو ١٩٨٠.

مسرحية إسلامية:

وفي عام ١٩٨٠ كانت بكين، عاصمة مملكة الأسرار تتحدث باهتمام بالغ عن مسرحية باسم (حكايات عن طريق الحرير).

وقد كان طريق الحرير هو الجسر البري الرئيسي بين الصين والغرب (يقصد العرب والفرس) حتى بداية القرن العاشر الميلادي.. والمسرحية الراقصة تروي قصة تاجر فارسي أسمه (أمينوس) قادم ببضاعته عبر الطريق، ولكنه يوشك على الهلاك بسبب عاصفة رملية تداهمه أثناء رحلته فينقذه رسام صيني (تشانج) وابنته (ينج يانج) غير أن قطاع الطرق

يخطفون الابنة التي يعثر عليها الأب بعد سنوات، وقد بيعت كرقيق، أصبحت راقصة في فرقة مسرحية، ولكن الأب يعجز عن افتدائها بالمال، فيلقاه التاجر الفارسي، ويرد الجميل، ويدفع له المبلغ المطلوب لتحرير الجميلة (ينج). ولكن الوالي المحلي في المدينة التي يتلقى فيها تجار الشرق والغرب يدبر مكيدة لاستعادة الفتاة، فيعهد بها والدها إلى صديقه الفارس أمينوس، وتهرب ينج مع التاجر إلى بلاد فارس، وتعقد مع أهلها صداقة وثيقة، فتتعلم رقصاتهم وتعلمهم رقصاتها.. وتدور دورة الزمن. ويذهب أمينوس عبر طريق الحرير في مهمة إلى بلاد الصين، ويصحب معه ينج، وما أن يعلم الوالي الشرير بقدومها، حتى يحرض عصابة من رجاله على اختطافها ويتسرب النبأ للأب تشانج، الذي يحاول تحذير التاجر وابنته، ولكنه يموت في هذه الظروف وتنجو الفتاة من الاختطاف وتتوجه مباشرة إلى سوق المدينة؛ حيث تقف وسط الجميع منددة بالوالي، فاضحة تصرفاته فيتم اعتقاله والعصابة التي تعاونه، ويعود الهدوء إلى المدينة، وتتوثق في أمان عرى الصداقة بين تجار الشرق والغرب.. ويسدل الستار وسط تصفيق شديد وحار.

ولأن كل شيء محسوب في الصين، فإن الرسالة التي تحملها مسرحية (على طريق الحرير) تحاول لفت الأنظار إلى الغرب، والفرس، الموجودين في المسرحية، بحجم متكافئ مع الحضور الصينيين، بندية تنطلق من الرغبة في تعميق قيمة الصداقة والانفتاح على الآخرين في المرحلة الراهنة، فالصيني الفنان، والفارس التاجر يواجهان الشر متكافئين، والابنة تتعلم الرقص الفارسي، وتعلم الفرس الرقص الصيني في (تعاون فني) ظاهر، وعندما ينتصرون على الوالي الشرير و(عصابته). فأن الجميع ينعم بالسلام والأمان.

أن التاريخ البعيد وهو محور المسرحية، التي لا تقدم معلومات جديدة، وأن كان يعسكان بوضوح روحا جديدة في المعالجة، أن الضوء الأخضر الذي كان في عام ١٩٨٠ لم يكن يكشف الطريق للعابر، ولكنه كان يسمح له فقط بالمرور وتجاوز خط الوقوف. وفي بلد شديد الانضباط لاستفهام من السلطة سواء كان على رأسها ابن السماء أم رئيس الحزب – فإن للإشارات الخضراء أهمية قصوى عند الناس أنها تعني بجلاء أن الحظر غير قائم، وأنه لا مانع من التقدم في هذا الاتجاه.

نقطة الانطلاق:

أن نقطة الانطلاق من بداية الطريق، هي متى وصل الإسلام على الصين أو تمركز في الأطراف بعيدًا عن القلب، وكيف كانت رحلته إلى هذه البلاد، ومساراتها ومنعطفاتها

ودروبها السالكة أو المسدودة.. وحول أمس المسلمين ويومهم، وربما غدهم هو طريق لابد وأن يمر بالتركيبة الفريدة لشعب الصين.

إن الأمر لابد أن يقتضي الرجوع إلى العديد من الأبحاث الصينية، المنشورة وغير المنشورة، وإلى محفوظات مكتبة بكين الضخمة، ومتاحف المدن الرئيسية العامر بآثار الماضي البعيد والقريب، كما يقتضي حوارات طويلة مع بعض الخبراء والمتخصصين والعارفين بأحوال المسلمين، وذلك غير شيوخ المسلمين وشبابهم. كما يقتضي القيام بجولة في بعض المناطق الإسلامية، والمراكز الهامة وثيقة الصلة برحلة الإسلام في الصين بين بكين وأرموس عاصمة مقاطعة إلى شيان العاصمة القديمة وآخر نقطة في طريق الحرير القادم من بلاد العرب والفرس، ومنها إلى شنغهاي المدينة الثانية في الصين، ثم إلى كانتون، أول ما طرقه العرب القادمون عبر البحر من مدن الصين، وهي رحلة امتدت من الغرب إلى الجنوب وتراوحت بين نفس الربيع والحر الخانق والبرد الشديد، لمسافة تجاوزت ٢٠ ألف كيلو متر.. ومع ذلك فإن الباحث في أعماق الصين يشعر بأن جولته فيها مهما طالت. فإن ما يجهله أكثر بكثير مما يعلمه وأن ما خفي أضعاف، وأضعاف ما ظهر. وأن غاية ما حصله أنه اغترف غرفة من بحر الحقيقة، وغرف بحر الابتسام!!

علاقات قبل الإسلام:

إن الذين قالوا عن الصين أنها (جنة المؤرخين) لم يبالغوا في إطلاق هذا الوصف على الإطلاق، بل هم صادقون مائة بالمائة.. أن سجلاتهم تروي بتفصيل مذهل أحاديث مفصلة عن تاريخ الصين منذ عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد – ذلك أن بلاط الإمبراطور، ابن السماء، كان يضم مؤرخين رسميين يسجلون كل ما يقع من أحداث في البلاط، هو تاريخ الإمبراطور صحيح، ولكن ينبغي ألا ننسى أن الإمبراطور كان كل شيء.

فقط هناك مشكلة ومحظور قراءة هذه السجلات.. فالجهل باللغة الصينية عقبة تحول دون الاستفادة الجديدة من تلك السجلات، وهو ما يخفف منه أن بعض هذه السجلات، وخصوصا في الفترات الهامة من تاريخ الصين، قد ترجم إلى الإنجليزية، فضلا عن جهود المترجمين التي تساعد على تيسير مهمة الباحث.. وربما كان جدار اللغة هذا، أحد العوامل التي أسهمت في التقليل من الكتابة العلمية الموثقة من الصين، سواء تعلق الأمر بعلاقاتهم بالعرب أو المسلمين.. أو بغيرهم.

أما المحظور فإن تلك السجلات، لأنها تاريخ حكومي، فقد كانت تعرض الوقائع وتصوغها بمنظور صيني رسمي للغاية. فقد كانوا يعتبرون أنفسهم في الأزمنة القديمة جنسًا

أرقى من الآخرين، وكل تعامل خارجي لهم، كان يصاغ على اعتبار أنه أحد صور التبعية والخضوع. والتماس العفو أحيانًا!.. حتى إن خان الصين الأكبر عندما أستقبل الرحالة البندقي الشهير ماركو بولو وأباه وعمه، في عهد قريب نسبيا (عام ١٢٩٥م). فإن السجلات الصينية تذكر أن الخان استقبلهم (باعتبارهم رسلا أذلاء من الغرب الناشئ).

وبهذا المنهج، فإن السجلات الصينية تتجاهل بشكل عام الأحداث التي تقلل من شأن الإمبراطور، أو تضعه في موضع ندية مع الآخرين، وهو مالا يليق بابن السماء على أي حال.

إن بلاد العرب في سجلات الصين القديمة هي تلك البلاد (الواقعة غربي إيران) والمسلمون يذكرون في تلك السجلات باسم (تاشيس) أي (التاجك) وهذه الكلمة الأخيرة تطوير فارسي للكلمة الفارسية (تازي) التي أطلقت على (عرب قبيلة طي)، وكان بعض الفرس يعتبر أن قبيلة (طي) تمثل العالم العربي، فصارت كلمة (تازي) وتاجيك من بعد، تطلق على كل عربي أو مسلم، ثم نطقت الكلمة عند الصينيين (تاشيش).. وتميز السجلات الصينية بين الأمويين والعباسيين فهي تطلق على الأمويين (بين تاتشي) أي العرب ذوي الملابس البيضاء، بينما أطلقوا على العباسيين اسم (خي تاش) أي العرب ذوي الملابس السوداء إشارة إلى اللون الأسود الذي اتخذه العباسيون شعار لهم.

أما كلمة (هوى) فتطلق على المسلمين من أصول عربية فارسية ويقال أن أول مجموعة من هؤلاء المسلمين وصلت إلى الصين واستقرت إلى جوار قبيلة باسم (هوى شوى). وكانوا يعرفون بهذه القبيلة. حتى انتقل الاسم إليهم، وارتبط بهم، وأصبح المسلمون في جنوب ووسط الصين يميزون بأنهم (هويين) وينتمون إلى قومية باسم (هوى).. وأمير المؤمنين يشار إليه في سجلاتهم باسم (هنجى موجوبى).. وهارون الرشيد يعرف باسم الون (الراء تنطق لاما في الصينية).. وإبراهيم هو يوهيم.. ذلك في القاموس القديم للغة التعبيرية، ولكن القاموس الجديد له شأن آخر، في معهد اللغات الأجنبية ببكين، يدرسون كتابا عن تاريخ العرب في العصور الوسطى، مؤلفه الأستاذ عبد الرحمن ناجونج، الذي نال العالمية من الأزهر الشريف في عام ١٩٣٧، وتخصص في التاريخ الإسلامي، ويعمل من سنة ١٩٤٠ مدرسا للتاريخ.. وهو قاد الطريق الذي ترجم مؤلفات أحمد أمين، الذي كان أستاذه في كلية دار العلوم بالقاهرة في منتصف الثلاثينيات.

كان الأستاذ ناجونج واحد من خمسة، هم أول بعثة في العصر الحديث تسافر من الصين للدراسة في الأزهر، على نفقة إحدى الجمعيات الإسلامية الأهلية في منطقة يونان.

في كتابه يقول المؤرخ الصيني المسلم: إن علاقات الصين بالعرب سابقة على ظهور الإسلام، وأن الإمبراطور وودى، بعث في سنة ١٣٩ قبل الميلاد، تشانج تشيني سفيرا له إلى الممالك في آسيا الوسطى، لإقامة روابط ودية معها، وزار في سفرته هذه ٣٦ مملكة صغيرة في المنطقة شملت بلاد فارس والعرب.. وبعده زار فارس والعراق مبعوث آخر هو جان بنج، بأمر من القائد الصيني بان جاو، ولما بلغ سواحل الخلية (الفارسي) لم يتمكن من الإبحار إلى الغرب (أي إلى أبعد من العراق) بسبب عدم وجود وسيلة انتقال. ولشدة العواصف والأمواج، فعاد بأخبار وافرة عن العالم العربي.

وقد فتحت هاتان الرحلتان الطريق البري للسفر بين الصين والبلاد العربية غربي آسيا (وأوضح سافرا بالبر).. وكانت النتيجة أن فتح باب الاتصال بين الصين والعراق وسوريا عبر إيران.

أما العرب، يضيف عبد الرحمن ناجونج، فقد كانوا على معرفة قديمة أيضا بالصين والدليل على ذلك هو الحديث المروي عن النبي: (أطلبوا العلم ولو في الصين).

مبعوث من خليفة المسلمين:

على أن تاريخ أسرة تانج الملكية، التي حكمت الصين حوالي ثلاثة قرون (٦١٨ – ٩٠٧م) يتضمن فصلا يعرف باسم (سجل تاشيه) أو (سجل العرب) الذي يصف جغرافية ومنتجات العالم العربي.. وتتفق المصادر الصينية والعربية على أن أول اتصال رسمي بين المسلمين والصينيين كان في فترة حكم أسرة تانج، وفي عهد الإمبراطور (كاوتسنج) عام ٦٥١م (٣٠-٣١ هجرية).

وفي السجلات الصينية أنه في ٢٥ أغسطس سنة ٦٥١م وصل إلى تشانجان (شيان) عاصمة الصين آنذاك أول مندوب عربي، مبعوث من الخليفة عثمان بن عفان؛ حيث التقى وإمبراطور الصين.

وفي تاريخ أسرة تانج القديمة "أن الوفد القادم من أرض بعيدة جدًا" نقل إلى الإمبراطور أنباء جزيرة العرب، التي شهدت ظهور نبي بعثه الله من بين العرب، داعيا إلى التوحيد (وأن ملكهم يدعى هنجي مومويي "أي أمير المؤمنين" وأن حكومتهم أسست منذ أربع وعشرين سنة. وقد مضى منهم ثلاثة ملوك حتى الآن) ولكن المصادر الصينية لا تذكر الأسباب التي دعت خليفة المسلمين عثمان بن عفان في إبراز (ابن السماء) باعتباره (القبلة) التي يتوجه إليها الآخرون بالسؤال والتحية لكن حقيقة الأمر غير ذلك. فالمصادر العربية

والغربية تقول أن ملك الصين هو الذي بادر بإرسال مبعوثيه إلى خليفة المسلمين، وقد مر بنا أن الطريق كانت سالمة منذ قبل الميلاد فيما بين بلاد الصين وبلاد العرب.

وحقيقة القصة أنه بعد هزيمة الفرس والروم على أيدي المسلمين، فإن كليهما أرسل ملك الصين يستغيث به، ويهول في خطر قوة المسلمين الصاعدة، مدعيا أنهم سوف يسيطرون على طريق التجارة – الذي يهم الصين – ويذكر أن (يزدجرد) ملك الفرس، أوفد بعد هزيمته في معركة نهاوند مبعوثه إلى ملك الصين للاستغاثة به على المسلمين، ولكنه اعتذر عن مد يد المساعدة له. ثم أرسل مبعوثيه إلى خليفة المسلمين للوقوف على حقيقة هذه القوة الجديدة والصاعدة في الجزيرة العربية.. الأمر الذي دعا عثمان بن عفان إلى أن يوفد من جانبه أيضا مبعوثين إلى ملك الصين ردًا على تلك المبادرة.

وتذكر المصادر الصينية أن المبعوثين العرب وفدوا إلى الصين طوال حكم أسورة تانج، ٢٧مرة، وقد دام حكم هذه الأسرة حوالي ثلاثة قرون، وهي فترة تغطي عهد الخليفتين عثمان وعلي، والعصرين الأموي والعباسي.

وأبرز السفارات العربية في تلك الفترة، هي بغير شك تلك التي أوفدها القائد العربي العظيم قتيبية بن مسلم الباهلي فاتح أواسط آسيا، التي وصلت قواته إلى كاشغر، على حدود الصين وقتئذ واستولت عليها الصين فيما بعد (وهي جزء منها الآن) وكان ذلك في عام ٩٦ هجرية. أي في أواخر عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك.. وقد أغفلت المصادر الصينية أيضا ذكر هذه الواقعة، لنفس السبب الذي من أجله أسقطت سفارة ملك الصين إلى عثمان بن عفان، ودواعي الإغفال هنا أشد، لأن الموقف أكثر حرجا، فثمة قائد عربي زاحف بجحافله يدك الحصون وتعسكر قواته على أبواب الصين، ويسترضيه ملك الصين بما يشبه الجزية دفعها إليه، وهو ما يفصل في ذكره الطبري في الأمم والملوك (ج٣٥)، وابن الأثير في الكامل (ج٥).

الإمبراطور يستغيث بالمنصور:

وثمة واقعة أخرى ليست أقل أهمية تسقطها السجلات الصينية، ولا تأتي لها على ذكر، لأن الإمبراطور هنا ليس من جانب قائد عربي، ولكنه مستغيث بخليفة المسلمين.

ففي منتصف القرن الثامن الميلادي، تعرضت الإمبراطورية لتمرد كبير قادة الثائر (شى جولى) مما اضطر إمبراطور الصين (هس وان تسنج) إلى التنازل عن عرشه لابنه (سو) الذي استغاث بالخليفة العباسي المنصور، عالما بالصلات الوثيقة المتنامية بين الحكام المسلمين والبلاط الصيني – وبالقوة المتعاظمة لجيش المسلمين.. ولم يتردد أبو جعفر

المنصور في الاستجابة لاستغاثة ابن الإمبراطور، وأرسل إليه بعضا من وحدات جيش المسلمين، قيل أنهم حوالي ٤ آلاف رجل، نجح بمساعدتهم في استرجاع عرشه، الأمر الذي أدى إلى تعميق الصلات بين العباسيين وإمبراطور الصين من ناحية، وترتب عليه أيضا أن استبقى الإمبراطور هؤلاء الجنود. فتزوجوا من صينيات، ويقال الآن أن مسلمي جنوب ووسط الصين هم أحفاد جنود قتيبية بن مسلم فاتح كشغر، وهذه المجموعة من الجنود الذين أوفدهم المنصور لإنقاذ عرش الإمبراطور.

وتشير سجلات أسرة تانج أن الدولة كانت تدفع لأسر جنود المسلمين الذين أوفدهم المسلمون واستبقاهم الإمبراطور، خمسمائة ألف أوقية من الفضة كل سنة. وهو عطاء فرضته الدولة على نفسها مكافأة لهم على نجدتهم للعاهل (سوتسنج).

ولم يكن الجنود هم كل الذين أوفدوا إلى بلاد الصين من العالم العربي في ذلك الحين، لأن ثمة إشارات عديدة من المراجع التاريخية إلى أن بعض الشيعة العرب الهاربين من خراسان، بسبب بطش الحكم الأموي، قد وصلوا إلى بلاد الصين قبل منتصف القرن الثاني الهجري.

ويبدو أن المسلمين كان لهم وجود مؤثر في كانتون خلال تلك الفترة، حتى أن المؤرخ الفرنسي (كورديب) يذكر في كتابه (مسلمون يونان). أن التجار المسلمون بالمدينة ثاروا على الحكومة سنة ٧٥٨م، بسبب ضريبة أرهقتهم (فنهبوا وأحرقوا وخرجوا) على حد قوله – ولكنهم رجعوا بعد ذلك لأن العلاقات التجارية لم تنقطع بين سيراف وكانتون.

وقد ظل مؤشر العلاقات العربية الصينية في تصاعد بعد ذلك. فبعد فترة من ذهاب أسرة تانج، تولت السلطة أسرة سونج (٩٦٧ –١١٦٨م) التي تشير سجلاتها إلى أن ٤٩ بعثة عربية وفدت من حكام المسلمين إلى بلاط الإمبراطور خلال عهدها الذي استمر قرنين من الزمان.

ويسجل تاريخ تاشي في عهد سونج (أنه أوفد من بلاد تاشي ١٧ سفارة إلى أسرة سونج في الفترة ما بين سنى ٩٦٨ – ١٠٦٣م حيث استقبلته استقبالا حارا، ولقيت احتراما بالغا من قبل حكومة سونج، وقد منح السفير ليكوم (يعتقد أنه عبد الرحيم) لقب (القائد)، وتلك ألقاب لم تكن تعطى لغير الصينيين، وحتى الصينيين ما كانوا ليحصلوا على أي لقب رفيع أو وظيفة إلا بعد أن يتجاوزا امتحانات شاقة وعسيرة. كذلك نال سائر المبعوثين ألقابا تليق بهم، وسمح أن يتجولوا في عاصمة سونج (البقاء في العاصمة والتجول فيها كانا محظورين على الأجانب) وكانت العاصمة وقتذاك هي مدينة بيانليانج (مدينة كايفنج، مقاطعة جنان حاليا).

وشرعت حكومة سونج في توثيق العلاقات مع التجار العــرب، فأوفــدت مبعــوثين محملين بالهدايا إلى بلدان فارس والعرب، الأمر الذي شجع كثيرين من هؤلاء التجــار علــى القدوم إلى الصين، وتذكر السجلات الصينية أن التاجر العربي (أبو ياكل) ربما يكــون أبــو نائل) دعى للقاء الإمبراطور سونج، الذي (خلع عليه حللا وقلنسوة متوجة، وحزاما مرصــعا، أثاثا وما إلى ذلك، كما سمح له بأن يسكن في العاصمة للاستجمام عدة شهور. وذلك (امتيــاز خاص جدا).

وتشجيعا للتجارة التي كانت مقصورة على المسلمين في ذلك الحين، ســنت حكومــة (سونج) قانونا يعاقب كل من يسئ إلى التجار الأجانب، ويقضي بعزل المــوظفين الــصينيين المختصين من مناصبهم إذا ما صدرت عنهم هذه الإساءة. كما يقضي بمحاكمة كل من يشارك في خطف تاجرا أجنبي أو انتهاك حرمته.

وكانت أكبر مجتمعات العرب المسلمين طوال عهد أسرة سونج في كانتون (خــانقو)، وتسي تون (حديقة الزيتون – تشيوا نتشيو). حتى بلغت أعدادهم ١٠ آلاف عربي في كل من هذين الميناءين خلال القرن العاشر، وتقول المصادر الصينية أن الأثرياء العرب أنفقوا الكثير من أجل تعمير تسى تون، وإن العربي (أبو شوقي) انتخب رئيسًا لدائرة التجــارة والملاحــة. وتولى مقاليد التجارة الخارجية طوال ٣٠ سنة.

سفينة من بلاد العرب:

والمكتشفات الأثرية في السنوات الأخيرة عززت فكرة وجود اتصال قوي بين بــلاد تاشي وبلاد الأسرار، خصوصا في عهد الدولة العباسية.

ففي أغسطس من عام ١٩٧٤ عثر في قاع جنج تسى تون، أو تشيوان تشو الآن، على سفينة خشبية بحالة جيدة، يرجع تاريخها إلى ما بين القرن الثاني عشر والثالث عشر – وبــدأ واضحا لأول وهلة أنها سفينة تجارية، إذ كانت من النوع الكبير، أو الضخم بمعــايير القــرن الثاني عشر، إذ بلغ طولها ٢٤مترا وعرضها ٩ أمتار وربعا. وعثر في مقصورتها على بقايا الخشب الصندل المعطر وعقاقير طبية ولبان وفلفل، ودرع سلحفاة، وبخور وعنبر، كما عثــر في الجزء المطمور من السفينة على لوحة خشبية كتب عليها اسم (على) ربمــا كــان اســم صاحب السفينة، وأحد التجار العرب الكبار.

وبعض محتويات السفينة من منتجات بلاد العرب، والأعشاب الطبية واللبــان الــذي اشتهرت به مناطق عمان في ذلك الزمان، وبعضها مثل الصندل الأحمر، واضح أنه ثم نقلــه

من أماكن أخرى – سواحل أفريقيا مثلا – لحساب التجار الصينيين، غير ما كان ينتقل عادة من سواحل فارس والهند.

وتبين أيضا أن الخزف الصيني وصل إلى مصر على عهد أحمد بن طولون – حاكم مصر في منتصف القرن التاسع الميلادي، ثم قام المصريون بتقليده في عهد الدولة الفاطمية (٩٦٩ – ١١٧٠م) وبلغ هذا التقليد ذروته في عصر المماليك (١٢٥٠ – ١٥١٧م).

وفي سامراء بالعراق، عثر في الحفريات على أوان عربية صنعت على الطراز الصيني في العصر العباسي، كما عثر على أعداد من خزف الصيني وردت إلى سامراء مع السفراء الصينيين أو من خلال التجار.

وعبر هذه الجسور، التي كانت تنقل التجارة بين الشرق والغرب، لم ينقل العرب الحرير والخزف والشاي فقط، ولكنهم نقلوا معها أيضا صناعة الورق والبارود والإبرة المغناطيسية إلى بلاد العرب.. وفي الكتابات الصينية أن أول مصنع للورق أنشئ خارج الصين على أيدي العرب. كان في بغداد عام ٧٩٤م وأن الطباعة دخلت بغداد في الفترة ذاتها، ثم انتقلت صناعة الورق إلى دمشق ثم القاهرة والإسكندرية ومنها إلى صقلية ثم إسبانيا وأوروبا.

وبالمقابل، نقل العرب إلى الصينيين علوم الطب والرياضيات والفلك، فنجحت الصين في زراعة الأعشاب الطبية الواردة من بلاد العرب، حتى عرفت اللغة الصينية بعض أسماء العقاقير الطبية المتداولة عند العرب، والأحجار الكريمة مثل روشيانج (اللبان العربي) ودواء موياو من المر العربي، وخلوصيا (الحلية) ويابلو من جذور الداورة (من النباتات الطبية) حتى (التربة) فإنها تنطق بالصينية (توربا). ومن الأحجار الكريمة ياقو (الياقوت) وزو مولا (الزمرد).. ويرى بعض الباحثين الصينيين أن (خيال الظل) منقول إلى البلاد العربية عبر الصينيين، كما أن لعبة (السيجة) المعروفة في بلادنا، دخلت إلى الصين على أيدي العرب.

وتتفق أكثر الكتابات، عند الصينيين والعرب والأجانب – على أن الوجود الإسلامي حتى أسرة سونة كان محصورا في الوافدين من بلاد العرب، سواء الذين وفدوا للتجارة، وسكنوا في أحياء خاصة بهم تناثرت في الموانئ والبحرية والبرية، أو أولئك الذين استوطنوا مثل بقايا جيش قتيبة نتأو الجيش الذي أوفده المنصور لمساعدة وإنقاذ عرش إمبراطور الصين، ولم تشر هذه الكتابات إلى صينيين دخلوا الإسلام عن قناعة واختيار، وتلك ملاحظة هامة لها تفسيرها.

عندما حكم المغول:

على أن ثمة إجماعا بين السجلات الصينية والكتابات العربية والأجنبية على أن الإسلام حقق قفزة أوسع في الصين في ظل عصر مملكة يوان المغولية (١٢١٥ – ١٣٦٨م) التي تربعت على عرش الصين بعد ما أطاح قوبلاي خان، حفيد جنكيز خان بحكومة أسرة سونج.

وهناك تفسيران لهذه الظاهرة. أحدهما أن قفزة الإسلام في الصين هذه إنما هي تعبر عن اتساع حجم المصالح التجارية في بلاد العرب والصين، أي أنها كانت تعكس مدى تنامي العلاقات الاقتصادية بين الجانبين.

والتفسير الثاني أن المغول كانوا في الأساس بغير دين، أو قل أن دينهم كان يقوم على عبادة نجمهم السعيد، مع السعي الذي لا يكل ولا يمل إلى استنزاله من السماء. وذلك على عكس الأسر التي حكمت الصين قبلهم، وكانت تدين بالبوذية وتتعصب لها رافعة شعار (لا دين غريب في الصين) بسبب موقف المغول من قضية الدين، فإنهم لم يترددوا في أن يتساهلوا مع حملة الأديان الأخرى. ولأنهم شعب وافد من الخارج بالغزو، فقد كان يهمهم أحداث قدر من توازن القوى داخل الصين. عن طريق فتح الباب لظهور قوى جديدة على سطح المجتمع، مما يدعمهم ويثبت أقدامهم، وربما يضعف من ناحية أخرى، القوى الصينية التي تتحالف ضدهم.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن الترك كانوا قد دخلوا الإسلام في تلك الفترة، وهم المعروفون بأنهم مقاتلون أشداء، فإن فتح أبواب الصين لهم قد يحقق هدف مساندة الحكم المغولي، وهو ما أقدم عليه المغول فعلا.

ورغم أن كلا من الرأيين له وجاهته، فإنه من المقبول أيضا أن يكون اجتماعهما معا قد ساهم في أحداث هذا التعبير الذي شهدته الصين في ظل أسرة (يوان). بمعنى أن يكون النمو الطبيعي للمصالح العربية الصينية للمسلمين، مما أفرز تلك النتيجة التي نحن بصددها.

وهناك عامل آخر ساهد في تكثيف عدد المسلمين بالصين خلال فترة الحكم المغولي، يتمثل في حقيقة أن المغول الذين استولوا على عرش الصين. كانوا هم الذين اجتاحوا أواسط آسيا – ووصلوا إلى بغداد ودمشق.. مرورا ببلاد ما وراء النهر وخراسان وبلاد فارس. وكلها ديار للإسلام في ذلك الزمان، وكان المغول يجندون المسلمين في صفوفهم – من عرب وفرس وأتراك – فضلا عن الزراع والصناع الذي أكرهوهم على الانتقال معهم، وكان بعض

هؤلاء يجبر على الذهاب إلى الصين مع المغول؛ حيث بقوا ضمن جيوشهم، واستوطنوا هناك بمضي الوقت.

وأبز أباطرة المغول الذين يرتبط أسمهم بالمد الإسلامي في الصين هو قوبلان خان (١٢١٥ – ١٢٩٤م) الذي انقلب على المسلمين في بادئ الأمر بسبب وشايات قيل أن مصدرها ابن أخيه (أباقا) – وهو ابن هولاكو الذي يعرف اسمه جيدا العالم العربي – وكان اباقا متزوجا من مسيحية أوغرت صدره ضد المسلمين، فمضى بدوره يحذر عمه قوبلاي خان منهم ويحرضه ضدهم فجردهم من حقوقهم وامتيازاتهم القديمة.

غير أن قوبلاي خان اكتشف بعد سبع سنوات من ممارسته لهذا الاضطهاد أن المسلمين خرجوا تباعا من الصين إلى جزائر الهند الشرقية، وامتنعوا عن التجارة مع الصين، وتوجهت مراكبهم من جزر الهند الشرقية إلى العراق ومصر. الأمر الذي أدى إلى نقص واضح في واردات حكومته. وهو ما اضطره إلى التراجع عن قراراته واحد تلو الآخر. وفي محاولة لاسترضائهم، فإنه بنى لهم مسجدا في (خان بالق) قيل أنه كان يسع مائة ألف.

وتذكر دائرة معرف القرن العشرين أن قوبلاي خان عين وزيرا مسلما في حكومته أسمه أحمد الأناكتي (اهاما بالصينية).

ومن ناحية أخرى فإن بعض العرب الذين استقروا، تلقوا التعليم الصيني، واجتازوا الامتحان الرسمي للخدمة بالحكومة، وأصبحوا من كبار الموظفين، ومنهم (يوشاوتشع) الذي عين قاضيها، ونظم ديوانا من الشعر الكلاسيكي، أما أخوه (يوشاوكنج) فكان مساعدا لرئيس وزراء قوبلاي خان.

ويتضمن سجل طبقة الأعيان الملكي لأسرة ديوان أسماء أكثر من مائة شخص من المسلمين بلغوا رتبًا رفيعة، استحقوا معها أن يضموا إلى السجل، وتشير وثائق الأسرة في سنة واحدة (١٣٣٣م) حصل عشرة من الشبان المسلمين على الشهادة العلمية الملكية العليا، بعدما اجتازوا امتحانها الشاق.

ومن المسلمين الذي برزوا في الحياة الصينية خلال عهد أسرة يوان جمال الدين الفلكي الذي يرجع إليه الفضل في وضع تقويم جديد، واختراع سبعة آلاف فلكية أهداها إلى الإمبراطور، ولا تزال تحمل أسماء عربية إلى الآن هي: ذات حلق، وذات سموت ولخمة معوج ولخمة مستوى. وكرة السماء، وكرة الأرض، والاسطراب.. ومنهم أيضا سعد الله الشاعر الشهير، الذي يطلق عليه الصينيين اسم تيان شي، أو تشى تشاى. وقد تقدم في سلك الوظيفة حتى نال. بعد الامتحان – أحدى درجاتها الرفيعة التي تعرف باسم (جينشى) مما أتاح

له فرصة تولى مناصب الدولة العليا، حتى أصبح مسئولا عن الإسكان والبلديات في مدينة جينكو (تشنجيانج الآن) وتشير إليه الكتابات الصينية باعتباره الرجل الذي (نظم الأسواق وحدد المقاييس والمكاييل والموازين، حتى استقامت أمور البيع والشراء وشهدت الأسواق النظام التام).

السيد الأجل:

لكن (السيد الأجل) هو الذي طبقت شهرته الآفاق بين المسلمين الذين اشتهروا في عصر تلك الأسرة المغولية.

والسيد الأجل، هم اسم شهرة، اكتسبه الرجل لشدة ما عرف عنه من النزاهة والكفاءة، واسمه الحقيقي هو عمر شمس الدين، الذي يقال أنه كان من أهل بخارى ووفد إلى الصين، حتى برز نجمه، فعينه قوبلاى خان في إدارة بيت مال الإمبراطور، ثم عينه حاكما على ولاية يونان، بعد فتحها وضمها إلى الصين، ومات فين سنة ١٢٧٠م، وعرف في السجلات، يذكر توماس أرنولد – بأنه (كان حاكما فطنا عادلا، بنى في يونان معابد لاتباع كونفوشيوس – بقدر ما بنى فيها من المساجد).

وقد أطلق عليه الإمبراطور اسما صينيا هو ساى تينتشعى (ترجمة حرفية للسيد الأجل) ثم خلع عليه لقب التشريف (أمير حسين يانج).. وبعد وفاته ترك خمسة أبناء وتسعة عشر حفيدا منهم ابنه ناصر الدين الذي كان وزيرا أو حاكما لمقاطعة شانسي، وعين حاكما ليونان؛ حيث توفى بها سنة ١٢٩٢م وخلفه أخوه حسين. وكان الأخوة الآخرون يتولون مناصب رفيعة في الدولة. وكذلك كان شأن أحفاده، ومن أحفاده الأبعدين – تسجل دائرة المعارف الإسلامية – ماتشو أوماجو (لعله ماجد) – (١٦٣٠ – ١٧١٠م) وكان فقيها عالما، نشر مصنفه المشهور (إبرة الإسلام المغناطيسية).

ويذكر توماس أرنولد أن ذرية السيد الأجل لعبت دورا هاما في توطيد دعائم الإسلام في الصين، وأن أحد أحفاده حصل من الإمبراطور سنة ١٣٣٥م على الاعتراف بأن الإسلام هو دين الله الحق الخالص. وهو اعتراف ظل الإسلام يحمله إلى يومنا هذا. وأذن الإمبراطور سنة ١٣٢٠م لشخص آخر من سلالة السيد الأجل أن يبني عدة مساجد في العاصمتين نانكين وسينانعو.

عندما ذهب ابن بطوطة:

وقد تصادف أن قام الرحالة العربي الأشهر ابن بطوطة، برحلة إلى بلاد الصين في أواخر عهد أسرة يوان، في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي – سنة ١٢٤٢م). ونقل في كتاباته صورة لها دلالتها، ترسم إلى حد كبير معالم الوجود الإسلامي في الصين خلال تلك الحقبة.

فقد كان ابن بطوطة قد استقر به المقام لبعض الوقت في (دلهي)، كما كان ينطقها العرب القدامى – حاضرة الهند – حيث عمل قاضيا، وصار قريبا من سلطانها تغلق آنذاك. وذات يوم بعث إليه السلطان خيلا مسرجة، وجواري، وغلمان، وثيابا ونفقة، ودعاه للقائه قائلا: (إنما بعثت إليك لتتوجه عنى رسولا إلى ملك الصين فأني أعلم حبك في الأسفار والجولان).

وهكذا أصدر التكليف له بالسفر، الذي يروي قصته قائلا:

(.. وكان ملك المصريين قد بعث إلى السلطان مائة مملوك وجارية وخمسمائة ثوب من الكمخاء منها مائة من التي تصنع بمدينة الزيتون، ومائة من التي تصع بمدينة الخنساء، وخمسة أمنان من المسك، وخمسة أثواب مرصعة بالجوهر، وخمسة من التراكسن مزركشة، وخمسة سيوف، وطلب من السلطان أن يأذن له في بناء بيت للأصنام (يقصد معبد بوذي) في موضع يعرف بسمهل، وإليه – يحج أهل الصين – وتغلب عليه جيش الإسلام بالهند فخربوا المعبد وسلبوه..

فلما وصلت هذه الهدية إلى السلطان كتب إليه بأن هذا المطلب لا يجوز في ملة المسلمين إسعافه، ولا يباح يناء كنيسة بأرض المسلمين إلا لمن يعطي الجزية، فإن رضيت بإعطائها أبحنا لك بناءه، والسلام على من اتبع الهدى.. وكافأه على هديته بخير منها..)

هكذا يقول ابن بطوطة وهو يسجل قائمة الهدايا الكثيرة والثمينة التي بعث بها سلطان الهند إلى ملك الصين.

بعد سلسلة من المغامرات في طريق البحر وصل ابن بطوطة – أول ما وصل – إلى تسى تون، أو تشونتشوا الآن، التي نطق اسمها الرحالة العربي على أنها مدينة الزيتون. (ويوم وصولي رأيت الأمير الذي توجه إلى الهند رسولا بالهدية (إلى السلطان تغلق).. وجاء إلى قاضي المسلمين تاج الدين الأردويلي، وهو من الأفاضل الكرماء. وشيخ الإسلام كمال الدين عبد الله الأصفهاني. وهو من الصلحاء وجاء إلى كبار التجار.. فيهم شرف الدين التبريزي، وأحسنهم معاملة، حافظ للقرآن مكثر التلاوة.

(وهؤلاء التجار: سكناهم في بلاد الكفار، إذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفـــرح، وقالوا: جاء من أرض الإسلام، وله يعطون الزكوات، فيعود غنيا كواحد منهم!)

(وكان بها المشايخ الفضلاء برهان الدين الكازروني، له زاوية خارج المسجد وإليـــه يدفع التجار النذور التي ينذرونها للشيخ إلى اسحق الكازروني).

وإلى حين لقاء ملك الصين، أو القان كما يذكره في كتابه، فان ابن بطوطة قام بجولة، في بعض مدن الصين (يقصد جنوب الصين الحالية) مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم.. ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعيات (صلاة الجمعة)، وهم معظمون ومحترمون.. لكنه عندما يصل إلى العاصمة (هان بالق) للقاء ملك الصين، فإنه لا يشير إلى قاض أو شيخ للإسلام، فقط يشير على الشيخ برهان الدين، الذي لا يستبعد أن يكون حوله قلة من المسلمين الـــذين لا يـــشكلون (جالية) لكنه يسهب في وصف قصر (القان) بدقة مدهشة، ويذكر أنه لم يجده في المدينة لـــدى وصوله، إذ خرج لإحباط تمرد في داخل المملكة، وبعد عودته التقاه، سلمه الرســـالة، علـــى النحو الذي سجله هو في البداية، ولكن ابن بطوطة لا يذكر شيئا عن رد فعل ملك الصين، بل يهتم. في وصف الرحلة على الأقل. بالعودة آمنا إلى الهند.. وضم ابن بطوطة رحلتـــه إلـــى الصين على هذا النحو.

وتستطيع أن تسجل عدة ملاحظات من قراءة كتبه أشهر الرحالة والفضوليين العرب، حول واقع المسلمين في الصين خلال القرن الرابع عشر في مقدمتها.

أن ثمة انتشارا ظاهرا للمسلمين في الصين، له حجمه وله تقديره ومكانته.

أن المسلمين يمارسون نشاطات تتركز أساسا في قطاع التجارة بمختلف فروعه.

أن وجود المسلمين يتركز على السواحل. حيث مراسي السفن القادمة والمقلعة.

أن المسلمين خليط من الفرس والعرب (ساسا) والترك بعد ذلك، ولم يشر ابن بطوطة إلى مسلمين صينيين، بحيث يمكن يقال أنه حتى ذلك الحين، فإن بذور الإسلام لم تغرس فـــي التربة الصينية بعد.

عودة إلى العزلة:

لكن هذه الصورة، طويت صفحة أسرة يوان المغولية، لتبدأ صفحة جديدة فـــي ظـــل أسرة ملكية جديدة، أسرة مينج (١٣٦٨ – ١٦٤٤م) التي أعادت العرش إلى عرق الهان، الذي تنتمي إليه الأغلبية الساحقة من أبناء شعب الصين.. كان المسلمون قد استقروا كوافدين إلـــى الصين، وكانوا قد بدأوا ينخرطون في مختلف نواحي الحياة الأخرى، خصوصا الجيش، مـــن

سلالة المجندين القدامى، والزراعة؛ حيث استقدم المغول أعدادا كبيرة من الزرع المهرة، مع غيرهم من بلاد خرسان وما وراء النهر.

وبعد ما كانت أسرة يوان تنتهج سياسة الانفتاح على الآخرين، فإن أسرة ينج، وهم الصينيون الأقحاح، كانوا أكثر ميلا إلى سياسة العزلة، الأمر الذي قطع نسبيا جسور الاتصال بين المسلمين المقيمين في الصين وإخوانهم في ديار الإسلام الأخرى، ولم تكن سياسة العزلة هذه موجهة ضد المسلمين بأي حال، ولكنه نهج طبيعي للسياسة الصينية، له أسبابه.

أفادت هذه العزلة، في أنها دفعت المسلمين إلى الاندماج في الحياة العامة للأهالي فتزوجوا من صينيات، ونقلوا بعضا من عادات أهل الصين وأخلاقهم.. وفي الوقت، فإن سياسة أسرة ينج تجاه المسلمين اتسمت بقدر معقول من الاعتدال، بل والود أحيانا، الأمر الذي انعكس على امتيازات عديدة منحت للمسلمين، وأعداد كبيرة من المساجد بنيت في ظل تلك الأسرة.

ومن المسلمين الذي برزوا في تلك الفترة البحار تشنج هو (من مواليد مقاطعة يونان) الذي كان يقود أسطولا تجاريا ضخما. بمعايير ذلك الزمان، أبحر به ٧ مرات خلال الفترة من ١٤٠٥ – ١٤٣٣م حيث زار ٣٥ بلدا أسيويا وأفريقيا، وفي مقدمته الموانى العربية العامة آنذاك. وهو حدث لم يكن له مثيل في تاريخ الإبحار قبل ذلك.

أما هاى زوى. فقد دخل التاريخ الصيني باعتباره موظفا كفئا ونزيها. وداعية إلى العمل والفضيلة، حتى قدمت سيرته وشخصيته في أكثر من عمل مسرحي وأوبرالي في السنوات الأخيرة.

ومن ناحية أخرى، أقام ملوك أسرة ينج علاقات طيبة مع الأمراء المسلمين الذين يحكمون الدول والمقاطعات غربي الصين، وأكثروا من تبادلوا السفراء مع الأمراء التيموريين، وقد انتهز أحدهم – الشاه رخ بهادر – فرصة قدوم أحد السفراء الصينيين للقائه سنة ١٤١٢ في قصره بسمرقند، وبعث برسالتين بالعربية والفارسية إلى ملك الصين يدعوه فيها إلى اعتناق الإسلام، وتطبيق شريعة الله، وقد نشر الرسالتين عبد الرازق السمرقندي في مؤلفه (مطلع السعدية ومجمع البحرين). ونقلها توماس أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام).

ويعقب توماس أرنولد على الرسالتين بقوله: أنه ليس ببعيد أن تكون هاتان الرسالتان قد خلقتا القصة التي نشأت في عصر متأخر، التي روت أن أحد أباطرة الصين قد تحول إلى الإسلام. وقد روى هذه القصة مع غيرها من القصص تاجر مسلم يدعى سيد على أكبر، قضى سنوات قليلة في بكين، وفي نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، يتحدث

عن عدد كبير من المسلمين الذين كانوا قد استقروا في الصين، فكان في مدينة كنجفنــو عــدد كبير يبلغ ثلاثين ألف أسرة من المسلمين، فلم يؤدوا الضرائب، وتمتعوا بكــرم الإمبراطــور، الذي منحهم هبات من الأرض، ونعموا بالحرية في إقامة شعائر دينهم الذي كــان الــصينيون ينظرون إليه نظرة احترام وتقدير، وترك أمر التحول إلى الإسلام حرا، وكان في العاصــمة نفسها أربعة مساجد كبيرة، وما يقرب من تسعين مسجدا غيرها في الولايات الأخــرى مــن الإمبراطورية، وقد بنيت كلها على نفقة الإمبراطور.

مسجد شارع البقرة:

ويعد هذا المسجد أقدم مساجد بكين وأضخمها. كما يعتبر شارع البقرة الذي يقع فيــه المسجد أقدم منطقة سكنية للمسلمين البيكينين وقد بنى سنة ٩٦٩م الموافق السنة الثانية لجلوس الإمبراطور (ثاى سونج) لأسرة سونج الشمالية، ثم أضيف إليه بنايات وزيادات فــي عهــود أسرة (إيوان) – (ينج).

وقد اجمع من شاهدوا المسجد أنه يعتبر اليوم أضخم وأبهى عما كان عليه من قبــل، وللمسجد محراب ذو قبة عربية، وللمسجد جوسق مسدس الزوايا في الخارج، وهو أول بنايــة من بنايات المسجد، والمساحة الكلية للمسجد يبلغ ٥٧٠ مترا مربعــا والمــساحة المخصــصة للصلاة ٦٠٠ مترا مربع مقسمة إلى ٤٢ غرفة لا جدران بينها و٢١ بوابة وقبوة والأرضــية مغطاة بالطنافس والحصير الملون والشبابيك منحوت فوقها بمياه الذهب (الله).

أول كتاب صيني عن القرآن والمسلمين:

ومن بين ما في مكتبة بكين الكبير كتابا مترجما إلى اللغة العربية بعنوان (رحلة إلــى بلد الكتاب) لمؤلفه الصيني دو هوان الذي عاش في القرن الثامن الميلادي وأمضى ١٢ ســنة في حياته متجولا في البلاد العربية، ضم سجل مذكراته في هذا الكتــاب ليكــون أول ســجل يتضمن مشاهدات صيني في بلاد المسلمين.

.. يقول في كتابه:

(.. لبلاد – راشى – اسم آخر هو – أكولا- وداشى هو الاسم الــذي كــان يطلقــه الصينيون القدماء على بلاد العرب. أما أكولا فيعني بها الكوفة (عاصمة الدولة الإســلامية).. يقول المؤلف أنه أقام في بلاد داشى. وكانت الكوفة هي عاصمة الدولة العباســية، والخليفــة يلقب بوصف (أمير المؤمنين). ويصف عاصمة الخلافة فيقول:

(.. فيها قاعة تتسع لعشرات الآلاف من الناس: يؤمها الخليفة مرة واحدة في كل أسبوع لأداء الصلاة، وهناك يعتلى منبرا ويعظ الناس ويفقههم في الدين، ولقد استمعت إليه يقول أن الحياة الدنيا دار زوال والآخرة هي دار البقاء، وكل من اقترف جريمة الزنا أو عاث بالفساد أو انتهك الحرمات، أو ارتكب المعاصي أو سبب الضرر لغيره أو أهان الفقراء وأساء إلى من ملكت أيمانه فهو من المحرمين.. أما من قاتل وقتل في سبيل الله فهو من الشهداء، ومأواه جنة الخلد).

وفي كتابه أيضًا:

(أن الإسلام يدعو إلى عبادة الله لا الملوك ولا الشياطين، ويدعوا إلى بر الوالدين، واحترام أولى الأمر، وعلى كل إنسان مهما كان فقيرا، أو غنيا أن يؤدي فريضة الصلاة خمس مرات كل يوم).

(أن الإسلام يحرم الخمر ولحوم الخنزير والكلاب والحمير والخيل ولحوم الميتة).. واختتم مذكراته والكتاب بقوله:

(.. ولذلك أسلم الناس من كل فج ودخلوا في دين الله أفواجا كسيل عرم).. وكان لهذه المذكرات أثرها الهام والطيب في تعريف الشعب الصيني بجوهر القرآن، وحقيقة الإسلام، وكان له دور مهم في نشر الإسلام في ربوع الصين لأنه كان شهادة على يد الأئمة في المساجد.

وقد قام بعض الأئمة بجمع سور من القرآن تحت اسم (خاتمة القرآن) وكانت تضم سورة الفاتحة، يس، الملك، الطارق، الأعلى، الضحى، الانشراح، القدر، الزلزلة، التكاثر، العصر، الفيل، قريش، الماعون، الكوثر، الكافرون، النصر، المسد، الإخلاص، الفلق، الناس. وهو نشاط كان يتزايد مع انتشار الإسلام في أنحاء الصين.

وتزايد الإسلام انتشارا منذ أواسط القرن السادس عشر عندما دعا الإمام بوتشاو (١٥٢٢ – ١٥٧٩م) بعد عودته من أداء فريضة الحج إلى تأسيس الكتاتيب في المساجد. وكانت منتشرة في سائر أقاليم العالم الإسلامي بتعليم الأطفال والصبية القرآن الكريم والتفسير والأحاديث النبوية الشريفة باللغتين العربية والفارسية، وتبع ذلك ازدياد عدد المساجد والجوامع.. واحتاج ذلك إلى أعداد ضخمة من كتاب الله فأخذ الأئمة والعلماء ينسخون القرآن وكتبا في التفسير والأحاديث النبوية. وكذلك فعل سائر المتعلمين، وكان بعض المتعطشين على التزود بعلوم الإسلام وتعاليمه يقطعون المسافات الطويلة وينتقلون من إقليم إلى آخر حاملين معهم زادهم ومتاعهم بحثا عن العلماء ينهلون على أيديهم من القرآن وتعاليم الدين.

لقد انقسمت خطوط القرآن قبل ظهور الطباعة في الصين إلى ثلاثة أنواع: أولها ما يعرف بكتابات تشوان، وكتابات بالأحرف الكبيرة، وكتابات بالأحرف المتصلة. ويوجد بالصين حاليا نسخ خطية من القرآن الكريم واثقة الخطوط ومزخرفة بماء الذهب أو الكتابات الملونة، ويوجد بعض تلك المخطوطات في المتاحف والمساجد، ولدى بعض الأسر الإسلامية.

وهناك نسخة خطية للقرآن من القرن السابع عشر تعتبر واحدة من أجمل النسخ الخطية للقرآن في العالم.. والمخطوط طوله ٥٢سنتيمتر. والآيات القرآنية مكتوبة باللون الأسود ما عدا سطرين في كل صفحة منها باللون الأصفر، أما الغلاف فمصنوع من الورق المقوى الأصفر والأطراف تزينها زهور ذهبية اللون.. ولم تبدأ عملية طبع القرآن إلا سنة ١٨٦٢م وقام بذلك دوون سياور. وكان أول من اخرج نسخة من القرآن مطبوعة على لوحات من النحت الخشبي وكان لعملية طباعة القرآن دور خاص في انتشار القرآن بين مسلمي الصين.

ثم اتسعت عملية ترجمة الآيات القرآنية إلى اللغة الصينية ابتداء من النصف الثاني للقرن الثامن عشر وحتى أوائل القرن العشرين.

لقد كانت كراسات (خاتمة القرآن) رائجة بين المسلمين كما سبق الإشارة من قبل، ثم بدأ بعض الأئمة والعلماء يترجمون القرآن باللغة الصينية حسب الصوت، فأخرجوا (خاتمة القرآن) الصوتية باللغة الصينية، وبذلك استطاع من لا يعرف العربية قراءة القرآن دون حاجة على معلم وكان الأئمة يفسرون لهم معانيه. وتلا ذلك قيام بعض الأئمة والعلماء بترجمة شروح آيات القرآن الكريم في كتب خصصوها لسور خاتمة القرآن على أن تتضمن الشروح في الوقت نفسه. وبذلك ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر أوائل القرن العشرين عدة كتب منها (الخاتمة المفسرة باللغتين الصينية والعربية) و (الخاتمة المفسرة) و(كتاب الله المفسر المترجم).

وقد تبع ذلك قيام بعض العلماء بالترجمة المتكاملة للقرآن ومعانيه مع تفسير آياته.

ترجمات كاملة للقرآن:

يعتبر الصينيون أن كتاب الفرقان الذي صدر سنة ١٩٧٢ في بينغ (بكين حاليا) هو أكمل طبعة للقرآن تمت ترجمتها في وقت مبكر، وذلك رغم أن الترجمة قام بها الصيني غير المسلم لي نيه تشنغ عن طبعة يابانية ثم راجعه على ترجمة إنجليزية للقرآن.. وقام جى حيويه في (بقيادة مجموعة من العلماء لترجمة القرآن في شنغهاي في أوائل الثلاثينيات. وصدرت طبعة للقرآن باللغة الصينية سنة ١٩٣١).

وأصدر الإمام وانغ جينغ تشاى (القرآن المترجم والمفسر) في بكين سنة ١٩٣٢، ثم أصدر طبعة ثانية في شنغهاي سنة ١٩٤٦. وقد اعتبرت أفضل من الطبعة الأولى في ترجمة باو (القرآن المترجم باللغة الصينية وبعض الشروح) سنة ١٩٤٢.

وأصدر الإمام يانع تشوينبع بينغ (معاني القرآن) سنة ١٩٤٧.

وصدرت في الخمسينيات طبعة باسم (القرآن المفسر)، والمترجم باللغة الصينية بمجهود جماعي.

ومن الترجمات الحديثة: الكاملة للقرآن الكريم فهي من أعداد محمد مكين ماجيان الذي جاء مصر طالبا للعلم سنة ١٩٣١. وتعلم ثماني سنوات في الأزهر الشريف ثم قام بتأليف وترجمة الكتب الإسلامية بعد عودته إلى الصين. وقد أمضى أكثر من ١٠ سنوات متفرغا لترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الصينية.. ومما يذكر أن هناك طبعة لمعاني القرآن مترجمة باللغة الويغورية التي يتحدث بها سكان منطقة شيكانغ الذاتية الحكم.

لقد ظل القرآن الكريم ولا زال كتابا مقدسا عند المسلمين الصينيين، وكانوا يفتدونه بأرواحهم. وهذا هو ما حدث خلال الاعتداءات التي وقعت عليهم في الستينات أثناء الثورة الثقافية. لقد مات البعض ذودا عن كتاب الله.

وتجد اليوم نسخة من القرآن الكريم لدى كل أسرة مسلمة، وأحيانا نسختان أحدهما باللغة العربية. ومن تقاليد الأسر الإسلامية أن تحمل العروس معها مصحفا إلى بيت الزوجية في ليلة الزفاف. كما يقوم المسلمون بتزيين جدران بيوتهم بآيات من القرآن مكتوبة بالخطوط الجميلة، كما يحدث كثيرا في بلادنا، والمسلمون الصينيون يلتزمون في تعاملهم مع المصحف الشريف بقوله تعالى (لا يمسه إلا المطهرون).

ومما يذكر عن المسلمين الصينيين أيضا أن معظمهم يعتبرون التدخين كشرب الخمر من المحرمات. ولا يسمحون لأحد بالتدخين في مجلس القرآن والأحاديث النبوية الشريفة.

واليوم يزداد الاهتمام بالدراسات الإسلامية في كل أقاليم الصين داخل الجامعات والمعاهد العليا.

وقد بدأ الدارسون للغة العربية من غير المسلمين يتقربون للمسلمين من أبناء وطنهم ولزوار الصين من المسلمين العرب بحمل أسماء عربية تسبق أسماءهم الصينية المدونة في شهادات البلاد.

علماء أربعة:

وعندما انتهى عهد أسرة (مينغ) وولى على الصين عهد جديد لدولة مانشو (٦٤٤ – ١٩١١) كانت الأوضاع المستقرة للمسلمين قد أفرزت قيادات فكرية رفيعة المستوى. فظهر علماء متخصصون في علوم القرآن والحديث والفقه والتوحيد، وخلف هؤلاء رصيدا كبيرا من المؤلفات القيمة التي اندثر أكثرها الآن. وفي مقدمة هؤلاء أربعة كبار يتناقل أسماءهم وسيرتهم العجائز من شيوخ المسلمين الآن. ولا تذكرهم أي من المراجع التي تتحدث عن المسلمين هناك. فقد عاشوا حياتهم جنودا عظاما مجهولين، وماتوا ودفنت ذكراهم ككل الأبطال المجهولين والعلماء الأربعة هم:

الشيخ دانغ داى يو (حوالي ١٥٦٠ – ١٦٦٠) وأول من كتب عن الدين باللغة الصينية، ومن مؤلفاته (الأجوبة الصحيحة على الدين الحق) و(حقيقة الإسلام). وكتب أخرى عن التوحيد والفقه وأحكام الدين.

الشيخ ماتشو (١٦٤٠ –١٧١١) مؤلفا كتاب (إرشاد الإسلام) في عشرة أجزاء الذي طبع مرات عديدة.

الشيخ لوتشه (١٦٥٥ – ١٧٤٥) عالم معروف بكثرة مؤلفاته ومنها (حقائق الإسلام) في ستة أجزاء، (وسيرة خاتم الأنبياء) في ٢٠جزءا و(حكام الإسلام) في عشرين جزءا.

الشيخ مانوتشو (١٧٩٤ – ١٨٧٣) مؤلف مرموق، وفقيه متعمق في علوم الدين كان يقوم بالتدريس ويمارس التأليف معا. ومن مؤلفاته (خلاصة أصول الدين الأربعة) (ومقصد الحياة) و(تعريف روح السلام)، و(أحكام الدين).. إلخ.

ومن بين ما أفرزته هذه المرحلة أن المسلمين الذي صارت تجمعهم قومية هم (المحمديون) ذوو الأصول الوافدة من الخارج – أصبحوا يحملون أسماء صينية إلى جانب أسماءهم العربية، وأن بعض الأسماء المتداولة في مجتمعات المسلمين أخذت صياغات صينية.. على سبيل المثال فإن اسم محمود عندما دخل في القالب الصيني فإنه أصبح ينطق (ما) ومحمد أصبح (مو) وسعد الدين صار (سا) ونصر أصبح (نا) ونور الدين (نو).. وهكذا.

ومن حقائق هذه المرحلة أيضا أن تجمعات المسلمين لم تعد مقصورة على المناطق الجنوبية الساحلية من الصين وحدها، ولكن ظهر الوجود المؤثر لمسلمي الشمال والغرب، ومنهم مسلمو تركستان – التي ضمت إلى الصين – والمسلمون من ذوي الأصول المغولية مثل الأوزبك والقازاق والتتار وهم امتداد لقبائل بلاد وراء النهر.

أما المسلمون من ذوي الأصول العربية والفارسية، سواء كانوا جنود استقروا، أو مجندين أكرهوا على الانتقال إلى الصين، وقد سموا بقومية هوى، فأنهم لم تكن لهم مناطق تجمع محددة، إذ كانوا مستجلبين قبل عدة قرون من الخارج وليسوا من قبائل مناطق الحدود كالأوزبك أو الترك أو غيرهم. هؤلاء انتشروا في أنحاء الصين، وتدخلوا أكثر من غيرهم في المجتمع الصيني، وفيهم حدثت ظاهرة (تعيين) الأسماء الإسلامية).

وهذا الانتشار أدى إلى تنوع مجالات النشاط الاقتصادي للمسلمين، بينما ظلت نشاطات مسلمي الجنوب هي التجارة أساسا. فأصبحت نشاطات مسلمي الشمال والغرب مركزة في الزراعة والرعي.

ولكن الأهم من هذا كل أن المسلمين في تلك المرحلة يتصرفون لا باعتبارهم أجانب وافدين، ولكنهم أصحبوا يتصرفون كمواطنين لهم حقوق يجب الدفاع عنها، الأمر الذي شجعهم على التمرد أكثر من مرة، والثورة أكثر من مرة، وهو ما دفع له المسلمون ثمنا باهظا، وجر عليهم ويلات وخرابا بلا حدود له ولكنه من ناحية أخرى – سجل تاريخيا لصالحهم، إذ صنفهم باعتبارهم مناضلين شجعانا ضد الاستغلال والظلم.

ولم يكن لهم خيار في ذلك، بعدما استمرت في ظل أسرة (ماتشو) سياسة العزلة التي انتهجها على مدى ثلاثة قرون تقريبا أسرة بينج التي سبقتها، وتقطعت بذلك صلاتهم بالعالم الإسلامي الذي كان غارقا في شواغل وهموم أخرى إذ ما أن ظهرت أسرة ماتشو على مسرح الأحداث في منتصف القرن السابع عشر، حتى كان الصفويون يثبون أقدامهم في بلاد فارس وقد حملوا، المسلمين على اعتناق المذهب الشيعي، الأمر الذي أقام حاجزا مذهبيا بين مسلمي الصين وبلاد وراء النهر وأفغانستان، وبين سائر المسلمين من أهل السنة، وكان الإمبراطورية العثمانية مشغولة بين العثمانيين والصفويين وبينهما كان مسلمو الصين يعانون من الاضطهاد والعذاب في النصف الثاني من عهد أسرة ماتشو، القرن التاسع عشر، كانت شمس الإمبراطور العثمانية تتجه إلى المغيب وكان على هؤلاء المسلمين أن يواجهوا قدرهم وحدهم مسلحين بإيمانهم فقط! وقد بدأ عهد أسرة ماتشو بداية لا تبشر بالخير من وجهة نظر المسلمين.

المسلمون يعلنون الثورة حين بدأت الشروخ:

فبعد ٤سنوات فقط من تولي السلطة الجديدة عام ١٦٤٨، أعلن مسلمو قانصو (هانج تشوفو) الثورة ضد الحكومة – ورفعوا- لأول مرة في تاريخ مسلمي الصين – السلاح ضد السلطة مطالبين بالحرية الدينية.. والمعلومات المتعلقة بهذه الثورة الإسلامية الأولى، شحيحة للغاية، إلا أن الحديث في ذاته يعنينا من حيث وقوعه أولا، ومن حيث الأسباب التي أدت إليه، والتي كانت مؤشرا لما هو قادم في المستقبل، وإن بعد نسبيا.

لقد أثارت نذر الظلم والتضييق على المسلمين واضطهادهم، التي هبت ريحها مع قدوم أسرة مانتشو، شعورا عاما بالاضطراب والتوتر في صفوف المسلمين.. وقد حاول الإمبراطور يوانج تشين في سنة ١٧٣١ أن يهدئ من روع المسلمين فأصدر بيانا هاما يحدد فيه سياسة حكومته تجاه المسلمين قال فيه:

(أن المسلمين أعتبرهم كأبنائي وانظر إليهم إلى بقية رعيتي، تمام ولا فرق بينهم وبين الذين لا يدينون بالإسلام، وقد تسلمت من بعض الموظفين ظلامات سرية ضد المسلمين، سببها أن ديانتهم تختلف عن ديانة غيرهم من أهل الصين، وأنهم لا يتكلمون بلغة الصين، ويلبسون لباسا يختلف عما يلبسه سائر الأهالي وهم متهمون بالعصيان والغطرسة والميول الثورية، وقد طلب مني أن أتخذ ضدهم تدابير صارمة، فلما بحثت هذه الظلامات والاتهامات لم أجد لها أساسا من الصحة..)

إلى أن قال:

(فإذا ظل المسلمون بعد ذلك يتصفون بما يتصف به الرعايا الأخيار المخلصون فسأبسط لهم رعايتي بقدر ما أبسطها إلى أبنائي الآخرين..)

وأضاف الإمبراطور في رسالته عن المسلمين: (أنهم يجتازون امتحاناتهم في الآداب كما يجتازها أي إنسان آخر ويقومون مما يفرضه عليهم القانون من تضحية).

بعد صدور هذا البيان بثلاثين سنة، ثار المسلمون في كاشغر، وفي الشمال الغربي، وقد ساعد اثنان من بكوات الأتراك الصينيين على قمع هذه الثورة فتعاطف معهم الإمبراطور كين لنج، وبنى في بكين، يذكر بروم هول في كتابه (المسلمون ودولة المانشو) قصور لأمثال هؤلاء البكوات، ويقول أن الإمبراطور بنى أيضا مسجدا ليصلي فيه بكوات الأتراك الذين يزورون القصر الإمبراطوري وليصلي فيه أسرى الحرب الذين جئ بهم من كاشغر إلى العاصمة وكان بين هؤلاء الأسرة فتاة جميلة، أصبحت جارية للإمبراطور، ونالت حظوة عنده

ويقال أنه في سبيل حبها، بنى هذا المسجد تجاه قصره مباشرة، كما بنى قبة في فناء قـصره فتمكنت الجارية من أن تشاهد منها أبناء وطنها وهم يصلون، وأن تشاركهم في عبادتهم وقـد بني هذا المسجد من سنة ١٧٦٣ إلى سنة ١٧٦٤ وهو يحتوي على نقش مكتوب بأربع لغات، كتب الإمبراطور نفسه النص الصيني منه.

وبعد ثورة المسلمين في كاشغر، ثار المسلمون مرة أخرى في زنجاريـا، مطـالبين بالحرية الدينية، ولكن الثورة قمعت، ونقل إليها الإمبراطور كين كونج ذاته في سـنة ١٧٧٠ عشرة آلاف من العسكريين استجلبهم من أنحاء الصين ويقال أنهم دخلوا الإسلام بعد ذلك.

يبشرون بدينهم:

وفي تلك المرحلة بعث حاكم ولاية (خوانشي) بتقرير إلى الإمبراطور كين لونج فـي سنة ١٧٧٣، وهو يشير إلى أن المسلمين لم يتوقفوا عن الدعوة إلى دينهم بين الصين، حتـى في ظل مرحلة يسودها التوتر والقلق، مثل حكم أسرة مانتشو، وأن اشتغالهم بالتجارة والزراعة لم يلههم عن عملية التبشير بالإسلام في تربة الصين الوعرة، في هذا التقريـر يقـول حـاكم خوانشي:

(أن لي عظيم الشرف أن أحيط جلالتكم علما بأن مغامرا يدعى هانفوين (الحنفى) من ولاية خوانشى قبض عليه بتهمة التشرد، فلما سئل عن عمله، اعترف بأنه قضى عشر سنوات يطوف بشتى ولايات الإمبراطورية كي يستطلع أحوال ديانته، وقد وجدنا في إحـدى حقائبـه ثلاثين كتابا، كتب بعضها بنفسه، وكتب بعضها بلغة لا يفهمها أحد عندنا، وتمجد هذه الكتـب ملكا من ملوك العرب يدعى (محمدا)، في أسلوب مسرف يدعو إلى السخرية، وحين قدمنا هذا الضال الذي ذكرناه من قبل للتعذيب. اعترف أخيرا بأن الغرض الحقيقي من رحلته أن يدعو لهذا الدين الزائف الذي يتعلمونه من هذه الكتب. كما اعترف بأنه قضى في ولاية شانسي مدة أطول مما قضاه في أية ولاية أخرى).

وفي ختام رسالته يطلب من الإمبراطور:

(أن تأمروا بإحراق صحائف الطباعة التي في حوزة أسرته، وبـالقبض علـى مـن حفظوها وبالقبض أيضا على من ألفوا هذه الكتب التي أرسلتها إلى جلالتكم، رغبة في الوقوف على ما ترونه في هذا الأمر).

إن نشاط مثل هذا الداعية المسلم، وظهور مفكرين وفقهاء مسلمين، مثل الأربعة الذين سبق الإشارة إليهم – وهناك غيرهم بكل تأكيد – ذلك يعني أنه كانت في الصين خلال القرنين

السابع عشر والثامن عشر على الأقل بوادر (مد إسلامي)، لم يلق عناية من جانب العرب. وهو الذي تنبه إليه ورصده المبشرون الأجانب والمستشرقون.. فتوماس أرنولد يذكر – مثلا– أن أحد رسل الجزويت في بكين كتب في سنة ١٧٢١ يقول: (إن طائفة المسلمين يتزايد أعدادها شيئًا فشيئًا).

وينقل عن دوهلد أيضا قوله عن مسلمي الصين في القرن الثامن عشر: (إنهم سائرون منذ سنين في تقدم ملحوظ بفضل مالهم من ثروة، فهم يشترون الأطفال الوثنيين حينما كانوا ولا يجد أباء هؤلاء الأطفال غضاضة في بيعهم، لعجزهم دائمًا عن توفير القوت لهم، وفي أثناء المجاعة التي خربت ولاية تشنتيخ، اشترى المسلمون ما يربو على عشرة آلاف من هؤلاء الأطفال، ويتزوج المسلمون بالصينيات، ويشترون لهم الدور، أو يبنون لهم في المدينة أحياء مستقلة، بل قرى بأكملها، وحصلوا شيئًا فشيئًا على مثل هذا النفوذ بدرجات عدة. حتى أنهم لم يتيحوا لأي شخص لا يذهب إلى المسجد أن يعيش بين ظهرانيهم. ويمثل هذه الوسائل تضاعف عددهم إلى حد كبير خلال هذا القرن.. واتجاه المسلمين إلى التبشير بدينهم على هذا النحو، يعكس المدى الذي بلغه حرصهم على نشر الإسلام بمختلف الوسائل داخل الصين، وقد يكونون مدفوعين في ذلك بنية خالصة لوجه الله. وربما حفزهم على ذلك أيضًا حرصهم على الإكثار من أعدادهم باعتبارهم أقلية صغيرة للغاية – نسبيا – وسط بحر البشر من قومية الهان التي كانت تتراوح معتقداتها بين البوذية والتاوية والوثنية.

مواطنون لا أجانب، مساجد بلا مآذن:

ومع ذلك ظل المسلمين يتصرفون – ككل الأقليات – بوعي وحذر شديدين.. فقد كانوا حريصين على ألا يظهروا بأي مظهر متميز عن الصينيين، حتى لا يلفتوا الأنظار إليهم، ولكي لا يتركوا انطباعا لدى الصينيين بأنهم (أجانب).. ومما يلاحظ حاليا في المدن والقرى الصينية أن أكثر المساجد بغير مآذن، بل توجد مساجد مصممة على الطراز الصيني بحيث لا يمكن أن يفرق الناظر إليها من الخارج بينها وبين أي معبد أو منشأ عام في الصين من ذلك على سبيل المثال مسجد تشي جان راس (بيت الله العلى) في شيان، الذي بني في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي.. ويقال هنالك أن سر عدم بناء مآذن فوق مساجد المسلمين، يرجع إلى أنهم لجأوا إلى هذا الأسلوب مراعاة لشعور الصينيين، وتجنبا لاستفزازهم، وهم الكارهون بالطبيعة للأجانب.

وفي ثيابهم ومظهرهم كان المسلمون لا يتميزون في شيء عن الصينيين، بل كانوا يذوبون بينهم، حتى لا يكاد يعرفهم أحد لأول وهلة، فأغطية رؤوسهم، وثيابهم الفضفاضة

الواسعة، وضفائر الشعر. هذه كلها كانت جزءا لا يتجزء من مظاهر المسلمين، في المسجد فقط كان الشيوخ يضعون العمامة، والمصلون العاديون يرتدون (الطاقية) البيضاء في الأغلب، والسوداء استثناء.. وفي هذه النقطة يقول توماس أرنولد: (إن القانون فرض أن يكون في كل مسجد لوح للإمبراطور منقوش عليه عاش الإمبراطور الخالد إلى الأبد).. وكان المسلمون يسجدون أمامها جريا على العادة الصينية المتبعة وكانت لهم حيل عديدة في التخلص من ذلك، إرضاء لضمائرهم وتفاديا من الاتهام بالوثنية حتى في بلاد التتار الصينية، التي كان مباحا فيها للمسلمين امتياز خاص يخول لهم أن يعيشوا غير مندمجين في غيرهم وأن يكونوا طائفة منفصلة، كان كبار الموظفين من المسلمين يرتدون الزي المخصص لمناصبهم، ويرسلون شوارهم، وجدائل شعرهم ويقومون في أيام العطلة بما كان مفروضا على الموظفين من شعائر الولاء المعهودة لصورة الإمبراطور وذلك بأن يسجدوا لها ثلاث سجدات، وكذلك كان جميع أصحاب المناصب من المسلمين وغيرهم من الموظفين في الولايات الأخرى يؤدون في أيام الأعياد والشعائر الخاصة بوظائفهم في معابد كونفشيوس.. والواقع أن المسلمين احتاطوا كل الحيطة كي لا يظهر دينهم بمظهر المعارض لدين الدولة، وقد نجحوا، من أجل هذا في تجنب الكراهية التي كان الصينيون ينظرون بها إلى أصحاب الديانات الأجنبية، كاليهودية والمسيحية، ورغم حذر المسلمين وحيطتهم البالغة، فإن هذا الحذر لم يمنع القدر!

مسلسل الثورات والمذابح:

وذلك أن حكم المانشو ظل يمارس قدرا من الظلم على الناس، والاضطهاد للمسلمين، كان فوق طاقة احتمالهم، فهبوا في ثورات متتابعة خلال القرن التاسع عشر، وشملت مقاطعات يونان وقانصوه وتركستان.

وكانت هذه الثورات بقمع شديد، وصل إلى حد المذابح ومحاولة الإبادة، الأمر الذي أدى بالفعل إلى تناقص عدد المسلمين في أنحاء تلك البلاد، بعد ما راح مئات الألوف ضحية هذه المذابح الوحشية.

وكان ذلك يجري وراء أسوار الصين، دون أن يعلم أحد، كما أنه في المرحلة لم يكن أحد في العالم الإسلامي مستعدا لغوث، أو حتى الاستماع إلى توسلات وانين مسلمي الدولة العثمانية، وتفسخ العالم الإسلامي؛ حيث وزعت تركة (الرجل المريض) على دول الغرب، من إنجلترا وفرنسا إلى إيطاليا وألمانيا.

وخلال مائة سنة، في الفترة ما بين ١٧٥٨ و ١٨٧٣ انفجرت خمس ثورات كبرى لمسلمي الصين، يمكن تصور حجمها من عدد الكتب الرسمية التي صدرت عنها مسجلة لكل

تفصيلات أحداثها كعادة مؤرخي الأباطرة في الصين منذ الأزمنة القديمة.. ففي سنة ١٧٥٨ اندلعت ثورة المسلمين في ولاية قانصو بقيادة سوس سان، وسجل تاريخها في ٢٠ جزءا من الكتب الرسمية.

وفي مقاطعة سينكيانج شبت ثورة جنقخ، واستمرت سنين من ١٨٢٥ إلى ١٨٢٧ وصدر تأريخ وقائعها ٨٠ جزءا.

وفي سنة ١٨٥٥ اندلع لهيب الثورة في مقاطعات سيكانج وقانصو وشانس واستمرت هذه الثورة بقيادة يعقوب بك طولا ٢٠ عاما، وقد سجلت أحداث هذه الثورة في كتاب من ٣٣٠ جزءًا!

وهكذا كانت أحاديث هذه الثورات الإسلامية العارمة قد ملأت مجلدات، مما يتعذر الإلمام به أو حتى تلخيصه، إلا أن ثورة يونان لها ملابسات خاصة جديرة بالذكر والانتباه.

من المسلمين إلى جلاد ستون:

فتلك الثورة فجرها حادث صغير، بعض الصينيين والمسلمين اتفقوا في سنة ١٨٥٥ على استخراج الفضة من منجم في منطقة (تالي فو).. وبعد انتهاء المهمة حاول الصينيون الاستئثار بالكسب فثار المسلمون، الذين لم يسكنوا، واشتبك الفريقان وسقط منهم قتلى، ولكن حاكم المقاطعة انحاز إلى صف الصينيين وكتب إلى الإمبراطور يطالب بقمع المسلمين، فتوجهت قوات الإمبراطور إلى مناطق المسلمين لتأديبهم، وكانت قيادة المسلمين لأحد العلماء اسمه (ماتيه سنج)، وكان مساعداه هما القائدان ماهسين (حسين؟) ودووين سيا، وفي أول مواجهة انتصر المسلمون على قوات الإمبراطور، واضطرتها إلى طلب الهدنة، ولكن الإمبراطور استخدم الحيلة، واستمال إلى جانبه ماتيه سينج بالأنعام والعطايا، كما استمال ماهستن بترقيته إلى رتبة قائد في الجيش الصيني.

وبعد أن تحركت قوات المسلمين واستولت بعد عناء على تالي فو عاصمة المقاطعة، وشقت طريقا إلى بورما للحصول على التموين والسلاح، بعد ذلك نجحت حيلة الإمبراطور، وطلب ماتيه سينج وماهسين من المسلمين إلقاء السلاح، ولكن دووين سياو رفض الاستجابة لدعواتهم، فجعل عاصمة ملكة تالي فو، وظل صامدا يقاوم القوات الصينية، ويحول بينها وبين السيطرة على يونان.

وهنا تروى (دائرة معارف القرن العشرين – فريد وجدى)، قصة ملفتة للنظر تقول أنه في سنة ١٨٧٠ وصل إلى الصين القائد الإنجليزي (سلادن) في بعثة سياسية، فسعى بعض

زعماء المسلمين إلى لقائه، وطلبوا منه أن يحث حكومته على مساعدتهم في تأسيس مملكة إسلامية بالقرب من بورما في مقابل تأييدهم للإنجليز عند اللزوم، فأشار سلادن على الزعماء المسلمين بأن يوفدوا الأمير حسن ابن السلطان سليمان إلى انجلترا، ليبحث الأمر مع الحكومة الإنجليزية.

وبالفعل – تقول الرواية – سافر الأمير حسن إلى لندن، والتقى برئيس الوزراء الإنجليزي جلاد ستون الذي لم يرحب بالفكرة، واعتذر عن تدخل انجلترا في شئون مسلمي الصين.. وعندئذ قرر الأمير حسن أن يطرق بابا آخر، فاتجه إلى الآستانة، والتقى بالسلطان عبد العزيز الذي أظهر رغبة شديدة في الاستجابة إلى طلبه، ولكنه اعتذر بأن الظروف لا تمكنه من ذلك.. وعندئذ عاد الأمير حسن إلى يونان في سنة ١٨٧٣، وجد أن الحكومة الصينية قد قضت على مقاومة المسلمين في يونان، وإن أباه انتحر بالسم في يناير من نفس السنة وأن ثلاثين ألفا من المسلمين قد ذبحوا، في حملة تأديب عنيفة بينما لجأ ألوف آخرون إلى بورما.

وخلال حكم أسرة المانشو، لم يقتصر الأمر على هدم الدور والمساجد ومصادرة الحريات والأملاك، بل ذهبوا إلى حد تحريم ذبح البقر، ليضطر المسلمون إلى أكل لحم الخنزير، أمعانا في المهانة والإذلال. الأمر الذي تصدى له المسلمون بكل عنف، وتحدوه بكل قوة، ومنع المسلمون من السفر لأداء الفريضة فأصدرت حكومة المانشو قرارا يمنع المسلمين من السفر للحج أو حتى لطلب العلم، من دخول الصين عند العودة فنشأت بينهم عادة غريبة، وهي عادة الحج بالنيابة وتوافد عليهم فقراء المسلمين من الأمم القريبة لينوبوا عنهم في الحج بأسمائهم.

وكان سلاح الضرائب واحدا من السياط الحادة التي ظلت تعيشه في ظل أربعة من أمراء الأقطاع، الذين تولوا استغلال المسلمين وتأديبهم بصورة بشعة فقد كانت الضرائب المفروضة على أهالي مقاطعة ينجشا تتسع لتشمل الخيول والأبقار والجمال والخراف والطيور المنزلية، وحمل الملح، واستهلاك الملح، ولمبات الغاز، والطعام والخشب والفحم والجلود والحفلات والدخان، وذبح الحيوانات والري والطواجن والخضروات وإلى غير ذلك من محتويات القائمة المذهلة التي لا يمكن أن يصدقها عقل!

وكان الأمراء يحتكرون تجارة الملح، ولذلك كان كل فرد ملزما بأن يشتري كل شهر رطلا من الملح، استعمله أو لم يستعمله وكان محرما عليه أن يبيعه، وألا عوقب بالجلد، وإذا ما ضبط متلبسا بهذه الجريمة الشنعاء فأنه يعاقب بالموت.

يموت المسلم إذا باع حفنه من الملح.. هذه هي قيمته!!

بعثة السلطان عبد الحميد:

وما أن قارب القرن التاسع عشر على نهايته حتى كان المسلمون قد انكسرت شوكتهم في الصين، بعدما هدتهم تلك الضربات القاصمة، فلجأوا إلى مهادنة الحكومة، مستخدمين الأساليب السليمة، في ممارسة نشاطاتهم، ومن جهة أخرى فإن حكومة المانشو لم تمانع في هذه المهادنة، وقد اطمأنت إلى أنها قابضة على زمام الأمور في مناطق المسلمين بيد من حديد وممثلة في عسكر الإمبراطور وقوانينه الصارمة.. لقد رأى كل طرف مصلحة له في المهادنة، لكن الجراح بقيت كما هي، غائرة وعميقة ومستعصية في الالتئام.

وتسجل السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين ظاهرة توجه المسلمين إلى مختلف النشاطات التربوية والتعليمية، فقد استطاع أمام مسجد بكين الشيخ إلياس عبد الرحمن وانج، أن يحصل من السلطات الحكومية على موافقة لإنشاء أول معهد إسلامي بالمدينة سنة ١٩٠٣، وأول مدرسة ابتدائية لأبناء المسلمين، كانت تدرس – لأول مرة – اللغة العربية إلى جانب اللغة الصينية، وتتداول فيها الترجمة الصينية للقرآن الكريم والأحاديث النبوية، وكان تعليم أبناء المسلمين يتم قبل ذلك – إذا تيسر – من خلال (الكتاتيب) المنتشرة في القرى، ثم من خلال المدارس الحكومية بعد ذلك.

في تلك الظروف تذكر – الانسكلوبيد الفرنسية – حاول السلطان عبد الحميد أن يقيم علاقات مع مسلمي الصين، وإن يتقصى أخبارهم، فأوفد أحد رجاله (أنور باشا)، وهو غير ناظر الحربية الشهير الذي وصل إلى بكين سنة ١٩٠٠ ولكن مهمته لم تنجح.. وفي الوقت ذاته، زار الآستانة أمام مسجد بكين الشيخ إلياس عبد الرحمن، الذي أتيح له أن يلتقي بالسلطان عبد الحميد، واقترح عليه إرسال بعثة إسلامية إلى الصين، ولقيت الفكرة قبولا عنده، وهو الذي سعى إلى ذلك من قبل – فأوفد السلطان اثنين من المسلمين الأتراك، هما رضا وحسن حافظا، اللذان أسسا مدرسة ضمت ١٢٠ طالبا في مسجد (نيوجاه) القائم الآن في العاصمة.

ولكن العهد لم يطل بهذه الهدنة إلى الحد الذي يسمح للجراح بأن تندمل، لأن عرش أسرة المانشو كان يواجه أعاصير تزلزله.. ومن ناحية أخرى كانت الجمعيات السرية قد انتشرت في الإمبراطورية، ثائرة على الفساد المستشري في الحكم، وعلى الظلم والطغيان، وعلى تحويل البلاد بصورة مهينة إلى منطقة نفوذ مقسمة لحساب الدول الأوروبية والولايات المتحدة وعلى تخاذل أسرة ماتشو وهزيمتها أمام اليابان.

كان السوس قد استشرى في جسد إمبراطورية المانشو حتى بلغ النخاع، ولم يكن هناك بديل عن الثورة.. واستئصال الداء، أسرة الماتشو، بكل ما يمثله نظام حكمها من شرور.

كان المسلمون والوطنيون الصينيون يقفون في خندق واحد، لأنهم كانوا في محرقة واحدة، ويكتوون بنار واحدة.

وعندما نجحت الثورة الوطنية وأعلنت الجمهورية في عام ١٩١٢ بدأت صفحة جديدة في تاريخ الصين.

الغرب وديارهم:

وفي هذه الفترة.. وبالتحديد في عام ١٩١١ نقل رجلان انجليزيان كتابا من الصينية إلى الإنجليزية، وطبع الكتاب في مدينة بطرسبورج التي أصبحت فيما بعد ليننجراد، وفي الكتاب وصف لديار العرب، استقاه مؤلفه الصيني من التجار العرب الذين كانوا يصلون إلى الميناء الذي يعمل فيه، كان ذلك في القرن الثالث عشر، أما اسم الكتاب فهو (وصف الشعوب الأجنبية).

البخور العربي:

نشطت العلاقات التجارية بين الصين وديار العرب، بدءا من القرن السادس للميلاد بشكل خاص، كانت جزيرة سرنديب (سيلان – سرى لانكا) هي مركز التجمع للتجار العرب من جهة، والتجار الذين كانوا يحملون المتاجر الصينية (بحرا) من الجهة الأخرى، وقد تنوعت السلع المحمولة من الفريقين، وكان أهمها – من المشرق –: الحرير الصيني خيوطا ونسيجا، والخزف الصيني، والقيشاني، والتوابل الآتية من جزر الهند الشرقية (أندونيسيا)، أما من الغرب فقد كان البخور العربي والأفريقي، وقرن وحيد القرن والعاج في مقدمة ما يحمل، وكان سلع الشرق على العموم أكبر قيمة – يومها – على نحو ما كانت عليه أيام الرومان، وكان الغرب – على أيدي التجار العرب – يدفع الفرق بالفضة، كما يدفعها قبلا (أيام الرومان) بالذهب والفضة.

وبالرغم مما كان هناك من نشاط تجاري، فإننا لا نعرف أن الصينيين خرجوا من ديارهم ليتعرفوا حتى على الأقطار القريبة منهم ولذلك نسر عندما نعثر على كتاب يتحدث عن ديار العرب والمتاجر التي تحمل منها إلى الصين.

وصف الشعوب الأجنبية:

الكتاب أسمه بالصينية (تشو – فان تشى) ومعناه وصف الشعوب الأجنبية، أما مؤلفه فهو (تشوجو كوا)، ويعود وضع الكتاب إلى القرن الثالث عشر.. وقد استقى المؤلف مادة الكتاب من التجار الذين كانوا يحملون بضائعهم إلى الميناء الذي كان هو يعمل فيه، وهو ميناء زيتون (تسوان – تشو)، وكان (جوكوا) يشغل منصب مراقب التجارة البحرية هناك.. وكان ثمة موانئ أخرى فيها مثل هذا المنصب، لكن مؤلف الكتاب حصل على ما لديه من المعلومات والأخبار من التجار الذين هبطوا ميناءه، فقد كان على التجار الذين يصلون الميناء إن يبادروا إلى تسجيل ما لديهم من بضائع.. وكان عليهم أن ينتظروا حتى تصل آخر السفن في الموسم التجاري المعين، كان مراقب التجارة يقتطع ٣٠% من المتاجر عينا هي رسوم الميناء، ويعطي لممثل الإمبراطور الحق في أن يختار ما يراه مناسبا لسيدة من المتاجر، وكان يدفع ثمنها، قبل أن تعرض للبيع، وعندما ينوي التجار الخروج من الميناء ومعهم ما ابتاعوه من السلع، كان عليهم أن يقدموا البيانات اللازمة للمراقب، ثم يترتب عليهم أن يدفعوا رسوم التصدير، قبل أن يؤذن لهم بالسفر.. وفي هاتين الحالتين كان المؤلف يتعرف على التجار وبدون أسماء بلادهم، وما يحملون معهم من السلع، وهذه المعلومات هي التي دونها في كتابة.

وصف الكتاب:

الكتاب قسمان: يتناول المؤلف في الأول منهما الأقطار والشعوب التي تحمل متاجرها إلى زيتون والثاني يتحدث عن المتاجر نفسها.

وفيها يتعلق بأقطار أسيا القديمة من جنوب الصين، ثم يتحدث عن كمبوديا فالملايو وسيلان والهند. ثم ينتقل إلى البلاد العربية يعدد الموانئ والمدن المهمة، وهي صحار وعمان ومخا وبغداد والموصل ومصر. والإسكندرية، ويشير إلى المغرب الأقصى، وتشغل أخبار هذه المدن (مع جزيرة قيس في الخليج العربي والصومال وآسيا الصغرى) أكثر من ربع القسم الأول.

أما فيما يتعلق بالقسم الثاني، أي المتاجر – فإن المؤلف يذكر ثلاثة عشر نوعا من البخور تنقل إلى الصين.. وفضلا عن تعداد هذه المتاجر وذكرها منفردة، فأنه يعطينا وصف بطبيعتها وسبل استخدامها أن كانت طبيعية أو مركبة أو عقاقير أو طيوبا.

اضطراب الجغرافيا والتاريخ:

بلاد العرب وديار الإسلام والمسلمين يشير المؤلف إليها باسم (تارتشي) – وهو يستعمل هذه التسمية أحيانا للجاليات العربية والإسلامية المقيمة في جاوة وسومطرة. ويقول عن تلك الديار:

(.. وإنها بعيدة عن الصين مسافة كبيرة) وبذلك على ذلك بالإشارة إلى أن السفن تحتاج إلى مدة تتراوح بين ١٢٠ و ١٣٠ يوما كي تصل إلى سيلان من زيتون).

ومن الطبيعي أن تكون معلومات (جو – كوا) مضطربة من حيث الجغرافيا، فهو ينقل معلومات عن بحارة وتجار لم يكن دوما باستطاعتهم أن يزودوه بالأخبار الدقيق، لكنها أشد اضطرابا واختلاطا من حيث التاريخ، ولعل الحدث التاريخي الوحيد الذي لم يخطئ فيه جوا – كوا، أو لعله لم يخطئ في نقله هو أن النبي ﷺ ولد في مكة، وأن الكعبة فيها، وإنها تكسى بالديباج مرة في السنة.

يحدثنا المؤلف عن مرباط (في الجنوب العربي) ويقول: أن بعض بيوتها يتكون من خمسة أدوار، ويؤكد (جو – كوا) على نشاط التجار بين عمان والبصرة ويتحدث عن قوة العرب ونشاطهم.. ومن البضائع التي يذكرها المؤلف البخور بأصنافه وأجودها من حمل من ظفار والشمر، ودم الأخوين والذبل (من سوقطري) والزبد (من الحبشة وجنوب الجزيرة)، والعاج (من أفريقيا) واللؤلؤ والجيد منه كان الغواصون يستخرجونه من جزيرة أوال (البحرين).

ويبين المؤلف المتاجر التي كان التجار العرب ينقلونها من الموانئ العربي (في الخليج العربي وخليج عمان والبحر الأحمر) ولكنها أصلا آتية من الداخل ومن بلاد بعيدة مثل المرجان المحمول من البحر المتوسط، والبللور الذي كان يصنع حسب روايته – في بغداد والشام، وهذا البللور أفضل مما يصنع من الصين، لأن الصناع في (تارشى) يضيفون (البوراكس) إلى المواد الخام، لذلك يكون أنقى وأنصع من البللور الصيني.

وهذا الكتاب نقله إلى اللغة الإنجليزية (مع هوامش مفصلة) فردريك هيرت وزميله و.و. ريكهل وطبع سنة ١٩١١ في سان بطرسبورج كما اسلفنا.. على أن هذا الموقف من الأقطار الخارجية تبدل إلى درجة كبيرة أيام أسرة (مينج) التي حكمت الصين من سنة ١٣٦٨ إلى سنة ١٦٤٤.

الكونفوشية والتجارة:

لابد من الإشارة إلى موقف الصين الرسمي، أي موقف الإمبراطور والحاشية من التجارة، ذلك أن النظرية الكونفوشية كانت تعتبر العمل بالتجارة محطا ولا يليق بابن ماء السماء.. ومع ذلك فإن العمل بالتجارة كان يتطلب أذنا من الإمبراطور والإمبراطور كان شديد الحرص على هذه السلع الكمالية التي كان البلاط والحاشية والأمراء وكبار التجار يتشوقون إليها، وهنا جاء الحل – العملي في نظرهم – وهو أن هؤلاء التجار الذين بدأوا يحملون المتاجر من الصين وإليها، في القرن الأول للميلاد، إنما كانوا يحملون ضرائب للإمبراطور، إذن فزياراتهم كانت لتقديم الطاعة وإظهار الخضوع، وعندما كان الإمبراطور يتلطف ويسمح لهم بالإنجاز في بلاده، أي بالاستمرار في حمل الضرائب إلى البلاط الإمبراطوري!

ولذلك لما خرج الصينيون أخيرا إلى البلاد المختلفة، القريبة أولا ثم النائبة، فأنهم خرجوا ليبسروا الحماية للبلاد التي أظهرت الخضوع للصين، ولعل هذا ما يفسر هذا الظهور أو الخروج بشكل ضخم.

ذلك أن الصين أرسلت في الثلث الأول من القرن الخامس عشر، سبع حملات بحرية لتفقد هذه الأماكن التي كانت تتاجر، أو يمكن أن تتاجر مع الصين، وقد كانت بعض الأساطيل (في الحملة الواحدة) تتكون من اثنين وستين مركبا مختلفة الحجوم والأصناف. وقد اشترك فيها سبعة وثلاثون ألف رجل بين مقاتل وبحار، وقد وصلت ثلاث من هذه الحملات السبع إلى عرب المحيط الهندي، وألق مراسيها في هرمز وفي عدن وفي مخا (على البحر الأحمر).

وقد وضعت هذه الأساطيل في الحملات بأجمعها تحت قيادة صيني مسلم من ولاية يونان، وكان اسمه (تشنج هو) وقد دون هو أخبار الحملات جميعها في تقارير رفعت إلى الإمبراطور، ثم وضعت في الأرشيف الرسمي. لكن هذه اختفت فيما بعد، وقد يكون الأمر متعمدا، فقد لاحظ الذين درسوا الأرشيف الصيني تكرار مثل هذه الحوادث في دور إتلاف تقارير الناجحين.. وهكذا فإن ما دونه (تشنج هو) فقد بأكمله، إلا أن نقشا طويلا نسبيا وضع في الميناء الذي كان نقطة انطلاق للحملات البحرية، وهذا النقش يحوي خلاصة للحملات من حيث إعداد السفن وعدد الرجال والأماكن التي تمت زيارتها وبعض المعلومات عن تلك الأماكن.. وفيه تكون تابعة للإمبراطور – وذلك لأن تجارها حملوا الضرائب إلى البلاط – لأن الإمبراطور كان راضيا عن ولائهم، قابلا بإخلاصهم، فإنه أمر (تشنج هو) وغيره بأن يتولوا قيادة عشرات الآلاف من الضباط والجنود، وأن يكونوا في سفن القيادة، ويتجهوا إلى تلك البلاد حاملين لهم هدايا من الإمبراطور.

في استقبال الزرافة:

ولو كان في القدرة امتلاك التقارير الأصلية، لتوفر للباحثين الكثير من المعلومات لكن ما تبقى منها قليل، إلا أن التقارير التي كتبها أربعة كانوا في حاشية القائد تعوض قسما لا يستهان به من الخسارة.. وبعض هذه المدونات تحوى خرائط للمناطق التي زارتها الأساطيل.. هناك أمر مهم ترتب على إرسال هذه الحملات، وقد حدث هذا بعد عودة الحملة الأولى. فقد افتتحت يومها مدرسة خاصة لتعلم اللغات التي يستعملها سكان البلاد التي زارتها الحملة. وقد استمرت هذه المؤسسة في عملها قرونا طويلة، ولا تزال بعض خزائن الكتب الصينية تحتفظ ببعض الكتب ثنائية اللغة الصينية مع لغة أخرى. ولكن لم يعثر بعد على كتب ثنائية اللغة بالنسبة للغة العربية.. وقد كان للزرافة دور خاص في ذلك، فالزرافة تسمى بلغة الصومال جرين، وهذه الكلمة تلفظ بالصينية جلين أوشلين.. وهذه الكلمة تعني بالصينية الحيوان الخرافي الذي له جسم حصان ورأسه، وخلفيتا وعل، ويتوسط جبهته قرن واحد، ويعد حيوان الحظ عند الصينيين، فوصوله إلى مكان ما في الصين كان دليلا على أن الحظ سيظل على البلاد.. وبسبب من هذا الالتباس في اللفظ والتسمية اعتبرت الزرافة التي حملت إلى الصين من (ملنده) في شرق أفريقيا حدثا خاصا في تاريخ الصين يومها.. فلما وصلت الزرافة (سنة ١٤١٤) خرج الإمبراطور إلى الباب الرئيسي لاستقبالها، وخرج رجال الدولة معه.

وهل ثمة هدية أكبر من هذه يبعث بها أولئك الذين كانوا يريدون توثيق العلاقات التجارية فيما كان القصر يرى في تقربهم منه رغبة في إظهار الولاء والإخلاص له؟

فمنذ سقط، آخر الأباطرة في عام ١٩١١، تتابعت أحداث في سياق القصة، كل منها أشد إثارة وأكثر هولا، من صن بيات صن إلى انتصار ماوتسي تونج، ومن (القفزة الكبرى) إلى (الثورة الثقافية) ومن عصابة الأربعة إلى يومنا هذا كيف عاش المسلمون تلك المرحلة

منذ اليوم الأول لإعلان الجمهورية في الصين – ١٠ أكتوبر ١٩١١ – كان معروف سلفا في أي مربع يقف المسلمون، وربما كان معروفا أيضا أي ثمن دفعه المسلمون بسبب وقفتهم هذه، ومنذ ذلك اليوم الأول سارعوا مسلمون جنوب الصين على تأييد الجمهورية، واستجابوا لنداء الدكتور صن ياب صن الذي دعاهم إلى إقناع مسلمي المناطق الشمالية والغربية بالوقوف وراء الثورة، والتضامن معها في القضاء على فلول أسرة آخر أباطرة الصين.

لذلك لم يكن غريبا أن تبادر الجمهورية الوليدة برئاسة الدكتور صن بات صن إلى الاعتراف المسلمين باعتبارهم أحد العناصر الأساسية الخمس التي تقوم عليها البلاد.

لم يكن غريبا أن يظهر إلى الوجود في عام ١٩١٢ أول جمعية لمسلمي الصين، التي حملت اسم (جمعية التقدم) واستقر بها المقام في يونان؛ حيث أصدرت بالصينية مجلة (المنبه الإسلامي)، وكانت أول جمعية إسلامية صينية استأذنت شيخ الأزهر في إيفاد بعثة من شباب يونان المسلم للالتحاق بالأزهر الشريف.

ولم يكن غريبا أن يتوالى إنشاء جمعيات المسلمين، وإصدار صحف لهم، فأنشئت جمعية التقدم، الجمعية الإسلامية الصينية في شنغهاي، وتأسست بعدها في نانكين – العاصمة وقتئذ (نقابة المسلمين) بأذن من الحكومة.

وشهدت هذه المرحلة أيضا ظهور مجلة (نضارة الهلال) في بكين، ونور الإسلام في تينجان، ومجلة العلوم الإسلامية، في كانتون.. وفي أوائل الثلاثينيات من القرن الحالي، سنة ١٩٣١ تحديدا سافرت إلى مصر أول بعثة من أبناء مسلمي الصين لدراسة الإسلام في الأزهر، وكانت تضم خمسة أشخاص، أوفدتهم جمعية التقدم في يونان على نفقتها، بينهم الأستاذ عبد الرحمن ناجونج الذي تخصص في التاريخ الإسلامي.. وفي تلك المرحلة، كانت نتائج تخلف التفكير الديني قد بدأت تظهر آثاره على السطح، وراحت عمليات الأضرحة والأولياء. والتوسل إلى الله بالبشر، وظهرت فرقة تعتقد في إن (ماهو لونج) الذي قاد ثورة مقاطعة (قانصو) في عهد أسرة المانشو، إنما هو (قطب) من الواصلين إلى الله سبحانه وتعالى. وثبتت هذه الفكرة حتى قيل أن منزلة القطب هذه انتقلت إلى خلفائه بعد استشهاده.. ما أعطى بعض أقاربه حقا في قيادة بعض مسلمي (قانصو) في طريقة منسوبة إلى القطب الأب (ماهونج)، عرفت باسم (الجهرية).

وهذه الطريقة الجهرية هي من إفرازات فكرة غريبة سادت في (قانصو) في أوائل القرن الماضي، وانتشرت بين المسلمين، ووجدت فرقا تؤيدها وتدعو إليها. وخلاصة هذه الفكرة أن كلا من الخلفاء الراشدين له طريقة تختلف عن الآخر، وتظهر معالمها في كيفية تلاوة القرآن الكريم، وقراءة بعض الأدعية والمأثورات عن النبي عليه الصلاة والسلام، فأبو بكر ﵁ أخذ عنه طريقته (الخفية)- ينطقونها خوفية – حيث ينبغي أن يقرأ القرآن بصوت منخفض وغير مسموع، أما عمر فطريقته (الجهرية)، واتباعها يقرأون القرآن بصوت جهوري مرتفع، وطريقة عثمان الكباريه أو الكبروية، على اعتبار انه كان كبيرا في السن، أما على بن أبي طالب فطريقته القادرية والطريقتان الأخيرتان لهما أوراد وأدعية خاصة تميزهما عن الغير!

واتباع (ماهو لونج) من هؤلاء الجهرية، الذين يقرأون القرآن بصوت عال، ويرخون أيديهم أثناء الصلاة، ويعتقدون في الأولياء وزيارة القبور.

وإلى جانب هذه الطرق أو الفرق، شهدت بداية القرن الحالي ظهور جماعة أخرى من المسلمين تحمل اسم (الإخوان) وهم الاسم الذي كان يحمله اتباع الأمام محمد بن عبد الوهاب مؤسس المذهب الوهابي في الجزيرة العربية.

وقد بدأت هذه الجماعة عندما أتيح لأحد أبناء قرية كويوان (البستان) في مقاطعة (قانصو)، أن يؤدي فريضة الحج عام ١٨٩٤، وهذا الرجل اسمه الشيخ نوح كامويوان، ويعرف بين المسلمين الصينيين إلى الآن باسم (الحاج بستاني).

عاد الحاج بستاني من الحج، وقد راقته تعاليم المذهب الوهابي، الذي رأى فيه مخرجا لإنقاذ الإسلام في الصين مما علق به في بدع وشوائب. فمضى يدعو إلى رسالته في ضرورة العودة إلى الدين الخالص.. وضع برنامجًا من ٣٠ نقطة لتحقيق هذا الهدف، إلا أن المسلمين إذا كانوا قد سعدوا بالاعتراف بهم كأحد عناصر الأمة الخمس، ومارسوا في ظل هذا الاعتراف بعض النشاطات التي كانت محظورة من قبل، فأنهم بمضي الوقت تعرضوا لمنغصات أعادت إليهم صور أحزان الماضي وآلامه.

وتكشف الكتابات الصينية، المنشورة بعد انتصار ماو على شيانج كاي شيك ورجال حزب الكومنتانج (حزب الشعب) على أنه حدث صدام في أواخر عام ١٩١١، بعد إعلان الجمهورية بين المسلمين وحاكم مقاطعة (سنتياج)، أدى إلى قتل مائة ألف شاب وفتاة من المسلمين.

وفي سنة ١٩٢٨ – يذكر كتاب (الصين المتحررة) الصادر في بكين عام ٥٧. حدث أن المسلمون في مقاطعتي قانو وليشيا (بثورة مسلمة ضد فساد حكم شيانج كاي شيك وعصابته. وقد ذهب ضحية هذا الجهاد المسلح العادل ما يربو على عشرة آلاف مسلم قتلوا في مذابح بشرية بشعة، فضلا عن إحراق منازلهم، وعاث الطغاة في قانصو فسادًا؛ حيث دمروا المنازل وأهلكوا الحرث والنسل).

وحينما قام المسلمون يطالبون بحقهم في الحياة – يضيف الكتاب – فإن الاقا أخرين ذبحوا فيما بين سنتي ١٩٣٠ و ١٩٤٠ في مقاطعتي هيوان وكويوان.. وقد بلغت قسوة رجال الكونتاج حدا جعلهم يجبرون بعد الجنود المسلمين في الجيش، لكي يقوموا هم أنفسهم بهذه العمليات الوحشية ضد أخوانهم المسلمين.

ولا ينسى المسلمون في الصين، ما قاسوه من فقر مدقع في عصر الكونتانج، إذ كان لا يتسنى لأي فرد من المسلمين أن يذبح بقرة أو خروفا، قربانا لله، لضيق ذات يده، حتى أنهم اسموا عيد الفطر (عيد الدموع) وأطلقوا على عيد الأضحى اسم (عيد الذل).

ذلك فضلا عما قامت به حكومة الكومنتانج من هدم لبعض المساجد في شيوشين، وبكين ومشياشونج تسي، وثياسستين.

ورغم أن الأمر لا يخلو من مبالغة فرضتها اعتبارات الهدف الدعائي الذي كان مطروحا في الخمسينيات، بعد انتصار ماو على شيانج كاي شيك، إلا أن الأمر لا يخلو من بعض الحقيقة على الأقل.

ومن ناحية أخرى فإنه عندما دقت طبول حرب المقاومة الصينية ضد الاحتلال الياباني (١٩٣٧ – ١٩٤٥)، كان موقف المسلمين يشرفهم حقا، ليس فقط كوطنيين مخلصين، بل كمقاتلين شجعان أيضا.. فقد شكل المسلمون أثناء حرب المقاومة (فضيلة قومية هوى) التي عرفت باسم (الجحافل الحديدية) بقيادة ضابط مسلم دخل تاريخ الصين الحديث، لبسالته الفائقة، اسمه هاين تشاى.. وتحت قيادة هذا المقاتل الشجاع خاضت (الجحافل الحديدية) معارك طاحنة ضد اليابانيين في شمال الصين، حققوا فيها انتصارات باهرة، كانت سببا في إيقاف محاولات اليابان الاستيلاء على منطقة سنكيانج.. ذلك على الصعيد العسكري، وعلى صعيد آخر فإن المسلمين الصينيين شكلوا أربع بعثات سافرت إلى العالم العربي، وبعض دول آسيا الأخرى في مهمة لكسب الرأي العام في تلك الدول إلى جانب الصين في معركتها ضد العدوان الياباني.

وفي المواجهة المسلحة بين شيانج كاي شيك مؤيدا بالغرب والأمريكان، وبين ماوتسي تويج مؤيدا بالقوى الوطنية وعلى رأسها الحزب الشيوعي الصيني، وهي ما يسمى الآن في الصين (بحرب التحرير ٤٦ – ٤٩) فإن المسلمين وقفوا إلى جانب، ماو الذي كان نجمه يصعد باعتباره رمز لنضال الشعب وأمال جماهيره الفقيرة، ومن بين الملايين المسلمين في الصين، فإن الذين اتجهوا إلى فورموزا مع رجال كاي شيك لم يتجاوز عددهم ٤٠ ألفا فقط!

وعندما دخل ماوتسي تونج بكين في أول أكتوبر ١٩٤٩ معلنا انتصار الثورة وبدء صفحة جديدة تماما، فإن مسحة من التفاؤل الشديد عمت المسلمين، حتى تحددت ثقتهم في المستقبل الذي بدا مشرقا ومفتوح الآفاق بغير حدود.

الفقهاء الأربعة:

لقد كانت السنوات التي انقضت فيما بين عامي (١٩٠٠/ ١٩٤٩) – ورغم كل ما تخللها من ملابسات – بمثابة مرحلة التقاط الأنفاس بالنسبة للمسلمين، مرحلة النهوض من الكبوة استعدادا لممارسة الحياة الطبيعية بغير كبت ولا قهر ولا اضطهاد.

كانت مدارسهم ومعاهدهم يتزايد عددها، ويتحول فيها المنهج التقليدي العتيق، إلى آخر أكثر عصرية وجدوى وكانت جمعياتهم تتدعم وتوسع من نشاطاتهم رأسيا وأفقيا.

وكانت صلاتهم بالعالم الإسلامي قد تجددت، عادت وفود الحجاج الصينيين إلى بيت الله الحرام، وقطعت الجمعيات الإسلامية الأهلية شرطا لا بأس به في اتجاه إيفاد مبعوثين صينيين للدراسة في الأزهر إذ سافر خمسة أشخاص عام ٣١، وخمسة آخرون في العام الذي يليه، ثم ثلاثة في عام ٣٣، وستة في عام ٣٤ ثم ١٦ مبعوثا دفعة واحدة في عام ١٩٣٧. وقد أطلق على هذه المجموعة التي سافرت إلى مصر اسم البعثة الفاروقية، مجاملة لملك مصر السابق (فاروق) الذي حرصت أو بعثة صينية على مجاملة أبيه (الملك فؤاد) فحملت إليه عام ٣١ هدية من الشاي الصيني الذي لم يكن قد سمع به من قبل!

وقد بلغ مجموع الصينيين الذي درسوا في الأزهر ٣٥ شخصا، وفي الفترة ما بين عامي ١٩١١ و ١٩٤٩ رغم أن بعضهم واجه مشاكل في الاعتراف بشهاداتهم في ظل حكومة الكومنتانج.

نقطة التحول:

وكانت نقطة التحول الكبرى في الموقف، هي انتصار الرئيس ماو ودخوله بكين ليتولى السلطة عام ١٩٤٩ – وقد اتضح فيما بعد أن مسيرة ما بعد التحرير – بعد سنة ٤٩ انقسمت إلى ثلاث مراحل: مرحلة ما بعد التحرير وإلى بداية الثورة الثقافية – ثم تجربة الثورة الثقافية ذاتها.. ثم وفاة الرئيس ماو وسقوط (عصابة الأربعة).. لكن المناقشات التي تجرى خارج هذا الإطار الرسمي تكشف عن أن

تلك المراحل أربع وليست ثلاثا:

- مرحلة الإعداد لتأسيس الدولة (٤٩ – ٥٨).
- مرحلة بدء التطبيق الفعلي للنظام الشيوعي (٥٨ – ٦٦).
- مرحلة الثورة الثقافية (٦٦ – ٧٦).

- مرحلة ما بعد الثورة الثقافية التي بدأت منذ عام ٧٨ فصاعدا.

في البدء لابد من تصور الجو النفسي الذي عاشته قيادة الصين في أعقاب تولي ماو السلطة عام ١٩٤٩ عندما أصبح على قمة بلد تعداده ٥٠٠ مليون نسمة – وقتئذ- انهكته المظالم والحروب والمجاعات وصارت القيادة في موقعها الفريد هذا مطالبة بأن تضمد جراح الشعب، وتعوضه عما فاته. وتبدأ على الفور في الحشد والترميم والبناء.

كانت القضية الأولى هي تثبيت السلطة للنظام الجديد، وكانت كأي سلطة ثورية، فإن شعاراتها ومثالياتها تظل مرحلة البداية عادة، حتى تغوص في الواقع وتتمكن منه، فلا تمانع بعد ذلك من التنازل عن بعض هذه الشعارات والتنازلات لمقتضيات قد تتعلق بطبيعة الممارسة ذاتها، أو بالتوازنات الداخلية والخارجية، أو لضرورات الاستمرار والبقاء.. وفي هذا المناخ فإن قضية المسلمين لم تكن مثارة إلا بالقدر الذي يحسن علاقات الصين مع دول العالم الإسلامي التي تقبل أكثرها باستياء فكرة قيام دولة شيوعية في الصين، وأقلقها في الوقت ذاته مصير ملايين المسلمين في تلك البلاد النائية.

ولم يكن هناك سبب جوهري يدعو إلى قلق المسلمين في ذلك الوقت.. ومن الواضح أنهم كانوا في حالة ترقب، انتظارًا لما ستفسر عنه التطورات الجديدة، يدلك على ذلك أنه لم يكن هناك أثر لأي نشاط خارجي للجمعيات الإسلامية الموجودة آنذاك، فلا حجاج سافروا إلى الأراضي المقدسة، ولا بعثات سافرت للدراسة في الخارج. منذ مغادرة (البعثة الفاروقية) للصين للدراسة في الأزهر عام ١٩٣٧.

وربما يمكن وصف هذه المرحلة – فيما يتعلق بالمسلمين – بأنها مرحلة تأميم النشاط الإسلامي ونقل إدارته وتوجيهه من الجمعيات الأهلية إلى الدولة والحزب.

القفزة الكبرى:

حتى جاء عام ٥٨ الذي يصنف في القاموس السياسي بأنه عام (القفزة الكبرى).

وتمثلت هذه القفزة الكبرى: في إنشاء الكيمونات الشعبية وتعميمها على الصين كلها، من أقصاها إلى أقصاها كانطلاقة في اتجاه التطبيق الاشتراكي.. وكان تطبيق نظام الكومينات الذي شمل توزع كل العاملين عليها، كل في اختصاصه قد شمل أيضا رجال الدين، ودفع بهم إلى المزارع والمصانع فجأة ودون مقدمات!

وكانت الخطوة التالية التي زادت من قلق المسلمين هي تلك الكتابات التي بدأت تظهر في صحف متساءلة عن جدوى ذلك العدد من المساجد المنتشرة بكثافة شديدة في بعض

المقاطعات وداعية إلى استغلال أمثل لهذه (المنشآت)، ويوفر للأقليات حرية العبادة، ويتيح الفرصة لتوظيف تلك المنشآت توظيفا اقتصاديا ملائما).. وتراوحت تلك الإشارات بين التلميح والتصريح والتنديد.

وكانت هذه الحملة الإعلانية التي تصاعدت نغمتها تدريجيا، مقدمة لقرارات اتخذت بإغلاق بعض المساجد. وتحويلها الأغراض اقتصادية تخدم (القفزة الكبرى).. وكانت هذه هي المرة الأولى منذ عام ١٩٤٩ التي تغلق فيها مساجد للمسلمين، وبصدور مثل هذه القرارات، وتنفيذها تلقى المسلمون صدمة ثانية أشد وقعا من تجنيد رجال الدين في الكيمونات، ذلك الأمر الذي أدى من الناحية العملية إلى تفريغ المساجد من الأئمة، وتعطيل إقامة الشعائر فيها.

ثم لوحظ أيضا أن المعهد التابع للجمعية الإسلامية توقف عن استقبال الدارسين في عام ٥٩، بعد أربع سنوات فقط من إنشائه، وكان هذا المعهد على تواضعه هو النافذة الوحيدة المتاحة أمام مسلمي الصين لدراسة الفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة العربية خصوصا أن موقف إرسال بعثات الدراسة في الأزهر، ظل مغلقًا منذ آخر بعثة في عام ٣٧.. وبذلك ظل هذا الباب مغلقا منذ آخر بعثة في عام ٣٧.

وبذلك أصبح كل الذين أتيح لهم أن يدرسوا شيئًا عن الإسلام منذ عام ٤٩ وحتى ٨٠ على الأقل لا يتجاوز عددهم مائة شخص فقط هم مجموع الذين تخرجوا من ذلك المعهد خلال سنوات عمله الأربع.

وبإغلاق معهد بكين الإسلامي، لم يبق أمام المسلمين منفذ واحد يستطيعون من خلاله إعداد كوادر إسلامية تقوم حتى بتلك المهام البسيطة من الإمامة إلى الخطابة ووعظ الناس.. ومع إغلاق المعهد توقف إصدار مجلة (المسلمون في الصين). رغم أن الطبعة الثانية من القرآن الكريم بعد التحرير قد صدرت في ذلك العام ١٩٥٩.

وكان الإجراء الثاني اتخذ في هذه المرحلة هو: وقف سفر بعثات الحج بعد عام ١٩٦٣.. ثم حدث ما هو أشد خطرا.. فقد تمت عملية تهجير واسعة في بداية الستينات من وإلى مناطق الكثافة السكانية للمسلمين، نقلت آلاف الأسر الصينية من قومية الهان – القومية اللادينية ذات الأغلبية الساحقة إلى سنكيانج على وجه التحديد، ونقلت آلاف الأسر المسلمة من يونان إلى مختلف مقاطعات الجمهورية.

وهذه الخطوة أحدثت ردود فعل غاضبة بين جماهير المسلمين، حتى ليقال أن انفجارا شعبيا حدث لهذا السبب في مقاطعة سنكيانج عام ١٩٦٢. وأن ألوفا من المسلمين لجأوا إلى

داخل الحدود السوفيتية بعد تدخل السلطة الصينية لقمع هذا التمرد.. وكانت تلك بعض النتائج التي أصابت المسلمين من جراء (القفزة الكبرى).

ثورة الملايين:

حتى لاحت نذر الثورة الثقافية في منتصف الستينات، وكان لهذه الثورة تأثيرات فادحة على سيرة الإسلام والمسلمين في الصين.

فلم يترك عصابة الأربعة واحد من المسلمين إلا وأهانوه! لقد كان الأذى الذي تعرض له الحاج محمد علي فادحا إذا ما روعي منصبه كنائب لرئيس الجمعية الإسلامية في المقاطعة، وواحد من تسعة نواب للرئيس يباشرون نشاطات الجمعية في مختلف الصين فقد ضرب ضربا مبرحا في (قانصوه).. وبجانب هذا اعتقل كثيرون من رجال الدين في الأقاليم، مئات منهم اقتيدوا إلى السجون وعذبوا تعذيبا شديدا.

ليس هذا فقط، ولكن تم أيضا اقتحام، بيوتهم، وأخذ كل ما لقوه من مصاحف وكتب وأحرقوه علنا في الشوارع.

وامتدت الحملة إلى المساجد، التي أغلقت جميعها في خارج بكين، وهدم بعضها وحول البعض الآخر إلى ورش ومخازن ومحال تجارية.

وقد أبقوا على مسجد واحد في بكين (مسجد تونج سي بالو) ليصلي فيه الدبلوماسيون العرب في الأعياد والمناسبات!!

حتى كفن الموتى:

وإلى جانب هذه الإجراءات، فقد اتخذت خطوات في الاتجاه ذاته.

- ألغيت عطلة عيد الأضحى والفطر (حتى لا يتعطل الإنتاج) وكانا من الأعياد المعترف بها.

- منع المسلمون في مقاطعة سينكيانج من استخدام الحروف العربية في الكتابة، وأصروا على استخدام الحروف الصينية.

- منع المسلمون من مناطق الكثافة السكانية الإسلامية ارتداء ثيابهم القومية وأجبروا على استخدام الثياب الرسمية زرقاء اللون.

جرت عمليات تضييق على المسلمين في تقاليدهم وحياتهم الخاصة، فقد أعلن وقتئذ أن كل مسلم – مثلا – يموت يأخذ ١٥ قدما من القماش الأبيض للكفن وذلك بمقتضى كوبونات

خاصة، ولكن قيادة الثورة الثقافية اعتبرت هذا الاستثناء عبثا اقتصاديا يجب التخلص منه وفعلا وقف صرف هذه الكوبونات للمسلمين.. هذا بالإضافة إلى إجراءات وعمليات التشهير والتجريح.

بهذه الصورة مرت على المسلمين سنوات الثورة الثقافية العشر (من ٦٦ إلى ٧٦) فأعادت إلى أذهانهم ظلامات العهود الغابرة، وبددت كل ما تعلقوا به من أحلام وأوهام، وأهدرت كل ما أنجزوه وبنوه منذ إعلان الجمهورية في عام ١٩١١.. وسد طريق الأمل الذي انفتح أمامهم عشية (التحرير) في عام ٤٩.. وبدا المستقبل أمامهم قاتما وكئيبا.. ولا يرون في أفاقه سوى سحابات حزن لا تنتهي.

تلاحقت الأحداث بسرعة في منتصف السبعينات، بدء محاولات ماوكبح جماح الثورة الثقافية. وحصار نشاطاتها، ثم وفاة الرئيس الصيني سنة ٧٦ ثم الصراع على السلطة الذي انتهى (بسحق عصابة الأربعة) والإعلان عن طي صفحة الماضي وبدء مرحلة جديدة عام ٧٨.

أسفرت هذه التطورات عن (إعادة تنفيذ سياسة الحزب الشيوعي الصيني حول المساواة القومية وحرية الاعتقاد الديني).

لهذا فإن سنوات ما بعد عام ٧٨ قد جاءت بانفراج ما نسبى، عبرت عنه مجموعة الإجراءات الإيجابية التي اتخذت بحق المسلمين، بعد سنين طويلة سوداء.. ظلت أبواب المساجد مغلقة لأكثر من ١٠ سنين.. وعندما دخل مئات العمال المساجد ابتداء من عام ١٩٧٩ لترميمها وإعادة بناء ما احترق وتهدم منها كانت فرحة المسلمين لا تقران فرحة أخرى بخاصة عندما أعيد افتتاح الكثير من المساجد لصلاة عيد الأضحى سنة ١٩٨٠ وعاد الصينيون إلى أداء فريضة الحج بعد أن تعطلت شعائر المسلمين العلنية لمدة ١٠ سنوات من أول بعثة نظمتها الجمعية الإسلامية الصينية بعد سنى الانقطاع، وكانت البعثة تضم بعض المسئولين عن الجمعية الإسلامية المركزية أو المحلية والأئمة وبعض الأطباء، وكان أعضاء البعثة ينتسبون إلى قوميات هوى، ويغور، قازاق، أوزبك، غرغز، نغشيابغ.. وكان بينهم ٧ أئمة كانت فرحة المسلمين لا توصف، وكان الحجاج من تونس ومراكش وجنوب شرق آسيا يستقبلونهم بالود والعناق، وكذلك كان يفعل المسلمون من الهند واليابان ومصر وتركيا وبلاد أخرى كثيرة. كانوا يتركون لهم بطاقاتهم بالعناوين طالبني إنشاء صلات الأخوة الإسلامية وهو ترحاب يلقاه مسلمو الصين كل عام.

نعم إن الكيان الإسلامي لا يزال حيا لم يمت، يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، تراه في المساجد وفي الجنازات والمدافن. وفي حفلات طهور الأطفال والزفاف والأعياد.. لكن الجراح والعاهات مسيرة الأحزان غيرت منه الكثيرة، هددت قواه، وبدلت ملامحه، ولم يبق فيه سوى القلب.. وقد شاءت حكمة الله أن ينبض القلب مسموعا تتردد دقاته متحدية كل حسابات العقل والعلم، ولكن ذلك كله إلى أجل.. ولكل أجل كتاب.

وأخيرًا وليس آخرًا (عودة إلى طريق الحرير)

فبعد قرون من النسيان والإهمال عاد (طريق الحرير) إلى ذاكرة البشرية عن طريق الأفلام الوثائقية والبعثات التي نظمتها اليونسكو لاقتفاء أثر هذا الطريق، بعثات شملت البر والبحر لتؤكد أن هذا الطريق الحيوي لم يكون فقط معبرا للتجارة ولكن لتعادل الثقافات أيضا، حول بعثة طريق الحرير البرية عام ١٩٩١ يدور الحديث في كتاب الدكتور ساطع مجلى (على طريق الحرير) الذي قام بعرضه دكتور هاشم لحمادي (مجلة العربي مايو ١٩٩٥).. وفي البداية يقول

المؤلف في تقديمه لكتابه:

(أردت أن أركز فيه على حقيقة مهمة لنا، نحن العرب، كادت تضيع في العدد الأكبر من الكتابات المنشورة عن طريق الحرير، ومفادها أن الدور المهم لطريق الحرير، كشريان دفاق، لم يقتصر على نقل تأثيرات الشرق الأقصى إلى (الغرب) وحسب، بل أن الدور الأهم لهذا الشريان الحيوي هو أنه واسطة لنقل ثمرات الثقافة العربية الإسلامية من الغرب إلى الشرق فالحديث عن طريق الحرير لا يجوز أن يكون في اتجاه واحد ووحيد. قادم من الصين، بل أن ثمة اتجاها آخر له، يبدأ في بلاد الشام والجزيرة العربية، البؤرة القديمة لانطلاق الثقافات إلى القارات الثلاثة (آسيا وأوروبا وأفريقيا) – فقضية نقل الحرير تبقى ثانوية – بالمقارنة مع المهام الحضارية التي كانت تؤديها تلك الطريق.

ويظل هذا الهدف نصب عيني المؤلف على مدى رحلته الطويلة الشاقة والشائقة، التي استمرت قرابة شهرين، قطع خلالها زهاء ١٨ ألف كم.. في محاولته لرصد تلك الجوانب المؤيدة لدور العرب والمسلمين الإيجابي، الذي لا تزال أثاره بادية في مظاهر الحياة في بلاد آسيا الوسطى. ففي الخرائب والمقابر ومراكز العمران تبدو ملامح العرب والمسلمين، تمتد بين بحر الخرز وصحارى الجوع والموت وسهول تركستان).

ومن أجل دعم وجهه نظره هذه لا يكتفي الكاتب بمشاهداته، بل ويستعين بشهادات العديد من الرحالة والبحاثة الغربيين، بمن فيهم الكاتب الألماني هيرمان في كتابه (طريق الحرير القديم بين الصين وسوريا) الصادر عام ١٩١٠، مؤكدا أن ورود اسم سوريا، مقرونا باسم الصين، تحت موضوع (طريق الحرير) أشارة عملية وتاريخية إلى أهمية سوريا على طريق الحرير، كما يستشهد المؤلف بكتاب أوليغ (طريق الحرير) الصادر عام ١٩٩٠ والذي يشير فيه إلى تدمر وأهميتها فيقول: (كانت تدمر نقطة التقاء جميع الناس، وظلت محافظة على غناها وازدهارها التجاري مئات السنين، وكانت أغنى وأجمل المدن المعروفة على طريق الحرير الغربي).

أصل التسمية:

لم يكن الحرير المادة الوحيدة التي سلكت هذا الطريق القديم، فقد عبرته أيضا، مواد أخرى، قد لا تقل عن الحرير أهمية كالذهب والفضة والزجاج والصوف.. هذا بالإضافة إلى دورة الكبير في تحقيق الاحتكاك الحضاري والتفاعل الثقافي بين الأقوام والشعوب والحضارات المختلفة، وفي انتقال الأديان من الغرب إلى الشرق، فمن سوريا وصلت الديانة النسطورية، ومن الهند جاءت الديانة البوذية (كان النسطوريون وهم بمجموعهم أرميون.. رسل ثقافة، فقد خرج رهبان ومبشرون عديدون من سوريا إلى أواسط آسيا، يحملون الكثير من العادات والتقاليد العربية..)

إذن فلماذا طغت تسمية (طريق الحرير) على كل التسميات الأخرى التي تداولها الناس في العالم؟

يؤكد الكاتب أن تسمية (طريق الحرير) جديدة، لا يزيد عمرها على قرن واحد، وأن الباحث الجغرافي والجيولوجي (فون ريشتهوفن) أول من استخدمها في كتابه، الذي يصف فيه رحلته الاستكشافية إلى الصين، ولم تلبث هذه التسمية إن ذاعت وانتشرت، وبدأت تطغى على غيرها، بفضل (وقعها الحسن على المسامع والنفوس، وبلمسها الناعم على الإحساس، وقيمتها المادية الكبيرة.. ولما كان لتجارة الحرير الصيني أثر كبير في تطور وازدهار العديد من البلدان، بعث طريق الحرير، لماذا؟

كاد الاهتمام بطريق الحرير يتلاشى، وأصبح حتى عهد قريب، قصرا على الاختصاصيين والبحاثة، المهتمين بالعالم القديم تاريخيا وجغرافيا، أما العامة فكان جل اهتمامهم محصور بمعرفة القصص والنوادر والخرافات التي تقرن به.. بيد أن الردة إلى الماضي التراثي، التي حدثت في السنوات الأخيرة، ردت إلى طريق الحرير بعضا من

اعتباره، وفي العقد الماضي حدث انعطاف حاد في مجرى حياة (طريق الحرير)، حين بدأ عرض سلسلة من الأفلام الوثائقية التليفزيونية، الشائعة، التي قام بتصويرها فريق علمي ياباني، منتقلا بين الصين وآسيا الوسطى وبلدان شرق المتوسط.. ومع بداية العقد الماضي بدأ الاهتمام بطريق الحرير يزداد وبشكل سريع ومكثف في معاهد البحث العلمي، وفي هذا الاهتمام ذروته إبان التحضير لبعثة (طريق الحرير – طريق الحوار) التي نظمتها اليونسكو (١٩٩٠ – ١٩٩١) في إطار برامجه الثقافية حول هذا الطريق، والتي نفذ بعضها، ولا يزال الآخر قيد التنفيذ، بما فيها البعثات العلمية التالية التي نفدت.

- بعثة طريق الحرير في الصين.
- بعثة طريق الحرير – عام ١٩٩١.
- بعثة طريق الحرير البرية – عام ١٩٩١.
- بعثة طريق الحرير – عام ١٩٩٢ عبر سيبريا الغربية وجبال الأورال.

البعثة البحرية:

في عام ١٩٩٠ أقلعت سفينة (فلك السلام) العمانية من البندقية، النافذة البحرية الغربية لطريق الحرير البحرية، ومدينة ماركو بولو الذي يرتبط اسمه بـ(طريق الحرير) أيضا، وعلى متنها المشاركون في بعثة اليونسكو البحرية.. استمرت رحلة (فلك السلام) أربعة أشهر، مرت خلالها بشواطئ خمس عشرة دولة أوروبية وأسيوية، لتلقي بمرساتها – أخيرا في ميناء نانيفا، الياباني القديم، وفي إطار هذه البعثة، الأولى من نوعها، عقد العديد من الدورات والبعثات واللقاءات العملية، التي سلط فيها الضوء على الكثير من المواضيع المهمة ذات الصلة بـ(طريق الحرير).

البعثة الثانية:

في صيف ١٩٩١ دفعة اليونسكو بعثتها البرية لاستكشاف جزء محدد من الطرق السهبية، ومعالمها، والمواقع المهمة والآثار المنتشرة فيها، انطلاقا من مدينة عشق إباد، عاصمة تركمانستان في ١٩ إبريل وانتهاء بمدينة (الما – أتا) عاصمة جمهورية كازاخستان في ١٧ يونيو.. وبدورها جاءت هذه البعثة غنية بالمشاركين فيها، فقد ضمت وفودا من ٢٧ دولة وكان معظم المشتركين من المؤرخين والأثريين والجغرافيين، بمن فيهم أساتذة في الجامعات والمعاهد والمؤسسات العلمية، ومن الدول ما مثلت بمندوب واحد، ومنها ما مثلت بأكبر، وهذه الدول هي الاتحاد السوفيتي السابق، أفغانستان، كندا، الصين، فرنسا، إسرائيل،

اليابان، كوريا، منغوليا، باكستان، الفيلبين، بولندا، تايلاند، تشاد، تركيا، انجلتـــرا، الولايـــات المتحدة، وسوريا.

كانت البعثة الثانية غنية – بدورها – بالمـــشاهدات الميدانيـــة، والنـــدوات العلميـــة، وتمخضت عن العديد من النتائج والتوصيات المهمة، ولما كان المؤلف (وهو ذو باع طويـــل في ميدان الجغرافيا، إذ يحمل شهادة الدكتوراه في العلوم الطبيعية (الجغرافيـــا) مـــن جامعـــة لودفيج ماكسميليان في ميونخ منذ عام ١٩٧٠، ويعمل في هذا المجال في جامعة دمشق منـــذ أكثر من ربع قرن) من بين المشاركين في هذه البعثة، فأنه يطوف على صفحات كتابة بـــين المدن العريقة، التي سمعنا وقرأنا عنها الكثير، دون أن يتاح لأحد فرصة رؤيتها. ومن بـــين هذه المدن تلك ارتبط أمسها بالتاريخ الإسلامي والتي تـــدين للحـــضارة العربيـــة الإســـلامية بازدهارها وشهرتها.

.. هذا ما يحدث اليوم عند مآذن الصين.. ولكن المشكلة لا تكمن في اهتزازاتها اليوم، بل في شروخها المحتملة عند الغد.

٣- أفغانستان

هناك وراء ممر خيبر أرض برية ذات جبال شاهقة يسكنها قوم ممتازون فيهم البداوة والخشونة هكذا قالوا عن أفغانستان قبل أن تصبح من أشد نقاط الالتهاب في العالم، وقبل أن يخوض السوفيت أفظع المعارك الضارية ضد هذا البلد العريق بعد أن احتلوا وأقاموا المجازر للسيطرة على مدنه وطرقاته، ثم تركوه إطلالا لتبدأ حرب أهلية أشد ضراوة وأكثر عنفا وأفظع ألما، ودما، ويأسا، ثم تتعرض أخيرا للفتك الوحشي من أحدث ما أنتجته مصانع السلاح الأمريكي وأفظعه حتى كادت أن تحيلها إلى تراب معجون بالدم.

أفغانستان منذ الفتح الإسلامي:

لم تعرف هذه البلاد بهذا الاسم الذي تشتهر به اليوم إلا منذ القرن الثامن عشر الميلادي، إن ذكرت القبائل الأفغانية من التاريخ من قديم واشتهرت مواطنها التي تتألف منها هذه الدولة.. اشتهرت كابل وغزنه بدورها في التاريخ الإسلامي، كما اشتهرت هرات بمكانتها المرموقة في ميادين الثقافة الرفيعة، وعرفت قندهار بشهرتها التجارية، وموقعها الإستراتيجي.

وفي أمة الأفغان تتمثل الشعوب الإسلامية كلها بعزوفها خير تمثيل، ففيهم من ينتسبون إلى العرب، بل وإلى خير العرب من قريش، ومنهم من عناصر الترك والفرس والمغول.

وكما تتمثل شعوب المسلمين في أمة الأفغان فكذلك تتمثل لغاتهم في البشتو لغة الأفغان الغالبة، تجد فيها ألفاظا ومصطلحات من العربية والفارسية والتركية.

هكذا يتمثل المسلمون، عروقا وألسنة في قلعة الإسلام الشامخة هذه.

وقد كان للأفغان قبل دخول الإسلام إلى بلادهم، مساهمة في حضارة العالم القديم، كما عرفوا كذلك قدرًا من حضارة الهند وحضارة إيران، بحكم الجوار، وعرفوا حضارة اليونان حين كانت بلادهم جزءا من دولة (بقطريا) التي أقامها قواد الإسكندر المقدوني في تلك الأنحاء.

وأول ما دخل الإسلام في بلاد الأفغان في القرن الأول الهجري، فلقد فتح المسلمون العرب في بلاد فارس أيام ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب كما هو معرفو، حتى إذا ما ولى عثمان بن عفان ثالث الخلفاء أمر المسلمين وجدنا عبد الله بن عامر عامله على البصره يبعث بقائده عبد الرحمن لغزو سيستان، فلا يرجع من غزوته هذه حتى يبلغ جبال الغور. ويدخل كابل فيأسر أميرها البدهي (البوذي)، ويحطم كل ما صادفه في طريقه من أوثان

البدهيين، ومنها ما كان من ذهب محلى بالجواهر، وقد استسلمت له كذلك نيسابور وهرات ومرو.

واشتدت غزوات المسلمين في هذه النواحي أيام الأمويين حتى بلغت آسيا الوسطى وتخطت حدود الهند، وذلك بحسن تدبير القائد العربي المعروف الحجاج بن يوسف الثقفي.

واستقر على أثر هذه الغزوات كثير من أفخاذ القبائل العربية في البلاد المفتوحة، استقروا في بلاد ما وراء النهر، وفي إقليم السند وفي خراسان ومنازل الأفغان ولم ينتج عن استقرار العرب بهذه المناطق انتشار الإسلام من الأهلين هناك على نطاق واسع فحسب، بل لقد ظهر كذلك من بعد ذلك بوقت قصير طبقة من أبناء هذه البلاد المفتوحة تجيد العربية وتشتغل بعلوم اللغة والقرآن والحديث.

وقد كانت العقائد التي تسود هذه المناطق من بوذية وزادشتية وغيرها تقوم على نظام الطبقات. حتى كان الأمر يصل ببعضها إلى أن تحرم اتباعها مجالسة غيرهم، فضلا عن استبداد كهنة هذه العقائد الشديد باتباعهم، فحين اقبل الإسلام فوجد فيه الأهلون المساواة التامة، لا فضل فيه لعربي على عجمي إلا بالتقوى، اقبلوا على الدخول فيه دون إكراه ونستشهد في ذلك بما ذكره المستشرق (بارتولد) في كتابه عن تاريخ الحضارة الإسلامية من تشدد المعتصم العباسي في عقاب نفر من المسلمين كانوا قد تعرضوا لمعبد من معابد المجوس ببلاد الصغد، وأن ما من دخله الإسلام إلا وتحول أهله في الغالب عن لغاتهم وعقائدهم وعاداتهم إلى لغات المسلمين وعقائدهم ورسومهم.

وخلف العباسيون الأمويين، وفي عهدهم بدأت تظهر الدوبلات الإسلامية المستقلة في القسم الشرقي من الدولة الإسلامية، فظهر الصفاريون الذين بسطوا سلطانهم على كابل وهرات وطبرستان.. وخلفهم السامانيون فضموا إلى ملكهم أراض كثيرة في بلاد ما وراء النهر، كان من بين عمال الدولة السامانية أمير يدعى سبكتكين كان يحكم ولاية غزته الأفغانية في القرن الرابع الهجري.

وعلى يد سبكتكين هذا قامت أول دولة أفغانية إسلامية هي الدولة الغزنوية التي اضطلعت بدور من أعظم أدوار التاريخ الإسلامي.

وقد استطاع سبكتكين في مدة حكمه القصير أن يمد حدود دولته حتى البنجاب ويضم إليه خراسان وأجزاء من بلاد ما وراء النهر.. وخلفه ابنه يمين الدولة محمود الغزنوني أعظم سلاطين المسلمين لعصره، ويرجع إلى محمود الفضل في نشر الإسلام ببلاد الأفغان. وكذلك الهند التي خرج إليها غازيا مجاهدا سبع عشرة مرة في مدى سبع وعشرين عاما ابتداء من

آخر القرن الرابع الهجري، ولم يغر محمود ما عرضه عليه الهنادكة من أموال طائلة ليفتــدوا بها أوثانهم، وهو في جهاده لنشر الإسلام ببلادهم ورد عليهم بمقولته المشهورة بأنه: (يؤثر أن يقال عنه محطم الأصنام على أن يقال عنه بأنه بائع الأوثان).

وفي عهد محمود الذي امتدت دولته من شرق الهند حتى فارس، صــارت حاضــرته غزنة الأفغانية مركزًا من أهم مراكز الثقافة الإسلامية. فكان ببلاطة جمهور كبير من رجــال العلوم والآداب والفنون، يذكر من بينهم العلامة أبا الريحان البيروني والفــارابي الفيلــسوف الموسيقى، والعتبي المؤرخ، ثم الفردوسي أعظم شعراء الفرس.

وتعرضت الدولة الغزونية لهزات عنيفة في عهد خلفاء محمود بسبب حــروبهم مــع السلاجفة والغز، حتى ورثهم الغوزيون الأفغان في القرن السادس الهجــري وكــان هــؤلاء الغوريون هم خير جند الغزنويين أيام مجدهم.

وإذا كان بمحمود الغزنوي يبدأ دور الحكم الإسلامي بالهند، فبجهود الغوزنيين انتشر الإسلام هناك على نطاق واسع، واستقرت الحكومة الإسلامية التي ظلت بأيدي سلاطين مــن الأفغان حتى أوائل القرن العاشر الهجري حين انتقلت مقاليد الأمور إلى أيدي الدولة المغوليــة التي أقامها هناك الأمير التيموري ظهر الدين محمد باير، وفي عهد هؤلاء الأمــراء الأفغــان ازدهرت الهند حكما وحضارة ومدنية.

وتعرضت بلاد الأفغان بدورها لمحنة الغزو المغولي التي نزلت بالعالم الإسلامي على أيدي جنكيز خان وأولاده، وأصاب أغلب مدته، وظلت بلاد الأفغان تخضع لأبناء جنكيز خان الذين يحكمون في فارس باسم لايلخانيين حتى ظهور تيمورلنك، وفي عهد لايلخــانيين بــدأت الحضارة الإسلامية تنتعش من جديد، فمن الحقائق أن جمع الترك والمغول المخربة، بعــد أن دخلوا في الإسلام، انقلبوا بفعل الحضارة الإسلامية إلى بناه للمدينة، حتى ازدهرت على أيديهم الثقافة والمدنية الإسلامية ازدهارا ملحوظا، نجد أمثاله عند الايلخانيين المغول في فارس الذين ترجم كثير من المؤلفات في عصرهم، أي في القرن الثامن الهجري، إلى اللاتينية بأوروبــا، وفي آثار تيمورلنك وأولاده من بعده ببخاري وسمرقند وهراه.

استطاع تيمورلنك أن يقيم له دولة واسعة امتدت من قلب روسيا حتى ضفاف الكــنج الهندي، وصحبت انتصاراته الحربية الكبيرة نهضة حضارية واسعة لم يشهدها القسم الشرقي من الدول الإسلامية.

وفي عده الأمراء التيموريين عمرت هرات الأفغانية بالمنشآت الضخمة من مــساجد ومدارس للشفاء وغيرها.. وصارت هذه المدينة من أهم مراكز الثقافــة الإســلامية فقــصدها

مشاهير الفقهاء والحكماء والشعراء والكتاب والمؤرخون والنقاشون (أي المصورون).. أولئك الذين أفادت الإنسانية جمعاء مما خلقوا من تراث، فوائد جليلة.. وكانت هـذ المـدين أعظـم مراكز التجارة والسياسة بآسيا الوسطى في ذلك الزمن، حتى أن الأمير التيمورلي ظهر الدين بابر قال عنها في سيرته القيمة المعروفة ببابر نامه بأنها كانت (أعظم مدن العالم المسكون) إذا ذاك.

وفيما كان حسين بيقرا آخر الأمراء التيموريين بخراسان يحكم في هراة، التـي بلـغ نشاطها الحضاري والثقافي ذروته في عهده، كان ابن عمه ظهير الدين بابر يحكم فـي كابـل وغزنته.. وظل بابر في بلاد الأفغان إلى ماينوف عن العشرين عاما، حتى تم له فـي ختـام الربع الأول من القرن العاشر الهجري الاستيلاء على الهندستان، أي شمال شبه القارة الهندية كله؛ حيث أقام دولته التي تعرف في التاريخ باسم الدولة الغولية، فظلت تحكم الهند أكثر مـن ثلاثة قرون حتى دخلها المستعمرون البريطانيون.. وفي عهد هذه الدولة التيموريـة شـهدت الهند دورا من أعظم أدوار الحضارة بها.

ولم ينس باير، حين تم له الجلوس على عرش الهند، أن يبعث بقطعـة مـن النقـود الفضية تذكارا منه إلى كل قاطن بكابل، رجل أو امرأة طفلا أو شيخا حرا أو عبـدا واسـتمر وهو في الهند يتغنى بمحاسن كابل، بل أنه أوصى بأن يدفن بهذه المدينة وكان له مـا تمنـاه فثوى على ربوة تطل على بلده الحبيب.

ظلت بلاد الأفغان تعد في الغالب جزءا من الدولة التيمورية، أي المغولية بالهند يرى فيها أصحابها مواطن أبيهم الأكبر وحضنهم الذي يلوذون به حين تتهددهم الأخطار.

حتى إذا ما أخذ الضعف يتسرب إلى الدولة المغولية بالهند، انطلـق حكـام الفـرس يتخطفون بعض الأراضي الأفغانية في حين أخذت بعض القبائل الأفغانية بدورها تتطلع إلـى الاستقلال ببلادها وتطمح إليه.

وفي النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي استولى نادر شاه الفشاري مقاليـد الحكم بفارس مكان الصفويين، ليجتاح بعد ذلك بلاد الأفغان وينحدر إلى الهند، فيدخل (دهلى) وينزل بها الدمار والخراب أكثر مما أنزل بها تيمورلنك جيش قوى يكف به خطر العثمـانيين عن بلاده.

وكان نادر شاه قد عمد بعد دخوله بلاد الأفغان إلى ضم فريق منهم إلى جنده.

وحين قبل نادر شاه بتدبير من القاجاريين في جيشه سارعت الفرقة الأفغانيـة تـشق طريقها عائدة إلى بلادها. هنالك نودى بقائدها أحمد في قندها أميرا على بلاده باسم أحمد شاه

الإبدالي الدرائي، وكان إذ ذاك في الثالثة والعشرين من عمره، فكانت دولته هي أول دولة في التاريخ تعرف باسم الدولة الأفغانية.

ومما يذكر أن أحمد هذا كان من بين الجنود الذين ضمهم نادرشاه إلـى جنـده عنـد دخوله بلاد الأفغان، وكان في الرابعة عشرة من عمره، قتل أبوه، وجده في حرونـه معهـم وكانا من زعماء الإبداليين الأقوياء. وسرعان ما وصل هذا الفتى بطموحه وجده إلـى قيـاده الإبداليين الأفغان بالجيش الفارسي، وكانت تضم بضعة آلاف من المحاربين الأشداء.

وقد سار أحمد شاه في حكمة سيرة عدل ألفت القلوب من حوله، ولم يكن يبرم أمـرا دون مشورة زعماء القبائل في بلاده.

وما أن تم له إرساء قواعد الحكم حتى انحدر إلى سهول البنجاب فخاض غمار حروب كثيرة عند دهلى وما حولها هدف من ورائها إلى دفع خطر الجماعات التي كانت تكيد للدولـة الإسلامية هناك من الرهتا والسك وغيرها.

وأعظم هذه المعارك هي التي كسر فيها مائتي ألف من محاربي الرهتا الأشداء فـي سهل باني بت، وكان هؤلاء قد زحفوا من وسط الهند وجنوبها بقيـة القـضاء علـى الحكـم الإسلامي هناك.

ولولا ما تعرض له أحمد الإبدالي من متاعب بسبب تفشي المرض في جنده وضـعف موارده المالية حتى اضطر إلى الرجوع إلى بلاده، لكان قـد اسـتطاع أن يعيـد للحكومـة الإسلامية هناك سابق هيبتها ويعوق استعمار البريطانيين للشمال الهندي، بعد أن كـانوا قـد تغلغلوا في الشرق والجنوب.

وسار أبناء أحمد شاه من بعده سيرته فحاول تيمور شاه وزمان شـاه فـي غـزوات متكررة إقرار الأمور في إقليم البنجاب أهم أقسام باكستان الحالية.

ولم يكن البريطانيون بعد أن تم لهم دخول دهلي ليسكتوا على وجود الأفغان الأشـداء بالبنجاب، وهم يعلمون تمام العلم أن هؤلاء لم يقدموا الهند غلا لشد أزر المـسلمين، أخطـر أعدائهم بها.

هناك عمد هؤلاء المستعمرون إلى أسلحتهم الاستعمارية المعروفـة. فمـازالوا يـشاه فارس حتى حملوه على مهاجمة بلاد الأفغان فلم ينته الحال إلى انسحاب الأمير الأفغاني مـن الهند فحسب، بل لقد خلع كذلك عن عرشه بتحريض بعض منافسيه عليه.

حتى إذا ما جلس على عرش الأفغان القوي دوست محمد أوائل القرن التاسع عشر، عزم البريطانيون على غزو تلك البلاد التي كانت تعد أقوى قلاع المسلمين بآسيا.. وكان قد تم لهم تثبيت أقدامهم بالهند وتنظيم انتهاب خيراتها وثرواتها، هنالك اتبرو يظاهرون شاه شجاع الملك في منافسته لأمير الأفغان الجديد على العرش حتى سيروا معه فريقا من رجالهم وأمدوه بأسلحة حديثة خاض بها عدة معارك انتهت بانتصار دوست محمد انتصارا حاسما. وقرن الأمير الأفغاني انتصاراته هذه بفوز آخر، كتب له عند حدوده الغربية، إذ دفع عنها خطر الفرس الذين كانوا قد اقبلوا يهاجمونه بتحريض من الروس وعون منهم.

صالح دوست محمد البريطانيين، كما صالح الروس. وكانت ولايات آسيا الوسطى الإسلامية قد أخذت تتساقط بأيديهم الواحدة بعد الأخرى. فضلا عن ازدياد نفوذهم ببلاد فارس.

ولم يعترف البريطانيون بموقف الحياد الذي التزمه أمير الأفغان إزاء المنافسة الشديدة التي قامت بين روسيا وبريطانيا في هذه المنطقة. حتى زعموا أن المندوب الروسي فينكوفتش يمارس نشاطه بالعاصمة الأفغانية بتأييد دوست محمد، وتذرعوا بهذه الحجة فزحفوا على بلاد الأفغان.

ورغم أنه تم لهؤلاء المستعمرين دخول كابل وقيامهم بتنصيب ربيبهم شجاع الملك على عرشها بعض الوقت فإن إرادة الأفغان كانت أمضى من كل أسلحة الاستعمار.. إذ قاموا قومة رجل واحد فلم يكتفوا بإخراج هؤلاء الدخلاء وصنيعتهم من العاصمة فحسب، بل تمكنوا على قلة عددهم من أن يبيدوا في بعض المواقع جيوشا بريطانية بأكملها، كما حدث عند (خورد كابول) حيث أبيد جيش بريطاني قوامه ١٧ ألف من الجند المجهز بأحدث الأسلحة. فلم ينج من رجاله إلا طبيب يدعى (بريدون). استطاع أن يصل إلى سادته في جلال أباد فيخبرهم بالكارثة التي نزلت بجيش الإمبراطور التي لم تكن تغرب الشمس عن أملاكها.

وعاد البريطانيون إلى بلاد الأفغان من جديد طلبًا للثأر فنزلت بهم الهزائم، وسقط الوطنيون على ربيبهم شجاع الملك فقتلوه، ولم يروا بدا آخر الأمر من مصالحة دوست محمد والاعتراف به أميرا على الأفغان.

وما أن مات هذا الأمير عام ١٨٦٣م وخلفه ابنه شير على حتى عاد البريطانيون إلى محاولة التدخل في شئون هذه البلاد بحجة تأمين حدود الهند من هجمات قبائل الأفغان عليها.. مع أنهم كانوا هذه المرة يمهدون لتنفيذ خطة (دزرئيلي) داهيتهم المشهور، والتي كانت ترمى إلى مهاجمة الروس في آسيا الوسطى لو تعرضت الآستانة إذ ذاك لخطر استيلائهم عليها.

وقد تمكن البريطانيون عام ١٨٧٨م من دخول كابل مرة أخرى في جيوش كثيفة، وفر من وجههم أميرها شير على حيث وافاه الأجل بعد ذلك بعام واحد.

ولم يقبل الشعب الأفغاني أن يولي عليه يعقوب خان بن شبر على، على أن تقوم إلى جانبه بكابل بعثة بريطانية. فانطلق يقاوم المحتلين في كان مكان حتى قتل كل أعضاء بعثة الاستعمار. وأنزل بقوات الاحتلال هزائم متكررة وخسائر كبيرة اضطرتهم إلى الجلاء من فورهم.

هناك قبض على أزمة الحكم الأمير عبد الرحمن، حفيد دوست محمد. فمضى في عزم وحزم يقر الأمور ويشيع الأمن في بلاده ويصلح نظم الحكومة وينظم الجيش ويوفر له عدده وأسلحته حتى وافاه أجله عام ١٩٠١م.

وخلفه ابنه حبيب الله خان فسار سيرته، وأثر أن يهادن البريطانيين أبان الحرب العالمية الأولى حتى رفض أن يستجيب إلى نداء العثمانيين بدعوى الجهاد، ورغم هذا لم تقدر له بريطانيا صنيعة هذا فأصرت على الاحتفاظ ببعض مناطق الحدود الأفغانية بدعوى تأمين حدود الهند وقتل هذا الأمير عام ١٩١٩ دون أن يهتدي أحد إلى قاتله.. ويعد حبيب الله خان رائد النهضة الحديثة في بلاد الأفغان بلا نزاع.

وخلفه ابنه أمان خان، وبجهود هذا الأمير تحقق لبلاد الأفغان استقلالها الكامل، إذ استرد بقوة السلاح كافة الأراضي التي كان البريطانيون قد انتزعوها.. وبلغ إلى أن اعترفت بريطانيا له بالاستقلال التام.. وضمنت له مرور ما يحتاج إليه من سلاح وعتاد عن طريق الهند بل وافقت على إنشاء منطقة حرام بين حدوده وحدود الهند.

وهكذا بعثت حكومة الأفغان لأول مرة بالسفراء الرسميين إلى الدول الأخرى.. ووثقت من علاقاتها بصفة خاصة مع روسيا وتركيا الحديثة وإيران.. وأهتم أمان الله خان ملك الأفغان اهتماما بالغا بتنظيم حكومته وجيشه ونشر التعليم وعنى عناية شديدة بتعمير بلاده، كما وضع أسس الحياة الدستورية بها، غير أنه نزع إلى تقليد مصطفى كمال أتاتورك في نبذ كثير من التقاليد الإسلامية. وجهر بذلك في رحلته المشهور التي خرج فيها عام ١٩٢٨ إلى بعض البلاد الشرقية والغربية.. حتى إذا ما عاد إلى بلاده ثار عليه فريق من قومه وبعضهم طائفة من العلماء ثورة عارمة انتهت بخروجه من بلاده، هنالك سارع إلى بلاد الأفغان محمد نادرشاه – أحد أبناء عمومته – فقضى على أسباب الثورة وسار في حكم أمته.

أفغانستان في عيون الغرب

في منتصف الخمسينات كتب (جيمس أ. ميشز) مقالا بمجلة المختار (عــدد فبرايــر ٥٦/) يصف فيه رحلة إلى أفغانستان قبل أن تصبح ضحية للشرق والغرب وهدفا لكل الأحقاد والمطامع في العالم قال فيها:

(.. إن أفغانستان بلد ملئ بالعجائب. ففي هذه البلاد المرتفعة الموحشة طرازا للحياة لا يقل عن ٥٠٠٠سنة. ويجد شعبا أعتاد رؤية الغرباء.. إن هذا البلد يعد مجمعــا للأمــم علــى اختلاف أنواعها.. مر بها الإسكندر الأكبر وجنكيز خان وتيمورلنك وهم في طريقهم إلى غزو ممالك وأصقاع.. بعد ذلك استعملها الأتراك والفرس قاعدة تسحق الممالك القوية في الهند.

وأفغانستان بلد مغلق.. تحيط به روسيا وباكستان وإيران، ٩٢% من أرضــه قاحلــة، والأمطار منعدمة.. والأرض تنحدر من جبال هندكوش الواسعة في الشمال الــشرقي حتــى تصل إلى صحراء الموت الملتهبة في الجنوب الغربي، والأنهار الكثيرة التي تتدفق من قمــم الجبال المغطاة بالثلوج هي التي تجعل الحياة ممكنة.. إذ حيث يوجــد المــاء هنــاك تنــتعش الأرض وتنبت.

وياله من شيء عظيم أن تكون أفغانيا، أنك عندئذ تبدو طويلا نحيلا خشنا ذا اللحيــة وتحمل بندقية.. إنك لا تعبأ كثيرا بتعليمات الحكومة.. أنت مضياف كــريم لا يكــاد غريــب يقترب من باب منزلك حتى تأمر بذبح خروف احتفالا بقدومه.. أنك تغني وترقص وتسافر في ممرات الجبال المرتفعة.. إنها حياة نادرة حرة.

وعندما يرتدي الأفغاني ملابس الحفلات يسلب الأنظار بمظهره.. فهو يرتدي عمامــة خفيفة يلفها حول طاقية صغيرة مذهبة، ويرتدي قميصا مطرزا يــصل ذيلــه إلــى ركبتــه، وسروالا واسعا أبيض، تعلوه كسوة وصديري ألوانهما صارخة، وتصل الحرارة فــي معظــم الأحيان إلى ٤٦ درجة ومع ذلك فإن الرجال يرتدون معاطف ثقيلة.. والواقــع أن الرطوبــة تنخفض إلى درجة يمتنع معها العرق.

والحياة في أفغانستان تتركز في محال الشاي، فالشوارع تزدحم بمئات منهــا، وهــي نظيفة، يستطيع الشخص أن يتناول فيها فنجانا من الشاي بالسكر بمبلغ زهيد والشاي يرد مــن الهند بواسطة القوافل. أما الفناجين فتأتي من اليابان ولابد للزائر أن يذكر محــل شــاي فــي (غورباند) الواقعة فوق جبل؛ حيث شيدت أرصفة من الطين المجفــف علــى طــول النهــر المتدفق، وغطيت بسجاجيد عجمية فاخرة.. حيث يوجد في المحل مرجل ضخم وسط كومــة من الوقود يغلي فيه الماء، وفوق موقد آخر وضع كباب للشي وصفوف ضخمة من الخبــز..

الناس سوف تلقى الزائر بابتسام سرعان ما يدعونه لتناول الغذاء في منازلهم حيث يحتــضنه الكرم الذي يتميز به الأفغانيون في محل الشاي. ولا شك أن الزائر سوف يلاحظ عدم السماح للنساء بالظهور.

صحراء الموت

وتقابل المرتفعات الواسعة في الشمال صحارى كبيرة في جنوب أفغانستان، يغطيهــا طين وبعضها رملي تنتشر فيها التلال التي تهب عليها رياح مستمرة وتحولها إلى دوامـــات.. ولكن أشهرها جميعا (صحراء الموت) وهي مكونة من حصى ملتهب، وتحولها إلـــى تـــلال قاسية، ورياح حارة تهب عليها دون انقطاع، ويتردد زئيرها بين أرجائها الموحشة.

وإذا أتيح لأحد فرصة للتوغل داخل هذا الجحيم المكون من رياح وصخور.. ســيجد أول ما يصادفه إطلال مدينة (كلابست) التي كانت مزدحمة ومزدهرة من أكثر من ألف عـــام مضى وإذا بقى المرء حتى الليل سوف يلمح أحيانا غزالا يجري في ضوء القمر، ويسمع على بعد صراخا مخيفا لابن آوي. كأنه صوت شخص يتعذب.. وعند الاقتراب من حافة الصحراء سوف يفاجأ بالذئاب والثعالب.

أما عند الظهيرة فلا يمكن رؤية شيء على الإطلاق. لا شيء يدل على حياة لا فــأر ولا عود حشيش ولا حتى عظمة جافة تدل على شيء كان حيا في يوم ما إن الصحراء فـــي تلك البقعة من الأرض تشبه المحيط الضخم أو البقاع القطبية الموحشة التي لا يسكنها إنسان.. أما الرياح التي تهب عليها فتبلغ درجة رطوبتها صفرا.. وهي تئن أنينا مستمرا. إنها تعــرف باسم رياح الـــ١٢٠يوما، فأنها تهب بدون انقطاع.. بل أن ثمة سيارة تحطمــت فـــي إحـــدى الرحلات فلقي ركابها حتفهم خلال يومين، جففتهم الرياح العاتية. ومـــن الغريــب أن الـــذين يموتون غرقا في صحارى الأفغانستان أكثر من هؤلاء الذين يختنقون بـــالحرارة والجفـــاف.. والسبب في ذلك أن المسافرين يلجأون في الليل إلى وديان مغلقة آمنة هربا من الرياح.

ولا يحسبون حسابا لإغداق السحاب الذي يحدث مرة أو مرتين كل عام، وينتج عنـــه هطول كمية كبيرة من المياه ارتفاعها إلى عشرة أمتار، وسرعان ما تتدفق الوديان وتحطم كل ما يعترضها من صخور.. وفي عام ٣٢٥ قبل الميلاد، فقد الإسكندر الأكبر ما يقـــرب مـــن نصف جيشه بسبب كارثة من هذا النوع.

وأخيرا يتم الارتطام بأغرب مكان في الصحراء.. إنه أطلال مدينة (شاكانور) حيــث تظهر على حافة التلال الصخرية بقايا لمدن خربة محطمة تمتد نحو مائة ميل.. وقد سكن هذا المكان أكثر من مليون شخص، وكانت مدينة (شاكونور) قديمة عندما مر بها الإسكندر عـــام

٣٢٩ قبل الميلاد، بل لقد ظلت حتى عام ١٢٠٠ ميلادية، مجموعة من مدن مزدهرة تمتد نحو ١٥٠ كيلو متر مربع.. فلماذا حدث إذن؟

الماعز وجنكيز خان

إن العلماء يوجهون اللوم إلى الملح والماعز وجنكيز خان، وتدل الآثار هناك على أن مياه القنوات كانت محملة بالأملاح. وعلى مر القرون تراكمت الرواسب الملحية حتى أصبحت أرض (شاكافور) غير صالحة لأي شيء.. وجاءت الماعز وأخذت ترعى في الأرض حتى على كل شجيرة أو عشب. وتركت الأرض فريسة سهلة للرياح تعصف برمالها وتكتسح مدنها.. وأخيرا يقول التاريخ أن (جنكيز خان) أمر في يوم نحس بذبح ١,٢٠٠,٠٠٠ شخص في (هيرات) التي تقع على بعد ٣٠٠ ميل إلى الشمال.. والمعتقد أن سياسته الجنونية في الإبادة وصلت إلى المدن التي ترى أشباحها اليوم، فهاجر منها السكان وتركوها فريسة للرياح العاصفة.

أما المفاجأة في صحراء الموت فهي وجود مملكة صغيرة مكونة من واحات باردة الجو تقع الجنوب الغربي، وهي تحتوي على مزارع للرمال ومياه غزيرة.. إنها بمثابة جنة صغيرة. أقيمت وسط هذه البقاع الموحشة المغبرة.

وأفغانستان – كما كان يراها الزائر الأجنبي منذ حوالي ٥٠ عاما – تبذل مجهودا ضخما في كل الميادين حتى لا تفوتها عجلة التقدم.. إن مصانع توليد الكهرباء تمد مصانع الغزل والسكر بتيار كهربائي. أما المدارس والكليات فقد أدخلت عليها تحسينات عدة.

ويتدفق في قلب صحراء الأفغان نهر من أعجب أنهار العالم أسمه (هلماند) يتجه إلى الجبال المرتفعة في أواسط أفغانستان، ثم يتحول فجأة إلى مجرى غزير. في انحناء ضخم رشيق، ثم لا يلبث أن يتلاشى في بحيرة (سيستان) غرب (شاكونسور).

وقد أمكن تهذيب نهر (هلماند) وأصبح من المنتظر إقامة مدن جديدة على ضفافه، وقد حشرت ملايين الأطنان من الحجارة في مجرى النهر فأمكن حجز الماء خلف سد ضخم يبلغ ارتفاعه مائة متر. وتكونت بحيرة واسعة تمد قنوات الري بالماء. وهذه القنوات بدأت تتشعب في قلب الأراضي التي كانت من قبل صحراء جرداء.

إن العمل في أفغانستان قائم على قدم وساق ولكن التقدم بطئ نظرا للنقص الشديد الذي تعانيه أفغانستان في المواصلات، وهي البلد الوحيد في العالم الذي لا يعرف السكك

الحديدية.. وهناك أربعة طرق تصل إلى حدودها، اثنان من باكستان، وواحد من روسيا، وآخر من إيران.

ويعاني الأفغانيون من طرق المواصلات. ففي بعض الطرق ترى سيارات معطلة أكثر مما تشاهد عربات تسير. مع أن السائقون في أفغانستان مهرة يمكن الاعتماد عليهم في إصلاح أي شيء مع أنهم لا يحملون إلا سلكا قصيرًا وبعض المسامير وقطعة من الخشب.

كابول الساحرة:

هذه العاصمة العجيبة الساحرة مشيدة على شكل حدوة، تتجه فتحتها إلى الغرب حيث تحف سلسلة من الجبال الضخمة بالسهل الذي تقع فيه كابول.. أما الجزء الداخلي منها فإنه يمتلئ بجبال أقل ارتفاعا ويجرى على طول قاعدة هذه الجبال مجرى جبلي يشق المدينة إلى نصفين، وعلى ناحية من هذا الجبل تتجمع بقايا المدينة القديمة، وهي خليط من الأسواق والمساجد والأزقة.. وعلى الناحية الأخرى تقوم المدينة الجديدة التي تمتلئ بمنازل على الطراز الأوروبي يحيط بكل منها جدار مرتفع من الطين وتحتوي على حدائق واسعة وشرفات جميلة ولا تخلو من الحصون القديمة التي شيدت فوق التلال والتي تعد من معالم آسيا).

وبعد أكثر من ربع قرن على رحلة هذا الكاتب الأجنبي إلى بلاد الأفغان، قام الكاتب فهمي هويدي برحلة أخرى إلى هذا البلد العظيم قبل أن يداهمه الغزو السوفيتي بنبراته ومطامعه وألغامه، ويتركه أوصالا مبتورة وخرابا ممتدا وأوحالا من الدماء والتخلف والجنون. (العربي/سبتمبر ١٩٧٨) وهيا بنا نرحل مع فهمي هويدي على طريق أسماه (أفغانستان.. بلاد الإسلام المعلق!) مضى خلاله بعيون إسلامية وعقل عربي..

تخدعك الوجوه

وتخدعك الطبيعة في أفغانستان.. تعطيك انطباعا كاذبا لأول وهلة.. بل تلقنك درسا في كيفية الحكم على الأشخاص والأشياء.

ولن يستغرق الأمر معك وقتا طويلا إذا كنت من عربستان.. عندئذ ستتحول من ضيف ثقيل إلى صاحب بيت.. وستطوى في لحظة زمن آلاف الأميال.. وتقفز فوق كل الحدود والحواجز، وترتفع فوق أشجار الأنساب والأعراق والأجناس.. وتنفتح عيناك على الحقيقة.

إذا عرفت السر، وقلتها معتزا بأنك (عربي) مستغربا لهؤلاء الناس الذين لم يـنخفض بعد سعر العروبة في أسواقهم، مندهشا من أن العروبة (قيمة) هنا، وليست شبهة ينبغي دفعها والتخلص منها، كما يفعل البعض في بلادنا!!

بعد أن تفيق من هذه الدهشة، وتتأمل ما حولك جيدا عن قـرب، سـوف تكتـشف أن وجوه البشر ليست منحوتة من صخور من جبال هندوكش.. كما أن جبال هندوكش ليست فقط صخرا وحجارة، وقمما ثلجية باردة!.

وإذا ثبت أنك عربستان فعلا، وحبذا لو كنت تحفظ بعض آيات القرآن الكريم، فعندئـذ سوف تختفي على الفور شلالات الشك التي تتساقط من عيون الأفغانيين عندما يرون الغريب، وسوف تنفرج أسارير معقودة معلنة الخصام والجهامة، وتتحول الشقوق الغائرة في الوجـوه إلى بسمات تتراقص مع الابتسام والفرحة، وتنبسط لك الأيدي وتتفتح الأذرع.

(السلام عليكم).. يبادرك الأفغاني على الفور، بينما عيونه مسبلة، وكفه ممدودة علـى موضع قلبه، تهم بالرد – فيجذبك من يدك برفق لتجلس زمنا إلى جـواره، وقبـل أن تلـتقط أنفاسك يقدم إليك قطعة من الحلوى لتحتفظ بها في فمك، وتشرب عليها الشاي الأخضر، بـدلا من السكر الذي يتناثر فتاته ويحتاج إلى وعاء وملعقة ووجع راس.. تشرب مرة وأثنين وثلاثا، فالشاي هو مشروب الضيافة الحلال، إذ السجائر عندهم مكروهة، وهو يوسع الشرايين وفاتح للشهية قبل الأكل، ومهضم بعد الأكل كما يقولون، وعند أغلبية الشعب الأفغاني، فالشاي مـع الخبز واللبن المضروب هو الأكل ذاته.

يسألك الأفغاني قبل أن ترفع كوب الشاي إلى فمك عن السعودية؟.. وما أن تشرع في الرد حتى يروي لك ما جرى في حجته الثانية، وإنه في الحجة الخامسة كان في ضيافة جماعة المشرق، استراح. بينهم ولله الحمد، أما في الحجة الخامسة فقد ماتت أمه العجوز التي أصرت على أن تزور البيت الحرام، رغم إنها كانت قعيدة، واضطر أن يحملها الرجل فـوق ظهـره طول الوقت.

يثير انتباهك هذا التعلق الغريب بالأراضي المقدسة عند الأفغان، وتعرف فيما بعد أن أكبر نسبة من الحجاج (بالمقارنة بعدد السكان) يجيئون إلى السعودية من بلاد الأفغـان.. وأن الأفغاني فقيرا كان أم غنيا، وشيخا كان أم شابا، لابد أن يكون قد مر بمكة في رحلة حياتـه، وأن لم يؤد فريضة الحج يعاني من شعور بالذنب والإحساس، ينقص دينه، وإنه عازم علـى ذلك – يجزم لك– في العام القادم بإذن الله.

وحتى لو كانت الترجمة غير دقيقة، فإنك تحس بعلاقة ود عميقة تربط بينك وبين الأفغاني، وأن الرجل كان يفتقدك طوال سنوات غيابك. وإنك عدت أخيرا بشعور المتردد والغريب.. رغم أنك عائد إلى بيتك وأهلك.. ألست مسلما من عربستان (لاحظ أنهم يعتبرون كل عربي مسلما، وأن غير المسلم في بلاد العرب إما أن يكون أجنبيا أو مرتدا، وهي الفكرة السائدة في أطراف العالم الإسلامي).

مع الطبيعة تمر بنفس التجربة..

أما الجبال الهائلة التي تكاد تناطح سحب السماء، والصخور الداكنة المكشرة الأنياب، والصحراء الواسعة التي تتردد في أرجائها أغان للرعاة لا تفهم معناها، وإنما تنفذ نغمة الحزن فيها إلى أعماقك، محمولة على سهم يقطر دمعًا.. أمام هذا كله تحس بالاكتئاب والضيق.

وإذا كنت تستطيع أن تتعرف على الإنسان الأفغاني وأنت قاعد في حلقات الشاي التي لا تنفض أبدا، إلا أن التعرف على الطبيعة الأفغانية ورؤية الحقيقة فيها، لابد لك من أن تركب الصعب، والصعب الذي أعنيه له أسماء متعددة.. سيارة جيب. نقل. باص. جمل، بغل (بسبب تضاريس المنطقة فشلت محاولة إقامة شبكة للسكك الحديدية في أفغانستان).. ذلك إنك خلال تجوالك تكاد تقتنع في بعض الأحيان بأنه لا فرق بين الجيب والجمل، أو الباص والبغل، فالكل يمضى بسرعة واحدة، وله مشقة واحدة، فلا أنت محمي من الشمس الساخنة، ولا ضلوعك سالمة من الكدمات والرضوض، لا رأسك ثابت فوق جسمك، ولا كوب ما يرطب حلقك المشوق!.. وتتعدد الأسباب، و(الكرب) واحد!

فأفغانستان بلد منحوت من الصخر، الناس هناك زرعوا دولة فوق (تشكيل جيولوجي من الدور الثالث) كما تقول الموسوعة العربية – الذي هو عبارة عن أحجار رملية وجيرية – وهي (جزء من سلسلة مفصلة من الأحواض الهضبية المرتفعة، المغلقة حلقاتها، التي تمتد من البلقان فالأناضور، فإيران الطبيعية حتى مشارف السند).. وهي الحيثيات التي استند إليها الدكتور جمال حمدان أستاذ الجغرافيا السياسية في اعتبارها بلاد (الإسلام المعلق التي يعتلى ظهور هذه القلاع الطبيعية الشماء).

وقبل أن تكون هناك جيولوجيا وأحواضها هضبية، وحتى قبل أن تكون هناك أفغانستان ذاتها – عندما كانت خراسان – زارها الرحالة والجغرافي العربي ابن خوقل (القرن العاشر الميلادي)، وانبهر بما رآه، فكتب في (صورة الأرض) يقول وأما خراسان فتشتمل على كور عظام وأعمال جسام!

والرجل كان على حق، فالإنسان يقف بشعور يختلط فيه الذهول بالعجز أمام سلسلة الجبال الشامخة التي تتفرغ عن هضبة (البامير) التي تطل من على قرب زاوية التقاء الحدود السوفيتية الإيرانية؛ حيث تتوزع الجبال من (البامير) في ارتفاعات متفاوتة تتراوح بين ٣٠٠٠، ٣٦٠٠متر.. ولا تكاد ترى قممها في مناطق أخرى داخل أفغانستان، إذ يصل

ارتفاعها إلى ٦٠٥٩مترا وتستحق عن جدارة وصف (سقف العــالم) الــذي يطلقهــا عليهــا الجغرافيون.

جبال شاهقة في كل مكان، تتولد عنها جبال وجبال، وكلها مكسوة بعمائم ثلجية بيضاء على مدار العام تقريبا.. والأنهار ابنة شرعية لتلك الطبيعة الجغرافية الصعبة، إذ عندما يدوب الثلج ينشق مجرى النهر.

هكذا يبدو وجه الطبيعة الأفغانية، لأول وهلة – ومثل الأفغاني تماما – لا ترى فيهــا سوى تلك القسمات التي تنطق بالجهامة والقسوة – لكنك بعد أن تقترب منها أكثر.. و(تركــب الصعب) وتفعل ما فعلناه تكتشف أن لأفغانستان الطبيعة وجها آخر، بل وجوها بالغة التشويق والإثارة، لا ترى فيها نسمات الجبل، وإن كنت تلمح بصماته وتشم رائحته دائما.

بصمات الجبل

ذلك أنك ترى الجبل في قراءة تاريخ أفغانستان. وتراه في ســلوك النــاس وعــاداتهم وجدهم ولهوهم.. تماما كما تصطدم به عيون البشر وخطوط وجوههم الجامدة.

باختصار، فإن المفاتيح والمغاليق في أفغانستان معقدة على الجبل.. لهذا السبب كانت أفغانستان ومازالت، قلعة استعصت على الغزاة عبر التاريخ، وظل الأفغاني إنــسانا صــعب المراس لا يلين ولا يهزم.

أشهر الغزاة في التاريخ مروا بها، ولكن أحدا منهم لم يهنأ على أرضها ولم يستقر.

الإسكندر الأكبر، وجنكيز خان.. وتيمور لنك (نابليون بونابرت أرسل مبعوثا إلى كابو ليمهد لفتح الهند ولكنه لم ينجح في سعيه، وجيوش القياصرة: قياصرة الروس والإمبراطورية البريطانية.. جميعا مرت جحافلهم فوق صخور أفغانستان.

الإسلام وحده أستقر بها في منتصف القرن الثاني الهجري.. ربما لأن المــسلمين لــم يكونوا غزاه، بل كانوا فاتحين ومبشرين.

والأفغاني هو من أكثر المقاتلين جرأة واقتحامــا – وشــجاعته – خــصوصا قبائــل نورستان والطاجيك – هي مضرب الأمثال دائما.. وأشهر أغانيه القديمة تلك التي تقول: (خير لك أن تعود إلى بيتك مخضب الدم، على أن تحيا حياة الجبناء).. وربما كان شعب أفغانــستان هو البلد المتخلف الوحيد الذي صنع البندقية والمسدس بإمكانياته الفقيرة من زمن بعيد.. بــل وتفنن في تجميل كل منهما إلى حد تطعيم مقبض السلاح بالزخارف والأصداف.. وفي أسواق

كابول القديمة تعرض كميات هائلة من هذه البنادق والمسدسات القديمة، والخنجر والمدية لا يزالان يباعان على الأرصفة بكثافة غير عادية.

وعندما أتيح لنا أن نشهد إحدى مباريات رياضتهم الشهيرة (يوزكاشي). اكتشفنا أننا دعينا إلى ساحة قتال.. رغم أننا كنا في إستاد كابول، والأرض مكسوة بالحشائش الخضراء إذ يصطف الفرسان على جانبين متقابلين ومتباعدين وعلى الأرض. في دائرة تتوسط الفريقين، يضعون ماشية مذبوحة ومقطوعة الرأس – خروف أو عجل صغيرة، ثم تعطى إشارة البدء، فينطلق الفرسان يسابقون الريح من أجل التقاط الماشية المذبوحة، تتلاحم الخيول وتتصادم الأجسام التي تتصبب عرقا، ويقع من يقع تحت سنابك الخيول، حتى يمرق أحدهم كالسهم وسط الجميع، بينما الجماهير تصيح (واردار.. واردار) أي (التقطها) – وببراعة غير عادية يميل الفارس بجواده المندفع ويلتقط الجثمان الملقي على ألأرض، ويواصل الجري بينما وفاقه حوله، وفرسان الفريق الآخر يستخدمون كل قواهم من أجل انتزاع الذبيحة.. وهكذا يتسابقون وينظم (دوري) لهذه المباريات، ويمنح الفريق الفائز (كأسا) في التصفية النهائية التي تقام في عيد (النوروز) من كل عام.

وفي الماضي كان تستخدم السلاسل الحديدية والخناجر في هذه المباريات لكنها منعت الآن وهم يقولون أن هذه الرياضة من بقايا عصر الإسكندر الأكبر (عام ٢٢٠ قبل الميلاد) بينما يرى الآخرون أنها من عهد جنكيز خان في القرن الثالث عشر الميلادي، وأصلها أن الغزاة الأوائل كانوا يهاجمون معسرات أعدائهم قبل الفجر، ويقومون بفك الخيام التي ينامون فيها، ثم يطلقون لجيادهم العنان، فتنهار الخيام على قاطنيها.. وبعد ذلك ينقض عليهم الغزاة ويبيدونهم. تماما كما ينقض الفرسان على الذبيحة الآن من فوق الأرض.

وحتى إذا لم يكونا مقاتلين أحفاد مقاتلين، وحتى إذا لم تعلمهم الطبيعة القاسية روح التحدي والنضال، فإن (الزمن) كان سيجبرهم على ذلك!

أي أنه إذا لم يكن الأفغاني (بطلا) بطبيعته. فهو (مكره) على ذلك!. ذلك أن طبيعة موقع أفغانستان لها خصوصية نادرة جعلت هذا البلد (٧٢٠ ألف كيلو متر مربع) الذي لا يزيد في مساحته عن ولاية تكساس الأمريكية، مفتاح وسط أسيا، جسرا يؤدي إلى أكبر دول القارة المحيطة بها. الاتحاد السوفيتي والصين وإيران وشبه القارة الهندية.. لذلك كان الجميع يطمعون فيها، إذ أن السيطرة عليها من قبل أي قوة ذات شأن – عسكري أو غير عسكرية – يعني على الفور الوصول إلى أبواب بقية الجيران.

وفي العصر الحديث، فإن روسيا القيصرية طالما سعت إلى السيطرة على أجزائها الشمالية – وكأن الكاتب فهمي هويدي بهذه الملاحظة كان يتنبأ بغزو الروس لأفغانستان الذي حدث بالغل بعد نشر هذا المقال بعامين.

وعلى جانب آخر كان الاستعمار البريطاني المتربص في الهند، يبذل جهدا موازيا أوصله إلى كابول العاصمة أكثر من مرة. ولما فشلت كل منهما في فرض قبضتها على أفغانستان – كان الاتفاق الضمني على حيادها، الذي أستمر بعد ذلك، حتى عندما ورثت أمريكا نفوذ بريطانيا في آسيا بعد الحرب العالمية الثانية.

والقوة الوحيدة التي استقرت في أفغانستان – الإسلام – استطاعت من هذا الموقع الخطير أن تبسط نفوذها الفكري والسياسي على شبه القارة الهندية وغرب الصين، والجزء الجنوبي من الاتحاد السوفيتي (سجستان وتركستان في الماضي).

وثمة رأي يقول أن هذا الزحف الإسلامي الذي انطق من أفغانستان منذ القرنين السابع والثامن الميلاديين، كان سببا في قدوم طلائع الاستعمار الغربي إلى آسيا – وهذا الرأي يتبناه بقوة – مع مؤرخين آخرين – الكاتب السياسي الهندي (بانيكار) في كتابه (آسيا والنفوذ الغربي).

إذا يصف هذه الطلائع التي قدمت إلى القارة في القرن الخامس عشر بأنها كانت بمثابة (حرب صليبية جردها الغرب لوقف المد الإسلامي إلى آسيا) الذي انطلق من قلعته الحصينة في خراسان. (لم يسقط المؤلف أسباب الغزو الأخرى وفي مقدمتها طمع المغامرين الأوروبيين في ثروات آسيا من الشاي والبن على التوابل والحرير).

ويقول (بانيكار): "إن هذا هو ما يفسر اهتمام الباب برحلة فاسكودي جاما إلى آسيا عام ١٤٩٨، وإرساله بعض رجال التبشير معه، وإسباغه على هذا الآفاق البرتغالي بركات الكنيسة ودعوات القسس).

وبسبب من ظروف الطبيعة في أفغانستان، وطباع الأفغان أنفسهم، الموروثة والمكتسبة وهي ظروف توافقت معها توازنات القوى الكبرى على مر العصور، بسبب من هذا كله، بقيت أفغانستان بلدا لم يستعمر في تاريخه، وإن كان قد رأى الوجه القبيح للاستعمار في بعض صفحات هذا التاريخ وأقربه الاستعمار الأمريكي الذي وصل.. واستقر من منذ أحداث سبتمبر ٢٠٠١.

وعندما صار العالم الإسلامي كله بعد الحرب العالمية الثانية تحت سيطرة ونفوذ الاستعمار الغربي، شذت عن القاعدة بلدان فقط هما: المملكة السعودية وأفغانستان.

بل إن المرة الوحيدة التي أفنى فيها جيش لبريطانيا من جانب دولة صغرى. والإمبراطورية في أوج جبروتها وهيلمانها (القرن التاسع عشر) هذه (الواقعة) حدثت في أفغانستان – كما سبق أن ذكرنا – وعلى أيدي فرسانها البواسل الأشداء.

مقبرة الغزاة

كابول جورج، أو مضيق كابول.. هو اسم المسرح الذي شهد (تراجيديا) جيش الإمبراطورية، ويبدو أن هذا الاسم محفور في الذاكرة الإنجليزية بحروف من دم.

ففي كتاب للرحالة الإنجليزي (اندرو ويلسون) يسجل فيه انطباعاته ومشاهداته في أفغانستان، لم ينس أن يشير إلى أنه قرأ وهو طفل قصة إبادة الجيش البريطاني في الصحف الإنجليزية، ولا يزال يذكر اسم الضابط الطبيب (برايدون) وهو الوحيد الذي نجا واستطاع الهرب إلى بلده (جلال أباد) ويحمل نبأ الفجيعة إلى المحامية الإنجليزية الكائنة فيها – كما سبق وأن نوهنا.

وقعت الواقعة في عام ١٨٤٢ ولا يزال الكاتب الإنجليزي يذكر تفاصيلها وهو يعد كتابه في ثلاثينيات هذا القرن!

وهكذا كانت الرحلة إلى حيث الجيش البريطاني المقتول!

وكانت القصة مسجلة في كتاب يتحدث عن أفغانستان، أو يروي تاريخ الاستعمار في آسيا، وتبدأ بخلاف بين شقيقين على الملك، أحدهما (شجاع الملك) الذي فر إلى النبند للاحتماء بالإنجليز، والثاني (وست محمد خان) الذي استولى على السلطة وتحالف مع الروس ليواجه المخاطر التي قد تهدده من أخيه، وكان ذلك كافيا بخروج حملة إنجليزية من الهند إلى أفغانستان (عام ١٨٣٩). ووجهت برفض ثورتهم، وأدت إلى قتل المعتمد البريطاني في كابول، وبعد ثلاث سنوات حافلة بالمتاعب، لم يجد الإنجليز مفرا من الانسحاب وسط صقيع الشتاء، وكان عددهم بين ١٦، ١٧ ألف شخص، بينهم ٤٥٠٠ مقاتل على ما تقول الروايات والباقون المدنيين، الإنجليز والهنود، خرج الموكب من كابول، ليفاجأ بكمين منصوب له عند المضيق، واستطاع الأفغان أن يبيدوا الركب عن آخره، حتى استحق المضيق عن جداره وصف مقبرة الغزاة (كلفت هذه العملية شعب أفغانستان الكثير، إذا دمرت كابول العاصمة على من فيها تقريبا).

لكن هذا الصراع على النفوذ (الروسي البريطاني) هو الذي أشغل حربا ثانية بعد ذلك بسنوات قليلة (عام ١٨٧٨) في أفغانستان ضد بريطانيا، كبدتها خسائر فادحة، وانتهت

بانتصار للإنجليز لم يهنأوا به، بسبب ثورات الأفغان التي لم تتوقف، حتى اضطروا إلى إعلان استقلال أفغانستان عام ١٩٢١.

ومنذ ذلك التاريخ توقفت الغارات الخارجية على أفغانستان، لكن التصفيات الداخلية ظلت مستمرة (!!!).

وظلت موقعة كابول رمزا لانتصار الأفغاني، التي خاضها راكبا الجبل!

كابول قرية الأعاجم

وإذا كانت العاصمة في البلاد النامية تكتسب خطورة مستمرة من تواجد السلطة بها؛ حيث السلطة هي كل شيء. وإن قالت غير ذلك تواضعا، فإنها في أفغانستان أشد خطورة، لأن حضور السلطة في كابول ليس إلا أحد عناصر أهميتها، بينما الأهم من ذلك أنها تعكس الواقع الأفغاني كله، السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وكما أن زيارة أي (متحف) تنقلك إلى عوالم عديدة عبر القرون، بينما أنت تتسكع بين أركان قاعة أو اثنتين، فإن زيارة كابول تعطي نفس الانطباع هي (متحف حي) إذا صح التعبير، الجولة في شوارعها لا تعرفك بالعاصمة فقط، لكنها تنقلك – أيضا – إلى كل بقعة في أرجاء أفغانستان من أقصاها إلى أقصاها.

والواقع أن كابول (الموضع)، أي المكان، قديم قدم بلاد الأفغان ذاتها. ويقال أن (أفغان) هو حفيد بينامين بن يعقوب عليه السلام، الذي سافر مع أبنائه الأربعين عندما حلت الكارثة ببني إسرائيل، اتجه إلى هذه المنطقة الواقعة شرقي بلاد فارس وأقاموا فيها.

وعندما زارها ابن بطوطة في القرن الرابع عشر الميلادي، كتب يقول: (ثم سافر إلى كابل وكانت فيما سلف مدينة عظيمة، وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الأعاجم يقال لها الأفغان ولهم حال وشعاب، وشوكة قوية، وأكثرهم قطاع طرق!).

أما كابول (الموضع)، الخصائص والدور، أي القيمة غير المنظورة، والتقسيم للدكتور جمال حمدان – فهي حديثة العهد مرتبطة بمولد أفغانستان الدولة في القرن الثامن عشر، قبل ذلك لم تكن الخريطة السياسية لوسط آسيا تعرف دولة بهذا الاسم، كانت هناك مقاطعات، وممالك متناثرة وقبائل راحلة وراء العشب، والمطر وكانت الممالك القائمة وقتذاك هي خراسان وسجستان، وتركستان والهند.

وقبل الإسلام كانت هناك الهندوكية ثم البوذية، ويقال أنهما ظهرتا لأول مرة في هذه المناطق ثم زحفتا إلى بقية دول آسيا، وحتى بعد الإسلام، لم تقم الدولة الواحدة، بل قامت دول عديدة تعتمد على العصبيات والأسس العرقية، وانفرط عقد خراسان وسجستان وتركستان،

وعرف تاريخ المنطقة سجلا طويلا من الدويلات الصغيرة، الظاهرية الصفارية والسامانية والغزنوية، والسلاجقة، والخوارزمية، والمغول والأوزبك، إلى آخر القائمة.

وكلما ازداد التدهور في بناء الدولة الإسلامية، تصاعد دور العصبيات، وازداد توالد الدول والدويلات وأطلت الصراعات والنزاعات بوجهها الكئيب!!

وقد لعب (الجبل) دورا محسوسا في هذه التقلبات السياسية، إذ كانت الطبيعة الجغرافية ممثلة في الجبال الشاهقة هي الجدران التي قسمت بها القبائل (البيت الكبير) واحتمت بها لتنمي بذور العصبية، وتقيم من تلك العصبيات (دولا) هزيلة!!

أن تضاريس المنطقة كانت بمثابة الحدود السياسية لتلك الدول والممالك الصغيرة، وبذلك صنعت جغرافيا الزمان أيضا!

(موزاييك) أفغانستان

ترقد كابول تحت أقدام جبل سليمان والذي تقول الأسطورة أن سيدنا سليمان عليه السلام صعد فوقه وألقى نظره إلى الهند، ثم رجع ولم يدخلها فسمى الجبل باسمه!

يقف الجبل حارسا للمدينة ومحتضناً لها، ولا تختفي الثلوج من فوق قممه البعيدة، وتظل طول العام تمد يدها لنصف المليون من البشر الذين يسكنون العاصمة. إذ تنساب المياه من الجبل، حتى تصل إلى مداخل المدينة، وتنتظم في قنوات رفيعة موزعة على ابرز الشوارع، ومنها يغتسلون ويتوضئون.

ونهر كابول بجسوره الستة يروي قصة المدينة القديمة، وعلى جوانبه تمتد محلات السجاد والباعة ينثرون بضاعتهم فوق الأرصفة، وقد استندوا بظهورهم إلى جدران البيوت ذات الطراز العتيق، بينما المدينة الجديدة لا ترى النهر ولا تتعامل معه، فهي طرف آخر، ولها طراز آخر، وعالم مختلف نسبيًا.

ولأنها تعكس الواقع الأفغاني، فثمة مناطق في كابول تنتمي إلى القرن العشرين، وأخرى تتراجع قرنا إلى الوراء، وإذا ذهبت إلى الحي الأصمعي، الذي تظل بيوته المبنية من الطين من فوق سفوح جبل سليمان، فإنك ستنتقل تلقائيا إلى قلب القرن التاسع عشر! بعض البيوت أقرب إلى الكهوف، صغيرة وضيقة وبغير أثاث، بل أن أكثر بيوت فقراء أفغانستان لا تعرف الأثاث، والسجاد هو كل متاعهم، وعندما صنعت قبائل نورستان المقاعد الخشبية، اعتبر ذلك حدثا هاما ومثيرا، أما متوسطو الحال فأثاثهم هو السرير المصنوع من جذوع الشجر والحبال وهو ما يطلقون عليه (جاربائي).

ومنظر (السقا) مألوف في العاصمة، إذ هناك بيوت لا تدخلها المياه ولا الكهرباء، ولضيق طرقاتها فإن البشر وحدهم هم الذين يدخلونها بالكاد.

وكما في تصميم مدننا الشرقية، لكل حرفة سوق، النجارون والحدادون والصفارون (باعة النحاس) واللحامون والخبازون والصاغون والعطارون.. وهكذا.

وللسياح سوق بل أسواق في قلب المدينة مخصصة لهم، حتى (شارع الدواجن) الذي كان سوقا للخضروات والطيور أنقلب إلى سوق كبيرة للسياح، ولا يزال محتفظا باسمه القديم إذ ينصب هناك انتاج كل القبائل والمقاطعات الأفغانية، السجاد الذي صنعته أيدي بنات التركمان ومروى، والجولد والفرو والعقيق من مناطق الطاجيك، الصداري المطرزة من غازتي، الحلى والأساور الفضية من بلاد التركمان ونورستان، والبنادق والمسدسات المشغولة بالعاج من مناطق الهزازة.

تشكيل البشر في الشوارع يرسم لوحة تعبر عن (الموزاييك) الذي يميز أفغانستان. الأجناس المتعددة المختلفة المشارب والأشكال. والتي تتداخل كلها في نسيج واحد.

فهؤلاء هم أبناء الطاجيك والباشتون بقمصانهم الطويلة والبنطلونات الفضفاضة، والعمائم الكبيرة التي يبلغ طول قماشها ٤ أمتار في المتوسط، تلتف كلها حول الرأس، ويتدلى منها نصف متر فقط على الصدر.

وهؤلاء هم التركمان والأوزبك بأحذيتهم العالية وثيابهم المخططة ذات الألوان الزاهية، وإلى جانب هؤلاء وهؤلاء نساء الأفغان اللاتي يرتدين (الشودري) من قمة الرأس إلى أخمص القدم، وتتخلله ثقوب صغيرة أمام العينين فقط.

وبقدر اختلاف الثياب الوجوه والأجسام، الأفغان بقاماتهم المديدة ولحاهم السوداء الكثة، والمغول والتركمان بعيونهم الضيقة، وأنوف الأول مفلطحة وأجسامهم تميل إلى القصر، بينما أنوف التركمان صغيرة ودقيقة ويميلون إلى النحافة، وذوو الأصول الفارسية بعيونهم الواسعة ووجوههم المستديرة وسكان هندوكس الآريون ببشرتهم ذات اللون الأشقر، التي يصعب اكتشاف طابعها الأسيوي.

وهؤلاء لا يتكلمون لغة واحدة، لأن لغات أفغانستان يصل عددها إلى ٢٠ لغة محلية تقريبا، وإن كان المعتمد لغتين فقط (الباشتو) التي هي خليط من الأردية والإنجليزية والعربية (والداري) وهي خليط من الفارسية والعربية والصحف تصدر باللغتين، ونشرات الإذاعة تقرأ بهما، الخبر الواحد يقدمه مذيع الباشتو، يتلوه على الفور مذيع الداري.

كل تلك الأشكال والألوان والأجناس تمر أمام العين في شوارع كابول، حتى لا تكاد تصدق أنهم ينتمون إلى بلد واحد ويحملون جنسية واحدة.

وراء الغيبوبة الأرخص

على أن ما يثير الانتباه فعلا في شوارع كابول، هو جماعات (الهيبز) التي تبدو وكأنها قوافل بغير نهاية، وموزعة حلقاتها على مختلف الأرصفة والشوارع والأزقة، أنهم ليسوا سياحا ولا فضوليين ولكنهم مخدرون!

إن أسعار المخدرات في هذه المنطقة من آسيا مغرية إلى حد كبير، وإن بعض جماعات الهيبز يجذبهم هذا الإغراء. فيجيئون من أوروبا في سيارات عبر تركيا وإيران ليقيموا في فنادق شديدة الرخص بكابول.

أجر الحجرة فيها يصل أحيانا إلى دولار واحد في الليلة، يستمتعون برؤية هذا البلد البكر، ويتلذذون طوال الوقت بالمخدر، الحشيش الأخضر الذي يعرف باسم (ناسوار) ثم يعودون.

إن الحديث عن أفغانستان من خلال حزام الأحواض الهضبية التي يربطها بغيرها، يعبر عن جزء من الحقيقة فقط، ذلك أن هناك حزاما غير مشروع لمزارع الحشيش يمتد من تركيا إلى إيران وأفغانستان والبيت. وإن حرب الأفيون التي شنتها بريطانيا ضد الصين في القرن التاسع عشر، اتخذت من هضاب أفغانستان ركيزة لها كانت تنطلق منها وحدات شركة الهند الشرقية (الإنجليزية). حاملة المخدر إلى الصين!

ثمة مشكلة سوف تواجه الزائر عند خروجه، إذ لابد من تصريح وإذن مسبق، وإذا كانت (عربستان) هي جواز المرور الذي استخدم في التعامل مع الناس، فإن السلطة لا تفرق بين عربستان و(كافرستان)، ومعذرة لاستخدام الكلمة فقد صكها أهالي أفغانستان عبر العصور، ذلك أن العرب عندهم مسلمون كما قلنا وغير المسلمين كفار، وهو تطبيق محرف لفكرة محرفة، تبناها بعض الفقهاء في الماضي إذ قسموا العالم إلى دار الإسلام ودار الحرب، التي هي في رأيهم دار الكفر، وكان أول تطبيق لهذه الفكرة في أفغانستان ذاتها، إذ عرفت على حدودها الشرقية مجموعة من القبائل البوذية ذكرت في كل كتب الجغرافيين القدامى بأنها (كافرستان). لكنها دخلت الإسلام على يد الأمير عبد الرحمن في (١٨٩٥) فصار اسمها – ولا يزال – نورستان!

وفي الطريق إلى (قندهار) سوف ترى صور الطريق تعود بين الحين والآخر إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر البيوت المبنية من الطين، والقلاع القديمة وسط الصحراء، والناس يفزعهم بوق السيارة، ويتفرسون بفضول مثير في عيون ركابها بينما الغبار يكسو وجوههم، ولحا الرجال طويلة وكثة، وأيديهم خشنة مليئة بالشقوق، وأرجلهم لم يعد يؤثر فيها الحصى كأنهم خارجون لتوهم من بطن التاريخ!

وتكاد تشم عن بعد رائحة الأتربة التي خلفها موكب السلطان، كأنه مر قبل لحظات تتبعه الخاتون – زوجته– والجواري، ولفرط الإحساس بالتاريخ وسط هذا الجو.. تكاد تسمع حوافز الخيول المطهمة، وقعقعة سيوف الجنود، ونفير المنادى يعلن قدوم السلطان أعزه الله.

في الطريق إلى قندهار مدينة احتلت موقعا بارزا في تاريخ شبه القارة الهندية هي (غازني)، وقد جار عليها الزمان فبعد أن ارتبط اسمها الفتوحات والبطولات. صارت الآن سوقا كبيرة يتسلى السياح بالطواف بشوارعها الضيقة، وتأمل وجوه البشر وانتقاء ما يحلو لهم من الثياب المشغولة بالألوان الزاهية.

كثيرون كتبوا عن غزنة وسلطانها الشهير محمود الغزوني.. لكن الأمير شكيب أرسلان كان أكثرهم انفعالا بها. إذ كتب يقول في (حاضر العالم الإسلامي): ومن تلك الجبال انحدر ذلك المجاهد الكبير (إسكندر الإسلام)، وحامي المعارف في عصره السلطان محمود سبكتين الغزنوي التركي (المغولي).

في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، وروح الهند من أقصاها إلى أقصاها.. وبعد أن روى بعضا من بطولات الغزنوي في الهند، سجل كلمات شيخ الكتاب أبي الفضل بديع الزمان التي وصف فيها جهد السلطان محمود بأنه (الفتح التي تضاءلت أمامه الفتوح، وأثنت عليه الملائكة والروح).. حتى أطلق عليه لقب (أمير الدولة ويمين الملة).

قندهار: المجد الغابر

لكن قندهار خطفت الضوء من غازني، عندما كانت عاصمة الملك أحمد هان الذي أسس أفغانستان الحديثة، تماما كما دار الزمن دورته، وتركز الضوء على كابول، وبقيت قندهار في الظل قانعة بلقب العاصمة الثانية.

ومع ذلك، لا تزال بعض آثار المد الغابر باقية، فالمدينة تنافس كابول في جمالها شكلا وموضوعا، العمارة القديمة تشي بماض عريق، تبدو بصماته أكثر وضوحا في طراز المساجد

وقصور أسرة الدوراني، وأسواقها عامرة بالبضائع والمشترين، وأغلبهم من السياح، بينما أكثر التجار من الهنود.

الآن هي مقر المؤسسات الغربية التي تنفذ مشروعات الطرق والكهرباء في الجزء الجنوبي من أفغانستان، غير أن قيمتها التاريخية تجذب الكثيرين إليها.. ذلك أن مؤسسها الحقيقي هو الإسكندر الأكبر، الذي جاء بجحافله في القرن الرابع قبل الميلاد؛ حيث استمر حكم اليونان قرنين من الزمان، وكما بني إسكندرية مصر والبحر المتوسط أراد أن يخلد أمسه في وسط آسيا، وبنى إسكندرية (آراخوسيا) كما كانت تسمى قبل الميلاد، وحملت فيما بعد اسم قندهار.

ولا تثير هذه الصفحة اهتمام الأفغانيين، لأن الذي يستأثر باهتمامهم هو ذلك (المزار) الذي يقال إنه يحتوي على عباءة النبي محمد عليه الصلاة والسلام. وهم يقرنون بين المكان وقيمة العباءة، فيطلقون على الاثنين اسم (الخرقة الشريفة).. والخرقة، هي الثياب القديمة عند بعض العرب.

وتضيف الرواية أن الملك أحمد خان هو الذي أحضر العباءة إلى عاصمة ملكه، تيمنا وتبركا، ولكن أحدا لم يتحقق من صحة هذه الرواية، التي تماثلها روايات أخرى عن (مقدسات) في أنحاء أفغانستان، تثور تساؤلات عديدة حول حقائقها التاريخية، وحجم الافتعال والأسطورة فيها.

لكن الذي حدث أن الملك أحمد هان استطاع بجهده هذا أن يحتل مكانة رفيعة في قلوب الأفغان، وعندما مات الرجل بنوا له ضريحا عظيمًا، جدرانه مغطاة بالخزف والفسيفساء وقبة محلاة بصفائح الذهب!

موعودون بالدمار

وطريق (قندهار) البري، يقود إلى هراة.. وعند مشارف هراه يرى القادم على البعد منارات ستا، تحيط بالجامع الكبير الذي بنته إحدى ملكات هراة في القرن الرابع عشر الذي يعتبر العصر الذهبي للدولة التيمورية التي قامت آنذاك، وهو العصر الذي أنجب أعظم الشعراء، مولانا نور الدين جامع، وأعظم الفنانين، بهزاد.

في تلك المرحلة، زار ابن بطوطة هراة، ثم كتب يقول: (.. ومدينة هراة كبيرة، كثيرة العمارة ولأهلها صلاح وعفاف وديانة، وبلادهم طاهرة من الفساد).

لكن تاريخ هراة فيه أكثر وأخطر مما قاله ابن بطوطة. فهذه المدينة الناعمة الشهيرة بالموسيقي والسجاد، ترقد على صفحات مثيرة من التاريخ، بعضها غارق في الدم.. وبعضها غارق في الدمع، وأقلها نابض بالحياة!

فقد دمرها الإسكندر الأكبر، وبناها من جديد، ولا يزال أحد الحصون الذي شيده في عهده قائما إلى الآن في قلب المدينة يستظل به باعة الفاكهة والخضروات الذين يفترشون الأرض، وتحتمي به الدواب من القيظ!

ثم خربها السجوقيين في حربهم في الغزنويين، وبعدهم – في القرن الثالث عشر– جاءت جحافل المغول غازية، وباشر الإمارة فيها (تولى) ابن جنكيز خان، الذي ثاروا الناس عليه وقتلوه.. فما كان من جنكيز خان إلا أن زحف ومعه ٨٠ ألف رجل، ظلوا يدمرون ويذبحون في المدينة مدة ستة أشهر – كما تقول كتب التاريخ – حتى لم ينج من أهلها سوى أربعين شخصًا!

ثم دمرت هراة في مرة تالية عندما جاءها تيمور لنك في القرن الرابع عشر، ولكن ابنه شاه روخ قام بتعميرها، حتى شهدت – أخيرا – مرحلة من الهدوء والاستقرار!

وبقيت هناك شواهد للتاريخ لا يزال بعضها قائما، فضلا عن أن صفحات التاريخ مليئة بعناصر الإثارة.. ثم أن الواقع الأفغاني بحد ذاته، يكاد ينتمي إلى الماضي، بأكثر من انتمائه إلى الحاضر والمستقبل.

ولكن عن المرور في طريق العودة إلى كابول ببلدة (باميان) ستلتقي بنحت للرهبان البوذيين فيه الكثير من الاقتدار الغريب، تمثالا لبوذا في جبال الصخر الشاهقة، بحيث تمتد قامته إلى ارتفاع ٥٥مترا، منذ كانت البوذية هي الديانة السائدة قبل قدوم الإسلام في القرن الثاني الهجري.

يخطف الأبصار هذا التمثال الهائل، الذي لا تستطيع أن ترى تفاصيله عن قريب إلا إذا صعدت فوق سلالم خلفية تتلوى وراء ظهر التمثال، تنقطع أنفاسك ولا تبلغ الرأس، وإن كانت التشوهات التي أحدثها بعض عامة المسلمين ظاهرة، فقد كانوا يرون فيه (صنما) ينبغي تحطيمه.

أمام تمثال بوذا، لابد من تأمل تلك الصفحة الوثنية في تاريخ أفغانستان، وقصة آلاف الرهبان الذين كانوا يعيشون تحت أقدامه؛ حيث كانت هناك تماثيل أخرى آثارها باقية، ثم قصة الرهبان الذين (يحجون) إلى المكان الآن، بأرديتهم الصفراء ورؤوسهم المحلوقة واللامعة. يفدون من بورما وسيلان وتايلاند وبقية دول آسيا.

تلاحظ مثلا، هذا الوجه الأخضر الذي تطل به (باميان) تلك المساحات الواسعة التي تمتلئ بكل أنواع الخضرة والفاكهة، وتتجاهل قطعان الثيران التي تنتشر عند السفوح والرزق تحت حوافرها لا ينضب. وتنسى البشر الرحل والمقيمين، من أبناء قبائل الهزارة ذوي الأصل المغولي.

وعودة إلى مزار شريف

وعبر العصور، كانت هذه المنطقة أحد معاقل الفكر السني، التي أنجبت فقهاء وعلماء لا تزال أسماؤهم تحتل مكانة رفيعة في عالم الإسلام، فقد نشأ هنا الإمام البخاري، والترمذي، أوب حامد الغزالي والسرخسي والبيهقي والنياسبوري وغيرهم كثيرون.

وحتى الآن، فإن التعليم والثقافة الدينية تشكل قيمة لم تهتز في أفغانستان، كما حدث في دول إسلامية أخرى كثيرة، فالكتاتيب والمدارس (والمدرسة بنطقها العربي تطلق على معاهد التعليم الديني فقط، خارج العالم العربي)، تنتشر في كل القرى والمدن.

ورجال الدين درجتان (الملا) وهو الذي تلقى تعليما دينيا متوسطا، وهو من الشباب غالبا، ثم (المولوي) وهي المرتبة الأعلى، التي لا يبلغها إلى المتمرسون من كبار السن، أو الحاصلون على شهادات عليا من المعاهد الدينية في مصر والسعودية، أو كلية الشريعة في جامعة كابول، التي يلتحق بها السنة فقط، ولا يدخلها الشيعة.

وخارج المدارس والكتاتيب، فكتب الفقه هي تراث مقدس تقتنيه العائلات وتتوارثه، وفيها ينهل الكبار لتلقين الصغار وفي كل البيوت تقريبا – والأسرة هناك مازالت على عهدها القديم، الجد والأبناء وزوجاتهم وأحفادهم في دار واحدة – يباشر الأجداد هذه المهمة.

بعد صلاة الفجر، التي تحرص عليها الأسرة الأفغانية، يجلس الجميع حول الجد الذي يؤدي دور المعلم والعريف، ويظل الجميع يتلون القرآن ثم كتب الفقه، ويحفظون كلما أمكن.

وأكثر التقاليد مرتبطة بالدين، فالزواج مثلا يعكس هذا الارتباط الوثيق الدين، فبعد أن يتولى الملا إجراء العقد ثم طقوس الزفاف التي تكاد تكون حفلا مليئا بالرموز الدينية، فثياب العروس ذات لون أخضر، التي يقال حتى عندنا أنها ثياب أهل الجنة، ولابد أن تخضب كفها الأيمن هي والعريس باللون الأخضر، ليكونا (من أهل اليمين).. ويجلس الاثنان على مقعدين متجاورين، ويقترب الرأسان ويغطيا بقطعة من القماش، ثم يدخلون عليها مرآة متوسطة الحجم ليرى كل منهما وجه الآخر فيها، إذ تفترض التقاليد المحافظة أن العريس يرى وجه عروسه لأول مرة أثناء الزفاف.. وبعد (ثبوت الرؤية) يوضع مصحف شريف فوق المرأة؛ حيث يفع

على أي صفحة، ويقرآن معا، رمزا للارتباط أمام الله، ثم ينكشف الغطاء، وسط تهليل وتصفيق الجميع. وبعد ذلك يبدأ الغناء الذي هو في ألأساس مدائح نبوية وقصائد دينية (بالمناسبة فإن المهور عند الأفغان غالية جدا، إذ يطالب الشخص العادي بدفع ما يعادل ألف دولار مهرا).

لكن المشكلة أن الفكر الديني في أفغانستان يتعامل مع مستوى من الاجتهاد والثقافة الدينية، مر عليه قرون، وإن الرؤى المستنيرة في التفكير الإسلامي لم تعرف طريقها إلى تلك البلاد في العصور الحديثة، لسبب أو آخر.

وكانت نتيجة ذلك أن خلافات السنة والشيعة أخذت طابعا جادا في القرة البعيدة، وهو أمر طبيعي في مجتمع تصل نسبة الأمية فيه إلى ٩٠%، وتصل نسبة التعلق بالدين كما يراه المذهب إلى ألف في المائة!. هي ذاتها الخلافات التي كان يدور حولها الجدل في العصر الأموي، وتتركز في مسائل الأعياد وصلاة الجمعة والآذان وزواج المتعة ولكنها تزداد عمقا بين الأميين، ومن بعضهم تكونت جماعة (الغالي) التي تستحل دم ومال السني، آخذا بثأر أمير المؤمنين على بن أبي طالب، أليسوا هم قتلته، كما يقولون؟.. وبسبب هذه التناقضات، صدر قانون كان مستمرا حتى عهد الرئيس السابق محمد داود، يحظر تولي المناصب العامة على أتباع المذهب الشيعي.

ورغم أن هناك تيارات إسلامية متحركة عند الجيران، باكستان والهند على الأخص، إلا أن هذه التيارات لم يمتد تأثيرها إلى أفغانستان، بسبب العزلة السياسية والطبيعية التي عاشت في ظلها (الجبل مرة أخرى)!

وفي النهاية، فقد أصبح الشرع هو ما يقوله الملا، وهو اعتبار بضرب في عشرة، إذا كان القائل هو المولوي.. لدرجة أن بعض أساتذة كلية الشريعة من جراء هذا الفهم عجزوا عن القول، لأنه إذا قال أحدهم: قال الله وقال رسوله فإن البعض يرد، ولكن الملا قال؟!

وإذا اقتنع الواحد من هؤلاء بما قوله الأستاذ، فإنه يعقب صراحة بأنه لا يستطيع أن يجهر برأي ما لم يعلنه الملا، وإنه سيكتم الرأي في نفسه حتى يأذن الله ويأذن الملا!

وإذا أضفنا إلى هذا العنصر الفكري ذلك العنصر النفسي الذي يؤرق مسلمي هذه المناطق البعيدة، وأعني به (الخوف) من الذوبان في البحر الأسيوي الواسع المتلاطم الأمواج؛ حيث تنتصب أفغانستان في وسط دول كبرى غير مسلمة، مثل الاتحاد السوفيتي والصين والهند، خصوصا تجربة المسلمين (السوفيت) الذين يعيشون في المناطق اللصيقة تحدوهم (مسلمو جمهوريات أوزبكستان وكازاختسان وتركمانستان وغيرها).

إن إضافة هذا العامل النفسي سوف يوضح تشدد مسلمي أفغانستان في التعلق بالأحكام الدينية، والمبالغة في تنفيذها.

وتجسد قضية المرأة هذا الموقف، فقد كانت ممنوعة من الخروج إلى العمل حتى عام ٥٩، عندما كسرت الدولة هذا الخطر مستخدمة سلاح القانون، ثم أن الحجاب (الشودري) الذي لا يكشف من المرأة حتى الوجه والكفين، هو الزى السائد في كل القرى الأفغانيـــة، رغــم أن قرارات تشغيل المرأة سمحت لها في الوقت ذاته بالتحلل من الحجاب.

وقد كلفت هذه القضية الملك أمان الله خان عرشه، إذ كان الرجل شديد الإعجاب فيما يبدو بكمال أتاتورك، فقرر أنه لا سبيل إلى تقدم أفغانستان إلا التشبه بالغرب، وليته أخذ مــن الغرب بعض فكره المتقدم، ولكنه بدأ بالزى، أي بالشكل وهذا هو الأسهل، فبدأ بنفسه وأسرته، وسافر إلى رحلة خارجية في عام ١٩٢٨م بدأها بزيارة مصر؛ حيث ظهرت زوجته (ثريــا) سافرة لأول مرة، وخرج هو على الناس لابسًا قبعة!

لكن الأدهى من ذلك أنه ذهب إلى الجامع الأزهر ليلتقي بعلمائه والقبعة فوق رأســه، ويعلق على هذه الواقعة راويها الأمير شكيب أرسلان قائلا: (فبعد أن كان العلماء قد اجتمعــوا هناك أعظاما بقدومه، عندما شاهدون أتيا بالقبعة انصرفوا مشمئزين).

وصلت أنباء وصور أمان خان وزوجته إلى كابول، مما كان سببا في ثورة العلمــاء والقبائل عليه بعد عودته، الأمر الذي دفعه إلى الهرب من العاصمة للاحتمــاء بأســرته فــي قندهار ثم (فر بالطيارة إلى الهند) بتعبير الأمير شكيب.

ومنها إلى روما، ولم يشفع للرجل كل ما قدمه من أعمال جليلة لــبلاده، مــن فــوزه باستقلالها، إلى استقرار داخلي وإصلاحات كثيرة.

ويذكرنا ذلك بما رواه ابن بطوطة عن زيارته لهراه، إذ قيــل لــه أن أهــل المدينــة (تعرفوا أن بدار الملك حسين – مليكهم – منكرا، فاجتمعوا لتغييره، وتحصن منهم داخل داره، فاجتمعوا على الباب في ٦ آلاف رجل، فخاف منهم، فاستحضر الفقيه وكبار البلد، وكان قــد شرب الخمر، فأقاموا عليه الحد بداخل قصره، وانصرفوا عنه).

أي إنهم جلدوا الملك ثمانين جلدة، أو أربعين على أحــسن الفــروض، آخــذا بــرأي الشافعية!

وبهذه الغيرة الشديدة على الإسلام ومقدساته، لم يتردد أهل قندهار فــي قتــل جنــدي إنجليزي دخل إلى صحن مسجدهم الكبير بحذائه، الأمر الذي أدى إلى مقتل ٤٠٠ من الأفغان في حملة انتقامية وحشية جردتها قيادة الجيش البريطاني على المدينة.

فرسان ثروتهن الماعز

لكننا نكاد نظلم الحقيقة إذا اعتبرنا (مزار شريف) هي وجه الإسلام في أفغانستان، أو حتى رمز له، ونصبح أكثر إنصافا إذا اعتبرنا المدينة والمزار مجرد (مناسبة) لطرق هذا الموضوع.

ينطبق ذلك أيضا على (نورستان) التي كانت (كفرستان).. وكان تغيير الاسم هو إعلان عن الانتقال من البوذية إلى الإسلام – كما أسلفنا.

لكن الوصول إلى (نروستان) بمثابة مغامرة جديدة، إذ لا يكفي أن تقطع السيارة ٣٥٠كيلو مترا في اتجاه الشمال الشرقي بكابول، وفوق طرق يعتبر شقها وسط الغابات (عرمر) الرئيسية هناك. إذ أنها مع الجياد تعد وسيلة المواصلات الوحيدة التي يمكن أن تتعامل مع الأرض الوعرة المليئة بالأحجار والمزالق، خصوصا وأن قبائل نورستان تعيش في خمسة أودية ولها خمس لهجات محلية مختلفة.

وربما كانت العزلة التي فرضت على هذه القبائل، طوال قرون اعتناقهم للبوذية، واعتبارهم كفارا من جانب جيرانهم المسلمين.. هذه العزلة خلقت أنماطا متميزة للمجتمع النورستاني فهم الوحيدون في أفغانستان– مثلا – الذين يسكنون في بيوت من الخشب، بينما بيوت الآخرين من طين، وهم الذين بدأوا بصناعة الأثاث، المقاعد والأرائك بوجه خاص، وموسيقاهم تنفرد بذوق مختلف تماما عن بقية المقاطعات.. ثم أن نساء النوريين ينفردون بأن زيهم الأساسي ليس الشدوري بل ثياب سوداء مستطيلة، وعصابات تحيط بالرأس، وينفردون بتلك الظلال الحمراء اللاتي يضعنها فوق الجفون، والكحل في العيون.

ولأنهم من أشد المقاتلين مراسا منذ الزمن القديم، فقد ضم الإسكندر المقدوني أعداد منهم إلى جيشه.

ويقال أن انخراط أجداد النوريين في جيش الإسكندر، تجاوز مسألة الحرب إلى حالات تزاوج بين الطرفين أفرزت في بعض الأسر سلالة ذات (مواصفات) مختلفة.

ومن الحقائق التي تلفت النظر في أفغانستان أن حوالي ٥٣% من السكان يشتغلون بالزراعة، و١٨% يشتغلون بالأعمال اليدوية، و٢٠% من البدو الرحل، والباقون موزعون على قطاعات الخدمات، وهذه التقديرات التي سجلها تقرير البنك الدولي عام ١٩٧٨ تعني أن في أفغانستان أعلى نسبة من البدو الرحل في العالم كله. إذ لم يعد هناك بلد يظل خمس سكانه في ترحال دائم طوال العام هربا من الثلوج مرة، وبحثا عن العيش مرة أخرى، وتجنبا للأمطار في مرة ثالثة!

وفي الربيع لا تجد تلك القبائل الراحلة مستقرا لها أفضل من وديان هندوكش، إذ تجد قطعان ماشيها كل ما تشتهيه، ويجد البشر كل ما يعوضهم عن معاناة الشتاء، والسبب كثرة المراعي، فإن أفغانستان من أوفر البلاد في الماشية، إذ تقدر ثروتها (عام ١٩٧٨) من الأبقار بأكثر من ثلاثة ملايين رأس، ومن الماعز عددا مماثلا، ومن الأغنام حوالي مليون رأس.. وذلك يؤدي إلى وفرة من نوع آخر في الجلود وكافة أنواع الفراء. وهي سلع تجد سوقا رائجة في المدن التي يطرقها السياح. وكابول في مقدمتها.

على أن الأهم من هذا كله أن اقتصاد أفغانستان الزراعي يقوم أساسا على نتاج تلك الوديان الممتدة بمحاذاة سلاسل جبالها الشاهقة، والقمح على رأس محاصيل هذه الأراضي بعده تجيء الذرة والأرز والشعير.. بينما يحتل أنتاج الفاكهة والخضروات موقعا ممتازا، يغطي احتياجات السكان ويفيض.

وطريق الشمال يؤدي إلى مدينتين لكل منهما معالهما البارزة، واحدة تطل على المستقبل، والأخرى لها ماض!.. وبالمناسبة، فإن هذا الطريق بناه السوفييت، كما أن الأمريكان هم بناة طريق الجنوب.

ومدينة المستقبل هي (بول خمرى) التي تتركز فيها صناعة النسيج، وتعد من الأسمنت الصناعيتين الوحيدتين في أفغانستان، وحولها ظهر الغاز الطبيعي، كما أن هناك تنقيبا عن البترول حولها.

بلد له ماض

وكان اسمها باكتريا في الزمن القديم، عندما وفد عليها الآريون (والآرى هو النبيل) من سهول تركستان وأسسوا دولة لهم باسم أريانا استقرت وازدهرت، وخرجت منها جماعات الآريين التي اتجهت إلى فارس وشمال العراق وأوروبا.. وعندما جاء إسكندر الأكبر أتخذ منها مقرا له.. وعندما صارت عاصمة لدولة خراسان، كان اسمها (بلخ) حتى خربها تنكيز اللعين – يقول ابن بطوطة: (وهدم في مسجدها نحو الثلث، بسبب كنز ذكر له أنه تحت سارية من سواريه، وهو من أحسن مساجد الدنيا وأفسحها).

وبعد غارة تذكير اللعين، لم تقم للمدينة قائمة.

وفي ظل ازدهار الحكم الإسلامي بخراسان كانت بلخ وسمرقند وقندهار ودهلى – كما كان ينطقها الغرب القدامى – مدنا تنافس بغداد ودمشق والقاهرة.. وفي تلك الفترة، أنجبت واحدة من أشهر الشاعرات هي رابية البلخى، وأبرز شعراء الصوفية جلال الدين الرومي.

لكننا نقع في خطأ كبير؛ إذ شغلنا الأثر عن البشر في مناطق الشمال، فهذه بلاد قبائل طاجيك والتركمان أكثر القبائل ديناميكية وإنتاجا، ذلك أن ثروة وسمعة أفغانستان في السجاد – مثلا – خرجت من هذه المناطق، وإذا كانت بنات التركمان الروميات – قد عرفن في بعض مراحل التحلل في التاريخ الإسلامي بأنهن (أنفس الرقيق) كما ذكر ابن حوقل، إلا أن لهؤلاء الفتيات قيمة أخرى الآن.. إذ أن أرق وأجمل أنواع السجاد الأفغاني تخرج من مناطق التركمان، وبنات هذه القبائل ينسجن داخل بيوتن كميات كبيرة من السجاد التي كان يتخاطفها السياح والأثرياء. وكانت تباع بأسعار عالية (قبل أن تسقط أفغانستان فريسة للروس والحروب الأهلية التي كانت طاحنة ومدمرة).

غير أن ملاحة بنات التركمان مازالت لها أصداؤها، فأغنياء الأفغان القادرون على مواجهة أعباء الزواج والذين ينتشر بينهم تعدد الزوجات، يحرصون على أن يقتني الواحد منهم بين زوجاته واحدة (رومية).

ومع ذلك لا تكاد تدخل محلا تجاريا في كابول أو قندهار إلا وتجد فيه قطعة من بلاد الطاجيك والتركمان، من السجاد إلى الجلود والفرو إلى الحلى وأدوات الزينة إلى العقيق والأحجار الكريمة.

على أنه بقدر عطاء هذه المناطق، فإن (الأخذ) الذي تجنيه محدود للغاية، وبعدها عن قلب أفغانستان جعلها أكثر تخلفا، وبالتالي، أكثر اقترابا من عوالم القرنين التاسع عشر والثامن عشر.

وكل ما قيل عن تخلف حياة البشر في الجنوب، يمكن أن يكون حرفيا، ويضاف إليه الكثير من الحديث عن الشمال، فالأمية منتشرة بنفس النسبة ومنظر حلقات (الكتاب) في مزار شريف التي يلتف فيها رجال القبائل حول الجالسين بالأقلام والأوراق، يملون عليهم الرسائل إلى الأهل والخلان، هي ذاته التي شوهدت في كابول وقندهار وهراة.. ومشكلات تخلف التفكير الديني طبق الأصل مما هو في الجنوب، وأمراض الملاريا التي تقتل الكثيرين من الأطفال. ويعزون إليها سبب النمو البطيء في عدد سكان أفغانستان نتيجة لأن الوفيات أكثر من المواليد – مع حصى الكلى الذي هو محنة الكبار – هذه الأمراض لا تخلو منها قبيلة أو قرية.

والمرافق الفقيرة للغاية، التي تكاد تنحصر في شبكات المياه والإنارة التي تغطي المدن وبعض القرى القريبة منها، هذه القاعدة لم يشذ عنها سوى الطرق التي تم شق ما هو أساسي منها. ربما لأسباب عسكرية واقتصادية أساسا.

هنا وقف الجبل عاجزا عن التأثير والحيلولة دون تماثل هذه الأوضاع، فلم يؤد دوره التقليدي كجدار عازل، لأن التخلف ملة واحدة!

هذا هو نمط حياة يومية لملايين البشر، وجميعًا يحتملون قسوة الظروف والطبيعة والمعيشة، ويتعايشون معها برضا وربما بحب.. وكما النمل، من إمكانيات منعدمة، وبصبر ودأب شديدين ينحتون في الصخر بلادهم.

حكاية أفغانستان والجيش الأحمر

عندما انتهت الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥، جلس (الحلفاء) المنتصرون على النازية أمام طاولة مفاوضات لرسم صورة العالم. وتقاسم مواقع النفوذ.

في هذه المفاوضات التي انتهت إلى ما يعرف باسم (اتفاقات يالطا) سأل القادة الغربيون الزعيم السوفيتي جوزيف ستالين عن (نياته) تجاه أوروبا الشرقية والمناطق التي حررها السوفيت في ألمانيا فرد عليهم بقوله: (كل ما يدخله الجيش الأحمر هو أحمر).

فقد رأى ملايين المشاهدين في جميع أنحاء العالم قوافل الدبابات السوفيتية تغادر الأراضي الأفغانية بعد احتلال دام ثمانية أعوام (١٩٧٩ – ١٩٨٨).

وللمرة الثانية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية تضطر القيادة العسكرية إلى استدعاء وحداتها من أراض سبق لها واحتلتها (قبل ذلك سحب ستالين قواته من أذريبجان في إيران).

ولكن لماذا انسحب السوفيت من أفغانستان وما هي قصة التدخل الروسي في هذا البلد؟

كما سبق وأسلفنا أن أفغانستان بلد قدامى الأطراف، أكثر من ١٥ مليون ينتمون إلى قبائل ما تزال بعيدة جدا عن حياة الحضارة الحديثة، متدينون إلى حدود التطرف، وفقراء إلى حدود الجوع.. عرفوا مستعمرين وفاتحين طوال تاريخهم العتيق، إلا أنهم تمسكوا بكل ما حمله إليهم الفاتح الإسلامي، أصبحوا مسلمين ويكتبون لغتهم بالحروف العربية، حافظوا على هويتهم الخاصة على الرغم من الحروب الضارية التي خاضوها في وجه قياصرة روسيا الفاتحين وملوك بريطانيا الطامعين، في عام ١٧٤٧ رسموا حدودهم الجغرافية النهائية، وفي مطلع القرن الماضي عرفوا الاستقلال شبه التام عن الجيران الأقوياء.

حتى عام ١٩٧٣ بقيت أفغانستان دولة من (القرون الوسطى) كل المحاولات التي بذلت من أجل تطوير البلد وتحديثه انتهت إلى الفشل.. النظام الملكي كان يحيي الإقطاعات الكبيرة والامتيازات الهائلة للعائلات الكبرى.. عدد محدود من أبناء العائلات المعروفة يملك

مفاتيح السلطة ومناصب الدولة ومرافق الاقتصاد وخبرات الأرض.. أما عامة الشعب فإنهـا كانت تعيش في المناطق الريفية حيث تقوم سلطة القبائل. نصف ألأطفال كانوا يموتـون قبـل بلوغ الخامسة من العمر وتسعون في المائة من السكان لا يعرفون القراءة ولا الكتابة.

بداية الحرب

نقطة البداية في تاريخ أفغانستان الحديث كانت في شهر يوليو ١٩٧٣.. فقـد أطـاح رئيس الحكومة السابق محمد داود بالنظام الملكي وأعلن قيام الجمهورية. المعارضـة القويـة ضد هذا النظام الجديد كانت من الشيوعيين، وكانوا قسمين: بارشام أو (حزب العلم) وخلق أو (حزب الشعب).

بارشام أيد الانقلاب واشترك في مسئوليات حكومية، وراح يفرض وجهـات نظـرة (الإصلاحية) على النظام الجديد، إلا أن الحياة اليومية للشعب الأفغاني لم تتحسن. الإصلاحات بقيت دون تنفيذ، الإقطاعيون حافظوا على امتيازاتهم والفقراء ازدادوا فقرا.

في السابع والعشرين من أبريل ١٩٧٨، نفذ الشيوعيون الانقلاب الثاني، قتلوا الرئيس محمد داود وثلاثة آلاف من أنصاره، أعلنوا قيام الجمهورية الثانية على الطريقـة الـشيوعية هنا، اجتمعت الحركات الإسلامية التي كانت تملك قواعد شعبية بدائية فـي البلـد، وأعلنـت اتحادها في حركة تعمل من أجل تغيير النظام (الكافر) بالقوة. وكانت بداية الصدام المسلح بين حكم جديد له مواقعه الشعبية، ومعارضة لها أيضا مواقعها الشعبية.. انتهى الصراع في البلاد الملكي أو الصراع بين البلاط الملكي وخصومه ليصبح الصراع بين قوتين شعبيتين واحدة في السلطة وأخرى في المعارضة.

إنها الشرارة الأولى في الحرب الأهلية

المعارضة الإسلامية لم تكن في حاجة إلى إسقاط النظام الشيوعي؛ إذ إن الخلافات بين الشيوعيين أنفسهم كانت كافية للقيام بالمهمة.. حزب خلق كان يريد الاستفراد بالسلطة وإقصاء حزب بارشام عنها. كان خلق قويا في أوساط الموظفين وسكان المناطق الريفية وخصوصا في الأوساط العسكرية.. في حين كان بارشام قويا في الأوساط البرجوازية وبين المثقفين الذين درسوا في الاتحاد السوفيتي والدول الشرقية، وأدى الصراع المكشوف بين الحزبين الشيوعيين إلى انتصار حفيظ الله أمين زعيم خلق الذي قتل محمد طراقى في ١٤ سبتمبر ١٩٧٩.

وأعلن (القطيعة) مع موسكو مؤكدا على إقامة جمهورية ماركسية ثورية تختلف في (المفاهيم الثورية) عن الفلسفة (التقليدية) في الاتحاد السوفيتي.. وكان على موسكو أن تحسم الموقف بسرعة، وراح الزعيم السوفيتي (ليونيد بريجينيف) يبحث عن (مسئول) أفغاني يطلب تدخل موسكو بموجب اتفاق التعاون الإستراتيجي بين الدولتين، ووجد الرجل المناسب (بابراك كارمل)، زعيم بارشام الذي كان منفيا في براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا فظهر فجأة وطلب من الاتحاد السوفيتي إرسال قواته إلى أفغانستان للدفاع عن أراضيها ضد (مؤامرة إمبريالية) وذلك بموجب الاتفاق الثنائي بين كابول وموسكو.

وفي ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩، دخل ٨٥ ألف جندي سوفيتي إلى الأراضي الأفغانية يتقدمهم كارمل نفسه، تم الانقلاب الجديد وقتل حفيظ الله أمين وصار كارمل رئيسًا للجمهورية.. العالم كله استنكر التدخل السوفيتي، فالتدخل الجديد كان بمثابة نقلة نوعية جديدة جعلت الاتحاد السوفيتي على مقربة من الخليج العربي؛ حيث كانت التطورات تتلاحق مع قيام الثورة الإسلامية في إيران.. الولايات المتحدة فرضت حظرًا على تصدير المنتجات الأمريكية إلى الاتحاد السوفيتي وقاطعت الألعاب الأولمبية في موسكو، وألغت قرارها بالتوقيع على معاهدة سولت للحد من انتشار الأسلحة.

دول غربية أخرى لحقت بواشنطن، واتخذت تدابير مماثلة، لقد انتهت مرحلة الانفراج الدولي بين الجبارين.. وعاد الصراع المكشوف بين الكبار على تقاسم مواقع النفوذ في العالم إلى أيامه الأولى التي أعقبت الحرب العالمية الثانية.

حرب المقاومة

قادة الجيش الأحمر في ثكنات كابول اعتقدوا بأن المسألة بن تتعدى نزعة في مواجهة مقاومة فقيرة وضعيفة لا تملك إلا بنادق تعود إلى الحرف الثانية، فقرروا تدعيم سلطتهم في العاصمة والمدن الرئيسية الكبرى، تاركين موضوع السيطرة على الجبال البعيدة والمناطق الريفية إلى وقت آخر. لكن المجاهدين الأفغان الموزعين على ٢٥ تنظيما بدائيا راحوا يحصنون مواقعهم في المناطق التي لم تكن قد سقطت بعد في يد القوات السوفيتية، ثمانية آلاف مقاتل يدعمهم عدد مماثل من المقاتلين في الاحتياط كانوا يحرسون قراهم وقبائلهم في المرتفعات أصبحوا قوة منظمة لأهم لديها إلا (الجهاد المقدس) ضد الغازي الشيوعي.

وفي ربيع عام ١٩٨٠ شنت القوات السوفيتية الهجوم الكبير في المرتفعات. دبابات ومدرعات حديثة تحميها الطائرات، وتدعمها المدفعية الثقيلة هاجمت منطقة بناشير.. المقاومة غير موجودة، الوحدات السوفيتية تتقدم على الطرقات الوعرة.. وإذا بالمجاهدين يهاجموننا ويوقعون فيها الإصابات والخسائر الفادحة.. وقبل أن يستفيق الجنود السوفيت للرد على الهجوم لا يجدون أثرا للمجاهدين الذين اختفوا في الجبار.. مرت أربعة أشهر السوفيت موجودون في المنطقة لكنهم لا يسيطرون عليها.. الخسائر تتعاظم والجبال ما تزال في أماكنها لم تتحرك، والمجاهدون يضربون ويهربون.. وتقرر أن تعود القوات السوفيتية من مغامرتها في عمق البلد إلى كابول.. وراح الطيران السوفيتي يغير بشكل دائم على المرتفعات الجبلية، لكن مصير المنطقة لم يتبدل.

في قلب العاصمة كابول، لم يكن الوضع السياسي أفضل من الوضع العسكري في المناطق.. موسكو لم تتمكن من تحقيق المصالحة بين الحزبين الشيوعيين خلق وبارشام. الرئيس كارمل لم يتمكن من الحصول على الشرعية الشعبية، والإدارة السوفيتية صارت تتدخل في الكبيرة والصغيرة مجبرة النظام الجديد على اعتماد سياسة أكثر مرونة، العلم الأخضر حل محل العلم الأحمر في محاولة لإرضاء التيارات الإسلامية.. إلا أن حرب العصابات في المرتفعات وعلى حدود المدن والأقاليم صارت أكثر عنفا.. والعمليات ضد القوات السوفيتية والحكومية تزداد يوما بعد يوم.. وفي ٢٨ سبتمبر ١٩٨٢ هاجم المجاهدون قافلة سوفيتية وقتلوا ٢٠٠ عنصر من الجنود السوفيت في وادي كينار.. وفي شهر نوفمبر من العام نفسه وقعت قافلة أخرى في كمين في نفق سالانج على ارتفاع ٣٠٠٠متر وقتل ٧٠٠ جندي سوفيتي.

نهاية مرحلة

مات برجينيف وجاء أندروبوف الذي حاول تغيير الأسلوب المعتمد في أفغانستان، أوقف العمليات العسكرية وراح يحاور رجال القبائل. ويرسل عناصر المخابرات إلى قبائل أخرى في محاولة لشق الوحدة الوطنية.. ومات أندروبوف. وجاء تشرينكو الذي عاد إلى أسلوب برجينيف.. وفي ١٢ إبريل ١٩٨٤ شن السوفييت هجوما كبيرا في منطقة بانشير نفسها، عشرون ألف جندي سوفيتي وستة آلاف جندي أفغاني حكومي شاركوا في الهجوم تحت غطاء لم يعرف له مثيل من طائرات الميج وطائرات الهليوكوبتر وذلك بهدف القضاء على قوات القائد مسعود كان قد ترك المنطق مع قواته عشية الهجوم. وعندما انتشرت القوات السوفيتية والحكومية في المنطقة ظهر المجاهدون وراحوا يشنون حرب إبادة ضدها.. هزيمة جديدة للسوفيت المضادات للطائرات حصلت على صواريخ ستينجر الأمريكية المتطورة.. وهو أمر كبل سلاح الطيران السوفيتي في المعركة، الحملة الأولى قضت على المدرعات، والحملة الثانية قضت على الطائرات، واعتمدت القيادة السوفيتية على الوحدات الخاصة وقوات الكاماندوز، إلا أنها لم تتمكن من السيطرة على أكثر من ١٥% من الأراضي الأفغانية.

عندما جاء ميخائيل جورباتشوف إلى السلطة إلى موسكو لاحظ أن أفغانستان تحولت إلى (فيتنام سوفيتية). إنها الهزيمة.. أطاح بحكم كارمل في مايو ١٩٨٦ وعين الدكتور نجيب الله مكانه، عرض على قبائل المقاومة خطة للسلام في البلد وراح يتفاوض مع أركان النظام الملكي السابق ومع الحكومة الباكستانية إلى تدعم الثوار الأفغان.. في الوقت نفسه طلبت القيادة السوفيتية الجديدة من الولايات المتحدة مساعدتها على إنهاء الأزمة الأفغانية، إذ أن واشنطن لعبت الدور الأول في تسليح ودعم المقاومة الأفغانية. وقامت بدور السوفيت في فيتنام عندما كانت القوات الأمريكية متورطة هناك. الأمريكيون مستعدون للمساعدة بشروط، وكانت لقاءات قمة بين الزعيم السوفيتي جورباتشوف والرئيس الأمريكي رونالد ريجان وفي إطار سياسة انفراج جديدة من أجل الحد من الأسلحة النووية وحل المشكلات الدولية. اتفق الزعيمان على حل الأزمة الأفغانية عن طريق انسحاب القوات السوفيتية.

مستقبل البلد

في شهر مايو ١٩٨٨ بدأت القوات السوفيتية الانسحاب من أفغانستان، السوفيت خسروا ١٠٣٠٠ قتيل و٤٠ ألف جريح و١٠٠ مليار دولار في الحرب الأفغانية. فكان انسحابهم فرصة نادرة لوقف خسائرهم وهزائمهم.

لبننة أفغانستان

ورغم أن لبنان بعيدة عن قمم جبال أفغانستان المكللة بالثلوج إلا أن خطر اللبننة اقتحم رؤوس قيادة الثورة الأفغانيين وأفرز خلافات عميقة في صفوف المعارضة الأفغانية.. مما أشعل الحرب بين الأشقاء وعادات أفغانستان تغرق في بحر من الدم صنعه أبنائها المسلمين طال واستشرى وأوقف كل خطوات النمو والتقدم والأمن.

والدليل ما أذاعته وكالات الأنباء في شهر يناير عام ٢٠٠١ من إسلام أباد عن (المجاعة التي تهدد حياة الملايين من الأطفال في أفغانستان) وعن (بريطانيا التي تدعم جهود تشكيل حكومة موسعة لإنهاء الحرب الأهلية الأفغانية) وفيه تقول:

(أعلن برنامج الغذاء العالمي أن الملايين من الأطفال الأفغان يحتضرون بسبب الجوع. وأن نصف هؤلاء الأطفال ممن يعيشون في منطقة مزار شريف الشمالية. يعانون مرض سوء التغذية، وأشار تقرير للبرنامج المعد للتعاون مع وكالة الإغاثة الفرنسية أي أن السبب الرئيسي وراء تصاعد معاناة الأطفال الأفغان تعرض البلاد لأسوأ موجة جفاف منذ ٣٠عاما وتواصل القتال بين حركة طالبان الحاكمة والمعارضة الشمالية. وتقل التقرير عن عمال الإغاثة أن ملايين الأفغان تركوا منازلهم بحثا عن ملاذ أمن وعن الغذاء والمياه. وأن معظمهم يلتحف بأغطية بلاستيكية اتقاء للبرد حيث تنخفض درجة الحرارة إلى ما دون الصفر).

المقابر المثلجة

وفي النهاية.. وبعد ازدهار إسلامي شامل في تلك البلاد ذكر بيان للأمم المتحدة في بداية الألفية الثالثة أن أكثر من ١١٠ من الأفغان ماتوا من شدة البرد في ليلة واحدة داخل مخيمات للاجئين في درجة حرارة ٢٥ تحت الصفر، وحتى تكون المصيبة أشد فداحة وشراسة، فقد عانى الموتى قبل ذلك من الجفاف والحرب، والمؤسف أيضا أن معظم الضحايا من النساء والأطفال. وأن السيارات التي حاولت الوصول إليهم لإطعامهم وإعانتهم لم تتحرك بسبب تجمد الزيت والبنزين داخل محركات كما ذكر البيان أن هناك نحو ٨٠ ألف لاجئ

يقاسون ويعانون من نفس الظروف حيث يصل لتلك الملاجئ (أو المقابر المثلجة) نحــو ٥٠٠ مشرد يوميا!

وفجأة تدمير التماثيل البوذية (في وقضة خارج السياق)

غير أنه وفجأة في فبراير عام ٢٠٠١ يتم في أفغانستان الإعلان عن تدمير التماثيــل البوذية الأثرية في (بامبان)، وعلى الفور قررت قوات طالبان الحاكمة اســتخدام الــديناميت لتدمير التماثيل تماما. بعد فشل الدبابات والصواريخ في هدمها، نظرا لضخامة أحجامها؛ حيث يصل طول أحدها إلى ٥٥مترا. وبعد الأكبر من نوعه في العالم وحسب ما أوردته وكــالات الأنباء: (تصاعدت موجة الاستنكار العالمية العارمة احتجاجا علــى تــدمير حركــة طالبــان الحاكمة في أفغانستان – التماثيل الأثرية التي تعود إلى فترة ما قبل الإسلام، وفــي مقــدمتها تماثيل بوذا التي لا تقد بثمن في الوقت الذي واصلت فيه الحركة تدمير التماثيــل مــستخدمة الدبابات والصواريخ والديناميت.

وقد رفضت حركة طالبان الانصياع للنداءات الدولية المطالبة لهــا بــالتراجع عــن قرارها بتدمير التماثيل الأثرية، وأكد وكيل أحمد متوكل وزير الخارجية الأفغاني أن بــلاده لا تفخر بهذا التاريخ البائد، في حين أشار سيد رحمه الله المتحدث باسم الحركة فــي الولايــات المتحدة إلى أن عملية تفجير التماثيل البوذية تأتي ردًا على قيام الهندوس بتدمير جامع إسلامي تاريخي في ولاية (أوتاربراد بيش) الهندية عام ١٩٩٢.. كما ذكرت مصادر أمنيــة أفغانيــة رسمية ومعارضة أن قوات حركة طالبان تستعد لاستخدام الديناميت لتفجير التماثيل البوذيــة الأثرية التي وصفتها بأنها – أصنام – بعد أن استخدمت الدبابات والصواريخ في قصفها عــن بعد.. وكانت حكومة طالبان قد وجهت إنذارات للمواطنين بإخلاء المنطقة بمدينــة (بامبــان) وسط البلاد، وعدم الوجود بالقرب من المواقع المستهدفة.. كما أشارت المصادر نفسها إلى أن زرع قوات الحركة للمتفجرات في الصخور، التي نحتت فيها التماثيل، يؤكد فــشل الــدبابات والقذائف المضادة للدروع في تدمير هذه التماثيل العملاقــة.. وأضــاف أن قــوات طالبــان استخدمت كل أنواع الأسلحة المتوافرة لديها لضرب التماثيل وتدميرها، وأعلن ثورة الله جمال وزير الإعلام الأفغاني أن عملية تدمير التماثيل البوذية بدأت في جميع أنحاء البلاد بما فيهــا مدينة (بامبان)، مؤكدا أنه سيتم تدمير جميع الأصنام طبقا للقرار الذي أصدره المــلا محمــد عمر القائد الأعلى لحركة طالبان الإسلامية، وأوضح أنه لا يعلم مدى الــدمار الــذي لحــق بالتماثيل الأثرية حتى الآن والتي تشمل روائع لا تقدر بثمن من الفن البوذي يصل عمرها إلى نحو ٢٠٠٠عام، ومنها تماثيل منحوتة في الصخر بالقرب من بامبان ارتفاعها ٥٥مترا، وتعد

الأكبر من نوعها في العالم، وأوضح وزير الإعلام الأفغاني أن أوامر قائد الحركة تشمل تدمير جميع المتاحف البدائية الأثرية في بامبان، وعدد من الأقاليم الأخرى في جازني وهيرات وجالاباد وكندهار، مشيرا إلى تصريحات الملا محمد عمر المتحدية لردود الفعل الدولية والتي قال فيها أنه إذا كان المجتمع الدولي لا يعتبر هذه التماثيل للعبادة. فإن ما يقومون به تدمير حجارة فقط، وقد طالبت الأمم المتحدة الدول الإسلامية بإقناع طالبان بعدم تدمير تاريخها الأثري، محذرة أفغانستان من ردود الأفعال الدولية الغاضبة.. هذا وقد دفعت هذه الأحداث العدوتين القديمتين الهند وباكستان إلى الاتفاق على موقف موحد مناهض لحركة طالبن، ففي نيودلهي وصف وزير الخارجية الهندي ماسوانت سينج خطط طالبان التدميرية بأنها ارتداد إلى بربرية القرون الوسطى، وأكد أن بلاده على أتم استعداد لنقل هذا التراث الثمين إلى أراضيها والحفاظ عليها من أجل البشرية، معترفة بأنها كنوز الشعب الأفغاني في الأساس.. وقد اندلعت في العاصمة الهندية مظاهرات احتجاج على تدمير التماثيل البوذية، وحرق المتظاهرون صورة الملا محمد عمر قائد الحركة.. ودعت باكستان في نداء لطالبان إلى وقف تدمير تماثيل بوذا التاريخية، وقال بيان لوزارة الخارجية الباكستانية أن حكومة إسلام أباد تنضم إلى الدول الأخرى لحث أفغانستان على وقف عمليات التدمير.. وفي باريس ذكرت منظمة اليونسكو أن مبعوث المدير العام للمنظمة لدى طالبان السفير الفرنسي السابق بيار لافرانس سيتوجه إلى جدة بالسعودية بعد زيارة كابول لبحث تلك القضية مع مسئول في منظمة المؤتمر الإسلامي.

وفي بداية مارس ٢٠٠١ أعلنت وكالة الأنباء أن حركة طالبان الحاكمة في أفغانستان تحدت النداءات الدولية والإقليمية لوقف خططها بتدمير التماثيل البوذية وأكد وزير الإعلام الباكستاني أن تمثالي بوذا في بامبان سيدمران بالكامل وأن حملة تدمير التماثيل البوذية سوف تنتهي في غضون ثلاثة أيام، وأن مجموعة كبيرة من التماثيل تم تدميرها بالفعل خاصة التماثيل المصنوعة من الخشب والطين في مناطق هرات وغزنة وجلال أباد مشيرا إلى أن تدمير تلك التماثيل كان سهلا ولم يستغرق وقتا، وقال أن ثلاثة أرباع التماثيل الأفغانية التي وصفها بأنها (أشياء) من الوحل والحجارة تم تدميرها وأن العالم ليس له أن يتدخل في هذه القضية. وقال شهود العيان أنه تم استخدام الدبابات والصواريخ والأسلحة الآلية وأيضا البارود والفئوس والمعاول في تدمير تمثالي بوذا العملاقين، وفي الوقت نفسه نشرت مجلة (باري ماتش) الفرنسية تحت عنوان (الموت جوعا): أنه في الوقت الذي تثير فيه حكومة طالبان ضجة عالية بسبب قرارها تدمير كل التماثيل بوذا، وفي الوقت التي تهتم المنظمات الإنسانية بمصير هذه التماثيل، اضطر عدد كبير من الأهالي إلى بيع ممتلكاتهم والفرار باتجاه مدينة

(هيرات) بغرب البلاد.. ففي ظل حكومة طالبان تحول مواطنو أفغانستان إلى مجرد لاجئين داخل أراضيهم ولم يعودوا يملكون من حطام الدنيا سوى الأغطية التي حرصوا على حملها معهم في معسكر الإيواء بـ(مرساكا). ففي هذا المعسكر لا تتوفر المياه الصالحة للشرب ولا الأدوية ويكاد ينفد مخزون الغذاء اللازم لإطعام ٨٠ألف شخص، بينما تتوالى الوفيات يوميا بين الأطفال وكبار السن أثر الإصابة بأمراض مثل التيفود والسل والملاريا.

ابتسامة في معبد الحب

أما الصورة الأخيرة في مأساة أفغانستان المؤسفة فيلتقطها عادل حمودة، ويعرضها علينا بكل ما تحوى من ظلال البؤس والضياع والكبت والانهيار في مقالة بأهرام ٢٠٠١/٣/١٧.

(كنت أشعر دائما بأن الله يحرسني ويحفظني.. لكن في المدرسة وجدت مدرس الألعاب الذي داسته عربة كارو، يقرر أن يقوم بتدريس الدين ولم يتردد وهو يحمل في يده سلكا رفيعا مبروما مثل الكرباج يهددنا به، في تحويل كلمات الله الجميلة الطيبة إلى صورة مرعبة لا تجدها في متحف الشمع، فرأينا جهنم لا الجنة. ورأينا الشيطان لا الحنان.. وشممنا رائحة الشياط والشواء التي تنبعث من أجسادنا المحترقة في الجحيم قبل أن نشم رائحة الفل والندى ونقطف عناقيد الخير والعنب في النعيم.

إن الدين الذي يمنحنا السلام الداخلي ويجعلنا نحتمل عجز الحياة تحول على يد هذا الطراز من البشر إلى إعداد وخصام. فكان التشدد والتعصب والتطرف والاهتمام بالمظهر لا الجوهر. وكان العنف والقتل والفتوى التي تنفجر كالقنبلة، وكان الجمود والجحود والفهم الضيق للحدود، وكان الفقر والقهر والتراث الذي انقلب إلى ثبات.

لقد كنت أتصور أن مدرس (الألعاب) – الذي يعلمنا آيات الله بالكرباج، هو حالة مرضية شاذة ضلت طريقها من مستشفى الأمراض العقلية إلى وزارة المعارف العمومية.. لكن الأيام أثبتت أنه (كائن حي) من فصيلة سريعة التكاثر والانتشار.. يزداد تشددا وتطرفا جيلا بعد جيل، وليس له وطن بعينه ولا ملامح ثابتة. ولا جنسية نستطيع أن نعرفه بها، فهو مرة يذبح قرية بأكملها في الجزائر، ومرة يفجر مقهى في مصر، ومرة يخطف فوجا سياحيا في اليمن، ومرة يضرب بالمدفعية الثقيلة تماثيل منحوتة لبوذا في جبال أفغانستان، أو قتلستان، أو أرهابستان، أو جنونستان، أو فقرستان، لا فرق، فهذه ليست دولة وإنما رهينة، أو ضحية، أو أراض محروقة خالية من رائحة العقل ومشاعر القلب وحسابات الضمير.

إن ثمن طلقات المدفعية التي حطمت تماثيل بوذا في جبال (بامبان) في وسط أفغانستان، كان يكفي لسد وجبة العشاء لنصف سكان الخيام في قلب العاصمة كابول، وثمن الحرب التي لم تتوقف على مدى أكثر من ربع قرن في هذه الدولة المخنوقة بالجبال كان يكفي لأن يحولها من دولة تعيش في عصر ما قبل الجاهلية، إلى دولة تلهو بالسفن الفضائية، وهو ما جعل معظم صحف العالم تنشر صور التماثيل المحطمة إلى جانب صور الفقراء البؤساء وسكان الخيام في تلك البلاد البعيدة التي يغطيها الغبار والدمار.

لقد بدأت دولة (طالبان) في أفغانستان عصرها (الذهبي) بقتل وإعدام خصومها السياسيين علنا في الشوارع، وتركت جثثهم معلقة في حبال المشانق لتمرح فيها الجوارح، ثم حطمت أجهزة التليفزيون في مظاهرة همجية لا تنقصها الصيحات البربرية، ثم حرمت النساء من العمل حتى لو كانت ربة البيت هي العائل الوحيد لأسرتها بعد أن التهمت الحروب الأهلية الدينية أعدادا هائلة من الرجال.

ثم حرمت النساء من العلاج في مستشفيات العامة خوفا من الفتنة والاختلاط بين الجنسين دون أن تبنى لهم مستشفيات بديلة.. ثم أصدرت فرمانات رسمية بإطلاق اللحية، فأمواس الحلاقة رجس من عمل الشيطان.

ثم قررت إنشاء وزارة للثقافة، وكانت أولى مهامها (المقدسة) هي تحطيم التماثيل العملاقة المنحوتة في الجبال.. لتقدم للدنيا كلها أقوى دعاية مجانية ضد الإسلام، دعاية مكثفة، ثاقبة كان يمكن أن يدفع فيها مليارات الدولارات، فنحن الذين نشتري الحبل على حسابنا، ونحن الذين نلفه على رقبتنا بكامل وعينا، ونحن الذين نشده بكل الثقة، لكن لا أحد يقرأ على أرواحنا الفاتحة.

وقد تمنيت أن تنقذ رحلة مفتي الديار المصرية الدكتور نصر فريد واصل إلى أفغانستان ما تبقى من سمعتنا الإسلامية في الحفاظ على تراث الحضارة البشرية.. تمنيت أن تقنع (أهل الكهف) هناك أن التماثيل ليست أصناما تغرى من يراها بالشرك بالله، فالإنسان المسلم لا يمكن أن يكون ساذجا إلى هذا الحد، مجرد أن يجد تمثالا يخر ساجدا له.. ثم أن هذه التماثيل عمرها سحيق وبرغم ذلك أن يجد تمثالا يخر ساجدا له.. ثم أن هذه التماثيل عمرها سحيق وبرغم ذلك لم تجد من يعبدها بعيدا عن أصحابها البوذيين الذين يتباركون بها.. تمنيت أن يقنع المفتي جماعة أحياء (أبي لهب) هناك بالقاعدة الإسلامية التي نشرت دين الله الحنيف.. وجعلته إمبراطورية شاسعة عريضة، قاعدة قبول الآخر، لا إكراه في الدين، لكم دينكم ولي دين.. لكن المفتي لم يتمكن من لقاء زعيم حركة طالبان الملا محمد عمر.

وكان مصير مهمته مثل مصير مهمة كوفي عنان الأمين العام للأمم المتحدة، الإخفاق، فهو لا يتعامل مع عقلاء، وإنما مع طلبه أو (طلبان) في مدرسة المشاغبين!

على أن الرحلة في حد ذاتها تكفي، فهي رسالة إلى العالم بأن المفتي في مصر.. دولة الأزهر الجامعة الإسلامية العريقة، لا يوافق على تحطيم التماثيل، لا يرى التماثيل أصناما، لا يراها شركا بالله.. وهي رسالة ضرورية ومهمة، خاصة أن بعض الأصوات وبعض الأقلام في مصر ترى ذلك.

وبعض معلمي مدارس الأطفال يصفون تماثيل الفراعنة في رحلات المعابد بالأقصر بالمساخيط والأوثان.. وهو درس مبكر يدخل عقولهم من ناحية ويخرج تطرفا ورغبة حادة في القتل والتخريب من ناحية أخرى.

ولا يتوقف الجهل عند هذا الحد، وإنما يمتد إلى كل ما نسمع عنه، ولا نهتم بمعرفته مثل البوذية، فالبوذية وأن كانت ليست رسالة سماوية فإنها ثقافة أخلاقية حضارية سامية انتشرت بين مليارات من البشر يعيشون في آسيا – مثلها مثل الكونفوشية والشونتية والطاوية – وضعتهم في مكان لائق تحت الشمس بعيدا عن تبعية الهيمنة الأمريكية أو التبعية الغربية التي ترتدي جلبابها وتتصرف على طريقها، ولا نقدر على الابتعاد عنها.

إن هؤلاء المليارات من البشر في تلك البلاد البعيدة يعرفون على طريقتهم، والتعاليم التي يحفظونها ويهتدون بها لا يجوز الاستهانة بها، أو السخرية منها، إنها في كثير من الأحيان تعد نوعا من الصوفية، إن جزءا كبير من هذه التعاليم يمكن أن نجده في كتاب (الطاو)، وهو كتاب عمره يزيد على ٢٥٠٠سنة قبل الميلاد.. وضع فيه رفيق لكونفوشيوس اسمه لوتسو خلاصة الحكمة في ٨١ قطعة أدبية أشبه بالقصائد، وهو من أكثر الكتب في العالم طبعا ومبيعا بعد الإنجيل، وقد ترجمه إلى العربية عن الإنجليزية واحد من أكثر أدبائنا تواضعا وبراعة هو علاء أديب.

وطبقا للأسطورة فإن لوتسو هجر الحياة كلها ورفض أن يسجل الحكمة يأسا من أحوال الناس وشرورهم وانطلق وحيدا مع حماره، لكن حراس الحدود أجبروه على تسجيل كلماته قبل أن يمضي.. ثم جمعوا هذه الكلمات، فكانت الحكمة الآسيوية التي يطلقون في أفغانستان المدافع عن تراثها المنحوت في الجبال.

وحسب تفسير علاء الديب فإن هذه الفلسفة التي لا نعرفها هي فلسفة إنسانية بسيطة تدعو كل مؤمن بها (أن يقبل ما هو أمامه).. وتطالبه بأن (يقابل الجميع بوجه واحد دون تفرقة أو تميز، وأن يعامل كل الناس بالمساواة).. وتقول له: إن العقل المستقر المفتوح هو

وحده الذي يعكس الحقيقة.. هذه هي الخلاصة لكن التفاصيل تجعلنا نفهم أكثر، ونستوعب أكثر.

.. تجرد من الرغبة حتى لا تعاني المجهول.. الفقر والغنى ينبعان من نفس المصدر، والصعوبة والسهولة يكمل كل منهما الآخر والأمام والخلف يتبع كل منهما الآخر، عدم استعراض المواهب بمنع المشاحنة، عدم جمع الكنوز يمنع السرقة، الامتناع عن رؤية الأشياء المشتهاة يمنع ارتباك القلب. في السكن كن قريبا من الأرض، في التأمل كن عميقا في القلب، في التعامل مع الناس كن رقيقا، في الحديث كن صادقا، في الحكم كن عادلا، في العمل كن دقيقا، الألوان الخمسة تعمي العين، الأصوات الخمسة تصم الأذن، الأحاسيس الخمسة تفسد الذوق، التسابق والقنص يذهبان العقل، الأشياء الثمينة تقود المرد إلى الضلال. أحب العالم كأنه نفسك، من لا يثق لا يوثق فيه، انبذوا الشطارة واحتقروا المكسب يختفي اللصوص والنصابون، تخلي تتفوق، أفرغ نفسك تمتلئ أرض بالقليل تصبح غنيا، أعرف الأبيض لكن احتفظ بالأسود، أعرف الكبرياء لكن اعتصم بالتواضع، حقق النتائج لكن لا تتشدق ولا تتفاخر، حقق النتائج لأن هذه هي طبيعة الحياة، معرفة الآخرين حكمة، معرفة النفس اكتشاف، قيادة الآخرين تتطلب قوة، قيادة النفس تتطلب قدرة.

الذي ينكمش لابد أولا أن يتمدد، هذا الذي ينهار لابد أنه كان ميتا من قبل، ما يطرح أرضا لابد أنه كان مرفوعا من قبل، قبل الأخذ لابد أن يكون العطاء، الرجل الطيب حقا لا يلتفت إلى طيبته، صفاء السماء يمنع سقوطها، صلابة الأرض تمنع تشققها، قوة الروح تمنع استهلاكها، الخطيئة الكبرى هذه الرغبة، اللعنة الكبرى هي عدم القناعة، سوء الحظ الأكبر هو الرغبة في الحصول على الأشياء، من يعرف أن الكفاية كفاية يحصل دائما على ما يكفيه، إنني طيب مع الطيبين، وأنا طيب مع الطيبين لأن الفضيلة هي الطيبة، ثق في الرجال المخلصين، وثق أكثر في الرجال غير المخلصين لأن الفضيلة في الأخلاق، احتفظ بفمك مغلقا وراقب حواسك تجد الحياة مليئة، افتح فمك وكن دائما مشغولا لا تجد في الحياة أملا.. عندما يكون بلاط الحاكم غارقا في الفخامة فإن الحقول تغطيها الحشائش والأعشاب وتفرغ المخازن من الحبوب ويرتدي بعض الناس ملابس مزركشة ويحملون أسلحة حادة ويملأون بطونهم بالطعام والشراب وتصبح ممتلكاتهم أكثر مما يستعملون.. هؤلاء هم السادة اللصوص، عندما يزيد التعصب لا يمكن أن ترى الله، ستسود الدنيا في عينيك برغم أنك تتصور أن الشمس مشرقة، ساعتها ستحطم ما حولك دون أن تدرك أنك في الحقيقة تحطم نفسك).

والحكمة الأخيرة هي بالقطع موجهة إلى السلطة الحاكمة في أفغانستان تعليقا على ما فعلته هناك.

لقد قصدت من تلخيص بعض النصوص الآسيوية المقدمة أن أغير ولو بعض الملامح البسيطة في الصورة الخاطئة التي نرثها غيبيا عن أولئك البشر الذي لا يعبدون ما نعبد، ولا يؤمنون بما نؤمن به، أن لهم دينهم ومعتقداتهم وأخلاقياتهم وتصوراتهم للدنيا والدين.. إنهم ليسوا كما نعتقد، وقد شيدوا حضارة عريقة، ويسهمون في الحضارة الحديثة، ربما أكثر مما نسهم نحن، فلا مبرر للتعالي عليهم، أما الثواب والعقاب فهي مسألة في يد الله.

ولا أنسى يوم دخلت معبدا بوذيا في اليابان وكان مخصصا لجرحى الحب!. كان هناك تمثال من الذهب الخالص محلى بالياقوت الأحمر، يتوقف عنده الزوار من جميع أنحاء العالم، وهم يبتسمون، فجراح الحب لا يقدر عليها كل تماثيل الأرض، وعندما سألت راهب المعبد عن حكاية هذا التمثال قال: إنهم أرادوا من ورائه أن يبتسم الناس هذه الابتسامة التي تشفي القلب، وابتسمت مرتين، وجاءت طفلة صغيرة تضع يدها على التمثال، لعلها تحصل على جرعة الدواء قبل أن تصاب بمرض الحب، ووجدتني ابتسم للمرة الثالثة، فلا أنا كفرت بهذه الابتسامة، ولا أنا أشركت بالله، ولو كان هذا التمثال في أفغانستان وحطمته حركة طالبان فكم ابتسامة للقلب خسرتها البشرية في كل لحظة؟!!

أن أصحاب العقول في راحة، والعاجزون عن الإضافة إلى الدنيا لا يجدون أمامهم سوى الخصم منها، والذين لا يقدرون على اقتحام المستقبل لا يتشطرون إلا على التاريخ.. والذين يصرون على الغياب بن يجدوا فرصة واحدة للحضور، ولو سمعنا كل الفتاوى واستجبنا لكل المجانين لحطمنا كل الحضارات، وكسرنا كل الجسور الممتدة بيننا وبين الماضي، ثم أطلقنا النار على أنفسنا في النهاية، أستغفر الله العظيم.

النموذج الأفغاني المرشح للتعميم

.. وفجأة تحدث وقاعة ١١ سبتمبر ليبدأ على الفور الغزو الأمريكي الساحق على أفغانستان في نوفمبر ٢٠٠١ مما دعا فهمي هويدي للتعليق على ذلك في أهرام ١٥ أكتوبر ٢٠٠٢ حين انفتحت شهية الإمبراطورية الأمريكية إلى سحق دول أخرى إسلامية بالطبع.. فكتب يقول:

.. هي مفارقة لا تخلو من سخرية، أن على ما حدث تكون الخبرة الأفغانية في مرحلتها "الطالبانية" نموذجا لما يتعين رفضه، ثم تدور دورة الزمن لتصبح الخبرة الأفغانية في إسقاط نظام طالبان نموذجا يراد تعميمه. ذلك أنك إذا فتشت في خلفية أصوات دعاة الإمبراطورية الأمريكية الذين ينادون بتغيير أنظمة المنطقة المتهمة بالمروق أو العقوق، فستجد خبرة التجربة الأفغانية كامنة هناك، وقد لا تحتاج إلى بذل جهد في عملية التفتيش،

لأنك إذا ما قرأت التحليلات والتعليقات الأمريكية التي تنتشر في تأييد الحملة العسكرية على العراق، فستجد دائما إحالة إلى مرجعية الحالة الأفغانية، واستدلالا لا يخلو من اعتداء وزهو بما تحقق هناك من نجاحات.

ولما كنت أحد شهود الحدث الأفغاني وأتيح لي أن أتابع تطوراته المختلفة خصوصا في المرحلتين الطالبانية وما بعدها؛ حيث قمت بزيارة لأفغانستان هذا العام، كانت أخرهما قبل أسبوعين، فربما سمح لي ذلك بأن أقدم شهادتي في صدد ما يجري هناك، على الأقل من باب العلم والإحاطة بالنموذج الذي يراد تعميمه.

يوم وصلت إلى كابول كان التوتر والقلق يخيمان على المدينة، مل استغرب حين علمت لاحقا أن حالة الطوارئ القصوى معلنة في العاصمة، فقد كان وصولي بعد ٢٤ساعة من وقوع حادثين جسيمين في يوم واحد صدما الجميع، الأول كان تفجيرا لعبوة ناسفة في سوق كابول، أدى إلى مصرع ٥٠شخصا وإصابة ١٥٠ بجراح متفاوتة، والثاني كان محاولة لاغتيال رئيس الدولة السيد حامد كرزاي في قندهار، الانفجار الأول هز بقوته العاصمة حقا، لكنه أيضا هز صورة النظام الجديد وجرح هيبته، باعتبار أن المدينة لم تشهد له مثيلا حتى في ظل نظام طالبان، أما الثاني فقد هز مكانة رئيس الدولة وجرح صورته، ذلك أنه ما كان يخطر على بال أحد أن يكون الرجل أهم رمز بشتوني في الحكم، ثم يتعرض لمحاولة القتل في قلعة البشتون وعاصمتهم التاريخية.

كنت قد تلقيت أول جرعة من التوتر في الطائرة الأفغانية التي ركبتها من دبي؛ حيث علمت أنها مستأجرة من شركة خاصة، وأن شركة الطيران الأفغانية "أيريانا" ليس لديها سوى طائرة واحدة صالحة للتشغيل، وأن الطائرتين تعملان ليل نهار على الخطوط الدولية والداخلية، وتستخدمان لنقل الركاب والبضائع، الأمر الذي يجعلها في حالة إنهاك مستمر، بحيث إن أي تراخ خطأ في الصيانة التي يجب أن تستمر على مدار الساعة لابد أن تكون له عواقبه الوخيمة.

هذه المعلومات سمعتها من جار لي، اكتشف أنه مهندس الطائرة الذي لازمها في كل ذهاب وإياب لإنقاذ الموقف عند حدوث أي طارئ، تماما كما يلازم الطبيب مريضا في غرفة الإنعاش،وإذ شاءت المقادير أن أتلقى ذلك التقرير والطائرة معلقة بين الأرض والسماء، فلك أن تتصور "السيناريوهات" التي ظلت تتابع في مخيلتي طوال الوقت، خصوصا حين تهتز بعنف إثر مرورها ببعض "المطبات" الهوائية، ثم لك أن تتصور مقدار عمق النفس الذي أخذته. وحالة الاسترخاء التي حلت بي فجأة حين أعلن المضيف علينا نبأ استعداد الطائرة للهبوط في مطار كابول، غير أن الشعور بالارتياح لم يلبث أن تراجع حين ألقيت نظرة على

أرض المطار، وانتباني شعور بأنني في الطريق إلى ساحة حرب وليس إلى مطار مدني، فثمة أشلاء طائرات مدمرة منثورة في جانب، ومتاريس رملية عالية تظهر وراءها خوذات جنـــود القوات الدولية في جانب آخر، وبين هذا وذاك تتراءى الحفر التـــي قـــصد بهـــا أن تخـــرب الممرات، ولا تزال شاهدة على سنوات الاقتتال المرير والمجنون بين الأخوة الأعداء.

ليست هذه كابول التي أعرف، نعم رأيتها في عام ٧٩وديعة وهادئة تتمدد فـــي تـــراخ وكسل، ولكني في زياراتي اللاحقة ما رأيتها إلا مستسلمة للحـــزن ومـــصلوبة علـــى مـــذبح الانكسار، وجدت الحزن ممتزجا بالذهول في شهر يناير الماضي، بعد سقوط نظام وحكومـــة طالبان، وتولى الطاجيك للسلطة في البلد الذي كان محكوما دائما بالأغلبية البشتونية. ليس ذلك فحسب وإنما جاء الطاجيك مصحوبين بالأمريكان والإنجليز والفرنسيين والألمان وغيرهم من عساكر حلفاء الغرب، وأدرك أهل كابول أن مدينتهم التي ظلت مغلقة الأبواب والنوافذ طيلـــة السنوات الخمس التي استغرقها حكم طالبان، قد تحولت إلى مدينة بلا أبواب مفتوحة ومكشوفة لكل من هب ودب من الناس.

هذه المرة، أنضاف إلى كل ما سبق إنشداد الأعصاب وتوترها، إذ لفت انتبـــاهي فـــي الطريق إلى الفندق كثرة الحواجز الأسمنتية، وتعدد عمليات تفتيش السيارات العـــابرة الأمـــر الذي أدى إلى إرباك المرور وتكدس السيارات في الشوارع، وقد اكتشفت لاحقا أن التفتـــيش والحواجز على طريق المطار أهون منه كثيرا في وسط البلد، خصوصا في الشوارع القريبـــة من السفارات الغربية، التي يظن أنها مستهدفة.

لم يكن الأمر كذلك في شهر يناير الماضي. إذا كان واضـــحا أن العاصـــمة هادئـــة ومؤمنة بصورة نسبية، سواء بسبب ما حل بالناس من إنهاك وتعب وخوف، أو بسبب كثافـــة وجود القوات الدولية على أرضها والطائرات الأمريكيـــة فـــي ســـمائها. أمـــا الإضـــرابات والاشتباكات فكانت مستمرة خارجها، حتى كان البعض يتندر آنذاك قائلين أن كرازي رئـــيس في (مملكة كابول فقط وإنه يسعى إلى تحسين علاقاته مع الممالك الشقيقة الأخرى فـــي بـــلاد الأفغان).

الانفجار الكبير الذي وقع قبل ٢٤ساعة من وصولي كان التاسع من نوعه الذي شهدته العاصمة خلال عشرة أيام، الأمر الذي أصاب الحكومة بالذعر قبل الناس، لأن الاعتقاد الـــذي كان سائدا أن عناصر حركة طالبان وتنظيم القاعدة تلقوا ضـــربات قاصـــمة وســـاحقة فـــي العاصمة، وأنهم طوردوا خارجها ولوحقوا فردا فردا، وتم القضاء علـــى تجمعـــاتهم وتـــدمير أسلحتهم وذخيرتهم، بواسطة الأسلحة والقذائف الأمريكية الفتاكة. ورغم كل ذلك فظاهر الأمر أن الأمن لم يستتب بعد في العاصمة.

حين حمل بعض المسئولين في الحكومة حركة طالبان وتنظيم القاعدة المسئولية عن انفجارات العاصمة، فإن ذلك زاد من قلق الناس ولم يطمئنهم ولأنه لم يلق القبض على أحد، ولم يتم العثور على أي دليل يكشف عن هوية الفاعلين فقط صار بوسع كل أحد أن يتهم أي أحد – فمن قائل إن طالبان وراء عمليات التفجير، وقائل إن طالبان لم يعد بوسعها أن تمارس نشاطا في العاصمة، في ظل الوجود الأمني المكثف بها، وأن الفاعلين هم تجمعات بتشونية أخرى غير معروفة رافضة هيمنة الطاجيك والأمريكان، وقائل أن الأمر لا يخرج عن كونه صراعا بين أجهزة الأمن في الحكومة حول الصلاحيات، وأن عناصر في أحد تلك الأجهزة أرادت أن تثبت عجز وفشل الجهاز المهيمن في الحفاظ على الأمن. وآخرون اتهموا دولا أجنبية (باكستان هي المقصودة) بأنها تسعى من خلال عملائها إلى زعزعة أركان النظام القائم الذي لا يدين بالولاء لها. وهناك من ذهب إلى أن الأمريكان هم وراء ما جرى، لأنه ارتفاع بعد الأصوات الداعية إلى إخراجهم من البلاد، فإن افتعال التفجيرات يغدو إعلانا عن استمرار الخطر، ومن ثم تأكيد ضرورة استمرار الوجود الأمريكي، الذي بغيره يسقط النظام.

كل هذه الاحتمالات واردة، كما أنها جميعا لا دليل ماديا عليها، وغير مؤكدة. لكن المقطوع به أن شبح الخوف عاد يطل برأسه مرة أخرى في كابول بعد طول غياب. وبعد محاولة قتل رئيس الدولة في قندهار وبعد أن قتل في قلب العاصمة نائب رئيس الوزراء الحاج عبد القادر في أثناء خروجه من مكتبه، وقبله قتل وزير الحج في مطار كابول، فإن كل مسئول في الحكومة أصبح لا يعرف إذا ما خرج من بيته ما إذا كان سيعود إليه سالما أم لا.

لفت نظري أحد الخبراء إلى أن المتاريس الموضوعة في الشوارع، خصوصا في قلب المدينة وقرب مبانيها الحيوية لا تعتمد على أكياس الرمل كما هو المتعارف عليه، ولكنها عبارة عن كتل أسمنتية أسطوانية صبت فوق الأرض. والأولى – أكياس الرمل – تحمي من إطلاق النار، أم الثانية فهي تعوق حركة الآليات. انتبهت إلى أن تلك الكتل الأسمنتية لم تكن موجودة في شهر يناير الماضي، وسألت محدثي عن تفسيره لظهورها في العاصمة في الآونة الأخيرة. فأعاد على مسامعي التذكير بأن أكياس الرمل تنصب تحسبا للاشتباكات التي قد يتخللها إطلاق النار، أما الكتل الأسمنتية التي تعترض شوارع المناطق الحيوية فإنها توضع لتعويق تقدم الدبابات، لم أفهم المقصود بالضبط فطلبت إيضاحا، حينئذ قال بصوت أقرب إلى الهمس إن تلك الكتل موضوعة تحسبا لاحتمالات حدوث انقلاب!

لاحظ صاحبنا الخبير دهشتي، فأضاف أن ثمة صراعا داخل الحكومة، وأن الجنرال محمد فهيم نائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع وأهم شخصية طاجيكية في النظام ليس على وفاق مع رئيس الدولة حامد كرزاي، وأن الثقة المتبادلة بين الرجلين ضعف إلى حد كبير في

ألأشهر الأخيرة، ودلل على ذلك بملاحظتين دالتين، الأولى قرار كرازاي الاستغناء عن حراسة الطاجيك من أبناء وادي بنشير واستبدالهم بحراس أمريكيين، الأمر الذي أغضب الجنرال فهيم – هو أيضا من وادي بنشير – وآثار استياءه، رغم أنه استفاد أدبيا من تمسك كرازاي بالحماية الأمريكية على ذلك النحو المكشوف.

الملاحظة الثانية أن صحيفة "بايام مجاهد" – معناها رسالة الجهاد – الناطقة باسم التحالف الشمالي نشرت في عدد ٩/٢٣ افتتاحية هاجمت فيها الرئيس كرازاي بشدة حيث انتقدت احتماءه بالحراس الأمريكيين، وقالت صراحة أنه ما لم يغير سياساته فإنه سيعرض البلاد لمخاطر جمة تقودها إلى مزيد من الظلام. وكانت تلك هي المرة الأولى التي تعلن فيها دوائر التحالف الشمالي نقدا بهذه الحدة له.

مثل هذه المؤشرات التي ظهرت على السطح في الأسابيع الأخيرة جاءت دالة على أن ثمة انقساما داخل الحكومة، قيل لي إن له أسبابا عدة، في المقدمة منها سياسة وتوجيهات النظام الجديد والوجود الأمريكي في البلاد – إزاء ذلك فقد خشيت الأطراف التي تدير اللعبة أن يطيح الجنرال فهبم المهيمن على القوات المسلحة بالرئيس الذي جاء به الأمريكيون وأصبحوا يقومون بدور "الكفيل" له في العلن.

كما أن صحف الصباح في بلادنا لا تكاد تخلو كل يوم تقريبا من أخبار الاقتتال في أفغانستان، فلا غرابة أن يكون ذلك الاقتتال محور الحديث اليومي في أمسيات كابول، التي تصب فيها مختلف التقارير والشائعات.

حين راجعت الملاحظات التي دونتها بهذا الصدد في نهاية الأسبوع الذي أمضيته هناك، وجدت أن أفغانستان أصبحت أقرب ما تكون إلى حقل ألغام كبير، عجزت الحكومة عن إبطال مفعولها، بالتالي فإن ما لم يتفجر منها يصبح مرشحا للانفجار في أي وقت فثمة قتال لا يزال يدور بين القوات الأمريكية الخاصة وبين فلول تنظيم القاعدة وطالبان، التي يقال أن قياداتها وعناصرها مازالت محتمية بالجبال الشاهقة والقبائل المنتشرة على الحدود بين افغانستان والأوزبك وصراع آخر مكتوم داخل صفوف الطاجيك الذي أثار استياءهم تفرد البنشيريين (أبناء وادي بنشير) بالسلطة، وحجبهم بقية القبائل الطاجيكية، وهناك صراع بين الموالين للجنرال محمد فيهم من جهة والموالين للرئيس حامد كرازاي من جهة ثانية وهناك ولايات أصبحت شبه مستقلة عن السلطة التي لم تستطع أن تبسط عليها نفوذها، كما هو الحال في ولاية بلخ الأوزبكية وعاصمتها مزار شريف، التي يحكمها إسماعيل خان، وهناك تحرشات مستمرة بين حاكمي هيرات وقندهار بسبب التسابق على بسط النفوذ على بعض المواقع الإستراتيجية بين الولايتين أما ولايات الجنوب والشرق البشتونية الأكثر تعاطفا مع

حركة طالبان، فإن تمردها على الحكومة المحسوبة على الطاجيك مستمر، والاشتباكات فيها لم تهدأ منذ سقط نظام طالبان في شهر نوفمبر من العام الماضي.

حين ينقل المرء هذه النزاعات على خريطة أفغانستان، فسيجد أن الهدوء النسبي لا يكاد يتجاوز ولايات أقاصي الشمال والوسط، التي تحتل ما يوازي ٣٠% من مساحة البلد تقريبا. أما الاضطرابات فإنها مستمرة في جزء من الشمال، وفي الشرق والغرب والجنوب، التي تمثل الـ٧٠% المتبقية، من هذه الزاوية فبوسعنا أن نقول بأن الموقف الأمني كان أفضل في ظل حكم طالبان؛ حيث كانت قوات التحالف الشمالي تسيطر على ٥ أو ٦% من الرقعة الأفغانية، بينما كان الهدوء سائدا في بقية أنحاء البلاد. حتى إذا قلت أن الوضع من الناحية الأمنية كان سيئا في عهد طالبان، فلن تستطيع إلا أن تقرر بأنه أصبح أسوأ الآن.

في لقاء مع البروفيسور برهان الدين رباني رئيس الجمهورية السابق أثرت موضوع السلام والاستقرار في أفغانستان، وسألته عن حل الأشكال الذي يتفاقم بمضي الوقت، فكان رأيه أن إعادة السلام إلى البلاد يتطلب وقتا، "لأن الجراح عميقة والعقد كثيرة" لكنه أضاف أن الوضع الراهن لا يساعد على تحقيق السلام المنشود ولا يختصر رحلته. سألته لماذا؟ فقال: أن البعض يظن بأن وجود القوات الدولية والأمريكية يشكل ضمانا لتحقيق الاستقرار وإعادة السلام، وهذا غير كاف، فضلا عن أنه بمضي الوقت أصبح عنصرا مهددا للاستقرار والسلام، أولا لأن الوجود بحد ذاته أصبح مصدرا لاستفزاز كثيرين في البلاد وجرح كبريائهم، وثانيا لكثرة الأخطاء التي يرتكبها الأمريكيون في قصفهم العشوائي لتجمعات المدنيين وقراهم، وهو ما أدى إلى تأليب القبائل عليهم ونقمتهم على تصرفاتهم.

مجلة "نيوزويك" في عددها الأخير الصادر في ٢٠٠٢/١٠/٨ سجلت نفس الملاحظة، وذكرت أن عناصر القوات الخاصة يتصرفون مثل رعاة البقر الأغبياء في أفغانستان.

قال رباني (الوحيد) الذي يلقب بالأستاذ في أفغانستان) أن السلام له شرطان، الأول خروج القوات الأمريكية والدولية من البلاد، بعد أن أدت مهمتها، والثاني توفير الاطمئنان على الأوضاع السياسية في البلاد، من خلال وضع دستور، وإجراء انتخابات حرة لتشكيل مجلس نيابي وتشريعي، يفتح الطريق لمشاركة الجميع في تحمل المسئولية.

لكن هذين الشرطين يصعب تحقيقهما في الوقت الراهن، لأن الأمريكيين لا يريدون الخروج، ولا يريدون إجراء انتخابات حرة، خشية أن تسفر عن وضع يتعارض مع استمرارهم لذلك فإنهم يفضلون إبقاء الوضع كما هو عليه الآن، رغم ما يشوبه من قلق وتوتر.

حين قرأت بعد العودة أن السيد حامد كرزاي مرشح لنيل جائزة نوبل للسلام في أفغانستان قلت: إن عرض الفيلم الأمريكي لا يزال مستمرا.

ورطة الأمريكان في بلاد الأفغان

حين يعلن وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد أن القوات الأمريكية لن تغادر أفغانستان إلا إذا استقرت الأوضاع هناك، في حين يقول الرئيس الأفغاني الأسبق برهان الدين ربان إن أفغانستان لن تعرف الاستقرار إلا إذا خرج الأمريكان، فإن ذلك يعيدنا إلى سؤال البيضة والدجاجة، وأيهما قبل الأخرى، الأخطر من الإجابة على السؤال أن مجرد طرح يعني أن مبدأ وجود قوات أجنبية في بلد برغم أنف شعبه أصبح مسألة تحتمل تعدد الاجتهادات، وإذ أسجل هاتين الملاحظتين، فإنني أزعم أنه من المفيد قبل أي مناقشة لهما أن تعرف ما الذي يفعله الأمريكيون هناك؟

كان الرئيس حامد كارازاي هو المتحدث الرئيسي في افتتاح المؤتمر الذي أقيم بمناسبة حلول الذكرى الأولى لوفاة القائد الشهير أحمد شاه مسعود (يوم ٩/٧ الماضي).. وحين دخل إلى القاعة كان يحيط به أربعة من الجنود الأمريكيين الذين ارتدوا ثيابهم العسكرية ووضعوا على عيونهم نضارات سوداء، وفي أذانهم سماعات موصولة بناقل للصوت أمام الفم، في حين كان كل واحد منهم قابضا بيديه على مدفع رشاش صغير الحجم، وقد علق على كتفيه، وتدلت من خطره أشياء لم أستطع التعرف عليها عن بعد، لكنني استنتجت أنها أسلحة تكميلية من مستلزمات أداء واجب الحراسة (قيل لي إن جندي القوات الخاصة يحمل معه حين ينطلق لأداء مهمته ما متوسطه ١٥ سلاحا مختلفا) – وقف جنديان وراءه على المنصة، بينما وقف الاثنان الآخران أمام بابين متقابلين الذي دخل منه، والذي سيخرج منه، وبرغم لم تكن المرة الأولى التي يظهر فيها الرئيس الأفغاني أمام حشد من الناس، وهو حماط بالحراس الأمريكيين فإنني لاحظت أن بعض الجالسين حولي تبادلوا النظرات لحظة الدخول وهزوا رءوسهم في صمت، لكن أحدهم ما لبث أن ارتسمت على وجهه ابتسامة باهتة، وتحدث ببعض كلمات في أذن جاره، حين أشار الرئيس كرازاي في بداية حديث إلى أسفه لغياب الشهيد مسعود عن مشهد "تحرر" أفغانستان، وإذا التقط مرافقي الكلمات التي قالها صاحبنا، فإنه بدوره مال على أذني وقال هامسا: لا يعجبه كلام كرازاي عن تحرير البلاد بينما هو لا يتحرك إلا في حراسة الأمريكان.

لا يستطيع المرء أن يدرك حجم الدوى الذي أحدثه قرار الرئيس الأفغاني الاستعانة بحراس الأمريكان إلا إذا استمع إلى تعليقات الناس العاديين في كابول حول الموضوع. والتي

تمتزج فيها الدهشة بالسخرية، أن هذا الموضوع كان أحد أسباب الخلاف بين كرازي ونائبه وزير الدفاع الجنرال محمد فهيم، الذي لم يكن وحده، ولكن بعضا من قادة التحالف اعتبروا هذه الخطوة بمثابة إهانة للدولة ولجيشها ولجهازه الأمني، وللرئيس ذاته، وقال لي أحد أبرز قادة التحالف، الشيخ عبد الرسول سياف زعيم الاتحاد الإسلامي إنها أكثر من إهانة، إنها صفعة وفضيحة، وبمرارة قال الرئيس الأسبق برهان الدين رباني أنه عاجز عن تصديق المشهد، ولم يتصور يوما أن يكون الأمريكيون هم الذين يحددون للرئيس الأفغاني الأماكن التي يستطيع أن يذهب إليها، وتلك التي عليه أن يتجنبها، وهم الذين يحددون له أي طريق يسلك، وأين يتعين عليه أن ينان.

أكثر من ذلك، فإن الوزراء الذين يذهبون إلى مكتب الرئيس أو يذهبون للمشاركة في الاجتماعات التي تعقد برئاسته يصادفون على بابه بعض أولئك الحراس، الذين يصطحبون معهم كلابا بوليسية تشم حقائبهم، وهم يهمون بالدخول، وحين كانت هناك كان اللغط لا يزال يدور حول حفل الاستقبال الذي أقامه كرازاي للرئيس ألإيراني السيد محمد خاتيم، وكان الحراس الأمريكيون هناك، في حين ظلت كلابهم البوليسية تمارس فضولها، وهي تتجول في أرجاء حديقة القصر الرئاسي الذي أقيم فيه الاحتفال، على نحو فاجأ الجميع وأثار استياءهم.

أطرق الشيخ سياف برأسه لحظة حين فتحت معه الموضوع، ثم قال إن الأمر بات مخجلا حقا، فنحن وإخواننا لم نحارب طيلة أكثر من عشرين عاما، حتى تكون هذه هي النهايى، فنحكم وتدار شئون بلدنا بواسطة اثنين: المندوب السامي الأمريكي (قصد زلماني خليل الأمريكي ذا الأصل الأفغاني الذي يعمل مستشارا للبيت الأبيض، ومكلفا بملف أفغانستان). ثم ممثل الأمين العام للأمم المتحدة (الأخضر الإبراهيمي) الذي لا يستطيع أن يتجاوز الخطوط التي رسمها الأمريكيون، فالاثنان رتبا اختيار أعضاء في بون، ثم أخيرا في كابول، وهما اللذان حسما أمر اختيار أعضاء اللويا جيركا، وحدود جدول أعماله، وقررا إنهاء جلسات اجتماع ممثلي الشعب الأفغاني، وهما اللذان أجلا مناقشة موضوع الدستور، وإجراء الانتخابات التشريعية، لكيلا يكون للشعب صوت في إدارة شئون بلده.

وهو يعلق على ما جرى، قال إننا لا نعرف ما يرتب لمستقبلنا، لكن الذي لا أشك فيه أن هناك أشياء كثيرة تتم من وراء ظهورنا، ونفاجأ بها بين الحين والآخر، وحين سألته عما إذا كان بذلك يعني شيئا آخر غير الذي جرى في اجتماعات بون، قال: سأروي لك طرفا مما صادفناه حين دخلنا إلى كابول في شهر نوفمبر الماضي، فقد كان هناك أناس من أركان حركة طالبان لا يزالون موجودين في ضواحي المدينة، لهم سجلهم المشهود في ممارسة القمع والهجوم على قواتنا. وكان علينا بعد الدخول أن نلاحقهم ونعتقلهم شأنهم في ذلك شأن غيرهم،

أو عند الحد الأدنى نجردهم من السلاح، غير أننا فوجئنا وذهلنا لأمرين: الأول أن الأمريكيين طلبوا منا أن نترك بعضهم، وشأنه، فلا نحاول ملاحقتهم باعتبارهم من "أصدقائهم" المتعاونين معهم، وأحد هؤلاء لا يزال مقيما إلى الآن في منطقة "وردك" وقد أقام أخيرا احتفالا كبيرا بمناسبة زواج ابنه، حضره مندوب من السفارة الأمريكية!

الأمر الثاني الذي فوجئنا به أن مندوبا عن المخابرات البريطانية ذهب إلى سفارتنا في لندن، والتقى أحد مسئوليها؛ حيث حدثه بشأن تأمين سلامة أحد القادرة الذين كانوا ضمن أركان طالبان، باعتبار أن أمره يهم الأجهزة البريطانية المعنية بالمنطقة، وقد نقلت إلينا الرسالة في حينها، ولا يزال القيادي الطالباني طليقا حتى الآن.

كنت قد تابعت عبر الإذاعات تصريحات مستشارة الأمن القومي الأمريكي كوندوليزا رايس، التي قالت فيها إن الولايات المتحدة ستلقى بكل ثقلها لإعادة تعمير العراق، بعد سقوط نظامه، وهو ما شجعني على محاولة تحري ما حدث في أفغانستان على ذلك الصعيد. خصوصا أن التصريحات الأمريكية في بداية الحملة العسكرية الأمريكية على أفغانستان تبنت نفس الأفكار، ربما بنفس الصياغة والمفردات، بحيث لم يتغير فيها سوى أسم المكان، وقد أسفرت عملية البحث عن المعلومات التالي:

لم تقدم الولايات المتحدة شيئا لإعمار أفغانستان، ومساعداتها اقتصرت على المساعدات التي تلقاها الجيش وأجهزة الأمن، أما الإعمار فقد تركته لما سمى "الدول المانحة"، وهي الدول التي شجعتها أمريكا على تقديم المساعدات المالية لنظام كابول، أو تلك التي بادرت من جانبها إلى ذلك لسبب أو لآخر.

ما قدمته الدول المانحة، التي اشتد حماسها في البداية ثم تراخى نسبيا بعد ذلك (كانت قد وعدت بمليار و٨٠٠ مليون دولار، ولم تتلق أفغانستان سوى ٨٥٠ مليون دولار فقط). والتمويل الذي قدم إما استخدم في تغطية أنشطة منظمات الأمم المتحدة أو وزع على الجمعيات الأهلية، أما الحكومة الأفغانية، فإنها لا تتقاضى سوى ما يغطي رواتب موظفيها، وفي المقدمة منهم رئيس الدولة والوزراء.

يقول المسئولون الأفغان إن ما بين ٦٠ و٧٠% من الموارد المالية التي تقدمها الدول المانحة تستهلك في تغطية النفقات الإدارية لموظفي الأمم المتحدة والجمعيات الأهلية، وللأمم المتحدة هناك نحو أربعة آلاف موظف، يتقاضى بعضهم رواتب تصل إلى ٧ و٩ آلاف دولار في الشهر، ويستأجرون مباني ومكاتب فاخرة هم وممثلو الجمعيات الأهلية، كما أنهم يقتنون سيارات جيب من أحد الطرازات اليابانية وأغلاها ثمنا.

النتيجة أن الإعمار يتحرك ببطء شديد للغاية، ليس فقط بسبب كم الخراب الموجـود، ولكن أيضا بسبب شح الموارد التي تصرف في هذا الاتجاه، وبسبب من ذلك فإن تطورا طفيفا للغاية طرأ على المشهد الأفغاني من هذه الزاوية خلال الأشهر العشرة الأخيرة.

والنتيجة الأخرى الأسوأ أنه إزاء تدهور الأوضاع الاقتصادية فإن كثيرين عادوا على زراعة الحشيش والأفيون، وهي العملية التي كانت قد تراجعت كثيرا في أواخر حكم طالبان، حتى عادت أفغانستان الآن مرة أخرى كأحد المصادر المهمة لزراعة المخدرات.

الخلاصة التي يخرج بها المرء من متابعته للمشهد الأفغاني فـي هـذه الزاويـة أن الاهتمام الدولي بشكل عام والأمريكي بوجه خاص، موجه في أفغانستان نحو الوضع الأمنـي والشق السياسي، أما ما هو اجتماعي واقتصادي وإنساني، فلا يبدو أن هناك جهة معنية بـه، وهو أمر يمكن أن يسفر عن أوضاع كارثية مع قدوم فصل الشتاء.

ليس مستغربا والأمر كذلك أن يبدأ التململ في الظهور في أوساط النخبة الأفغانية، بل وفي داخل بعض قيادات التحالف ذاته، الذي يضم شرائح من المناضلين المخلصين الذين بدأوا يتساءلون: إلى متى ستظل أفغانستان تحت الوصاية الأمريكية؟ – وما قاله الأستاذ رباني فـي هذا الصدد لا يختلف كثيرا عما يقوله الشيخ سياف، وما يهمس بـه بعـض المـسئولين فـي الحكومة ذاتها.

حين حاولت البحث عن إجابة السؤال وجدت أن كثيرين يقولـون أن الأمـريكيين لا يعتزمون الرحل من أجل المنظور، وأن مدة بقائهم يقدر لها أن تستمر ما بين عشر وعشرين سنة، وحين سألت عن الأساس الذي بنى عليه ذلك التقدير، كـان الـرد أن بعـض أعـضاء الكونجرس الأمريكي صرحوا للصحفيين بذلك في أثناء زيارة قاموا بها قبل حـين للعاصـمة الأفغانية، وأضاف آخرون أن الكلام تؤيده طبيعة المنشآت الضخمة التي يقيمها الأمريكيون في قاعدة بجرام العسكرية، التي تبعد نحو ٥٠ كيلو مترا عن كـابول، ويمنـع علـى الأفغـان والأجانب الاقتراب منها.

ليس هذا فقط وإنما يتحدث الدبلوماسيون والمطلعون على ما يجري في الكواليس عن مساع أمريكية لنشر قوات لهم في ولاية "بدخشان" الطاجيكية المتاخمة للصين، بحجة متابعـة نشاط عناصر القاعدة وطالبان في حين أن الجميع يعرفون أن تلك العناصر لا يمكن أن تلجـأ إلى هذه المنطقة، لسبب جوهري هو أنها خاضعة بالكامل، حتى في عهد حكومـة طالبـان، لقيادة التحالف الشمالي، وليس هناك عاقل يمكن أن يتصور احتمال احتماء أو اختفاء عناصـر القاعدة وطالبان في ولاية يفترض أنها "معادية" لهم تماما، لـذلك فـالمرجح أن الأمـريكيين

يريدون بالموجود في تلك المنطقة أن يبعثوا برسالة إلى الصينيين، تعلمهم أنهم يقفون بالباب، كما أنهم يريدون أن يحولوا دون احتمال مساندة الصين لأيــة معارضـــة أفغانيـــة للوجـــود الأمريكي، وكانت بكين قد قامت بذلك الدور الذي كان فعـــالا، إبـــان الاحـــتلال الـــسوفيتي لأفغانستان، وهو الجهد المحجوب، والمسكوت عليه إلى الآن، في حين سلطت كل الأضـــواء على الدور الأمريكي في دعم مقاومة السوفييت.

من أنباء كابول أيضا في هذا الصدد أن القوات الأمريكية ترتب الآن وجودا آخر في ولاية هيرات، في بلدة "دوبوشتا" (التي تبعد بمسافة ٤٠ كيلو مترا عن الحدود مع إيران) وقد أقام الأمريكيون بالفعل ثكنة عسكرية هناك، وبثت وكالة رويترز تقريرا في ٢٠٠٢/٩/٢٤ أكد هذه المعلومات، وأضافت أن الأمريكيين بدأوا يفاوضون سكان بلدة دوبوشتا في شـــراء أرض بالمنطقة لكي يقيموا عليهما أبنيتهم، وترتيبات من ذلك القبيل حين تقوم بها الولايات المتحـــدة تجاه الصين أو إزاء غيران، وكل منهما له شأنه المعلوم، لا يقدم عليهـــا قـــوم عـــابرون أو راحلون، ولكنها جزء من الإعداد للبقاء الطويل في مناطق ما كان يحلم المخطط الإستراتيجي الأمريكي أن يبلغهما يوما.

لا تكاد ترى القوات الأمريكية في كابول؛ حيث الوجود المنظور مقصور على القوات الدولية التابعة للأمم المتحدة، التي تجوب سياراتها شوارع العاصمة طـــول الوقـــت، وتـــؤمن مواقعها الإستراتيجية لكن الوجود الأمريكي كله خارج العاصمة، ولأن القوات الدولية وجودها رمزي، وصلاحيتها محدود للغاية، فإن دورها له من التأثير الأدبي والمعنوي أكبر مما فيه من الدور العملي أو المادي، لذلك فإن وظيفة القوات الدولية في كابول هي أقرب ما تكـــون إلـــى مهمة "المحلل" الذي تحتمي به وتتخفى وراءه العمليات العسكرية التي تقـــوم بهـــا الولايـــات المتحدة خارج العاصمة من البر ومن الجو وبقدر ما أن أيدي القوات الدولية شبه مكبلـــة فـــي داخل كابول، فإن الأيدي الأمريكية مطلقة ومخولة في فعـــل أي شـــيء فـــي جميـــع أنحـــاء أفغانستان، فهي تقصف المواقع وتدك المغارات وتهدم القلاع وتحاصر القـــوى، وتقتـــل لأي شبهة، وتحتجز كل من تشك فيه، وكثيرا ما قصفت بيوتا وتجمعات، وقتلـــت عـــشرات مـــن البشر، بسبب أخطاء في التصويب أو في التبليغ.

ولأن نشاط الأمريكيين وعملياتهم يتركز خارج العاصمة فما تفعله يظل بعيـــدا عـــن الأعين، وما يصل من أفعالها وأخبارها إلى العاصمة، إما أنه يأتي متأخرا أو مبتسرا أو معدلا من جانب الحكومة، والأجهزة المعنية، الأصل أن القيادة الأمريكية تتحكم في الأخبار المذاعة، من ثم فليس كل ما يحدث يقال وينشر، لأن الحرص شديد في واشنطن على أن تخف للغايـــة جميع الأخبار المتعلقة بالخسائر الأمريكية في أفغانستان، لأن معرفة الحقيقة مـــن شـــأنها أن

تحدث أصداء سلبية لدى الرأي العام الأمريكي، الأمر الذي قد يؤثر بالسلب ليس فقــط علــى الحملة العسكرية في أفغانستان، ولكن أيضا على الحملة المفترضة على العــراق بــل علــى مستقبل الرئيس بوش ذاته.

حين كنت هناك كان الجميع يتحدثون عن إسقاط طائرتي هليكوبتر أمريكتين، ومقتــل تسعة من ركابها العسكريين، لكن الحادث تم التكتم عليه بسرعة. ولم تشر إليه وسائل الإعلام من قريب أو من بعيد وهذا الحادث ليس فريدا في بابه، برغم أن الخسائر فيه أكبر بــصورة نسبية من غيرها في حالات أخرى، ذلك أنه لا يكاد يمر أسبوع إلا ويقتل أو يخطف فيه جندي أمريكي أو أكثر، أو يحدث هجوم على موقع أو قافلة للقوات الأمريكيــة أو يكتــشف كمــين يستهدف الأمريكيين الأمر الذي لا يعرف في ظله إلى أي مدى يمكن احتمال وضع من ذلــك القبيل.

وهكذا امتد الشرخ بمآذن أفغانستان حتى وصــل إلــى الأســاس.. واختــرق كافــة الجدران.. فإلى أي حد سوف يصمد ويقاوم هذا الشرخ الرهيب.. الخطير.. ســؤال لابــد أن يلفت نظر الدول الإسلامية التي اخترقت مآذنها جميعا الشروخ وصارت على حافة السقوط.. ومع هذا ننتظر أملا وإنقاذا لا يبدو في الأفق المشحون بالافتراضات المتوحشة، الغادرة؟!!

ثانيًا: مسلمو آسيا الوسطى

مدخل:

حدث أن تمرد أهل بخارى على ميرهم (أمير نصر الساماني) فاعتزلهم الأمير، وغادر مدينته الجميلة، إلا أنهم سرعان ما أرسلوا إليه الوفود من كبار المشايخ والشخصيات، فاستقبلهم في قلعته البعيدة.. وبعد أن قدموا إليه اعتذاراتهم، فاجأهم أنه لن يعود إلى المدينة، تلك التي طعنته في الظهر بعد أن قدم إليها زهرة شبابه، فعادوا آسفين، إلا أن الوزير - بعد مشاورات واتصالات - استدعى أمير الشعراء (رودكي) وشرح له مخاطر غياب الأمير وطلب منه أن يتوجه إليه لعل قصيدة المنبعث من القلب يدفعه إلى تغيير رأيه.. وذهب (رودكي) الفاقد البصر منذ الطفولة، وعند أسوار القلعة النائية داعب أوتار ربابة وغنى.

(يا بخارى.. أبقى مسرورة

وعيني بفرحة الضيف الذي يأتي وأنت مضيفة أن الأمير هو القمر.. وبخارى سماؤه والقمر يتجه نحو السماء)!!

ولم يتمالك الأمير نفسه من أن يهتف: سأعود، سأعود، وعاد الأمير إلى بخارى ومعه شاعره (رودكي). ومع أصداء الشعر عدنا إلى تلك البلاد تستطلع أفقا لبلاد تبحث عن هويتها وشعب يتجه إلى جوهر روحه.

بداية الرحلة:

وفي البداية كان لابد من زيارة قلعة (أمير نصر السامالي) ومرقد (رودكي) السمرقندي لهذا تم الانطلاق نحو بخارى ومرو وسمرقند.. والدخول من بابها الخلفي المدمر في أفغانستان.. والوقوف على انقلاب طاجيكستان. حين كان هناك عربي يعمر مسجد (توضة باي) في طشقند. والدراويش يرقصون رقص الشوق في حلقات للأتراك.. وكان لابد من العودة بذاكرة التاريخ إلى شعوب بلاد التركستان.. التي كانت منبتا للأتراك.. ومنذ أن أشرقت شمس ألإسلام على ربوعها وأخرجت للدنيا دولا عظيمة تركت بصماتها في التاريخ.. وأنجبت قوادا وأبطالا خلدت أسماؤهم على مر الزمان وروادا بدور فعال في بناء صرح الحضارة الإسلامية.

غير أن عجلة الزمان قد انقلبت على شعوب هذه البلاد العريقة، فغزتها روسيا خلال القرن التاسع عشر والعشرين. ثم قامت بعد ذلك بتمزيق أواصرها بتقسيمها إلى جمهوريات،

وكان عماد هذا التقسيم الاختلاف في اللهجات، على الرغم أن هذه اللهجات تنتمي كلها إلى لغة واحدة، وحكمت هذه الجمهوريات حكما مباشرًا.

كما نفت الآلاف بل الملايين من أبناء هذه الشعوب إلى مجاهل سيبريا وجلبت الكثير من الروس الأوربيين إلى هذه البلاد للعيش وسط أبنائها، بعد أن غيرت حروف هجاء لغتهم إلى حروف الهجاء الروسية، وذلك من أجل قطع صلاتهم بماضيهم العريق، ثم سعت بعد ذلك إلى صهرهم في بوتقة الشيوعية.

نشأة تركستان

كانت تشكل بلاد تركستان جزء من جمهوريات الاتحاد السوفيتي، وعلى وجه التحديد جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية، وكانت هذه البلاد منبت الأتراك الذين شهدهم التاريخ على مر الزمان والعصور. وذلك قبل عصر التغيير والبيريسترويكا واستقلال العديد من بلاد تركستان.. وتمتد ساحة بلاد تركستان من بحر قزوين – بحر الخرز الآن – ونهر أورال غربا إلى سد الصين شرقا، ومن سيبريا ومنغوليا شمالا إلى إيران وأفغانستان جنوبا.

وينحدر أصل شعوب بلاد تركستان إلى (يافث بن نوح) عليه السلام، فهم من ذرية (ترك بن يافث). وكان (ترك) ولي عهد والده يافث. فسميت الأرض باسمة (تركستان) – وهي كلمة مركبة من كلمة ترك، وستان: تفيد في الفارسية معنى المكان أو الموطن.

ولما كثر الأبناء تفرقوا وأصبحوا شعوبا وقبائل فاشتهر منهم (أوزبك) و(أوغوز) و(مغول) و(قبحاق)، وكلهم منسوبون لأسماء سلاطينهم ورؤسائهم.

وقد انتشرت هذه القبائل في الصحراوات والغابات، واستوطنت المدن والأقاليم، واختلفت في معيشتها وطرق حياتها عن بعضها البعض.. كما كان من هذه القبائل (التتار) وهم قبائل رحل ينتقلون من مكان إلى آخر سعيا وراء المراعي لأغنامهم، وشاعت شهرتهم في عهد جنكيز خان.

أما أشهر قبائل تركستان المعروفة فهي:

– الأوزبك: وهم قوم يتكلمون باللغة التركية والفارسية، ويسكنون بخارى وما حولها وسمرقند مكتة وقورغان وديزح واورايتيه (استروش) وحصار وقرش ودوشنبه وما حولها.

– التاجيك: وهم قوم يتكلمون اللغة الفارسية، ويسكنون فجند وما حولها وسمرقند وبخارى وأورايثيه، وكان بادام وكاسان وجسته واسفره ودروان وخزار وبعض القرى الصغيرة.

- القيرغيز: وهم من الأتراك يسكنون الجبال ويرعون الماشية ويزرعون على المطر غالبا، ويعيشون في الجبال بين فجند وحصار وأطراف بلاد فرغانة واندجان وطشقند وغيرها.

- القزاق: وهم قوم يتكلمون التركية، وهم رحالة يعيشون حيثما يوجد العشب والماء ويسكنون حول طشقند.

تركستان قبل الفتح الإسلامي

كان سكان تركستان ينقسمون إلى قسمين هما:

- الدول التركية المستقلة التي كانت تعيش في إقليم ما وراء النهر – وهو الإقليم يمتد من وراء نهر جيجون المعروف الآن بنهر أموداريا – شمالا حتى حدود سيحون–.. وكان لها حكام أتراك سجل التاريخ أسماءهم مثل (بندون) حاكم بخارى الذي خلد ذكره بتحديده للقلعة التي بناها (أفر أسباب)، وانهارت، وزوجته الملكة (خاتون) التي تولت الحكم لحداثة سن ابنها (طغشاد). وقد تم الفتح الإسلامي لبلادها في عصرها – وكذلك ابنها (طغشاد) الذي احتفظ بالحكم مدة ثلاثين عاما نظير اعتناقه الإسلام.

وكان لسكان هذا الإقليم من الأتراك أنشطة زراعية وصناعية وتجارية واسعة، فكانوا يزرعون القطن، ويصدرون المنسوجات القطنية إلى كل مناطق غربي آسيا.. كما كانت بخارى أول مدن هذا الإقليم سوقا رئيسية تلتقي فيها تجارة الصين وآسيا الصغرى.. وكانت مصانع كبيرة للحرير، والديباج والمنسوجات القطنية وأجود أنواع الأبسطة والمصنوعات الفضية والذهبية، كذلك كانت مركز مهما للصيرفة يستبدل فيها سكان آسيا الشرقية والغربية سكتهم بواسطة أهلها.

كما تذكر المصادر البيزنطية أن أهل بخارى وصفديا كانوا في القرنين الخامس والسادس الميلاديين يسيرون بقوافل الحرير العظيمة عبر الإمبراطورية الساسانية إلى شرق بلاد الإمبراطور الرومانية.. وحين شق العرب بعد ذلك طريقهم عبر جيجون وجدوا هناك نشاطا صناعيا وزراعيا هاما.

أما القسم الثاني من سكان بلاد تركستان فكان البدو من الأتراك الذي يسكنون الشمال وكان إقليم ما وراء النهر لا يسلم من غاراتهم. ومنهم ما عرف بقبائل الغز الذين أسروا السلطان السلجوقي سنجر، وقد تأكد لهم السلطان على يد المغول.

الفتح الإسلامي لتركستان

تم الفتح الإسلامي لبلاد تركستان الذي كان أهله يعتنقون الشامانية والبوذية في عصر الخلافة الأموية.

وفي عهد الخليفة معاوية نجح جيش المسلمين في السيطرة على أجزاء إيران الشرقية، فاستولوا على إقليم خاراسان. ودخلوا بلخ التي كانت باب ما وراء النهر الجنوبي.

وقد صارت خراسان في عهد معاوية قاعدة حربية؛ حيث تجمع فيها خمسون ألفا من العرب المسلمين من قبائل بني خزيمة وبني تميم وبني بكر وغيرهم استعدادًا للحرب.. فلما دب الخلاف بين حكام ما وراء النهر اندفعت جيوش المسلمين إلى طخارستان المعروفة الآن بطالقان – وما وراء النهر، واستمر القتال هناك حتى عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان.. الذي أدرك فشل جيوش المسلمين في تخطي حدود ما وراء النهر لاستماتة الأتراك في الدفاع – فعين الحجاج بن يوسف الثقفي واليا على خراسان، الذي أوكل إلى القائد المشهور قتيبة بن مسلم الباهي مهمة فتح ما وراء النهر.

وقد خاض قتيبة بن مسلم عدة حملات مع الأتراك استمرت أثنى عشر عاما، فاستطاع استعادة طخارستان، ثم عبر نهر جيجون (٨٧هـ – ٧٠٥م) واشتبك مع الأتراك حول مدينة (باي كند) التابعة لبخارى وتمكن من فتحها.

وبين عامي (٨٨ – ٨٩هـ – ٧٠٦ – ٧٠٧م) توغل قتيبة بن مسلم نحو ترمذ حيث التقى بالقائد التركي (كوا تكيني) حاكم الولايات الغربية لكن الهزيمة لحقت به هناك، فاضطر للانسحاب إلى مرو.

ثم تمكن قتيبة بن مسلم من تجهيز جيش من العرب والفرس، كما أمده خوقند الثقفي أيضا بالجند فتوجه إلى بخارى عام (٩٠هـ – ٧٠٨م) وفتحها. كما فتح المنطقة المحيطة بها من إقليم الصغد، ثم فتح سمرقند وخوارزم بين عامي (٥٢/٩٤هـ – ٧١٢/٧١٠م).

وبعد عامي (٩٦/٩٥) فتح الأقاليم المحيطة بنهر سيحون وخاصة فرغانة خانية (فخوقند الحالية) واقر الإسلام بها، وعين حكاما من العرب تولوا الشئون الحربية وجباية الأموال، وترك إدارة الحكومة المدنية إلى حكام من أهل البلاد نفسها.

لكن قتيبة بن مسلم قتل بعد ذلك. مما أدى إلى توقف الفتوحات في آسيا الوسطى لانشغال الخلفاء المسلمين بالصراعات الداخلية عنها. كما أدت سياسة الخليفة عمر بن عبد

العزيز إلى دخول بعض سكان هذه المناطق في الإسلام، وقيام البعض الآخر بالثورات، مما دفع الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى التخلي عن ما وراء النهر.

وعندما ولى الخليفة هشام بن عبد الملك عام (١٠٦هـ/٧٢٤م) عين نصر بن سيار واليا على ما وراء النهر. فأخضع تلك الوالي معظم المناطق الأخرى.. واسترجع ما كان قد فقد من المسلمين. كما احتل الشاش في الشمال الشرقي من سمرقند.. وبذلك تم نشر الإسلام في ربوع آسيا الوسطى، أو بمعنى أدق بلاد تركستان.

تركستان في ظل الخلافة العباسية.

مما يميز عصر الخلافة العباسية ظهور العنصر التركي وقوة نفوذه، وقد تمثل هذا النفوذ في تغلغل العنصر التركي في الخلافة الإسلامية توليه زمام أمورها بعد تغلبه على العنر الفارسي.. ويرجع ذلك إلى الخليفة المعتصم بالله وسيلة إلى الترك حيث كانت أمه تركية الأصل من إقليم الصغد وتدعى (مارده) وكان من طباعه كثير من طباع الترك من القوة والشجاعة والاعتداد بقوة الجسم.. كما كان هناك بعض الخلفاء العباسيين من أمهات تركية الأصل. كالمتوكل والمكتفي والمقتدر بالله.

لهذا لما تولى الخليفة المعتصم بالله الخلافة عام (٢١٨هـ) استقدم قوما من بخارى وسمرقند وفرغانه وأشرو سنة وغيرها من بلاد تركستان وما وراء النهر.. فاشتراهم وبذل فيهم الأموال، وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب، وأمعن في شرائهم حتى بلغت عدتهم ثمانية آلاف مملوك، وقيل ثمانية عشر ألفا، وهو الأشهر.

وبتوليهم الشئون الإدارية والعسكرية قوى أمرهم وازداد نفوذهم، لدرجة أنهم كانوا يقتلون من لا يرغبون من الخلفاء، كانوا يستخلفون من يحبون من الخلفاء، كالمنتصر بن المتوكل الذي استخلفوه لأنه كان يشايعهم، بل اجبروه أيضا على خلع أخويه المعتز والمؤيد من الخلافة خوفا من انتقامهما إذا توليا.

ولما مات المنتصر بعد خلافته بستة أشهر، لم يكن قد استخلف خليفة بعده، فاختار القواد الأتراك المستعين واستخلفوه. فبايعه الناس.

وقد كان لقبض الأتراك على زمام الحكم أثر عظيم في دخول كثير منهم في الإسلام، فيذكر مسكويه في حوادث عام (٣٤٩هـ) أنه في هذه السنة أسلم من قبائل الأتراك مائتان ألف أسرة يبلغ تعدادها مليون نسمة تقريبا.

وهؤلاء الأتراك المسلمون ومن أسلموا بعدهم قد انتشروا في ربع الخلافة الإسلامية وامتزجوا بالعرب وألموا بالثقافة العربية. ونتج ذلك أن ساهم عدد لا يمكن حصره من علماء تركستان في تشييد صرح الحضارة العربية الإسلامية في العصر العباسي، منهم على سبيل المثال لا الحصر.

أما المحدثين الإمام البخاري.. وهو من بخارى كما تدل عليه نسبته.

الإمام محمد بن على القفال الشاشي نسبة إلى شاشا (طشقند) وكان يعد أمام عصره فيما وراء النهر. وناشر مذهب الشافعية فيه. كما أن له كتب في الأصول والفقه.

الإمام أبو منصور الماتريدي.. نسبة إلى ما تريد أو ما توريد وهي محلة بسمرقند، وكان إمام الحنفية في علم الكلام كالأشعري للشافعية، له من الكتب كتاب التوحيد، وأوهام المعتزلة، ومأخذ الشرائع في الفقه، والجدل في أصول الفقه وغير ذلك.

الفقيه أبو الليث نص بن محمد السمرقندي الملقب بام الهدى، ألف بستان العارفين وتنبيه الغافلين، وله تفسير للقرآن الكريم.

الإمام أبو عيس الترمذي نسبة إلى ترمذ، صاحب السنن والشمائل.

ومن مزغانه الفقهيان شمس الدين السرخسي الأوزجندي، وشيخ الإسلام برهان الدين الفرغاني من كبار فقهاء الحنفية.

ومن فلاسفة الإسلام أبا نصر الفارابي نسبة إلى فاراب وهو بالطبع غني عن التعريف.

ومن الأدباء الكاتب المعروف أبا بكر الخوارزمي والجوهري صاحب الصحاح ومبتكر طريقة للمعاجم جرى عليها صاحب القاموس ولسان العرب وغيرهما. وأصله من فاراب.

ورغم كل هذه الآثار الإسلامية العظيمة فقد كانت تركستان منبع الفتن الدينية والثورات السياسية وذلك لبعدها عن مقر الخلافة العباسية، نذكر منها فتنة النبي التي استمرت ربع قرن ونجح الخليفة هارون الرشيد في القضاء عليها (والمقنع هذا هو هاشم بن حكيم من أهل حزه بإقليم مرو، وقد جهز بدعوته أول الأمر في إقليم ما وراء النهر عام (١٥٠هـ/٧٦٧م) وقد أعلن هاشم هذا لأتباعه أن الله قد ظهر في صورته، كما ظهر من قبل في صورة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وأبو مسلم الخراساني – الذي كان يعمل عنده في بادئ الأمر – وكان يضع دائما قناعا أخضر على وجهه. ويدعى أنه لا طاقة

للناس بالنور المنبعث من عينيه) ولذا فقد أطلق العرب لقب المقنع. وقد ظلت دعوته لقــرون كثيرة فيما بعد).

كما كان إقليم ما وراء النهر يموج بالاضطرابات السياسية التي كان يثيرها ســكانه، ولم تكن الخلافة العباسية تستطيع القضاء عليها إلا لفترات قصيرة. ومن هــذه الاضــطرابات ثورة رابع بن الليث حفيد نصر بن سيار، الذي جمع أهل سمرقند حوله ضد وإليهم على بــن عيسى من قبل الخليفة هارون الرشيد بظلمه وجوره فلما تولى المأمون الخلافة استعان بأسرة السامانين التي كانت تتولى أمر خراسان في القضاء عليهم.

ومع هذا فإن الدول التركية التي قامت في عصر الخلافة العباسية وأعلنت اســتقلالها عن الخلافة، لعبت دورا بارزا في التاريخ الإسلامي. كما كان يرجع لها الفضل في ازدهــار الأدب الفارسي.

وعلى الرغم من غلبة النفوذ التركي في ذلك الزمان، إلا أن تأثير المدنيــة العربيــة والفارسية كالعربية أو لغة ثقافية كالفارسية على الرغم من عدم تخليهم عن لسانهم.

الدول التي قامت في عصر الخلافة العباسية

* **الدول الخانية**.. ورغم أن مصادر التاريخ لا تمدنا بالكثير عن تأسيس هذه الدولــة، ولكن من المعروف هو أن مؤسس هذه الدولة هو السلطان (ستون بغراخان). ودانت له كــل المناطق التي تقع شمال جبال تيانشان وجنوبها أي التركستان الشرقية كلها.. وتعــرف هــذه الدولة في كتب التاريخ بأكثر من اسم. فتذكر باسم الدولــة الأفراســيابيه، أو دولــة خانــات تركستان أو الدول الخاقانية أو الدولة الخانية. وترجع أهمية هذه الدولة إلى أن حكامها كــانوا مسلمين يدينون للخليفة العباسي القادر بالله بالولاء. فكانت الخطبة والسكة باسمه في بلادهــم، فسعوا إلى نشر الإسلام بين جميع القبائل التركية في وادي سيحون.

* **الدولة الغزنوية**.. تنتسب هذه الدول إلى البتكين الذي كان مملوكا تركيا يتولى حكم خراسان من قبل الدولة السامانية، تلك الدولة الفارسية الأصل التي ظهرت قبل الدولة الغزنوية في إيران وما وراء النهر.. غير أن مؤسس هذه الدولة هوايته سبكتكين الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه عام (٣٦٦هـــ). وقد بلغت هذه الدولة أوج اتساعها فــي عهــد ســلطانها محمــود الغزنوية؛ حيث امتد سلطانها فشمل الجزء الشمالي في شبه القارة الهندية من جهــة الــشرق والعراق العجمي من جهة الغرب، وخراسان وطنحارستان وقسما من بلاد ما وراء النهر من جهة الشمال وسجستان من جهة الجنوب، فأصبحت أقوى دولة طغت علــى ســطح الخلافــة العباسية.

وترجع أهمية هذه الدولة إلى سلطانها محمود الغزنوي الذي أمسك بزمام الزعامة في القسم السني من العالم الإسلامي تحت ظل الخلافة العباسية في بغداد، فقام ينشر الإسلام في بلاد الهند.. غير أن الدولة الغزونية أخذت في الضعف بعد وفاة سلطانها محمود فكثرت الفتن في ربوعها. كما كثر النزاع على العرش الغزنوي بين أبناء محمود وأحفاده من بعده، مما أتاح الفرصة للسلاجقة الظهور بقوة، وانتزاع الزعامة من أيدي الغزنويين في القسم السني من العالم الإسلامي (وقد سميت هذه الدولة بهذا الاسم نسبة إلى عاصمتها (غزنة) القريبة من كابل عاصمة أفغانستان الحالية.

- **الدولة السلجوقية:**

تنسب هذه الدولة إلى سلجوق بن دقاق رئيس أحد عشائر (لاوج أوروق) من قبائل أو غوز التركية، وقد هاجروا من ديارهم بالتركستان الشرقية بسبب ازدحامها وضيق مراعيهم إلى ما وراء النهر بتركستان الشرقية، فنزلوا بالقرب من السواحل الشرقية لبحر قزوين وفي الهضاب المحيطة بنهري سيحون وجيحون، وتنقلوا في هذه المنطقة في أثناء رحلتي الشتاء والصيف.

وقد تأسست دولة السلاجقة عام (٤٢٩هـ) على يد أحد أحفاد سلجوق ويدعى (طغرل بن ميكائيل) بعد أن تغلب على الغزنويين، ثم حظى باعتراف الخليفة العباسي بشرعية قيام دولته.

وكان قيام دولة السلاجقة حدثا بارزا في تاريخ العالم الإسلامي، باعتبار أن السلاجقة ظهروا على مسرح التاريخ في صورة دولة فتية قوية، أمسك سلاطينها بزمام الزعامة في القسم السني من العالم الإسلامي تحت ظل الخلافة العباسية في بغداد. كما كانوا حماة دولة الخلافة فسعوا إلى نشر الإسلام في البلاد غير الإسلامية لذلك كانوا يسمون جنود الخلافة العباسية المخلصين.

وقد استطاعت الدولة السلجوقية في عهد سلاطينها العظام أن تقيم دولة مترامية الأطراف، تمتد من حدود الهند والصين شمالا إلى البحر الأبيض المتوسط غربا، ومن البحر الأسود شمالا إلى الخليج جنوبا. تضم بلاد ما وراء النهر وإيران والعراق والشام وآسيا الصغرى.

كما يرجع للسلاجقة الفضل في نشر الإسلام في بلاد الروم بعد أن سيطروا على ممتلكات الدولة الرومانية (البيزنطية) في آسيا الصغرى. مما ساعد على القضاء عليها بعد ذلك بعد أربعة قرون تقريبا (أي في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي) على

أيدي الدولة العثمانية، والتي واصلت نضال السلاجقة ضد الدولة البيزنطية المسيحية.. لهـذا كانت دولة السلاجقة من أهم الدول الإسلامية التي ظهرت على مسرح التـاريخ.. باعتبارهـا التي وجهت سير الأحداث في المنطقة التي أصبحت معروفة الآن بالشرق الأوسط. باشتباكها في صراع مع الغرب المسيحي. مثلا في الدولة البيزنطيـة ممـا أدى إلـى قيـام الحـروب الصليبية، مما كان له أثره في تاريخ الشرق والغرب على السواء.

* **الدولة القراختائية**.. وهي دولة غير إسلامية نشأت في أول أمرها فـي منـشوريا وشمال الصين، ولكن هذه الدولة ما لبثت أن انشقت على نفسها، وعاد الفارون من فلولها إلى تركستان موطنهم الأصلي. ولكنهم لم يسألوا أهلها، بل أثاروا الفتن والثورات، وغاروا عليهم، فاستولوا على كاشغرو الختن، وتحاربوا مع السلطان سنجر السلجوقي في موقعـه (قطـوان) شمال سمرقند وأسروه واستولوا بعد ذلك على ما وراء النهر، واستمروا حتى قضت علـيهم الدولة الخوارزمية.

أما بالنسبة لدور هذه الدولة في التاريخ الإسلامي، فهو يرجع إلى أواخر حكامها غير المسلمين، الذين استوزروا وزراء مسلمين، مما ساعد على ظهور ولايات إسلامية في أمـاكن لم تكن مسلمة من قبل في عهدهم.

* **الدول الخوارزمية**.. ظهرت هذه الدولة الإسلامية في تركستان أثر ضعف الدولـة السلجوقية ويرجع نسب هذه الدولة إلى (انوشتيكن) العبد التركي الذي اشـتراه أحـد أمـراء السلاجقة في غرجستان، ولحسن سياسته عينوه واليا على خوارزم.. فلما خلف ابنـه قطـب الدين نفسه (خوارزم شاه). وبعد وفاته استغل أبناؤه ضعف السلاجقة وهزيمة سلطانهم سنجر على يد القراختائيين فاستولوا على خراسان وأصفهان.. كما استولوا على العـراق العجمـي التابع للسلاجقة، كما سيطروا على ما وراء النهر وقضوا على الدولة القراختائية، ونجحوا في الاستيلاء على الأقاليم الواقعة على غرب نهر السند وممتلكات الدولة الغورية في أفغانـستان بحيث امتد سلطانها من حدود العراق غربا إلى حدود الهند شرقا ومن شـمال بحـر قـزوين وبحر أرال شمال إلى الخليج العربي والمحيط الهندي جنوبا.

*** المغول...**

يرجع أصلهم إلى قبائل التتار التي كانت تسكن في إقليم منغوليا بآسيا الوسطى في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) ثم اكتسحت جحافلهم على يد جنكيز خان وأحفاده الذين اعتنقوا الإسلام وصاروا من أشد المتعصبين له، ويرجع إليهم الفضل في نشر الإسلام في الصين وشرق أوروبا والعالم.. وكونوا إمبراطورية عظيمة تشمل الصين والهند وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر وبلاد الكرج وروسيا وشرق أوروبا وإيران والعراق والشام وأسيا الوسطى.

وبالمصادفة وأنا أبحث عن مراجع لهذا الكتاب لفت نظري مقال حول هذا الفاتح كتبه (ادين مولر) تحت عنوان (جنكيز خان فاتح العالم) ونشر بمجلة المختار عدد أكتوبر ١٩٤٣ (أي في أوج الحرب العالمية الثانية). وفيه يعلن عن إعجاب بلا حدود بهذا الغازي الذي جالت في ذهنه صور (الحرب الشاملة) فنفذها منذ أكثر من ٧٠٠سنة وفيه يقول:

جنكيز خان فاتح العالم

(لو محيت جميع أخبار الحروب من صفحات التاريخ ما عدا أخبار جنكيز خان، لبقى لرجال الحرب كنز زاخر تستخرج منه أنفس المعلومات عن تعبئة الجيوش وتنظيمها).

وهكذا قال الجنرال دوجلاس ماك أرثر، ويقول ماك أرثر: (إن الجندي لا يستطيع أن يحذق الجندية بالتمرين وحده ومهما تتغير أسلحة القتال فلابد للجندي من الرجوع إلى الماضي ليحذق المبادئ الحربية الأساسية التي لا تتغير، ولن يجدها ممثلة خيرا من تمثلها في سيرة إمبراطور المغول لسبعمائة سنة مضت).

فقد أنشأ جنكيز خان بفتوحه إمبراطورية شاسعة لم ير التاريخ مثلها، إذ كانت تمتد من المحيط الهادي إلى أواسط أوروبا، وتشتمل على معظم العالم المعروف يومئذ، وعلى أكثر من نصف سكانه، وكانت عاصمة قبيلته مدينة في أواسط بلاد المغول تسمى (قرة قورم) فغدت عاصمة العالم الشرقي.

إن نابليون انتهى أمره بالهزيمة، وأما جنكيز خان فلم ينهزم في موقعة حاسمة ما، بل مات شيخا وهو في أوج انتصاراته، وإمبراطوريته لا تزال تمتد وتتسع، وكان قيصر الإسكندر مدينين بكثير مما أحرزاه لأسلافهما، فالرومان أتقنوا فن تنظيم الكتائب المعروفة (بالليجون).. والمقدنيون ابتدعوا كتائب (الفالنك).. وأما إمبراطور المغول فهو الذي أنشأ بنفسه جيشه وأداته الحربية.

كانت جيوش أعدائه في أغلب الحروب أكثر عددا من جيشه، والمرجح أنه لم يقذف في ميدان معركة ما أكثر من مائتي ألف مقاتل، ومع ذلك استطاع بهذه القوة الصغيرة أن يسحق إمبراطوريات فيها من الرجال ملايين كثيرة، ولعله كان أوفر قادة الجيوش نجاحا في التاريخ كله ولفظ جنكيز خان (أقوى الحاكمين)، وهو الذي اختار هذا الاسم لنفسه، أما أسمه الحقيقي الذي كان يعرف في صباه فهو (تيموجن).

ولما كان تيموجن في الثالثة عشرة من عمره مات أبوه مسموما بيد أعدائه.. ولكن الفتى كان قد بلغ مبلغ الرجال قوة وجسما، فهو يمتطى صهوات الجياد طول النهار، ويجيد رماية السهام من قوس شديدة. وكان قوي النفس في نجود أسيا الجافية لتنتزع منها رزقا يسيرا، إلا أن تلك القبائل أبت زعامته.. وحاول شيوخ القبائل أن يتخلصوا من منافسهم الفتى، وصاروا يطاردونه من براري أسيا كما يطارد الوحش، إلى أن ظفروا به، فوضعوا في عنقه نيرا ثقيلا من خشب وقيد فيه رسغيه.. وفي ذات عشية غافل حارسه فضربه بالنير وأوقعه على الأرض وفر هاربا من جوف المخيم والناس نيام.. ولما شعر الفرسان بفراره أخذوا يطاردونه، ولكنه اختبأ في جدول ماء إلى أن توارى مطاردوه عن العيان، بعد أن فتشوا الضفتين، فخرج من الجدول وسار حتى قابل صيادا فأقنعه بأن يحل وثاقه.

إن تاريخ تلك السنوات الأولى سجل حافل بحوادث العجيبة من المطاردة والخيانة.. على أن تيموجن ظل يكافح في سبيل الوصول إلى غايته وهي زعامة القبائل.. وقد رماه أحد أعدائه مرة بسهم فجرحه في عنقه جرحا بليغا طرحه عاجزا على الأرض المتجمدة قريبا من معسكر أعدائه، فامتص أحد رفقائه الدم والقذي من الجرح، قم خلع رداءه ودثره به، وزحف إلى معسكر الأعداء في طلب قليل من اللبن، ثم نقله إلى حيث يكون بمأمن من الأعداء.

وبمرور الزمن بدأ يجتمع حول تيموجن من الأنصار ممن كانوا يلتقون حول أبيه.. وقبل أن يبلغ العشرين من عمره أصبح زعيم قبيلته، فمضى يحرك الدسائس ويحارب لكي يضم القبائل الأخرى إلى قبيلته، ولم يرض بمنزلة دون منزلة الزعيم. وإذا حاول أحد أن يقاسمه السلطان قتله.. وكان له ابن عم يسمى (جاموكا)، كان في أيام بؤسه يقاسمه شظف العيش.. وكانا ينامان تحت غطاء واحد، وكثيرا ما كان يخرجان إلى الحقول ليصطادا الفئران ويقتاتا بها يوم لا يجدان غيرها شيئا يأكلانه.. ولم يقنع جاموكا بأن يكون تابعا لابن عمه، فوقعت بينهما حرب دارت فيها الدائرة على جاموكا فوقف أسيرا بين يدي ابن عمه، فما كان من تيموجن إلا أن أمر به أن يخنق، غير مبال.. وكان طغرل صديقا لأبيه، وكثيرا ما أعان تيموجن في أوقات محنته، فلما أبى الزعيم الشيخ أن يخضع للفتى، أمر تيموجن بقتله.. ومع ذلك كان يسرف في بذل العطايا للقواد الذين يدخلون في طاعته.

ومرت السنوات، وأخذ تيموجن مقر قيادته في (قره قوروم) – ومعناها مدينة الرمل الأسود – وهي مجموعة خيام على طريق القوافل التي تسير شرقا وغربا.. ولم يكن تيموجن يتعرض لتلك القوافل بسوء لأنه كان ينوي أن يستغلها في تحقيق أغراضه فيما بعد.

كان شديد البأس مفتول العضل، يلبس جلود الغنم، ثقيل المشية ككل من ينشأ على صهوات الجياد.. وكان وجهه غليظ الجلد، كثير التجاعيد يكسوه طلاء من الشحم لاتقاء البرد القارس والريح اللاذعة، أما عيناه فكانتا متباعدتين، قد استقرتا تحت جبهة مائلة، تحيط بها هالتان حمراوان من لفح الرمال السافية، بلهيب القسوة الوحشية، وكان قليل الكلام فإذا تكلم فبعد أناه وروية.

وما كاد يبلغ (تيموجن) الخمسين حتى كان قد وحد جميع قبائل أسيا الوسطى، وجعل منها قوة واحدة، وكان هو قائدها الأوحد، وذاع صيته في جميع السهول المترامية التي يعيش منها قومه.. ومع ذلك، فلو أن سهما من سهام أعدائه وجد – يومئذ – في درعه ينفذ فيها إلى مقتل، لكان بعيدا أن يسمع التاريخ ذكره، ذلك لأن الأعمال العظيمة التي خلدت مركزه احتشدت في السنوات الست عشرة الأخيرة من حياته، إذ كان قد أعد أداة حربية ليفتح بها العالم.

كانت مملكة الصين في شرق بلاده، وفيها أقدم حضارات العالم، وكانت يومئذ تنقسم إلى إمبراطوريتين، أحداهما إمبراطورية (كين) والأخرى إمبراطورية (سنج).. وفي غرب كانت دول الإسلام التي نمت واتسعت بعد الفتوحات الإسلامية، وفي الغرب الأقصى بلاد الروس ثم مجموعة دويلات، ثم أواسط أوروبا، وهي خليط من دول صغيرة وكبيرة.. فبدأ جنكيز خان بالهجوم على الصين، فاخترق السور العظيم، وقذف بكتائبه على البلاد الواسعة في (كين) او الإمبراطورية الشمالية، فاستولى على (بن كنج) عاصمة الإمبراطورية وفر الإمبراطور. فقد كانت هزيمة (كاملة).

وبعد ثلاث سنوات سار جنكيز خان غربا، ولم تكد تمضي شهور قلائل حتى كانت جنود المغول في (سمرقند) تنهب عاصمتها الجميلة، أما سلطان سمرقند فكان يفر يومئذ بحياته.. وفي السنوات التي تلت هذا، اندفعت جيوش جنكيز خان منحدرة إلى سهول الهند، واكتسحت الشرق الأوسط، واخترقت روسيا إلى وسط أوربا، كانوا منتصرين أبدا وفي كل مكان.. فلماذا؟!

كان لجنكيز خان عزيمة لا تقهر، ونشاط طاغ في جسمه وعقله، وكان مـلء نفـسه قسوة، لكن عظمته ترجع إلى شيء أقوى من ذلك كله، وقد درس أعـداؤه تفاصـيل نظامـه الحربي وخططه العسكرية، وهذه الدراسة تكشف سره.

كان جنكيز خان يثق بقدرته وقوته، فيجرؤ على إهمال جميع التقاليد العسكرية، وينفذ إلى صميم كل مشكلة فيعالجها علاجا جديدا كل الجدة.. وكان قادرا على أن يستعرض جميـع الخطط والأساليب والأسلحة المعروفة، ثم يدمجها معا ويفرغها بعناية عظيمة في قالب جديـد يحقق أغراضه.

وهو أول من عبأ شعبا كاملا بغرض واحد هو الحرب، أي أن هذا الرجل الذي عاش منذ سبعمائة سنة ونيف وضع للحرب صورة يزعمون أنها حديثة وهـي صـورة (الحـرب الشاملة).. كان الجواد المغولي والفارس المغولي والفارس المغولي هما أروع عناصر جيشه، فالجواد لا يكل أبدا، ويستطيع أن يواصل السير إذا ما سقى الماء مرة في كـل ثلاثـة أيـام، ويستطيع أن يجد لنفسه طعاما حيث كان، فقد يحفر بظلفه في الثلج والجمد باحثا عـن بقايـا عشب جاف.. أما الفارس فلا يعجزه أن يظل على صهوة جوداه ليله ونهارها ولا أن ينام على الثلج، وهو يطيق أن يقضي الأيام بطعام قليل أو بغير طعام، وهو محارب، فقـد نـشئ فـي المعارك والملاحم، وعلم الرماية من يوم تعلم أن يتكلم.

ومما يدل على عبقرية جنكيز خان في العناية بتفاصيل التنظـيم الحربـي، اهتمامـه الوثيق بتسليح هذا الجندي، كانت درع المغول من جلد مقسي مطلي، ولكل رجـل قوسـان، أحداهما للرمي وهو على جواده، والأخرى لأحكام الرماية إذ يكون مترجلا.. ومعـه ثلاثـة أنواع من السهام للأهداف القريبة والمتوسطة والبعيدة. فأما الأولى فكانت ذات أطراف فولاذية تخترق الدروع، ويحمل كل جندي الحرابة الضرورية من اللبن الخائر المجفف ويكفي لغذائـه نصف رطل طول يوم القتال، ويضع سلاحه في جعبة من الجلد يمكن نفخها ليستعين بها على اجتياز الأنهار.

وكان الجيش يتألف من فصائل قوام كل منها عشرة أو مائة أو ألف أو عـشرة آلاف من الجنود، وفيه فضلا عن المقاتلة – فضائل إضافية من مهندسين وأخصائيين في فن قـذف المجانق، واستعمال معدات الحصار، كما كانت له أيضا فرقة خاصة بتموين الجيش وأخـرى للعناية بكل ما يحتاج إليه الفرسان وحفظه للذخيرة.. وكانت الأمة كلها تعمل خلـف الجـيش، لتوفر له ما يحتاج إليه من طعام وكساء ومعدات، كما كانت تقتر على نفسها لتموينه.

أما أساليب القتال التي ابتدعها جنكيز خان فكانت معجزة مــن المعجــزات الإتقــان المكتسب بالتدريب الدقيق المحكم، وكانت المقاتلة خمسة فوف وبين كل كتيبتين فراغ واســع، ففي الطليعة كانت جنود الهجوم، وهي مدرعة أحــسن تــدريع تحمــل الــسيوف والحــراب والصوالج، وفي مؤخرة الصفوف الفرسان الرماة.

وكان هؤلاء يندفعون بجيادهم من خلال الفراغ الذي بين كتائب الهجوم، فيشرعون في رماية العدو، والخيل تعدو بهم بأقصى سرعة، فمتى دنوا منه ترجلوا وأخذوا القسي الأخــرى فيمطرونه وابلا من السهام الثقيلة.

وأساس هذا الهجوم هو الشدة والتركيز في الرماية إلى حد لم يكن قد عرف في ذلــك العهد.. فإذا اختلت صفوف العدو أجهزت عليه كتائب الهجوم وأتمت هزيمته لقد كان تعــاون الأسلحة المختلفة يجري في يسر وأحكام ولم تكن الأوامر تعطى بأصوات عالية بــل ترســل بالتلويح برايات بيض وسود.

فالفضل في انتصار المغول يرجع إلى تفوقهم في الأسلحة، وإلى سرعة أطباقهم على العدو بها، ثم إلى سرعة الرماية وأحكامها، وكثيرا ما كان الذعر يدب في صفوف الأعداء قبل أن تشرع كتائب الهجوم في الانقضاض عليهم.

ومع أن جيوش جنكيز خان كانت أقل عددا من جيوش أعدائه، إلا أنه كان يحشد أكثر ما يتيسر له من الجنود، ولكن في الموقف الحاسم من المعركة.. وكان يعرف كيــف يفــرق قوات أعدائه، وكيف يحشد قواته.. وكان واسع الحيلة كثير الخدع، يتوقع العدو أن يراه فــي جهة، فإذا به يفاجئه من جهة أخرى، وكان يحرز النصر في العركة بالالتفاف حول جنــاحي العدو، ويتجنب الهجوم المواجه، وما يكون فيه من خسارة كبيرة

كانت أعماله الحربية قائمة على السرعة وعلى قدرته في الــسبق، فكانــت جحافلــه السريعة تخترق جيوش العدو. فتمزق أوصالهم تمزيقا محكما ثم تبيدهم، وكان جنكيــز خــان يجاوز الحصون المنيعة ويتركها تسقط فيما بعد.

ولم يكن يرتجل الخطط الحربية بل كان يضعها غير مهمل شيئا من تفاصيلها، قبل أن يعرف العدو أن حربا ستقع، وكان يستطيع أن يوجه إلى بلد ما ثلاثة جيوش أو أربعة تفــصل بينها المسافات الشاسعة، وقد تكون بينها طرق اتصال قليلة. وقد لا تكون. ومع ذلك كانت تلك الجيوش تعمل طبقا لخطط تنسق ما بينها وتزحف حتى تتلاقى عندها هدف متفق عليه.

وقد ربح جنكيز خان في بعض حروبه نصف المعركة بالدعاية، قبل أن يلقى بالجيش فيها.. ولم يكن في قادة الجيوش من فاق هذا المغولي الأمي في اتخــاذ الكــلام أداة حــرب..

كانت قوافل التجارة هي (طابوره الخامس) فكان يتخذ من رجالها عمالا لنشر الدعوة في البلاد التي ينوي غزوها، ومتى استقر رأيه على غزوها درس جغرافيتها وأحوال شعبها وسياستها، واتصل بالطوائف المتمرة فيها، وألقى بذور العداوة بينها.. تلك كانت الأداة الحربية التي فتح بها جنكيز خان العالم، وقد مات سنة ١٢٢٧ في أثناء حملة حربية وكان في السادسة والستين من عمره، وهو في أوج قوته.

وظلت هذه الإدارة الحربية تعمل بعد وفاته، وأصبح خلفاؤه أسياد أسيا كلها، وتوغلوا في أوروبا فدوخا البولونيين والهنغاريين والألمان.. وظلت السيادة لقوة المغول قائمة على عهد حفيده (إكوبلاي خان).. ثم أخذ نجمها يأفل في عهد الذين جاءوا من بعده، وقد عاد المغول جماعة من قبائل البدو الضعيفة، وانسحقت عاصمتهم (قرة قورم).

والسبب في ذلك أن ثورة جنكيز خان كانت فيضا ليس له أي تخطيط للانتفاع قبل أن ينتهي أمره بالضياع في البحار والمحيطات، وقد عرف التاريخ الإنساني ألوانا من الثورات والفتوحات العسكرية. وكلها كانت تبدأ من الغضب على الواقع، ولكن بعضها كان غضبا بلا منهج ولا رسالة.. مما أدى أن تتحول هذه الثورات والفتوحات إلى نكبات ونكسات لأن أصحابها لم يكونوا يعرفون ماذا يفعلون بعد الغضب مثل الغضب الإسلامي العاقل، المحكوم بأفكار واضحة وخطة دقيقة، والغضب العاقل وحده هو الذي ينفع الإنسان ويرتقي بالحضارة والمجتمع.

إن التتار بعد انتصاراتهم العسكرية الكبرى لم يجدوا شيئا آخر يفعلونه، فهم يحسنون صناعة الحرب ولا يحسنون صناعة السلام، وعندما جلس هولاكو (١٢١٧/١٢٦٥م) أشهر زعماء التتار في بغداد بعد أن سحق جيوش الدولة العباسية وقتل آخر خلفائهم المستعصم بالله وكان ذلك سنة ١٢٥٨م..

وعندما جلس هولاكو – حفيد جنكيز خان – في بغداد بعد انتصاره لم يجد ما يفعله، ولم يجد ما يقوله أو يدعو الناس إليه، ولذلك لم يكن هناك أمامه إلا أن يستعد لحرب جديدة في مكان آخر يبحث فيه عن نصر يضاف إلى انتصاراته السابقة، فهولاكو يمثل هذا الغضب على الدنيا، والرغبة في تغيير الواقع القائم دون أن يكون وراء هذا الغضب رسالة أو كلمة جديدة تسمعها الإنسانية من هذا الغاضب الذي لا هدف له سوى الغضب في حد ذاته.. ولذلك كان مصير التتار محكوما عليه بالانهيار في نهاية المطاف، وعند أول هزيمة تلحق بهم، وهذا ما حدث في معركة عين جالوت (٣ سبتمبر ١٢٦٠م) التي انكسر فيها التتار أمام جيوش المماليك بقيادة (قطز).. وبذلك بدأت صفحة الغضب التتاري في الانطواء من تاريخ العالم – فقد كان التتار غاضبين لا يعرفون ماذا يفعلون بهذا الغضب ولا يعرفون ماذا يفعلون بعده..

وعلى العكس من ذلك كان غضب الإسلام له هدف ورسالة.. وانتهي الغضب بانتشار مآذن الإسلام على كل بقاع العالم.

هذا وقد استغلت الدولة الأوزبكية ضعف الدولة التيمورية وانهيارها، فاستولت على ما وراء النهر بقيادة ملكها محمد الشيباني، وقد ظلت تحت حكم الشيبانيين طول القرن العاشر الهجري؛ حيث تولى الحكم من بعدهم أقاربهم الاسترخانيون طوال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، حتى استولى المنغيت أصهارهم على خانية بخارى، وأعلنت إمارة طشقند وغيرها من الإمارات استقلالها، كما بدأت خانية خوقند (فرغانة) توسع نفوذها على حساب الإمارات المجاورة لها.

في العالم الشيوعي:

ماذا عن الإسلام في العالم الشيوعي؟ كيف تبدو تجربته السياسية التي لا يمكن إلا أن تكون خطيرة مفعمة على أقل تقدير.

منذ حطم قياصرة آل رومانوف في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الدول والإمارات والخانات الإسلامية المتعددة التي كانت، وعلى النمط الوسيط المتخلف، ترصع وسط آسيا حتى القوقاز ومشارق الفواجا.. أصبح الإسلام أقلية صغيرة في روسيا، وتعرض بانتظام لمطاردات واضطهادات وتحقير القيصرية، التي لم تكن حضاريا واجتماعيا بأرقى كثيرا من تلك الإمارات نفسها، كما تعرض لحملات تبشيرية عنيفة نجحت أحيانا كما يقال في تحويل بعض من التتار والترك المسلمين إلى المسيحية، وإن عادت هذه العناصر جميعا بعد ذلك إلى الإسلام (؟).

ومن الواضح أن الإسلام الروسي كان يرى نفسه مختلفا جذريا، جنسيا وقوميا ودينيا عن القيصرية، ولم تنقطع محاولات الاستقلال كما لو تتوقف حملات القمع والإرهاب: كما لخص لينين نفسه الموقف جميعا، كانت الإمبراطورية (سجنا كبيرا للأمم).

ومع أن الاتحاد السوفيتي يبدأ بموقف جديد معقد ودقيق، فرأى الأيدلوجية الشيوعية في الأديان جميعا معروف، والتنافر بينهما مفهوم، ومن المعروف كذلك أن عملية تشريك المجتمع وتشييعه لم تتم هنا بسهولة أو بغير عنف وضحايا، ومع ذلك فقد تركت حرية العقيدة رسميا، وإن تعرض الإسلام مع غيره من الأديان لحملات الدعاية المضادة التي لا تنقطع والتي يطلق عليها البعض في الغرب – وخزًا- فضلا عن أن مناخ الحياة الشيوعية اليومية كان عاملا معاكسا للممارسة الإسلامية.

وفي النتيجة بدا – في رأي المستشرقين والمراقبين الغربيين الذي لا مرجع لنا سواهم بالضرورة أيضا – بدا كما لو أن الإسلام يتعرض لعملية تصفية، أو على الأقل إلى عملية تعقيم وتكلس.. ويرى البعض أنه ظل موجودا دائما موقوفا كما قد نقول، بمعنى أنه لم يعيش إلا بين الشيوخ والأجيال المنطوية، وفي صورة بدائية وحياة غير نشطة بعد انعزال الإسلام السوفيتي عن العالم الإسلامي الكبير في صندوق مغلق.. على أن هناك من الناحية الأخرى إجماعا بين المراقبين على أن الإسلام صار يمر في السنوات الأخيرة – بعد رحلة سبات طويلة – بمرحلة صمود ربما أحياء، وذلك كرد فعل طبيعي للضغوط العقائدية المضادة لاسيما مع انصباب الهجرة الروسية (السلافية) التي وصلت إلى أبعاد خطيرة تؤذن بتحويل الأهالي إلى أقليات متضائلة باطراد، في صميم أوطانهم المحلية التاريخية.

وهذا جدول يرسم صورة بليغة لتطور الهجرة الروسية إلى وسط آسيا السوفيتي وأثرها الأنثولوجي على تركيب السكان فالأديان.

الروس% عام ١٩٥٩	عدد السكان عام ١٩٥٩	الروس% عام ١٩٢٦	عدد السكان عام ١٩٥٩
كازاخستان	٩,٣٠١,٠٠٠	٢٠	٤٣
أوزبكستان	٨,١١٣,٠٠٠	٦	١٤
تركمانستان	١,٥٢٠,٠٠٠	٨	١٧
تاجيكستان	١,٩٨٢,٠٠٠	١	١٧
قيرغيزيا	٢,٦٣٠,٠٠٠	١٢	٣٠
أذربيجان	٣,٧٠٠,٠٠٠	١٠	١٤
أرمينيا	١,٧٦٨,٠٠٠	٢	٣
جورجيا	٤,٠٤٩,٠٠٠	٤	١١

تدفق الهجرة الروسية أذن تيار حقيق وقوي لا سبيل إلى التقليل منه، ويرى فيه البعض – إن خطأ أو صوابا – خطة بعيدة المدى (لترويس) وسط آسيا وسيلاحظ بوجه عام أن أعلى نسب للروس هي في أكبر الجمهوريات سكانا التي هي أيضا أكثرها شمالية، وإذا كان الارتباط الأخير مفهوما بحكم الموقع الجغرافي بالنسبة إلى مصدر الهجرة، فإن الارتباط الأول يضاعف من الوزن الحقيقي لحجم الهجرة، ومهما يكن، فإذا كانت تلك الهجرة قد خفضت من نسبة الإسلام في المنطقة ووضعت حدا لسيادته العددية شبه المطلقة، فإن رد الفعل أتى في صورة المقاومة الدينية.

وتناسب هذه المقاومة بالفعل تناسبا طرديا مع نسبة تلك الهجرة، ومعها يتجاوز الطرفان تجاوزا ميكانيكا دون انصهار كيماوي. ويظل الزواج داخليا ونظم الحياة العائلية متباينة، وإن كانت الأقليات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي قد أصبحت تمثل قطاعا من أكثر قطاعات الإسلام العالمي تقدما وتطورا في العلوم والتكنولوجيا الحديثة، والمحصلة العامة للموقف كما رآها البعض أنه كان هناك نوعا من الشعور بـ (القومية الإسلامية) في الاتحاد رغم ما كانت ل جهود الدولة والنظام والحزب.. أما عن الشكل السياسي، فقد تصور بعض زعماء المسلمين في بداية الثورة البلشفية أن يكون دور الإسلام السوفيتي هو حلقة الوصل بين الثورة الشيوعية وبين ثورات التحرير في العالم الإسلامي أو في العالم الأسيوي، وعلى هذا الأساس حاول إنشاء جمهورية إسلامية هي جمهورية لا يدل – أورال – كنواه، غير أن الثورة رفضت المشروع خشية أن يفلت زمام الإسلام السوفيتي منها في سبيل أحلام خارجية، ووأدت الحركة في مهدها.. ومن الناحية الأخرى، فلقد طبق الاتحاد سياسته اللينينية الخاصة بالقوميات والأقليات والشعوب المختلفة وتحديد وحدات سياسية لها داخل الاتحاد قائمة لا على التاريخ أو الجغرافيا أو الاقتصاد، وإنما أساسا وفي الدرجة الأولى على الشعوب والأمم، وتتمتع بدرجة من الحكم الذاتي وفي هذه الحدود يشجع الفلكلور والشعب ويمجد، وكذلك الأبطال الوطنيون ولكن – وهذا هو المهم – مع الابتعاد أساسا عن ذكريات الإقطاع والتراث الإسلامي ومثل الجامعة الإسلامية.

وعلى هذه الأسس نال الإسلام ٦ جمهوريات اشتراكية سوفيتية فيدراليه، وهي في التصنيف السياسي السوفيتي تلك التي تحوي أمما متجانسة تامة.. هذه الجمهوريات هي (كازاكستان، تركمانستان، تاجيكستان، أوزبكستان، قرغيزيا).

ثم تأتي بعد هذا ٩ جمهوريات مستقلة ذاتيا، وهي التي تتألف من سكان أكثر اختلاطا وتنافرا، بحيث تضم داخل الجمهوريات الفيدرالية.. وفيا يؤلف المسلمون أغلبية أو نسبة هامة.. من هذه الجمهورية (باشكيريا، وداغستان).. ويضاف في النهاية ٤ أقاليم مستقلة ذاتيا

وهي نوابع مضمومة كسابقتها وتجمع جيوبا صغيرة من الأغلبيات الإسلامية المحلية، ومن أمثلتها إقليم الشركس في القوقاز.. أما على المستوى القومي فقد تطور وضع المسلمين السوفييت في عدة مراحل متقلبة، ففي أثناء الحرب العالمية الثانية اتهم المسلمون التتار في القرن والمسلمون التشتشن، والانجوش والكاراتشي والبلكار من أبناء الفولجا وشمال القوقاز، اتهموا – هكذا يخبرنا الكتاب المغربيون – بالتعاون مع المحور أثناء الغزو الألماني وفي ١٩٤٦ نقلوا بالجملة إلى وسط آسيا وبعثروا فيها، ولكنهم عادوا في الخمسينيات فسمحوا لهم بالعودة إلى أوطانهم الأصلية.

ومن الناحية الأخرى فقد كان للتقارب السياسي بين العالم العربي التقدمي والاتحاد السوفيتي في السنوات الأخيرة أثر كبير وإيجابي على وضع المسلمين السوفييت وعلى مدى حريتهم الدينية بما في ذلك الحج وزيادة اتصالهم بالعالم الإسلامي في الخارج، وإن اعتبره بعض أعداء الجانبين بمناورة وواجهة من قبل السياسة السوفيتية لكسب العرب وصداقتهم، والواقع أن الإسلام في عهد الاتحاد السوفيتي كان يعيش في مناخ سياسي واجتماعي متفتح متجاوب، كما يلعب دور حلقة وصل وثيقة في العلاقات الجيدة والمتطور بين الاتحاد والعالم العربي.

كان هذا هو الموجز، وإليكم بيان أوضاع الإسلام تحت ظل الغزو الشيوعي.. بين أعوام بالتفصيل (١٢٨٢ – ١٢٨٩هـ/ ١٨٦٨–١٨٧٢م) تم الغزو الروسي لخانات بخارى وخيوه وخوقند. فصاروا تابعين للروس. وعلى الرغم من أن هذه الخانات استطاعت أن تحظى باستقلالها بعد هزيمة الروس في الحرب العالمية الأولى.. إلا أنها ما لبثت أن أسقطت عام (٣٣٨هـ/١٩٢٠م)، وتم التقسيم البلشفي وتأسيس الجمهوريات السوفيتية.. وذلك رغم أن الروس كانوا خاضعين لسلطان السلاطين المغول حفدة جنكيز خان الذين دخلوا في الإسلام حتى الربع الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي.. حيث بدأ ميزان القوى بتغير لصالحهم، وذلك لانقسام الدولة الإسلامية في تركستان إلى ممالك مستقلة هي مملكة القرم واسترخان وقازان وسيبريا.. فقد تنافست هذه الممالك وتناحرت مع بعضها البعض، فتفككت وضعفت.. بل تفاهم الأمر بينها فحالف البعض قياصرة روسيا ضدها.

في نفس الوقت كانت دعائم القيصرية قد توطدت، وأصبحت موسكو وريثا للإمبراطورية البيزنطية بعد فتح العثمانيين للقسطنطينية عام ١٤٥٣م. وأصبح القيصر حامي الأرثوذكسية التي انتشرت بين الروس، فلما شعر القيصر إيفان الثالث بقوته امتنع عن دفع الجزية لخان المغول ودارت الحرب بنيهما عام ١٤٨٠ – وكان النصر حليف إيفان الثالث.

بداية الفاجعة وانتشار الشروخ

وكان ذلك بداية للفاجعة والشروخ التي ألمت بمسلمي تركستان ومآذنهم. إذ أعد الروس عدتهم للقضاء عليهم، فلما تولى العرش إيفان الرابع الذي لقبه المؤرخون بإيفان الرهيب؛ حيث كان دمويا متعصبا، فأخذ يشن الحملة تلو الحملة على قازان.. لكن حملاته كانت تفشل أمام مقاومة الأتراك، المسلمين الباسلة. حتى استطاعت الجيوش الروسية بعد حصار طويل لها أن تحدث ثغرة في قلعتها، فتدفقت منها إلى قلب المدينة، ودارت منها المعارك من شارع إلى شارع، ومن بيت إلى بيت فتساقط كثير من القتلى وحل الخراب واستبيحت الحرمات.. ولم تمض أعوام أربعة على سقوط قازان، حتى نجحت الجيوش الروسية في الاستيلاء على مملكة استرخان.

غزو سيبريا

وفي عام ١٥٨٢ بدأ الروس غزوهم لسيبريا.. فأنفذ إيفان الرابع جيوشه إلى دولة بني قوندي التي كانت تحكم سيبريا والشمال الغربي من تركستان. فتصدت لها جيوش المسلمين بقيادة حاكمها (كوجم خان) للدفاع عن بلاده. فدارت بينهم معركة طاحنة انتهت بهزيمة جيوش الروس وانسحابها بعد قتل قائدها.

وفي مطلع القرن السابع عشر دارت المعارك بينهم من جديد، كافحت جيوش الأتراك المسلمين كفاحا باسلا.. استشهد فيها كوجم خان ونجح الروس في الاستيلاء على مملكة سيبريا بعد حروب دامت أكثر من نصف قرن.

ثورة استراخان

لكن التركستانيين ما استكانوا، بل واصلوا جهادهم ضد ظلم الروس وتعسفهم، فقاموا بثورات كانت تقلق الحكم القيصري، يذكر منها ثورة استراخان ضد حكم القيصر بطرس الأول (١٦٨٢/١٧٢٥م). فقد استطاعت استراخان أن تحظى باستقلالها عن الإمبراطورية الروسية لمدة تسعة أشهر فيما بين عامي (١٧٠٥/١٧٠٦م).. ولكن هذه الثورة قمعت بأقسى وأبشع ما عرف في التاريخ من وسائل القمع والتدمير.

ومن القرن الثامن عشر بدأت الأمور تسير في غير صالح التركستان، وتساعد الروس على ازدياد توسعهم، فقد تأزمت العلاقات بين روسيا في عهد قيصرتها كاترين الثانية (١٧٦٢/١٧٦٦م) والخلافة العثمانية، وانتهت الحروب بينهما بسيطرة الروس على مملكة القرم.. كما تعرضت بلاد تركستان في هذا العصر لإغارة طائفة القلموق من الشمال الشرقي،

فأصبحت وأصبحت جيوش تركستان الشمالية بين نارين. تصفية حروبهم ضد الروس غربـــا، ومحاولتهم وقف زحف قبائل القلموق شرقا، وبينما كان هذا يحدث في الشمال، كـــان النـــزاع الداخلي يفتك تركستان الجنوبية.

علاوة على ذلك فقد تعرضت تركستان من الجنوب لغزو الفرس بقيادة (نادر شـــاه)، كما انتقل حكم ما وراء النهر من أيدي أمراء الاسترخانين إلى أيدي أمراء. هذا بالإضافة إلى غارة الصينيين على تركستان من ناحية الشرق منتهزين انشغال التركستانيين بـــالحرب مـــع الروس في الغرب.. مما اضعف مقاومتهم أمام الروس، وقد ظهر فوق هذا خطر جديد تمثـــل في الإنجليز الذين بسطوا نفوذهم على الهند، وحاربوا الأفغان عام ١٨٣٩م.. فبدأوا تهديـــدهم لإمارة بلخ وقندز ولقية الإمارات الجنوبية من تركستان.

اقتحام جورجيا

وكان الروس في ذلك الوقت قد عززوا جيوشهم، واتجهوا بخطوات واســـعة، حتـــى وصلوا إلى المواطن الأوسط لنهر سيحون؛ حيث سيطروا فـــي عهـــد القيـــصر أذربيجـــان، وداغستان والجزء الأكبر من أرمينيا.. وكان إقليم ما وراء النهر في ذلك الوقت مقسما إلـــى ثلاثة أقسام أصلية في إمارة خوقند، وإمارة بخراة، وإمارة خيوه.. فبدأ الروس زحفهم علـــى إمارة خوقند في ديسمبر ١٨١٣م ولكن حملتهم باءت بالفشل لاستماتة أهلها في الدفاع عنهـــا.. واستمرت الحرب بينهم زمنا، حتى تمكنت الجيوش الروسية من قتـــل وإلـــى حـــصنها عـــام ١٨٥٩، واقتحامها والاستيلاء على جميع مدنها عام ١٨٦٤م.

حصار طشقند

كما حاصروا مدينة طشقند أكبر مدن تركستان عام ١٨٦٥م، ونجحوا فـــي إســـقاطها رغم قطع الجداول والأنهار التي تسقى أهل المدينة، وعدم استسلام أهله، ومحاربتهم متحملين الجوع والعطش في طرقات طشقند وأزقتها..،ليس هناك أبلغ من شهادة قائد الروس الجنـــرال (تشرنايف) فاتح طشقند إذ يقول: (إن المدينة كانت مستعدة بأكياس الرمال في جميع الشوارع وكانت المقاومة في منتهى العنف، وقد مات كثير من الناس وهـــم يهاجموننـــا جماعـــات أو فرادى، ولم يستسلم أحد قط، فضل الكل الموت على أسنة الرماح، وعانى جنودنا الكثيـــرون وهم يجتازون الشوارع في وجه قتال مرير، ولم نضع أيدينا على مجتمع أو نـــاد إلا بعـــد أن سبحت جنودنا في مجار من الدماء).

الاستيلاء على أمارة خيوه:

كما بدأت محاولتها المتعددة منذ عام ١٨٥٤م للسيطرة على أمارة بخـارى، ولكنهـا كانت تفشل أمام مقاومة جيوشها الباسلة، حتى استطاعت في ١٨٦٨م أن تستولي على مـدن سمرقند ورزافشان وصغد، ومنها تمكنت من بسط سيطرة على بقيـة الـبلاد عـام ١٨٧٣م، وعينت سفيرا لها في بخارى يدير أمورها لصالح دولته.

كما نجحت القوات الروسية في الاستيلاء على أمارة خيوه بعد سلسلة مـن الحمـلات بدأت منذ عام ١٨٣٩م، وكان مصيرها دائما الفشل بسبب اسـتحكامات الطريقـة واسـتماتة التركستانيين وقسوة المناخ.. بعد أن أعد خطة وقسم جيشه إلى أربعة فرق، فأغاروا عليها في آن واحد وتمكنوا من اقتحامها.. وعقد الجنرال (فوقمانك) معاهدة جائرة مع حاكمها، كان من ضمن بنودها أن يتحمل هو وأهل خيوه كافة المصاريف العسكرية الروسية، ومقدارها مليونان ومائتا ألف روبل. وذلك لسوء إدارة خان خيوه وحكومته.

السيطرة الكاملة على تركستان:

ومع أوائل الثمانينات من القرن قبل الماضي كان قد تم لقياصرة الـروس الـسيطرة الكاملة على بلاد تركستان، وقد حاول الأتراك المسلمون أن يستعيدوا ما فـات وأن يـستأنفوا الجهاد، ولكن الظروف لم تكن مواتية.. وهكذا خيم ظلام القيصرية على مساحات غنية شاسعة من أرض المسلمين.

تركستان في ظل الشيوعية:

في بداية القرن العشرين أعلن الشيوعيين ثورتهم على القياصرة، واستطاعوا الإطاحة بعروشهم عام ١٩٠٥م والوثوب إلى السلطة في أكتوبر ١٩١٧م.

وقد كان الشيوعيون أشد دهاء للمسلمين والدعاء لدينهم، وقد عمدوا إلى كسب مساندة تركستان الإسلامية لثورتهم وهي في مهدها مستغلين معاناة المسلمين مـن ظلـم القياصـرة واضطهادهم، فأصدر المؤتمر السابع للحزب الشيوعي البلشفي لعموم روسيا الذي عقـد فـي أبريل عام ١٩١٧م قرارا بهذا الشأن يتضمن من بين ما يتضمن حق القوميات غير الروسـية في الانفصال عن روسيا وضمان حقوق الأقليات.

كما أصدر مجلس مفوضي الشعب برياسة لينين نداءه الشهير إلـى المـسلمين فـي ديسمبر ١٩١٧م يقول فيه:

(.. أيها المسلمون في روسيا..

أيها التتر على شواطئ الفولجا وفي القرم

أيها القيرغيز والسارانيون في سيبريا وتركستان والتتار والأتراك في القوقاز أيها التشيشينون، يا أهل الجبل في أنحاء القوقاز.. أنتم يا من انتهكت حرمات مساجدكم وقبوركم، واعتدى على عقائدكم ومقدساتكم.

منذ اليوم ستكون حرية عقائدكم وعاداتكم وحرية نظمكم القومية ومنظماتكم الثقافية مكفولة، لا يطغى عليها طاغ، ولا يعتدي عليها معتد.

هبوا إذن فابنوا حياتكم القومية كيف شئتم، فأنتم أحرار لا يحول حائل بينكم وبين ما تريدون.. إن ذلك حق لكم، وأعلموا أن حقوقكم شأنها شأن حقوق سائر أفراد الشعب الروسي.. تحميها الثورة بكل ما أوتيت من عزم وقوة، وبكل ما يتوافر لها من وسائل.. الجنود الشجعان ومجالس العمال ومندوب الفلاحين، أذن فشدوا بأزر هذه الثورة، وخذوا بساعد حكومتها الشرعية!!

ومع هذا كان لينين يضمر للمسلمين عكس هذا النداء، ويبدو في تصريحه ليروبيفتش في أواخر سنة ١٩١٧م الذي سجله التاريخ الرومسي؛ إذ يقول له: (أن أمامنا في مجال الدين حربا طويلة جادة هائلة لا هوادة فيها، حربا تقتضينا الحذر كل الحذر)!!

ولهذا لم يمض على إصدار نداء لينين الشهير، حتى انطلقت جحافل النجمة الحمراء دون سابق إنذار مزودة بأحدث أسلحة العصر لتخضع الشعوب الإسلامية بأبشع وسائل القمع.

أكل لحم الإنسان

ولم يمض وقت طويل حتى كانت الجيوش الحمراء قد استولت على شمال القوقاز وإمارة خوقند في يناير ١٩١٨م.. كما اختلت أيضا أذربيجان والقرم في إبريل ١٩٢٠م، وقد استمات جيش القرم في الدفاع عنها، فاعتصم بالجبال وعاونه أهلها، فلما رأت الجيوش الروسية مناعة مقاومتهم، لجأت إلى حرب التجويع، فنقلوا ما في جزيرة القرم من أقوات، مما عرض جنودها وأهلها الأبرياء للمجاعة.. وقد نشرت جريدة (أزفستيا) في ١٥ يوليو ١٩٢٢م تقريرًا للرفيق (كلينين) عن مجاعة القرم جاء فيه (.. بلغ عددهم في شهر مارس إلى شهر يناير ٣٠٢٠٠٠، مات منهم ١٤٤١٣، وارتفع عددهم في شهر مارس إلى ٣٧٩٠٠٠ مات منهم ١٩٩,٢، وبلغ في إبريل ٢٧٧٠٠٠ مات منهم، ٢٩١,٧٢,٠ وفي شهر يونية بلغ

٢٣٩١٥,٠.. ولم يذكر عدد الموتى إلا أنه قال: (إن أكل لحم الإنسان لم يكن من الحوادث التي يستغرب لها أو تبدو عجيبة في بابها).

وبعد ذلك حاصرت الجيوش الحمراء إمارة خيوه من ثلاثة جهات، واستبسل أهلها في الدفاع عنها، ولكنها سقطت في نهاية عام ١٩٢٠م.

وفي عام ١٩٢١م استأنفت الجيوش الحمراء هجومها على إمارة بخارى، فقصفتها برا وجوا، فأنزلت بها خسائر فادحة؛ حيث التهمت الحرائق معظم مباني بخارى.. وقتل في هذا العدوان الغاشم حوالي خمسين ألفا من الشيوخ والأطفال والنساء والرجال خلاف القتلى من جنودها.. مما اضطر حاكمها عالم خان إلى مغادرتها واللجوء إلى أفغانستان طلب للمساعدة.

لكن مسلمي تركستان لم ييأسوا، ولم يكفوا عن الدفاع عن وطنهم، فأمام انهزام جيوشهم المنظمة، كانوا قد شكلوا حركة المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الروسي لبلادهم عام ١٩١٨، تلك الحركة التي تزعمها رجال الدين وعرف باسم البسماجية (وتحت ظلالها شكل فدائيو تركستان جبهة مقاومة في كل إمارة، كانت تسلك مع الجيوش الروسية حرب العصابات، فكان الفدائيون يختبئون في الجبال، ثم يقومون ليلا بالإغارة على مخازن الأسلحة والذخيرة الروسية فينهبونها ثم يحاربون القوات الروسية).. وكانت الحركة مصدر خطر يقلق الحكومة الروسية.

وقد توحد لواء هذه المقاومة تحت قيادة أنور باشا، فكون جيشا وطنيا قوامه خمسة عشر ألف مجاهد، وظل يجاهد في شرق بخارى نائبا عن حاكمها عالم خان، ونجح هذا الجيش في الاستقلال بشرق بخارى وتمكن من فتح مدن كثيرة.

وفي عيد الأضحى عام (١٣٤٥هـ/١٩٢٤م) ورغم اتفاقية الهدنة بين جيش المسلمين والروس إلا أن الروس نقضوا الاتفاقية وأغاروا على المسلمين في صلاة العيد، فاستشهد كثير منهم ومن بينهم قائدهم أنور باشا.

وقد تولى القيادة من بعده إبراهيم لقى، فهاجمته القوات الروسية عام ١٩٢٥م. واستطاع أن يصمد أمامها، وفي تلك الفترة كان البلاشفة الروس قد أرسلوا جنودهم إلى (درقند) عند حدود أفغانستان قرب نهر جيجون؛ حيث دار جدال بين الطرفين بخصوص الحدود، فانتهز إبراهيم لقى هذه الفرصة، فترك بعض قواده مع جيش بشرق بخارى، وتولى بنفسه قيادة باقي الجيش الذي بلغ عدد أفراده ألف وخمسمائة مجاهد، وانتظر بالقرب من منطقة النزاع، يرقب نتيجة المباحثات بين الروس والأفغان، ليسرع للمساعدة بجانب الأفغان إذا قامت الحرب بينهما، ولكن المباحثات انتهت بعقد اتفاقية بينهما.

فلما علم الروس بوجوده مع قواته وراء الجبال، هجموا عليه بجيش من خمسة وعشرين ألف جندي، ودار قتال عنيف مدة خمسة أيام، فتشتت قوات إبراهيم لقى في الجبال، ولم يبق معه سوى ثلاثمائة مقاتل، مما اضطره إلى عبور نهر جيجون واللجوء إلى أفغانستان؛ حيث أقام بجوار عالم خان!

وقد أرسل عالم خان عبد الملا القهار من كابل ليجمع الفدائيين من غرب وشمال بخارى، وقد نجح عبد الملا القهار في تنظيمهم، واستطاعوا أن يستولوا على بعض المدن والقرى، بل واصلوا زحفهم للاستيلاء على بخارى العاصمة.

ولما رأى الروس صعوبة وقف زحفهم، أخلوا لهم الطريق، فدخلوا المدينة فاتحين منتصرين، ثم حاصروهم بعد أربع ساعات، وأغاروا على المدينة بالدبابات والمصفحات والمدفعية والطائرات، فاستشهد الكثير ولم يستطع الملا عبد القهار بمن بقى معه من قواته القلائل الصمود أمامهم، فانسحب إلى قزاقستان.. فخرب الروس قرى ومدن بخارى وقتلوا الكثير من أهلها، وبذلك انتهت حركة الفدائيين التي دامت حتى عام ١٩٣٢م.

وبعد أن استمر الروس بلاد تركستان، شرعوا في تنفيذ مخططهم السوفيتي لتفتيت وتمزيق شمل هذه الشعوب الإسلامية، وقطع الصلات بين ماضيها وحاضرها والقضاء على دياناتها ومدينتها من أجل نشر الإلحاد والشيوعية بين أرجائها.

وفي خلال النصف الأول من القرن العشرين قام البلاشفة الشيوعيون عملا بالسياسة الاستعمارية فرق تسد بتفريق وتمزيق الشعوب التركمستانية المسلمة إلى عدة قوميات مستقلة، نسبة إلى المقاطعات على أساس لهجاتهم المختلفة التي تنتمي في الأصل إلى لغة واحدة، وأسموها جمهوريات، فأقيمت في القوقاز وهي بلاد الكرج وجورجيا وأذربيجان وداغستان وبلاد الشركس والأرمن وإيديل أورال والقرم جمهوريات ضمت إلى الاتحاد السوفيتي كما جزئت تركستان الغربية بعد أن ضمت الصين تركستان الشرقية إلى حوزتها إلى ست جمهوريات هي أوزبكستان وطاجيكستان وقازقستان وقيرغيزستان، وقراقلباقستان، وأصبحت تحت نفوذ السوفييت، وحكموا حكما مباشرا.

وإمعانا في خلخلة تجمعاتهم الإسلامية، وقطع صلاتهم بين حاضرهم وماضيهم والقضاء على مدينتهم، قامت الحكومة السوفيتية بنفي آلاف الأتراك المسلمين إلى مجاهل سيبريا، واستقدمت الوفا مؤلفة من الروس والسلاف والأوكران إلى هذه البلاد.

لهذا أصبح الروس يشكلون ٤٣% من سكان جمهوريات قازقستان، وانخفض عدد المسلمين بها إلى ٥٢% بعد أن كانوا يشكلوا نحو ٧٠% من سكانها، كما أصبح العنصر الروسي بشكل ٢٩% من مجموع سكانها.

وقد تم ذلك بسبب وقائع مؤسفة ودامية:

قتل الروس في تركستان وحدها عام ١٩٣٤م مائة ألف مسلم من أعضاء الحكومة المحلية والعلماء والمثقفين والتجار المزارعين.

وفيما بين عام ١٩٣٩/٣٧م ألقت روسيا القبض على ٥٠٠ألف مسلم، وعددا من الذين استخدمتهم في الوظائف الحكومية، ثم أعدت فريقا، وأرسلت فريقا آخر إلى مجاهل سيبريا كما قتلوا في عام ١٩٥٠ سبعة آلاف مسلم ونفوا من تركستان عام ١٩٣٤ ثلاثمائة ألف مسلم كما هرب من تركستان مند عام ١٩١٩ حتى عام ١٩٨٠م أكثر من مليونان ونصف مليون من المسلمين وفي عام ١٩٤٩ هرب ألفان من تركستان الشرقية، ولقى حتفه من هذا الفريق الهارب ١٢٠٠ وهم في الطريق إلى الهند.

ومن عام ١٩٣٢ حتى ١٩٣٤م مات ثلاثة ملايين تركستاني جوعا، نتيجة استيلاء الروس على محاصيل البلاد وتقديمها إلى الصينيين الذي أدخلوها إلى تركستان.

ونتيجة لقانون إذابة الشعوب الإسلامية في الاتحاد السوفيتي، نفت روسيا ٤٠٠,٠٠٠ مسلم تركستاني إلى أوكرانيا وأواسط روسيا، فاندمجوا في تلك الشعوب وفقدوا وطنهم الأصلي وفي عام ١٩٥٠م ألقي القبض على ١٣٥٦٥ مسلم في تركستان، وأودعوا المعتقلات، ولم يكتفوا بهذا، بل عملوا على إثارة الطبقات الكادحة من الفلاحين والعمال على الإقطاعيين أصحاب الأرض والمصانع، وذلك من أجل بلبلة الفكر وتشتيت الشمل والإذابة في شعوب الجمهوريات الإسلامية السوفيتية.

كما أصدرت السلطات الشيوعية عام ١٩٢٥ قرار باستبدال حروف هجاء اللغة التركية الجغتائية لغة مسلمي تركستان إلى حروف الهجاء الروسية، وذلك من أجل ترويس هذا الشعب والقضاء على قومياته، وقد كانت هذه اللغة تكتب بالحروف العربية لنشأتها تحت ظل الإسلام، وتأثرها بحضارته، ودخلت فيها كلمات عربية كثيرة.

ظلت الشيوعية الملحدة ترى أن الدين يقوم بدور هائل في عرقلة تطور المجتمع الشيوعي وربطة بعجلة التكنولوجيا المتقدمة، ويؤيد ماركس هذا حين قال (إن الدين أفيون الشعب) وفسر رأيه بقوله: (أي دين ما هو إلا انعكاس زائف في أدمغة الناس للقوى الخارجية المتحكمة وفي حياتهم اليومية، وإنه انعكاس تتخذ فيه القوى الأرضية شكل قوي غير أرضية).

ومن هنا بدأت السلطة السوفيتية في عملية القضاء على الدين ونشر الإلحاد وتربية الشعب في روح الشيوعية، فمنذ الأيام الأولى لها أصدرت سلسلة من المراسم والقوانين التي تؤسس مبدأ الإلحاد مثل:

مرسوم بعنوان (عن الأرض) صدر في نوفمبر ١٩١٧، يقضي بمصادرة جميع الأراضي المملوكة للكنيسة والأديرة ودور العبادة الأخرى.

وفي ديسمبر ١٩١٧ صدر مرسوم بشأن الأحوال الشخصية يقضي بإحلال التوثيق المدني محل التوثيق الديني، ويقضي بإعدام أي أثر قانوني للعلاقة بين الزوجين أو بين الآباء والأبناء وبهذا القانون منع المسلمون من التمتع بالنظم الإسلامية في دائرة الأحوال الشخصية، فألغيت بذلك المحاكم الشرعية في جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي. وفي يناير عام ١٩١٨م أصدر السلطة السوفيتية قرارًا بوقف صرف أي مرتبات لرجال الدين أو العاملين بدور العبادة.

وقد كانت هذه القرارات مجرد إجراءات عاجلة بادرت السلطة باتخاذها حتى أعلنت حكومة الثورة في دستور جمهورية روسيا الاتحادية الفيدرالية الصادر عام ١٩١٨م مبدأ حرية الضمير ونصته في شكل مادة دستورية تنص على أن (حرية العبادة الدينية واللادينية مكفولة للجميع).

وقد أعطى هذا القانون للمتدينين الحق في تكوين منظمات أو جمعيات دينية لممارسة الشعائر والطقوس الدينية بشرط موافقة اللجنة التنفيذية لمجلس السوفييت بالمنطقة أو المدينة وأن من حق الدولة أن تحظر نشاط أي جمعية دينية، وغلق أي دور للعبادة ومصادرة ممتلكاتها إذا رأت نشاطها يخالف أهداف الدولة.

كما يحظر القانون على الجمعيات والمنظمات الدينية أن تخصص صندوقا للمعونات، وأن تقوم بأي نشاط خيري أو عمل اجتماعات ولقاءات وندوات للأطفال والشباب والمرأة، كما يمنع عقد أي أنواع من الحلقات لتدريس الدين للمواطنين. الخ.. الخ.. ومن هنا بدأت السلطات

السوفيتية بعد أن احتلت تركستان. وقامت بتمزيق شمل شعوبها الإسلامية، صارت تقوم بهدم المساجد وتحويلها إلى مسارح ونواد ودور للهو، وإغلاق المدارس الدينية.

ويذكر أنه بلغ عدد المساجد التي هدمت وحولت إلى غايات أخرى في تركستان وحدها ٦٦٨٢ مسجدا منها أعظم المساجد الأثرية مثل: (منارة مسجد كالان) في مدينة بخارى و(كبة جامع) في مدينة فوقان و(جامع ابن قتيبة) و(جامع الأمير فضل بن يحيى) و(جامع خوجه أحرار) في مدينة طشقند كما بلغ عدد المدارس والكتاتيب التي أغلقت في تركستان ٧٥٠٢ مدرسة، وفي القرم طمسوا معالم الإسلام بما فيه الجوامع الأثرية مثل (جامع خان) وجامع (طوزيازا) و(جامع اصماقوقو) وغيرها في مدينة (باعجة سراى).

كما قامت بقتل رجال الدين، أو نفيهم أو الحكم عليهم بالأشغال الشاقة، أو منعهم من حقوقهم السياسية، وقد قامت بعدة حملات على رجال الدين المسلمين في تركستان وغيرها من المناطق الإسلامية الشاسعة في الاتحاد السوفيتي، وقتلت الكثير منهم مثل: الشيخ برهان البخارى قاضي القضاة، وفضيلة الشيخ خان مروان خان مفتي بخارى، والشيخ عيد الأحداد خان، والشيخ الحاج ملا يعقوب والشيخ ملا عبد الكريم والكثيرين غيرهم، كما قامت بحرق المصاحف الشريفة في الميادين العامة بالقرم.

ومن الزعماء السياسيين الذي قامت بقتلهم في تركستان عام ١٩٣٤م الحاج خوجه نياز رئيس الجمهوري، ومولانا ثابت رئيس مجلس الوزراء، وشريف حاج قائد مقاطعة التاء، وعثمان أوزار قائد مقاطعة كاشغر ويونس بك وزير الدولة، والحاج أبو الحسن وزير التجارة، وطاهر بك رئيس مجلس النواب، وعبد الله دا ملا وزير الأشغال والكثيرين غيرهم.

وقد كانت السلطات السوفيتية تقوم بحملة تصفية على كل من تساوره نفسه بمخالفة سياستها بحيث يصبح القادة ورجال الدين ودور العبادة بهذه القرارات الجائرة العوبة في إيديها مسلوبة الشخصية، مما يؤدي في النهاية إلى عدم إقناع الناس بها وانصرافهم عنها.. كذلك كانت بمنعها تدريس الدين في المدارس، وتحريم دخول الأطفال والشباب الأقل من ثمانية عشر عاما دور العبادة، لممارسة الشعائر الدينية، وعدم القيام بأي نشاط ما هو إلا اجتثاث لجذور التدين تمهيدا للقضاء على الدين.. كما أن دهاءها في منع الناس من زيارة الأماكن المقدسة بحجة الحفاظ على صحتهم ما هو إلا أباطيل بقطع أواصرهم عن ماضيهم بتراثه العريق، والدليل على ذلك أن الأطفال دون العاشرة كانوا يساقون إلى الميدان الأحمر في طوابير طويلة تحت جليد الشتاء وبرد موسكو القارس، يحملون الورود والشارات والأعلام، ليقفوا أمام مقبرة لينين؛ حيث ينتظرون الساعات والساعات من أجل أن يحظوا بنظرة على جثمانه المسجى في صندوقه الزجاجي تحت الأضواء.

نشر الإلحاد

أما نشر الإلحاد الذي كان هدف الثورة الثقافية، فكان عن طريق زعزعة العقيدة، وتشكيك الناس في إيمانهم، وتشويه وتزييف حقائق وتاريخهم الإسلامي من أجل القضاء على الدين، وقد تولى الإشراف على تنفيذ مخططه وزارات التعليم والثقافة والنقابات المهنية كنقابة الصحفيين واتحاد الكتاب والنقابات العمالية، وتعمل جميعها تحت إشراف الحزب وتوجيهه وكافة أجهزته المتخصصة بتخريج الكوادر المختصة في ممارسة الدعاية الإلحادية.

ولتحقيق أهداف الثورة الثقافية في نشر الإلحاد كان لابد من إعادة تصنيف وكتابة التاريخ الإسلامي بحيث يتفق مع أهداف الحزب والحكومة، لهذا اتجهت جهود المستشرقين السوفيت إلى محاولة التماس تفسير مقنع لظهور الإسلام، يتفق مع مواصفات الماركسية وفروضها، ينفي الصفة الإلهية عن الإسلام وكتابه المنزل.. وأصبح القرآن الكريم وشخصية الرسول عليه السلام وسيرته وتاريخ صحابته محور حملات الافتراء والتشكيك، ولم يقتصر نشر هذه الأباطيل على قاعات البحث وأروقة الجامعات، وإنما تم طبعها ونشرها لتكون في متناول جماهير المسلمين هدما للإيمان وزعزعة العقيدة.. وفي محاولة تشويه تاريخ الإسلام في أسيا الوسطى والقوقاز، أصبح المتصفح لكتب التاريخ المقررة على مدارس الجمهوريات الإسلامية، يجدها تصور مظالم القيصرية نعيما، إذا ما قورنت بمظالم الحكام المسلمين، كما تؤكد أنه كان ثمة تحالف دائم بين الخلفاء والأمراء، وبين رجال الدين الإسلامي، هدفه استغلال الناس والاستئثار بالطيبات!! ويفسر مصنفو الكتب أن هذا التحالف ليس مناقضا لمبادئ الدين، إنما هو نابع منها، لذا راحوا يزيفون الحقائق ويشوهون الأحداث، فصوروا قواد ثورات ضد الظلم والاستعباد، وصوروا قواد الحركات الفدائية المناهضة للسلطات الروسية على أنهم قطاع طرق يقومون بحرب العصابات من أجل النهب والتخريب.

لما كان المفهوم الشيوعي الملحد يرى أن الدين يقف حائلا دون التقدم العلمي والتكنولوجي فقد حاولوا غرس الإلحاد في نفوس التلاميذ على مختلف أعمارهم، عن طريق العلوم كالفلك والجيولوجيا والكيمياء والطبيعة والأدب. فقد نحت هذه العلوم منحى إلحاديا في دراستها وتدريسها.

كما كان تحويل المتاحف الأثرية في البلاد الإسلامية إلى أداة في يد الملحدين لتشويه معالم الإسلام، وتشكيك إيمان الزائرين به، فنجد مثلا في مقال بكتاب روسي تحت عنوان (الإلحاد والدين والعصر) للكاتب أ. ستسكافيتش تحامل على المسئولين عن المتاحف، وإعادة صياغة الشروح المكتوبة على البطاقات المثبتة على هذه المعروضات، ويوصى الكاتب

تخصيص جانب من المتاحف الإسلامية لتاريخ المناطق الإسلامية بعد ثـورة أكتـوبر لكـي يوازن الزائرين بين حال التدين والتخلف، وبين حال الإلحاد والتقدم، كمـا ينـصح الكاتـب المسئولين عن هذه المتاحف بأن يفصلوا فصلا تاما بين العادات والتقاليد القومية وبين غيرهـا من شعائر الإسلام، ثم يورد مأخذه على الطريقة التي اتبعها متحف تاريخ شعوب أوزبكـستان في طشقند في اعتباره الختان وتقديم الأضاحي من بين العادات والطقوس الشعبية، وفي رأيـه ورأي الكثيرين أن الخلط بين مظاهر القومية ومظاهر الدين يؤدي إلى اعتقـاد كـل منهمـا بالآخر.. على حين أن القضاء على كليهما في آن واحد هو من أهم الأهداف التي يقصد إليها الحزب والدولة.

بل الأبشع من هذا أن الملحدين يعملون على إدخال طقوس وعادات وتقاليد بالية ترجع إلى جاهلية ما قبل الإسلام، وذلك من أجل تمييـع الشخـصية الدينيـة والقوميـة للـشعوب الإسلامية، وقطع صلة هذه الشعوب بالإسلام والقومية التركية فيسهل ترويسها وكذلك إصدار الكتب والمجلات والصحف الإلحادية التي تتناول الإسلام بالتزوير والتحريف باللغات القومية وتوزيعها بين الجمهوريات الإسلامية في حين تقتصر دعوة رجال الدين إلى الإسـلام علـى مجلات معدودة تصدرها الجمعيات الدينية تحت سيف الرقابة، فتخرج في صـورة هزيلـة لا تنفع الإسلام أكثر ما تضره.

وأيضا استخدام وسائل الإعلام كالإذاعة والتليفزيون والمسرحيات والقـصص والأدب الروائي في تشويه وتزييف تاريخ الشعوب الإسلامية، وإثارة الطبقة الكادحـة علـى طبقـة الإقطاعيين، وأيضا في التشكيك في الإسلام وتاريخه، حتى أن مسرح العرائس قدم مـسرحية في موسكو بعنوان (الكوميديا الإلهية).. وقد اتضح لمشاهدين تلك المـسرحية أنهـا لا تمـت لكوميديا دانتي إلا بصلة الاشتراك في العنوان، وأن مضمونها فكان عرضا بالدمى والعرائس لقصة خلق سيدنا آدم وأمنا حواء كما أوردتها الكتب المقدسة، وتظهر على المسرح من بـين الدمى دمية كبيرة يمثلون بها ذات الله سبحانه في صورة هزلية مقيتة تتحرك خـلال حـوار هابط، وضحكات فارغة مجنونة تتردد أصداؤها في القاعة سخرية واستهزاء بـذات الله عـز وجل وملائكته وكتبه ورسله. ومع هذا تحقق قول الله تعالى في محكم كتابه: (من كان عـدو الله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) البقرة.

فقد سقطت الشيوعية، وأصبحت تمثل انهيارًا فادحًا وضع شعوبها على حافة العـوز مما جعلها فريسة للضياع والسقوط المادي والأخلاقي.

وبقى الإسلام شامخا، تعلو راياته من جديد فوق أرضه السابقة ومراكزه القديمـة دون أن تهزمه كل تلك الأفاعيل الجائزة، والحروب الظالمة.. لم يسقط الإسلام على الـرغم مـن

محاولات روسيا الشيوعية من تمزيق شمل الشعوب التركستانية وتقسيمهم إلى جمهوريات، وتغيير حروف هجائهم العربية إلى الحروف الروسية، بهدف قطع العلاقات التاريخية والثقافية بين الأجيال الحاضرة وبين تاريخهم العريق تمهيدا للقضاء على الإسلام قضاء مبرما.

الدفاع عن سماحه يوسف ستالين

ورغم أن ستالين قام بعد الحرب العالمية الثانية بإرسال الرسل إلى آسيا الوسطى بشكل مكثف، ثم قام باقتلاع بعض شعوب روسيا والقوقاز ونقلهم إلى آسيا الوسطى (الألمان والأتراك والكوبيين والأرمن والأكراد والأوكرانيين).. إلا أنه أمر بعقد مؤتمر للكنائس والطوائف الدينية في الاتحاد السوفيتي (الفترة من ٩-١٢ مايو ١٩٥٢) لبحث مسألة الدفاع عن السلام!

ومن العجيب أن ضياء الدين بابا خان نائب رئيس الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاخستان أعتلى منبر المؤتمر وقال من بين ما قال:

(.. تذكروا يا أخواننا الأعزاء أن جهادنا أشبه بسيل جارف من مياه الربيع، مندفع نحو الساحل المقصود بكسح كل ما يعترضه من عوائق، ويضمن حياة هنيئة على الأرض ويشيع السعادة في حياتكم.

لقد وجدت شعوب آسيا الوسطى وقازاخستان سعادتها على الأرض تحت شمس الدستور الستاليني (!!). وغدت صنوا في الحقوق في عائلة شعوب الاتحاد السوفيتي (!).

وأحرزت شعوب آسيا الوسطى وقازاخستان تقدما كبيرا في سنوات السلطة السوفيتية (!!). أن شعوبنا تعيش في مدن وقرة مزدهرة وتنتصب فيها قصور الثقافة والمدارس والجامعات ومجامع العلوم والمسارح والحدائق ودور الاستجمام وما إلى ذلك (!).

يمارس المؤمنون من جميع المذاهب في بلادنا طقوسهم الدينية بحرية (!). ومنهم المسلمون في آسيا الوسطى وقازاخستان الذين لهم مساجدهم وجوامعهم (!) الذين يقيمون فيها فريضة الصلاة (!).. ولقد وضعت الحكومة السوفيتية تحت تصرف المسلمين القباب والأضرحة الإسلامية الأثرة النفيس كجامع شاه زند) في مدينة سمرقند و(بهلوان عطا) في مدينة خيوه و(كفال شاش) في مدينة طشقند وغيرها من الأماكن المقدسة، وتصون الحكومة السوفيتية وترمم الآثار الدينية والتاريخية الإسلامية (!) هذا وللمسلمين في آسيا الوسطى وقازاخستان معهدهم العالي للعلوم الدينية يقع في مدينة بخارى، ثم أن المسلمين لم يحصلوا

على إمكانية إيجاد إدارة دينية لهم في آسيا الوسطى وقازاخستان إلا في ظل السلطة السوفيتية (!!).

ويقوم المسلمون سوية مع جميع شعوب آسيا الوسطى بتغيير الطبيعة، فيروون الصحارى الأمر الذي كان يحلم به الشاعر والمفكر الكبير (على شيرنوائي) شاعر الشعب الأوزبيكي ومن مفكريه في القرن السادس عشر.. وحلمه هذا لم يتحقق إلا في عهد السلطة السوفيتية (!!) وتنتعش صحراء (قره قوم) بفضل عناية الحكومة السوفيتية لشعوب آسيا الوسطى (!).

إن المسلمين في آسيا الوسطى وقازاخستان ليبدون أتم امتنانهم لزعيم الشعب السوفيتي يوسف ستالين الذي نكن له الإجلال لاهتمامه برفاه الكادحين، ولنضاله المتواصل في سبيل السلام، وفي سبيل ازدهار وطننا (!!).

وعلى الرغم ممن انخدع من شعوب تركستان بالسياسة الشيوعية، وانجرف في تيارها، وأصبح من الموالين لها، فارتدعن دينه، غلا أنه كان هناك من بين هذه الشعوب، من وقفوا صخرة منيعة في وجه الإلحاد الجارف، يتمسكون بدينهم وتدينهم، ويؤكد هذا ما قاله الكاتب الروسي أ. زبيراموف في مقاله (خصائص نشر الإلحاد بين أفراد المسلمين في الاتحاد السوفيتي) عام ١٩٦٧ والذي يوضح أن نشر ألإلحاد بين أفراد المسلمين عام له خصائصه وصعوباته وتعقيداته، ثم يقر أن الإسلام لا ينتشر عن طريق الأئمة فحسب، بل كذلك عن طريق المواظبين على زيارة المساجد، وعن طريق المشايخ المتجولين، والمتدينات من العجائز، أولئك الذين يستغلون نفوذ التقدم في السن، وهو نفوذ واسع الانتشار بين الشعوب الشرقيو.. كما يؤثر الرأي العام الذي يكونه هؤلاء أيضا على غير المؤمنين، فعندما نجد الإنسان غير المؤمن لا يعلق على جدران شقته مثلا آيات من القرآن، ولكن زوجته لا تجرؤ على الجلوس إلى مائدة واحدة مع الرجال.. أو نجده لا يصوم رمضان ولكنه يحتفل بعيد الأضحى. أو نجده لا يحضر الجمعيات في المساجد ولكنه يقوم بختان ولده مثل هذا الانفصام في الشخصية يهيئ التربة الصالحة للمتدين، وعندما يحضر غير المؤمنين عيدا دينيا، فإنهم لا يختلفون من حيث المظهر عن المؤمنين في شيء.. نفس الكلمات ونفس الاهتمامات.. وهذا سلوك يؤثر بالسلب على المتدينين بترسيخ تدينهم، وعلى الشباب الذين يقلدون الكبار.. أنهم فرملة لها خطرها في سبيل الداعية الملحد.. ومن ثم يرى أنه ليس من قبيل المصادفة أن يتجمع الكثيرون في الأعياد القومية حتى من غير المؤمنين في الشارع قرب المسجد.

ومع هذا يشير المترجم أثناء زيارته لروسيا، أنه عندما تتجمع جموع المسلمين عند مسجد موسكو، وفي محطة المترو القريبة من المسجد ليتبادلوا التهنئة بعيد الفطر والأضحى،

تقوم الشرطة بتفريق جموعهم دون أن يعيروا أذنا لرجاء المسلمين وتوسلاتهم، وكثيرا ما ترتفع صيحات المسلمين قائلين: أنهما يومان في السنة، ألا تسمحون لنا بيومين فقط في كان عام؟.. أما ذريعة تفريق المجتمعين من المسلمين فهي تعطيل حركة المرور.. ومع هذا مر الإسلام خلال هذا التعنت الملحد والطريق المظلم.. وصار له كيانا بعد أن سقط الظلام واندحر الإلحاد بسقوط الشيوعية وإلى الأبد بعد معاناة مسلمي هذه الشعوب وصدهم سنوات طويلة مليئة بالدم والضحايا، إن ما حدث من انقلاب هوت على أثره دولة الإلحاد لم يكن إلا بعون الله عز وجل، ويدعم هذا ويؤكده تلك الآية الكريمة التي جاءت في محكم تنزيله (ولينصرن الله من ينصره، إنه لقوي عزيز) صدق الله العظيم (سورة الحج).

سقوط الاتحاد السوفيتي لماذا وكيف؟!

ظاهرة الاتحاد السوفيتي.. كونه وفساده، أو بالأحرى نشؤه وانحلاله، وهي وليدة ظروف مجتمع ضخم يضم أطراف المعمورة من شرق آسيا إلى قلب وسط ظروف دولية محتدمة من حروب وأزمات اقتصادية وآراء ومذاهب جعلت تلك الإمبراطورية القديمة تترنح وسط عالم جديد.. فقد كنا، أو كان العالم في بداية هذا القرن بإزاء إمبراطورية عظمى تقع في هذا الجزء من العالم وهي الإمبراطورية الروسية، التي قامت على التوسع فيما جاورها شرقا أو غربا أو جنوبا، أصبحت تضم إلى جانب مواطنيها من الروس، أجناسا متعددة من الشعوب التابعة يبلغ تعدادهم نصف سكان الإمبراطورية في مجموعها، ضمت بلادهم وألحقتهم بالدولة الروسية التي يتربع على عرشها القياصرة الروس، من أتباع الكنيسة المسيحية الأرثوذكسية، التي ورثت بيزنطة بعد سقوطها في يد العثمانيين، واعتبرت (روسيا المقدسة) حامية جديدة للمسيحية الشرقية وأورثتها بيزنطة (النسر ذو الرأسين).. على الرغم من القوة الظاهرة لهذه الإمبراطورية الضخمة، إلا أنها لاقت الهزيمة في عام ١٩٠٤م على يد اليابان، تلك الدولة الأسيوية التي شرعت تأخذ بأسباب الصناعة الحديثة، في صراع بين الدولتين على بعض الجزر في الشرق الأقصى قريبا من اليابان وعلى الأطراف الشرقية لروسيا، وكانت فضيحة الدولة مدوية لهذه الأخيرة، التي كانت تعتبر إحدى القوى الكبرى في أوروبا، وبالتالي في العالم كله.

ولم تلبث أن اندلعت في العام التالي لتلك الهزيمة، ثورة ١٩٠٥ الروسية التي عبرت عن حالة السخط والغضب التي اجتاحت مختلف صفوف المجتمع الروسي الذي فقد الكثير من أبنائه المستنيرين احترامهم للقيصرية وأسلوبها الاستبدادي في الحكم، واعتبروا أن الهزيمة المذكورة كانت نتيجة للفساد المستشري في صفوف الطبقة الحاكمة، والتخلف عن اللحاق

بالدول الغربية المتقدمة، سواء في نظام الحكم الديمقراطي الذي كان يسود معظمها، أو الأخذ بأسباب النهضة الصناعية على نحو صحيح، أو نشر التعليم العام.

واستطاعت النخبة الثائرة من المثقفين أساسا أن تحرك جموعا كبيرة من عمال الصناعة الوليدة في المدن الكبرى، التي كانت تعاني البؤس والاستغلال وتعيش في ظل أوضاع اقتصادية متدنية، وعلى الرغم من نجاح الحكومة القيصرية في قمع تلك الثورة بالقوة إلا أن الحكومة اضطرت إلى محاولة إدخال بعض الإصلاحات من نوع إنشاء مجلس نيابي محدود السلطات وهو مجلس (الدوما) ومحاولة تحسين بعض الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، التي عرفت باسم (عهد ستوليبيني) الوزير القيصري المخطط والمشرف على إجراء تلك الإصلاحات.

الثورة على القيصر

لم تمض عشرة أعوام على هزيمة روسيا في حربها مع اليابان حتى تورطت في الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤ بعد مضي ثلاث سنوات على بدء تلك الحرب.. كانت الجبهة الروسية مع الألمان في حالة تدعو للرثاء، فلم تلبث أن شبت الثورة على النظام القيصري المتسبب في تلك الحرب، والذي أساء إدارتها حتى كان عدد من يموت من الجنود الروس بسبب الجوع أكثر ممن يموتون برصاص الألمان!

وسقطت القيصرية في فبراير ١٩١٧م وقامت حكومة مؤقتة بزعامة كيرنسكي، وبدلا من توقف تلك الحرب، استمرت فيها، واستمرت الهزائم، وازداد إصغاء الجنود إلى الممرضين من البلاشفة، الذين كانوا يدعونهم إلى التآخي مع الألمان. وأن يكف العمال الألمان والروس عن أن يقتل بعضهم بعضا من أجل الطبقات الحاكمة وأطماعها الإمبريالية! وأرسلت السلطات الألمانية فلاديمير البتش لنيني، زعيم البلاشفة الذي كان منفيا من بلاده إلى روسيا في قطار خاص، بعد أن وعد الألمان بصلح منفرد معهم تنسحب بموجبه روسيا من الحرب، فيخفف الضغط على قواتها التي بدأت تلقي الهزيمة في الجبهات الأخرى.. وحينما واصل دعوته تلك في بلاده واستمر في تحريض الجنود على التآخي أمرت الحكومة الروسية باعتقاله لتقديمه إلى المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى، واضطر لينين إلى الاختفاء ريثما يدبر ثورة أخرى على الحكومة الانتقالية وهي الثورة البلشفية في أكتوبر ١٩١٧ وكان شعارها الأساس هو (السلام) للجنود و (الأرض) للفلاحين، و(كل السلطة للسوفيت) أي المجالس العمال.. وعقدت الحكومة البلشفية صلحا مهنيا مع الألمان باسم صلح برست ليتوفسك، وبموجبه فقدت

روسيا كثيرا من الأراضي التابعة لها على حدودها الغربية.. واستقلت عنها فنلندا وبولندا ودويلات البلطيق.

ودافع لينين عن هذا الصلح الاضطراري داعيا إلى التركيز على البناء الداخلي حتى تستطيع روسيا أن تستعيد ما فقدته.. ولكن الدول الغربية لم تترك هذا البناء يتم في هدوء، فشنت ضد روسيا الثورة ما عرف باسم حروب التدخل باعتبار أن النظام الثوري الجديد في روسيا خطر عليها.. لتحريضه عمال تلك الدول على الثورة عليها.

وبالفعل قامت ثورة في ألمانيا سقطت فيها القيصرية، وقامت حكومة سوفيتية في المجر ولكنها قمعت بالقوة من جانب الدول المجاورة، وحينما انتهت حروب التدخل ظلت العداوة مستحكمة، بين النظام الروسي والدول الغربية.

التأميم والتملك الجماعي

ثم طبقت الثورة السوفيتية سياسة تأميم معظم وسائل الإنتاج، وكانت الثورة تعتبر أن كل تملك ولو كان صغيرا لبعض وسائل الإنتاج يخفي وراءه تطلعا إلى ملكية أكبر، وأن صاحبه هو ظهير محتمل لعدو الثورة الخارجي.. وبهذا تحول الحكم الثوري باسم ديكتاتورية البلوليتاريا (أي الطبقة العاملة) إلى استبداد مطلق، وقهر بوليسي خانق، وامتد الإرهاب إلى صفوف الحزب البلشفي حيث مارس ستالين القمع الوحشي ضد الفلاحين المتمسكين بالأراضي التي وزعتها عليهم الثورة في أول عهدها.

الجيش الأحمر يتقدم

منذ بدأ هتلر اجتياحه بولندا، تقدم الجيش الأحمر السوفيتي ليلاقيه منتصفها، في الوقت الذي كانت فيه فرنسا وبريطانيا قد أعلنتا الحرب على ألمانيا بسبب هذا الاجتياح الألماني فاضطر هتلر أن يوقع معاهدة عدم اعتداء مع ستالين عام ١٩٤٠م لكيلا يحارب في جبهتين وتوجه بجيوشه إلى الغرب مجتاحا بلجيكا والنرويج وهولندا ثم فرنسا بعد ذلك، مع محاولة فاشلة في عبور المانش لاحتلال الجزر البريطانية، فتوجه بجيوشه مرة أخرى ناحية الشرق محاولا غزو روسيا بعد عام أو أقل من توقيع معاهدة عدم اعتداء معها! وتقدم في روسيا ما شاء له التقدم، ولكن تورط أمريكا في الحرب بعد الهجوم الياباني عليها في بيرل هاربور قلب الموازين الدولية.

كان من رأى تشرشل رئيس وزراء بريطانيا أبان الحرب، أن إقدام هتلر على غزو الاتحاد السوفيتي هو فرصة ذهبية للقضاء على الشيوعية، وأن الحلفاء لن يكفوا أيديهم عنه

حتى يفرغ من تلك المهمة أن لم يساندوه فيها! ولكن روزفلت رئيس أمريكا أبى ذلك عليه، وأصر على ضرورة مساندة السوفييت في صراعهم ضد النازية الألمانية باعتبارها العدو الأول، وبالفعل صدر قانون الإعارة والتأجير الأمريكي، الذي قدمت بموجبه مساعدات أمريكية هائلة من السلاح وغيره إلى الجيش السوفيتي الذي استبسل في الدفاع عن بلاده حتى أوقع الهزيمة بالنازية في ستالينجراد عام ١٩٤٣م ليبدأ بعدها هجوم الحلفاء الغربيين في نورماندي عام ١٩٤٤م وفي عام ١٩٤٥ تنتهي الحرب باستسلام المحور، ويكون الجيش الأحمر السوفيتي قد اجتاح معظم دول شرق أوروبا، حتى واجه الحلفاء في قلب الأراضي الألمانية.

المعسكر الاشتراكي

لم يسترد الاتحاد السوفيتي بهذا معظم الأراضي التي كان فقدها في صلح برست ليتوفسك فحسب، وإنما أصبح معسكرا دوليا؛ حيث أقام في شرق أوروبا أنظمة موالية له يحكمها أحزاب شيوعية، بما في ذلك الشطر الشرقي الذي احتلته قواته من ألمانيا.

واستعرت المنافسة الدولية ما بين المعسكر الاشتراكي الشرقي، والرأسمالي الغربي بزعامة أمريكا للحصول على مناطق النفوذ في العالم، ثم حدث شقاق رهيب بين الاتحاد السوفيتي والصين انتهى باتهام الصين للاتحاد السوفيتي بأنه قد انحرف من مبادئ الدولية الاشتراكية وقد أضعف هذا الشقاق المعسكر الاشتراكي برمته في مواجهة المعسكر الآخر. وأصبح الاتحاد السوفيتي يواجه الحرب الباردة على جبهتين مع المعسكر الرأسمالي و(الرفاق) الصينيين مما ألقى أعباء رهيبة على اقتصاده وجعله عاجزا عن رفع مستوى معيشة شعبه على نحو مرض.

وأخيرا تورط الاتحاد السوفيتي في حرب ساخنة طويلة مع أفغانستان؛ حيث لقيت الجيوش السوفيتية مقاومة مستميتة من شعب مسلم رفض أن يتخلى عن عقيدته تؤازره معاونة من العالم الإسلامي والمعسكر الغربي المناوئ للسوفيت. وشرع الصدع يمتد إلى داخل الكيان السوفيتي؛ حيث كان قد تم تقسيم الإمبراطورية الروسية بعد الثورة، إلى ست عشر جمهورية المفروض فيها أنها مستقلة متساوية الحقوق تجمعها وحدة اختيارية فيما يعرف باسم (اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية) التي تسمى اختصارا باسم الاتحاد السوفيتي، وبدأ التساؤل عن مصير هذا الاتحاد؛ حيث أن سكان الجمهوريات الأسيوية يتوالدون بمعدل يصل إلى ثمانية أفراد للأسرة بينما يقل عدد المواليد في الجمهوريات الأوروبية السلافية التي تسودها العقيدة المسيحية إلى معدل طفل واحد لكل أسرة! ومعنى ذلك أنه لم تمضي عدة عقود ألا

ويصبح المسلمون أغلبية في الاتحاد السوفيتي، ويكفي أن نسبتهم في الجيش قد أصبحت أربعين في المائة!

وفي عام ١٩٨٥ جاء جورباتشوف إلى الحكم، ليكون أول قراراته الانسحاب من أفغانستان التي أنهكت الاتحاد السوفيتي اقتصاديا وعسكريا ومعنويا، ثم الانسحاب من دويلات البلطيق وشرق أوروبا.. وبحكم التدهور الاقتصادي، تم إدخال آليات السوق للاستفادة من التقدم التكنولوجي الذي تحقق في الغرب، والذي عجز الاقتصاد الاشتراكي عن اللحاق به فضلا عن محاولة سبقه!.. والتحول إلى الديمقراطية السياسية وإلغاء تفرد الحزب الشيوعي بالحكم.

ومع محاولة الانقلاب التشريعي الفاشلة على جورباتشوف في أغسطس عام ١٩٩١م صعد يلتسين على ظهر دبابة كانت تحاصر البرلمان الروسي، وخطب في الجماهير داعيا إلى الدفاع عن الديمقراطية الوليدة في روسيا، وصعد معها باعتباره بطل هذه الديمقراطية، واجتمع مع كل من رئيس أوكرانيا وبيلوروسيا، ليعلن قيام الاتحاد السلافي بين روسيا وهاتين الجمهوريتين، ورفض المعاهدة الجديدة التي كان جورباتشوف قد اقترحها للاتحاد السوفيتي، ثم وافق هذا الاتحاد السلافي على انضمام معظم الجمهوريات السوفيتية السابقة في رابطة واهية تعرف باسم (كومنولث الدولة المستقلة) وذهب الاتحاد السوفيتي، وبقى التخبط بسود سياسته، سواء من الناحية الاقتصادية حيث تعاني الجماهير شظف العيش وتدهور الإنتاج وازدياد معدل البطالة والارتفاع الفاحش في الأسعار، أو الصراعات اللاقليمية وأهمها الحرب التي لم تنته في جمهورية الشيشان الصغيرة ذات الحكم الذاتي داخل الاتحاد الروسي.. ولا تزال أمام التاريخ في تلك المنطقة من العالم فصول لم يكتبها بعد.

وبالفعل بعد هذا الحال.. صار للإسلام صحوة في روسيا حتى أنه تم حديثا وفي مناقشة باشتراك كبار الخبراء الروس والاختصاصيين حول (سور القرآن الكريم) تقرر عرض كل سور القرآن الكريم باللغة الروسية مع شروح مستفيضة لها في أشهر القنوات التليفزيونية الدولية التي تغطي مناطق شاسعة من القارتين الأوروبية والأسيوية.. وقد كلف الكسندر ياتشمينوف بالإشراف على برنامج (١١٤سورة) هي كل القرآن الكريم بعد نجاحه وتوفيقه في تقديم البرنامج الإسلامي (ألف يوم ويوم).

وتتولى الدولة الروسية تمويل الإنفاق على البرنامج رغم تعثر الوضع المالي، ولكن بعد تدبر تقرر الاستمرار في تقديم البرنامج في جميع فقراته الـ ١١٤ حسب عدد سور القرآن الكريم.

وفي بداية عام ٢٠٠١ وتحت عنوان (الإسلام خبرة الأجيال وحكمة القرون) نشر البروفيسور دكتور (ليوندر سوكيانين) بعض جوانب الإسلام وحياة المسلمين في روسيا، من واقع معرفته العميقة بالعلوم الإسلامية والبحوث الاجتماعية التي تخصص في دراستها فيقول: إن عدد المسلمين حاليا يتراوح بين ٢٢، ٢٤ مليون مسلم ومسلمة، غير أن كثيرا من مواطني روسيا يقرنون – للأسف – الإرهاب بالإسلام، والتطرف ويعتبرونه مصدرا من مصادر العنف وعنوانا على حقوق الإنسان.. ولكن هل يدرك المجتمع الروسي الإسلام على حقيقته وسماحته؟

ويواصل الباحث سوكياتبن: لنبدأ من الناحية التاريخية، لنؤكد أن الإسلام جاء إلى أراضي روسيا الخالية: (شمال القوقاز وتتارستان وبشكيريا) قبل ١٤ قرنا من الزمان، أي أن الدعوة الإسلامية الشريفة قد جاءت قبل الديانات الأخرى.. إلا أن البعض في روسيا لا يريد أن يفهم أن المسلمين هم أحد أعمدة الحضارة الروسية والعالمية.

وتطرق الباحث سوكيانين إلى أوضاع المسلمين في الحقبة السوفيتية فقال: (إن حظهم من الاضطهاد والتعسف كان غير قليل مثلهم مثل حظ المسيحيين وغيرهم من المؤمنين بالأديان والعقائد والمذاهب الأخرى مثل البوذية) وضرب مثلا على ذلك بجمهور تتارستان التي كان يوجد بها قبل الثورة البولشوفية الاشتراكية ألف مسجد، لم يبق منها سوى عشرة.

مليون نسخة من القرآن

ويتناول الباحث (سوكيانين٩) الشعوب الإسلامية في شمال القوقاز فيؤكد أنها كانت محرومة من الاحتفاظ بنسخة من القرآن الكريم.. وبينما كان عدد الحجاج في العهد السوفيتي يتراوح بين ١٠، ١٥ ألا أن الأوضاع تغيرت الآن فأصبح عدد الحجاج يزيد عن ٢٥ ألفا كل عام.

ويرجع ذلك إلى قيام السعودية بطبع وتوزيع مليون نسخة من المصحف الكريم هدية من الملك السعودي فهد بن عبد العزيز.

والمثير أن يشارك في متابعة هذه الصحوة بدرجة أو بأخرى الدكتور جنيادي زيوجانوف قائد الحزب الشيوعي الروسي، وزعيم كتلة اليسار في مجلس الدوما التشريعي.. ويذكر د. زيوجانوف أن قرأ وأطلع وتمعن خلال ليالي عديدة في معاني وآيات وحكم وعبر القرآن في ترجمة العالم (كراتشا كوفيسكي).

وقد قضى (كراتشاكوفيسكي) أكثر من ٣٠ سنة متواصلة في ترجمة القرآن الكريم بعد تنقيح مراجعة ترجمات القرآن إلى اللغة الروسية منذ عهد القيصر بطرس الأكبر مؤسس روسيا الحديثة (١٦٧٢ – ١٧٢٥م).

وقد صاحب الصحوة أعمال بناء المساجد والمدارس والمعاهد الإسلامية المتخصصة وفي موسكو حاليا كلية إسلامية عليا لإعداد رجال الدين المتخصصين.

الشرق السوفيتي ومحاولة للعودة إلى الجذور

سبعون عاما عاشتها جمهوريات الشرق الإسلامية في ظل هيمنة الاتحاد السوفيتي.. والآن وبعد أن تفككت هذه الإمبراطورية تبرز الهوية القومية، وتحاول هذه الشعوب أن ترد الاعتبار إلى تراثها وثقافتها، بل وتبحث عن بصمتها الخاصة في الحضارة الإسلامية.

في الاتحاد السوفيتي السابق كانت توجد ست جمهوريات اتحادية يعيش فيها المسلمون السوفيت يقع منها خمس في آسيا الوسطى وهي جمهوريات أوزبكستان وقازخستان وتركستان وطاجكستان وقيرغيزيا، أما الجمهورية السادسة وهي أذربيجان فتوجد في السفوح الجنوبية لجبال القوقاز.

وبالإضافة إلى هذه الجمهوريات الاتحادية الست هناك أقليات مسلمة تعيش في جمهوريات ذات حكم مستقل في إطار روسيا الاتحادية منها على سبيل المثال – جمهورية داغستان.

منذ دخول الإسلام إلى هذه البلاد (دخل الإسلام بعضها مبكرا في وقت خلافه عمر بن الخطاب). تأثرت شعوب هذه المناطق لقرون طويلة بالحضارة العربية الإسلامية، ولا تزال شواهد هذه العلاقة باقية حتى وقتنا هذا في الفن المعماري بهذه البلاد، كذلك ارتبطت شعوب الشرق السوفيتي بالثقافة العربية منذ عهد قديم، فكثير ما ارتحل علماء هذه البلاد إلى الشرق العربي لتلقي العلم والمعرفة، ومنهم رموز ثقافية بارزة مثل البيروني، وأبو على ابن سينا، والفارابي وقد ضمت شعوب الشرق السوفيتي إلى عداد الإمبراطورية الروسية تباعا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر نتيجة للحملات الغازية لقوات القياصرة الروس، ثم دخلت بعد ذلك في عداد الاتحاد السوفيتي بعد الثورة البلشفية عام ١٩١٧ كما سبق وذكرنا بالتفصيل.

ولكن الموقف الآن يحتم إلقاء الضوء على بعض القضايا المثارة بصدد بعث الهوية القومية في جمهوريات الشرق السوفيتي (ما بعد الاتحاد السوفيتي).

مشكلة اللغة القومية:

تبرز قضية اللغات القومية في جمهوريات الشرق السوفيتي السابق كواحدة من أهم القضايا المطروحة حاليا. وذلك نظرا لأهميتها الخاصة في ترسيخ الهوية القومية، فهي ركيزة أساسية في بناء الشخصية الثقافية القومية.. وقد لعبت ظروف الفترة السوفيتية الماضية دورا في انحسار مد اللغات القومية، فقد سعت السياسات السوفيتية بوحي من فكرة اليوتوبيا الأممية) إلى الإحلال التدريجي للغة الروسية محل اللغات القومية كخطوة مهمة نحو تحقيق عملية التذويب بين القوميات السوفيتية المختلفة.

وقد صارت اللغة الروسية بموجب قرار ستالين الذي صدر في عام ١٩٣٨ لغة رسمية للاتحاد السوفيتي، أي لغة للإدارات الحكومية والمعاهد العلمية في جميع الجمهوريات السوفيتية.. وقد كان من نتائج هذا القرار انحسار أعداد المدارس القومية، واتجاه الكثيرين من أبناء القوميات المختلفة إلى دراسة اللغة الروسية بدلا من اللغات الأم. مادامت ستفي حاجات المعاملات الرسمية أما الضرر الأكبر الذي لحق بهذه اللغات فقد كان مرده عملية تحويل أبجديات شعوب الشرق السوفيتي، فقد تم مثلا تغيير أبجديات الشعوب الإسلامية الناطقة بالتركية والفارسية إلى اللاتينية في العشرينات من القرن الماضي، ثم بعد ذلك غيرت من اللاتينية إلى الأبجدية السلافية في الأربعينيات.. وقد ترتب على ذلك تغيير الأبجديات في الجمهوريات الإسلامية التي كان يستخدم بعضها الأبجدية العربية انفصال الأجيال التي تعلمت بالأبجدية الجديدة عن التراث الديني والموروث الثقافي المكتنز لقرون والمكتوب بالأبجدية الأوزبكية الجديدة عن القديمة التي كان يكتب بها الأجداد.. كذلك انقطعت الصلات الثقافية لشعوب الشرق السوفيتي الناطقة بالتركية والفارسية مع الشعوب المتحدثة بهاتين اللغتين في دول أخرى مثل تركيا وباكستان.

لقد صارت قضية اللغات القومية من المطالب المهمة التي يسعى إليها العديد من المثقفين في جمهوريات الشرق السوفيتي السابق كخطوة أساسية نحو بعث الهوية القومية، وفي هذا الصدد يشير الكاتب القيرغيزي جنكيزي يتماثوف متسائلا: (في عاصمة جمهورية قيرغيزيا توقفت الزيادة في أعداد المدارس القيرغيزية، كذلك لا توجد رياض للأطفال باللغة القيرغيزية، فأي ثقافة قومية هذه التي لا تمتلك قاعدتها الخصوصية؟).

البحث عن التراث:

اتسمت الفترة المبكرة من التاريخ السوفيتي، ثم فترة ستالين – بخاصة – بالموقف المتشكك من الاتجاهات القومية في الثقافة، واعتبارها عائقا على طريق تشييد الثقافة البروليتارية الجديدة والفكرة الأممية.. وفي إطار هذا القصور صار من المحظور دراسة التاريخ القومي لشعوب الشرق السوفيتي.. ليس فقط في الفترة التي سبقت العهد السوفيتي، بل وبعد ذلك أبان الحرب الأهلية التي أعقبت الثورة، وفي عهد ستالين، أما كتب التاريخ الجديدة ودراسات الاستشراق التي ظهرت في الفترة السوفيتية فقد وجهت لغرض إعادة كتابة التاريخ القومي لشعوب الشرق السوفيتي لمسايرة الأهداف والتوجيهات الرسمية، فظهرت الكتابات التاريخية التي تتحدث عن الأهمية التقدمية للانضمام الاختياري لشعوب الشرق الإسلامي إلى روسيا، وعن الاستعداد الطبيعي لدى هذه الشعوب لاستيعاب النظرية الاشتراكية.. وقد تعثر طريق آداب الشرق السوفيتي في ظل قيود الحظر والحصار الذي فرض على الأدب بشكل عام في الفترة السوفيتية، فقد كان ينظر إلى الأدب بوصفه ركيزة أساسية في التعبئة النفسية للجماهير، ومن ثم لقيت قضية التراث الأدبي للشعوب السوفيتية في الفترة المبكرة من التاريخ السوفيتي هجوما من جانب الجماعات الأدبية المتطرفة مثل جماعات (راب) التي طالبت بنبذ التراث، وإلقائه في سفينة المعاصرة، من أجل تشييد الثقافة البروليتارية الجديدة.. وإزاء العداء الرسمي للتراث تأرجحت الآداب الشرقية بين الرفض له والتمسك به.

وفي غضون ذلك ذهب كثيرون ضحايا حملات الاعتقالات ممن كانوا يوصمون في الغالب بتهمة الأمزجة الدينية والقومية، وبسببها تعرض بعض الكتاب للنقد والهجوم، ومنهم على سبيل المثال – الكاتب الطاجكستاني (عوني) الذي أعلن عنه عام ١٩٣٧م أنه عدو الشعب وأحرقت أعماله.. كذلك لقيت أعمال الكاتب القيرغيزي (تينيستوف) نقدا عارما في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي بسبب ارتباط أعماله بالتراث والخصوصية القومية.

وقد أمكن فرض الحظر الكامل حول الآداب السوفيتية من خلال الإعلان الرسمي عن مذهب الواقعية الاشتراكية في عام ١٩٣٤، وتأسيس اتحاد الكتاب السوفيت بوصفه الجهة الوحيدة المنوطة بالإصدارات الأدبية.

لقد تبينت الثقافات السوفيتية بعد تجربة استمرت لعدة قرون أن التفرد القومي لا يعني العزلة والانغلاق، وأن النزعة الإنسانية العامة لا تتعارض مع القومي الخاص وأن الأدب يستمد وجوده الحقيقي من ذلك التفاعل الخصب بين (القومي الخاص) و (الإنساني العام)..

ولهذا نجد أن قضية العودة للسمة القومية وإحياء التراث القومي للآداب الشرقية تعد حاليا من أبرز الموضوعات المطروحة في الواقع الثقافي لهذه البلاد، وفي هذا الصدد يــشير الكاتــب القيرغيزي (إيديجاني أركيياف): (أن الرأي العام الأدبي والعلمي في قيرغيزيا يتطرق بــشكل حاد إلى قضية الإضارة الصحيحة للتراث الفلكلوري والأدبي يتطرق بشكل حاد إلــى قــضية الإضاءة الصحيحة للتراث الفلكلوري والأدبي الشعبي القيرغيزي، وإلى عودة بعض الأســماء المنفية بشكل مجحف إلى ذخيرة الثقافة، سواء تلك التي كانت قبــل الثــورة أو فــي الفتــرة السوفيتية).

الإبداع بلغتين:

وتثير قضية الكتاب المبدعين بلغتين مكانة مهمة بين الموضوعات المثارة الآن بصدد بعث الخصوصية القومية لشعوب الشرق السوفيتي.. أن بروز ظاهرة الكتاب المبدعين بلغتين هو إحدى ثمار الاحتكاك والتفاعل بين الثقافة الروسية والثقافات القومية الأخرى فــي الفتــرة السوفيتية الماضية.. فقد تمخضت عملية التفاعل هذه عن تأثير للثقافة الروسية الأكثر تطــورًا على الثقافات القومية الأخرى ومنها ثقافات الشرق السوفيتي، وهذا التأثير يعد منطقيا ومنــسقا مع التجربة الإنسانية للقاء الحضارات، فحين يحدث التقاء واحتكاك بين ثقافتين فــإن التــأثير والغلبة يكونان في العادة للثقافة الأكثر تقدما، فيضعف الجوهر الذاتي، وتتراجع (الأنا) أمــام (الآخر).

غير أن الرؤية المنصفة تتطلب النظر إلى العملية المركبة (للتأثير والتــأثر) بمجمــل عناصرها وجوانبها المختلفة، فثمة جوانب إيجابية لتأثير الثقافة الروسية على الثقافات القومية الأخرى في الفترة السوفيتية الماضية.. فقد تمخضت عملية التفاعل هذه عــن تــأثير للثقافــة الروسية الأكثر تطورًا على الثقافات القومية الأخرى ومنها ثقافات الشرق الــسوفيتي، وهــذا التأثير يعد منطقيا ومتسقا مع التجربة الإنسانية للقاء الحضارات، فحين يحدث التقاء واحتكاك بين ثقافتين فإن التأثير والغلبة يكونان في العادة للثقافة الأكثر تقدما، فيضعف الجوهر الذاتي، وتتراجع (الأنا) أمام (الآخر).

غير أن الرؤية المنصفة تتطلب النظر إلى العملية المركبة (للتأثير والتــأثر) بمجمــل عناصرها وجوانبها المختلفة، فثمة جوانب إيجابية لتأثير الثقافة الروسية على الثقافات القومية الأخرى أبان العهد السوفيتي، فإلى جانب انتشار التعليم في هذه الفترة، وانخفاض نسبة الأمية في الشرق السوفيتي (في بعض مناطق آسيا الوسطى كانت نسبة المتعلمين لا تتجــاوز ٠,٤% قبل التاريخ السوفيتي) تأثر رواد حركة التنوير في الكثير من مناطق الشرق السوفيتي بــآراء

الحركة الديمقراطية الروسية، ومن هؤلاء الرواد – على سبيل المثال – اخوندوف في أذربيجان، وأباي في كازاخستان، وتوكاي في التتار، كذلك كان للأدب الروسي الفضل في ظهور آداب جديدة، وعبور الكثير من الآداب الشرقية طريقا سريعا من التطور والارتقاء انتقل ببعض هذه الآداب من أشكال الشفهية إلى نماذج النثر المتطور؛ حيث ظهرت أشكال أدبية جديدة لم تكن معروفة من قبل في بعض هذه الآداب مثل القصة والرواية والمسرح، وذلك بعد أن فتح الأدب الروسي الثرى أمام هذه الآداب نافذة للتعرف على هذه الفنون، وأتاح لها عبر الترجمات الروسية فرصة الاطلاع على روائع الأدب العالمي.. إلا أن عملية الاحتكاك بين الثقافة الروسية والثقافات السوفيتية ومن بينها ثقافات الشرق السوفيتي كانت السبب وراء ظاهرة الكتاب المبتدعين بلغتين وهي الظاهرة التي وصفها الشاعر الداغستاني (رسول حمزاتوف) في إيجاز بليغ حين خاطب قرينة الكاتب قيرغيزي (جنكيز ايتماثوف) مداعبًا.

عزيز النصف أوربي المهم

عزيز النصف أسيوي الشهير

لقد عبر هذا الوصف عن عملية التحول المعقدة التي حدثت في وعي الكثيرين من مثقفي الشعوب الشرقية بفعل عملية التفاعل بين ثقافة (الأنا) وثقافة (الآخر)، والتي كان من نتائجها ظهور أدباء اتخذوا من اللغة الروسية لغة الثقافة والفكر والإبداع إلى جانب الكتابة باللغة الأم، إن هؤلاء الكتاب يتحدثون لغتين بطلاقة، ويكتبون مؤلفاتهم بلغتين الروسية واللغة الأم، وقد يقوم هؤلاء الكتاب بترجمة ما يكتبون من لغة إلى أخرى.. وبعد الجدل المثار الآن حول ظاهرة الكتاب المبدعين بلغتين امتدادًا للحديث والطرح السابق لهذه الظاهرة التي لفتت إليها الأنظار في الفترة الأخيرة في الاتحاد السوفيتي.. حيث تباينت التقييمات بين مؤيد ومعارض، فبينما رحب البعض آنذاك بظاهرة الإبداع بلغتين وشاهدوا فيها مظهرا من مظاهر الأممية، والوحدة الثقافية بين الآداب السوفيتية، هاجم البعض الآخر هذه الظاهرة واعتبرها خروجا على منطق الإبداع المتسق مع الذات) ومظهر من مظاهر الانفصال عن الواقع القومي الذي خرج منه الأديب، والذي يتطلب معرفة بالتاريخ والتقاليد القومية.

الإبداع والهوية القومية:

وتطرح قضية الإبداع بلغتين موضوع العلاقة بين لغة الإبداع والطابع القومي للمؤلف الأدبي، فبعض الكتاب الذي اتجهوا إلى الكتابة باللغة الروسية كانوا يعتقدون بأن ترجمة العمل بعد ذلك إلى اللغة القومية الأم سوف تمنحه وجود طبيعيا في الثقافة القومية، غير أن التجربة العملية للترجمات أوضحت عكس ذلك، فقد صارت المؤلفات المكتوبة بالروسية تستوعب بعد الترجمة إلى اللغات الأم كمؤلفات أجنبية بعدية عن الروح القومية، والطابع القومي، وبدت مفتقدة إلى اللون والمذاق المميز.. وهناك مثال معروف يشار إليه في هذا الصدد وهو قصة الكاتب الأذربيجاني (ايبراجيمكوف) (ولم يكن أفضل من الأخ)، فقد كتب ايبراجيمكوف قصته هذه بداية باللغة الروسية، ثم ترجمت بعد ذلك إلى اللغة الأذربيجانية، فبدت بالنسبة لأبناء قوميته غريبة، واستوعبت كمؤلف أجنبي.. ومن جهة أخرى بدت أعمال الأدباء من غير الروس الذين يكتبون بالروسية غريبة بالنسبة للقارئ الروسي، فقد لقيت – مثلا – رواية الكاتب القيرغيزي (ايتماتوف) (النطع هجوما) من قبل النقد الروس، فقد اتجه ايتماتوف في روايته هذه التي كتبها بالروسية إلى استلهام عناصر تاريخية ودينية مسيحية ليست مألوفة بالنسبة لاستيعابه الداخلي ككاتب شرقي من أصل مسلم، فظهرت في الرواية صورة غير واقعية للمسيحية كدين وعقيدة أن ضياع الهوية المميزة هو إحدى سمات إنتاج الكتاب المبدعين بلغتين، وهي سمة تتبع من طبيعة لغة التعبير الأولى فلغة الكتابية ليس مجرد مادة جوفاء.. الكتاب المبدعون بلغتين هم أحد الظواهر التي أفرزتها ظروف التفاعل بين الثقافة الروسية وثقافات الشرق الإسلامي أبان الفترة السوفيتية الماضية.. وإلى جانب هؤلاء الكتاب كان هناك أدباء آخرون ظلوا يكتبون بلغاتهم القومية، وحافظوا على إنتاجهم على التراث والتقاليد، وتجسدت في هذا الإنتاج سمة المواءمة الحكيمة بين الموروث والمكتسب، وانعكست به إحدى آليات التطور الحضاري والثقافي في الشرق السوفيتي السابق قوانين الحفاظ على الذات والخصوصية القومية المتمثلة في اللغة والتراث والتقاليد، والتي كانت تعمل جنبا إلى جنب مع عملية الاكتساب والاستيعاب للآخر.

الشرق السوفيتي السابق يعيد الآن تقييم تجربة الماضي القريب، ويتطلع إلى طريق جديد ينبع من خصوصيته الحاضرية، ويتسق مع تراثه وجذوره.

ولكن الطريق لا يزال في بدايته، وهناك كثير من الصعوبات التي سيتعين اجتيازها.

آسيا الوسطى في قلب الأحداث مرة أخرى

مع التذبذب في التقدم والتحدي والتراجع والمهادنة تتباين صيحات الانتقام الصادرة من "العالم المتمدين" في الولايات المتحدة وأوروبا وتتضح معالم عالم جديد تماما ونعني به الحكومة العالمية.

فإن سيادة عالم القطبين الذي ساد أكثر من نصف قرن من الحياة الدولية، وكان في بعض مواضعه عالم درع لذوي الرؤوس الحامية قد أدى غيابه – بعد انهيار الاتحاد السوفيتي النووي سنة ١٩٩١ – إلى تفجر العالم هنا وهناك وقامت حروب محلية وإقليمية واثنيه كثيرة.

ولم يقتصر التمزق على الاتحاد السوفيتي بل امتدت الموجة الانفجارية – إذا جاز – التعبير إلى تمزق من دولة كبيرة إلى تمزق أصاب روسيا الاتحادية ومنها إلى تمزق يوجلاسلافيا إلى ٧ دويلات كما انهارت صواريخ وقنابل حلف الأطلنطي أو الناتو – تحت مبررات – لتصب على رأس الصرب المتعنتين في تشددهم وتصلبهم.

وفي السابق كان حلف وارسو الذي أنشئ لمواجهة حلف الناتو كما وقف الكوميكون "الأسواق الاشتراكية المشتركة" في تنافس اقتصادي مع السوق الأوربية المشتركة.. وكان هناك بالقطع تضامن بين ما يسمون بـ"الدول الاشتراكية" مع حركات التحرر الوطني ومواجهة ما يطلق عليه صحة أو تعسفا "المؤتمرات والدسائس الغربية".

لقد كان هناك عالمان متضادان متقابلان.. اقتصاديا وسياسيا وفكريا وعسكريا وثقافيا وغير ذلك.

لكن بعد انتهاء القطب السوفيتي في سنة ١٩٩١ حدثت هزة كونية.. لكن الوجود شكل من أشكال الحكومة العالمية بقيادة واشنطن. شاء من شاء وأبى من أبى.

وتشكلت الحكومة العالمية فتحول حلف الناتو وملحقاته إلى "وزارة الدفاع" أما منظمة التجارة العالمية فتحولت إلى "وزارة تجارة" لنفس الحكومة وتحول الاتحاد الأوروبي إلى فرع لاتحاد مصالح الأغنياء في الغرب.. كما أصبحت ناطحات السحاب والبورصة في نيويورك بمثابة وزارة مالية للحكومة العالمية.

سلطة قضائية

وتدعيما لما يسمى بالسلطة القضائية سعت الحكومة العالمية للسيطرة على محكمة لاهاي العليا وأضف عليها الأوصاف بأنها عادلة جدا جدا.

ومع المسيرة أصبحت دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية الفقيرة بمثابة ريف لراحة أفراد الحكومة العالمية.

وإذا كانت فكرة الحكومة العالمية واردة في أدبيات وخطط المنظمات الماسونية والصهيونية العالمية فإن هذه الفكرة قد تحققت فعلا.

ومن الطبيعي أن أستقطب الصراع فغدت البلدان الغنية حكما على البلدان الفقيرة، وكشف ذلك الصراع عن ولادة مقاومة جديدة ليحل محل الصراع الكلاسيكي الذي عرفه بداية القرن التاسع عشر بين العمال وأصحاب العمل.. وظهر في المقاومة تبشير ضد الظلم ودعوة للعدالة والرحمة في شكل منظمات أغلبتها إسلامية معتدلة حينا وأقلها متطرفة في أحيان أخرى، وتنوعت مطالبها وإن تركزت على المطالبة بحرية الشعوب ووقف العدوان على العرب الفلسطينيين وغيرهم من المضطهدين على نطاق العالم.

ويلاحظ بأنه إذا كان الصراع الحالي يكتسب في حالات خاصة طبعا دينيا إلا أن جوهرة يبقى صارعا بين الظالمين والمظلومين، بين الأغنياء والفقراء.. بين دعاة الحكومة العالمية وضحاياها.

والمثير أن خصوم الحكومة ضمت عددا من المنتحرين الأثرياء الذين تاقوا للشهادة.

من الهدوء للمناطق الحامية

وفي خضم ذلك وقعت كارثة نيويورك وواشنطن في ١١ سبتمبر.

وارتبطت أحداث الكارثة الأمريكية بتكرار لما يسمى بـ"الإرهاب الإسلامي" رغم محاولة بوش التقليل من أثره في زعزعة الكيان القومي الأمريكي.

وبرز اسم أسامة بن لادن في مقدمة قائمة الإرهابيين التي أصدرتها الولايات المتحدة ومعه أخذ الإعلام الأمريكي والغربي.

ولا يزال بدرجة أقل يصب جام غضبه على الإسلام والمسلمين مع حدوث – للأسف- استباحات لمحلات وبيوت المسلمين والجاليات الأخرى وبخاصة من السيخ الملتحين في الولايات المتحدة.

إلا أن منطقة آسيا الوسطى التي كانت من أكثر مناطق العالم انزواء وهدوءا منذ أكثر من ١٠٠ سنة خلت، قد أصبحت فجأة واحدة من المناطق الحامية في عالم اليوم.. وذلك بسبب قربها من أفغانستان المتهمة بكونها من أوكار الإرهاب الدولي ومحطة من محطات بن لادن.

وتضم جمهوريات آسيا الوسطى أربع جمهوريات مستقلة أعضاء في رابطة كومنولث الدول المستقلة.. وفي جمهوريات أوزبكستان وقيرغيزيا وتركمانيا وطاجكستان.. وتقع جمهورية أفغانستان على حدود طاجكستان وأوزبكستان وتركمانيا أو أنها تقع على مرمى قذائف وصواريخ حركة الطالبان ويصعب على روسيا الدفاع عنها.

ومع أن الملا محمد عمر زعيم طالبان هدد قوات التحالف المناوئ له في نفس الوقت الذي يدعو فيه ألوف المهاجرين الأفغان للعودة إلى بيوتهم إلا أن الخطر أو على الأقل التوتر لا يزال واردا.

ويلاحظ أن شعوب آسيا الوسطى تتوق للعدالة وتأبى الانجرار في قبول التطرف والتشدد لهذا أعلن بعضها عن استعداده للتعاون في تقديم تسهيلات لقوات التحالف بقيادة أمريكا انطلاقا من أنها شعوب إسلامية عريقة حريصة على "الحياة الإنسانية" ولا تسعى لتدميرها.

ولعل هذا هو السبب في اعتناق جمهوريات آسيا الوسطى للدين الإسلامي منذ عهود مبكرة.. وقد أنجبت هذه الشعوب شخصيات إسلامية بارزة من الحكماء والشعراء والمؤرخين والموسوعيين الكبار والعلماء.

وأحد أشهر هؤلاء العالم والطبيب والفيلسوف ابن سينا والإمام البخاري.

ويحتفل ملايين من المسلمين بزيارة لمتحف ابن سينا الفخم وضريح الإمام البخاري في بخارى وكلاهما في أوزبكستان.

وتتكلم شعوب أوزبكستان وقيرغيزيا وتركمانيا بلهجات قريبة جدا من اللغة التركية القديمة قبل الإصلاح اللغوي التركي في عهد مصطفى أتاتورك.

أما في طاجكستان فإن شعبها يتكلم اللغة الفارسية مثله مثل شعب إيران.

وحسب التقسيم الجغرافي السوفيتي السابق فإن آسيا الوسطى هي: أوزبكستان وقيرغيزيا وتركمانيا وطاجكستان أما قزاقستان فهي مجاورة لها في آسيا الوسطى.

وأحيانا ما يضاف لأسماء هذه الجمهوريات"ستان" التي تعني بالتركية بلد.

وقد انضمت هذه الجمهوريات إلى روسيا في أواسط القرن التاسع عشر وبعضها قبل ذلك.

وشهدت المرحلة السوفيتية ازدهار اقتصر على العلوم والصناعات مع غياب يكاد يكون تاما للحريات والديمقراطية، وكان الحزب الشيوعي في هذه المناطق الإسلامية أساس هو الحزب الواحد الحاكم الموهوب وسلم الترقي ولكنه ليس المحبوب.

ويرجع السبب في ذلك أن الغالبية الساحقة لهذه الشعوب هي إسلامية مع وجود روس فيها منذ توغل روسيا القيصرية في هذه الربوع.

وكانت الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقزاقستان تقع في طشقند وهي من أقدم الإدارات الإسلامية في العهد السوفيتي السابق، كما أصدرت القرآن الكريم ست مرات، كما أصدرت ولا تزال تفكر في إصدار كتب التراث الإسلامي وصحيح البخارى وعديد من المجلدات العلمية والطبية والفلكية والعمارة الإسلامية.

آسيا الوسطى والقوقاز.. الجبهة الخلفية لحرب الإرهاب

ومن المعروف إن قيادة الولايات المتحدة للحرب المضادة للإرهاب جعلتها تلجأ لدول عديدة في مختلف أنحاء العالم طلبا لمساعدتها، وفي نظير هذه المساعدة الحيوية الضرورية تغاضت واشنطن عن أمور ومعايير لطالما كانت تمنحها التركيز والأولوية في تعاملاتها الدولية كسجلات حقوق الإنسان والديمقراطية وحرية التعبير واستشراء فساد الأنظمة الحاكمة وخلافه.

ومن الدول التي لجأت إليها دول آسيا الوسطى وهي قيرغيزستان وطاجيكستان وأوزبكستان وتركمانستان وكازاخستان ومعروف أن ثلاثا من الدول السابقة تشترك حدودها مع أفغانستان التي كانت ولا تزال مسرحا رئيسيا للعمليات العسكرية الأمريكية وهي أوزبكستان وطاجيكستان وتركمانستان وبالتالي فإن تعاونها فائق الأهمية والإلحاح للإدارة الأمريكية.

وتقريبا لم تبذل واشنطن جهدا خارقا لاستمالة دول آسيا الوسطى للموافقة على استغلال أراضيها كقواعد تمركز وانطلاق لقواتها لتنفيذ عمليات عسكرية داخل أفغانستان، لأن هذه الدول عرضت خدماتها ورحبت بالوجود العسكري الأمريكي وعينها على رد الجميل ومكافآته السخية كالحصول على مساعدات اقتصادية وقروض وذيل عضوية حلف شمال الأطلنطي "الناتو" وتخفيف قبضة روسيا المفروضة عليها.

وكانت أوزبكستان الأصلح لهذا الغرض واستقبلت بالفعل القوات والطائرات الأمريكية في قواعدها العسكرية والجوية التي انطلقت منها لشن هجمات على فلول ومخابئ تنظيم القاعدة وحركة طالبان، وفي المقابل لعبت الولايات المتحدة بالورقة الاقتصادية إذ حصلت أوزبكستان على منحة ٢٥ مليون دولار لشراء أسلحة ومعدات عسكرية فضلا عن ١٠٠ مليون دولار من بين ٤ مليارات دولار اعتمدها الكونجرس الأمريكي لمكافحة الإرهاب وهي مبالغ تحتاجها حكومة الرئيس إسلام كريموف لإنعاش اقتصاد بلاده الذي يعاني انخفاض أسعار القطن وضآلة الاستثمارات الأجنبية كذلك انتشرت قوات في قيرغيزستان في قاعدة جوية خارج العاصمة (بيشكك) في وقت زاد فيه الرئيس عسكر عاكييف من التعسف تجاه معارضه السياسيين ووسائل الإعلام التي تتعرض لانتقاده والهجوم على سياساته.

وبمحاذاة دول آسيا الوسطى، حظيت منطقة القوقاز متمثلة في جمهورية جورجيا بدور مهم في الخطط العسكرية الأمريكية، إذ فجأة أصبحت محطًا للاهتمام مع قرار الإدارة الأمريكية الدفع بخبراء عسكريين إليها لمعاونتها في التصدي لفلول الأفغان العرب الفارين والمختبئين في جبالها ومعهم المقاتلون الشيشان.

فقد قررت واشنطن في البدء إيفاد ١٥٠ خبيرا عسكريا لجورجيا لتدريب جنودها على مكافحة الإرهاب توجهوا إليها على دفعات من أوروبا وأحكام سيطرتها على وادي بانكيسي شمال شرق البلاد القريب من الحدود مع الجمهورية الشيشان والذي لجأ إليه عدد من المقاتلين الشيشانيين الذين تعتبرهم روسيا عناصر إرهابية بالإضافة إلى فرار ما يقارب ١٠٠ من أعضاء القاعدة العرب إليها.

وأعلنت وزارة الدفاع الأمريكية "البنتاجون" آنذاك أن الخبراء الأمريكيين ذهبوا لجورجيا بناء على طلب من رئيسها إدوارد شيفرنادزة وأن ٢٠٠ جندي أمريكي سيشاركون في هذه العملية الرامية لتجهيز وإعداد ٤ كتائب لمكافحة الإرهاب تضم ما بين ٣٠٠ و ٤٠٠ جندي مع الإشارة إلى تأكيد أن القوات الأمريكية لن تشترك في عمليات قتالية في الأراضي الجورجية، وقبل وصول هؤلاء الخبراء زار جورجيا مجموعة مستشارين عسكريين للتعرف على احتياجات ومطالب الجانب الجورجي الذي زوده بعشر طائرات هليكوبتر مع أطقم تدريب لتدريب القوات الجورجية على استخدامها، وعلى الرغم من اعتراف المسئولين الأمريكيين بقلقهم إزاء وجود عناصر معادية للولايات المتحدة بالأراضي الجورجية فإن الهدف الأساسي لبرنامج المساعدات لجورجيا هو عدم استقرارها وتمكينها من بسط سيطرتها على أرضها مع عدم قدرتها على حراسة حدودها بطريقة مناسبة، والمحللون في جورجيا أشاروا إلى أن التهديدات التي يمثلها العرب المتحصنون في بانكيسي مبالغ فيها للغاية وألقت الإدارة الأمريكية بثقلها لمصلحة استقرار جورجيا وليس لمصلحة حرب الإرهاب فقط، ولكن أيضا لحماية مشروع ضخم لبناء أنابيب بترول يتكلف نحو ٨,٢ مليار دولار لنقل البترول المستخرج من منطقة القوقاز إلى ميناء جيهان التركي عبر جورجيا وهو المشروع الذي تعارضه موسكو التي تشهد علاقاتها مع تبليسي توترا لأنه سيؤدي لخسارتها الكثير من الأموال بسببه.

وشعرت روسيا التي فوجئت بإرسال الخبراء الأمريكيين بتلقي صفعة شديدة لأن الوجود الأمريكي يشكل حلقة جديدة من حلقات التوسع الأمريكي في الجمهوريات السوفيتية السابقة التي تمثل مناطق نفوذ للكرملين، والصفعة كانت مزدوجة، فجورجيا التي دأبت موسكو على اتهامها بإيواء المقاتلين الشيشان وغيرهم ممن تصفهم الإرهابيين رفضت عروضها المتكررة بالقيام بعمل عسكري مشترك للقضاء عليهم، في حين أصدر مجلس الدوما الروسي بيانا عن حالة العلاقات الروسية – الجورجية على أراضيها وانتقدت موقف تبليسي الرافض التعاون مع روسيا للتصدي والقضاء عليهم.. وسارع وزير الخارجية الروسي إيجور إيفانوف إلى الإعلان عن أن الوجود العسكري الأمريكي خصوصا أنه قائم بالفعل في آسيا الوسطى

فما المانع من امتداده للقوقاز، وأن المشكلة في اعتقاده كانت عدم إبلاغ بلاده المسبق بإرسال الخبراء العسكريين "روسيا نالت بعد ذلك مكافآتها لموقفها في حــرب الإرهـــاب بالعــضوية الكاملة لمجموعة الثماني".

ويسعى الرئيس الجورجي للارتماء في أحضان الولايات المتحدة لتحقيق عدة أهــداف منها التخلص من المقاتلين الشيشان الذين يشكلون خطرا داهما على بـــلاده وعليـــه شخــصيا وليس لديه الوسائل الملائمة للوقوف في مواجهتهم واستعادة أبخازيا التي تتمتع بشبه اســتقلال عملي منذ عقد التسعينات من القرن الماضي تحت رعاية روسية غير مباشرة ومن ثم يمكــن التخلص من قوات حفظ السلام الروسية المنتشرة هناك فضلا عن تقــديم المبـــررات الكافيـــة للتقارب مع الناتو والولايات المتحدة مما قد يساعد في وقت لاحق في إنهاء التبعيـــة الحتميـــة لروسيا ومنظومة الكومنولث.

كازاخستان

أكبر دولة إسلامية من حيث المساحة، ومع ذلك فالإسلام فيها مهـــدد.. توجـــد علـــى أرضها رءوس نووية ولا تملك أمرها شيئا. وعلى أرضها عشرات الصناعات الثقيلة، وكلهـــا معطلة. لقد حصلت (كازاخستان) على استقلالها أخيرا.. ولكن مصير هذا الاستقلال مـــازال محفوفا بالمخاطر.

قائد الطائرة يعلن عن الاستعداد للهبوط في مطار (ألما آتا).. لم يكن هناك أي ضـــوء يبدد وحشية السهوب المظلمة منذ أكثر مـــن ســـبع ســـاعات.. لا أثـــر لبيـــوت أو شـــوارع أو سيارات، ظلمة خالصة كثيفة.. أضواء مرور الهبوط شاحبة كأنها توشك علـــى الانطفـــاء والليل ينجلي عن آثار الأمطار الغزيرة والعواصف التي غمرت المدينة في عز يوليو.

الرحلة الجوية كانت شاقة.. ولكن دون شك كان من الممكن أن تكون أسهل وأسرع أو قامت بالرحلة إحدى شركات طيران كازاخستان، ولكن كيف والدول الست التي بزغت أخيرا والتي ينتهي أسمها بـــ(ستان) غير معترف بخطوط الطيران التابعة لها دوليا..

لذا فقد كان لك الزائرين يدور طويلا في القضاء عبر خطوط دولية ومسافات منهكة.

.. بزغ الفجر قبل الانتهاء من مراسم الدخول، وعبور بوابـــة كازاخـــستان، الفنـــادق قديمة، بقايا إرث الاتحاد السوفيتي الغارب، لم تجدد ولم يضف إليها شـــيء.. الاســـتثمارات الغربية مازالت مترددة، أما الأتراك فإن مشاريعهم تمتدد ببطء.. الفنادق الحكومية الموجـــودة شديدة الضخامة من الخارج، شديدة الضيق في الداخل. هذا علاوة على أن المدينة تتغذى بمياه ناتجة عن ذوبان الثلوج في جبال (التاد) التي تحيط بالمدينة، وتفصلها عن العين رغـــم الجـــو القارس، ومع هذا لا أثر للمياه الحارة في الغلاية الضخمة التي تغذي المدينة كلهـــا بعـــد أن تفاقمت أزمة الطاقة وأصبح هناك نقص في إمدادات الكهرباء وقطع للمياه الحارة عن العديـــد من الأحياء.. وبالطبع كان هذا غريبا من دولة غنية بإمدادات النفط.

كازاخستان دولة تم استقلالها عام ١٩٩٢.. عاصمتها تبدو كمدن الخمـــسينيات مـــن القرن الماضي، أشجار عتيقة الجذوع تغطي واجهات البيوت حتى تكاد تخفيها.. المباني عتيقة الطراز طبعها الزمن بصفرتها الذاوية، الشوارع واسعة، والسيارات التي تمرق فيهـــا قديمـــة الطراز، قليلة العدد، أما المشاة فما أكثرهم، ملامحهم متميزة تشي بالتركيبة السكانية للدولـــة، الكازاخ بملامحهم ذات الطابع المغولي، والروسي بشقرتهم السلافية، وتبدو و(الما آتا) مدينـــة يطيب فيها العيش، فهي تثير داخل من يزورها كل أحاسيس المدينة المستكينة الهادئة.. ولكـــن

لا يخدعنك المظهر، فالجوهر يقدم صورة مختلفة عن مدينة معينة: (الأطفال يولـدون وهـم يعانون أمراضا خبيثة في الجهاز العصبي، فالغبار النووي الناتج من التجارب النووية الصينية يأتي للمنطقة عبر جبال (التاد). وكذلك أثار التجارب السوفيتية المفتوحة التي جرى معظمهـا في أراض كازاخستان، وأيضا الرءوس النووية التي لا تعرف أين تـستقر، وكيـف تتفكـك كازاخستان، ويبدو أن كازاخستان قد دخلت النووي رغما عنها، ورغم هذا تدفع ثمن شيء لم تختره ولم تشارك فيه)!

الما أنا تعيش سنواتها كعاصمة، فالموقع غير مناسبة لدولة بهذا الاتساع، فهي تقع في أقصى شرق البلاد، كما أنها معرضة باستمرار للهزات الزلزالية.. هذه هي الأسباب المعلنـة هناك.. لكن الأسباب الخفية هي محاولة لوجود السلطة المركزية في وسط البلاد في المنطقـة الشمالية التي تسكنها أغلبية روسية، وتهدد بانفصالها، خاصة بعد إعلان الكاتـب الروسـي الشهير (الكسندر سولجنتسين) أن هذه الأراضي هي جزء من روسيا المقدسة.

إن نسبة الكازاخ الذين يملكون دفة الحكم ويعتبرون أن بلادهم. قد عـادت إلـيهم لا تتجاوز ٤٠% غير هؤلاء تكمن أعراق أخرى تعطي ملخصا لكل الأجنـاس التـي أظلتهـا الإمبراطورية السوفيتية، لقد تمت في عصر ستالين أكبر خلطة عرقية عرفها التاريخ، نزعت أجناس من مواطنها لتحل بدلا منها قوميات أخرى، عوقبت قرى بأكملها بتهم عـدم الـولاء، أو التعاون مع النازي، وخضعت كلها لنوع من التجهيز القسري.. وكان الغرض الأساسي من هذه الخلطة هو محاولة صهر هذه الأعراق في تركيبة واحدة، لكي يتماسك قوام الإمبراطورية الشاسعة في ظل رابطة جديدة.. ولكن كانت تكفي عاصفة واحدة ليتفكك كل شيء، ويلوذ كـل بقوميته.

لقد فقد الروس فجأة المكانة الأولى التي كانوا يحتلونها، وأصـبحوا يعـانون شـظف المواطن العادي.

الكازاخ من الشعوب الطيبة والبسيطة، يبادلون التحية وهم يضعون أيديهم على قلوبهم وهم يرددون (رحمات).. وفي كل مكان يهرعون لتقديم العون والمساعدة، يفرحون كثيرا بلقاء العرب المسلمين، شوقهم إلى الانتماء كبيرا لأن الإسلام في النهاية يمثل جزء من شخـصيتهم القومية التي جرى طمسها طويلا تماما مثل اللغة الكازاخية التي ظلت لسنوات طويلة محفوظة داخل البيوت، لا تدرس ولا تكتب ولا تقرأ، إنها تعود الآن ولكن بعد أن فقدت الحرف العربي الذي كانت تكتب به، فقد قررت الدول الخمس (ما عدا طاجيكستان) في مؤتمر لها عقد تحـت رعاية تركيا الأخذ بالمنهج الأتاتوركي وهجر الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني.. لقد بدأت ملامح الخطر تلوح في الأفق.

أين يكمن الخطر؟

على حافة المآتا تقع واحدة من أجمل المناطق الجبلية في العالم (الميدو) ذلك المنتزع الرائع الذي تتألق الشمس عليه خاصة بعد أن تذوب الثلوج من فوق غصون الصنوبر، درج يصعد إلى أعلى الجبل، عشاق صغار متناثرون، بعضهم في حالة شديدة من السكر البين.. المنطقة كانت زاهية ذات يوم، تحتوي على فندق وساحة للتزلج على الجليد وكافيتريا واستراحات.. كل شيء معطل الآن ومغلق، كل شيء أصابه خراب مفاجئ كأن هناك أيدي مجهولة هوت عليها بالتدمير.

الشباب رغم أحوال الفقر، وفقد الشعور بالأمان يعلم أن لا شيء يوازي الحرية، لذا فهم يمارسون حياتهم على المقاهي الجديدة، وأندية الديسكو الليلية التي انتشرت في المدينة والتي تسهر إلى وقت متأخر، ويطالعون الماركات الغربية التي بدأت تغزو الواجهات الزجاجية للمحلات ووكالات السفر التي تقدم رحلات إلى كل بلاد العالم.. بالطبع شعور الحرية رائع برغم كل ما يكتنفه من مشاكل، فالجميع كان متأكد أن كازاخستان الدولة الغنية بكل أنواع المعادن سوف تعاود النهوض من جديد.. ولكن تمثال لينين الذي كان يتوسط أكبر حديقة في المدينة مازال شامخا، ولم يسقط بعد.. لا يزال واقفا مادا ذراعه وكأنه يحاول منع وقوع الكارثة بعد أن كف عن توجيه الجماهير، تماثيله الصغيرة المتناثرة في المدن الإقليمية والقرى لم تهبط هي أيضا، لعله نوع من الذكرى.. مما لا شك فيه أن هذا الرجل قد حول تلك السهوب في دولة آسيوية إقطاعية قديمة يحكمها (الخانات) إلى دولة تقف على أعتاب العصر النووي.

فأين يكمن إذن الخطر؟

إن كل شيء لم يتبلور بعد، فقد اتجهت أنظار الأطماع العسكرية إلى هذه المنطقة منذ فجر التاريخ، منذ أن حلم الإسكندر الأكبر بإمبراطوريته التي تمتد من مشرق الأرض حتى مغربها، ولكن اللعبة الكبرى – وهو تعبير سياسي معروف – بدأت في القرن التاسع عشر بين إنجلترا الفيكتورية وروسيا القيصرية.

لم تكن إنجلترا تتصور أن يستقر بها المقام في الهند دون أن تبعد أظفار الدب الروسي عن وسط آسيا.. وقد دار الصراع بينها سافرا أحيانا، وخفية في أغلب الأحيان، وحدثت أكثر من مواجهة بين البعثات الاستكشافية التي أرسلها الطرفان، سرعان ما استتبعها تدخل الجنود ونشوب بعض من الحروب الصغيرة، وانتهت اللعبة مؤقتا باستيلاء روسيا على هذه المنطقة كلها.

ملامح اللعبة تعاود الظهور الآن من جديد.. والصراع هذه المرة يدور بين روسيا وأمريكا مع تداخل بعض الأطراف الأقل أهمية مثل تركيا وإيران.. والهدف هو احتياطات النفط الكبيرة الرابضة تحت سهوب كازاخستان.

وقد بدأ الصراع الذي كان خفيا يأخذ شكله السافر منذ عام ١٩٩٥، عندما حاولت شركة (شيفرو) ثالث الشقيقات السابع، وهي أكبر الشركات التي تتحكم في سوق النفط على مستوى العالم، استثمار ١٠ بلايين دولار لتطوير حقول النفط في المنطقة (تاينجيس) التي تؤكد التقارير إنها قادرة على إنتاج ٦٠٠ ألف برميل من النفط يوميا.

ولكن روسيا التي تتحكم في خطوط أنابيب النفط الداخلة والخارجة في وسط آسيا تقف أمام هذا المشروع بالمرصاد.. فقد أعلنت عدم موافقتها بدعوى أن الأنابيب لا تتحمل سوى عشر هذه الكمية، فهي لم تدخل بعد عن أطماعها الإمبريالية القديمة، وبدلا من الاستسلام لعرض (شيفرون) أعلنت عن مشروع تقوم به وحدها لنقل بترول كازاخستان لشواطئ البحر الأسود.

حكومة كلينتون – في هذه الفترة – قبلت التحدي وبدأت تدافع عن مصالح شركاتها وعن أطماعها في المنطقة، أعلنت أنها تدعم بناء خط جديد يبأ عن كازاخستان وينتهي عند بحر قزوين عبر الأراضي التركية، تركيا طبعا رحبت بهذا الهط الذي سوف يحدث نوعا من الانفراج الاقتصادي لها ويزيد من روابطها بدل وسط آسيا.

روسيا موجودة

توضح هذه المواجهة مدى التأثير الروسي في المنطقة كلها بشكل عام، وفي كازاخستان بشكل خاص، فهي تتحكم في كل الطرق التي تصلها بالعالم، وبالتالي فهي تتحكم في ثرواتها الطبيعية وتبدي كلمتها في أي مشروع استثماري تسعى إليه أو يسعى إليها.

العالم، المطاعم الصغيرة متناثرة في الطريق، تقوم (اللجمان) الدسم، لحم الغنم بكل ما فيه من شحوم مع خلطة من العجائن والخضروات، رسم يتناسب مع طقس هذه المناطق التي تغطيها الثلوج سبعة أشهر كل عام.

وفي طريق عبور المدن والقرى الصغيرة، تلوح قباب الشيوخ والأولياء فوق قمم الجبال بصمات الإسلام في كل مكان.. فكيف تأتي لهذه الدعوة التي خرجت من قيظ مكة والبقاء والازدهار وسط هذه السهوب الباردة.

في متحف المآتا ينتصب تمثال للسكان الأصليين أو (السكاكين)، ملامحهم أقرب ما تكون القبائل السلافية قبل أن يجتاحهم المغول، ويختلطوا بهم، لقد اعتبروا السماء آلهتهم، ولكنهم أرواح الأسلاف، وأقاموا النصب المقدسة وزينوها بذيول الخيول، وآمنوا بأن المرور بين نارين يطهرهم من الآثام، ليس هم فقط بل كانوا يمررون ماشيتهم أيضا قبل أن تذهب للذبح.

الإسلام يصل من الجنوب

دخل الإسلام من الجنوب، متأثر بالمدن الإسلامية الكبرى التي صعدت وازدهرت مثل بخارى وسمرقند وخيفا، حمله إليهم تجار القوافل على طريق الطويل والذي يوجد في كازاخستان الجزء الأكبر منه.

والمدهش أن النبلاء الكازاخ المسلمين هم الذين اختاروا الانضمام طواعية لروسيا القيصرية، فقد كانت (الخانات) الذين توالوا على حكم البلاد أضعف من أن يقاوموا أطماع الصين.. وفي المقابل شجعت روسيا انتشار الإسلام لتقوية نفوذ النبلاء الذين كانت تعتمد عليهم، ولكنها ما لبثت أن انقلبت عليهم حين بسطت سيطرتها على البلاد، وأكدت ذلك بأن أصدرت سلسلة من القوانين تحد من انتشار الإسلام بحيث لا يكون هناك أكثر من إمام واحد لكل مقاطعة، وأن يوقف إنشاء المساجد إلا بتصريح من القيصر، ثم دفعت بالعديد من المبشرين لدفع الناس لاعتناق المسيحية الأرثوذكسية وازدادت محاصرة الإسلام بعد وصول البلاشفة إلى الحكم في عام ١٩١٧.. ولكن في المقابل دخلت كازاخستان في مرحلة جديدة بعيدا عن العلاقات الاقتصادية التي كانت تسودها.

لقد أصبحت واحدة من كبريات الجمهوريات السوفيتية من حيث مستوى التعليم الحديث (وقد حرم التعليم الديني نهائيا).. كما أن الحرب العالمية الثانية قد مثلت ثورة أخرى بالنسبة لها على المستوى الصناعي، فقد انتقلت إليها كل الصناعات الثقيلة التي كان السوفيت يخشون عليها من الدمار أو الوقوع في أيدي القوات الألمانية.. كما أنها تحولت إلى ثالث منطقة لإنتاج الحبوب بعد روسيا وأوكرانيا.. ويمكن القول أن الثروات الكامنة في أعماق هذه السهوب هي التي ساهمت في انتصار السوفيت في هذه الحرب الكونية.. برغم ذلك لم يعترف الروس بذلك، وظلوا يواصلون سلب ثروات كازاخستان الطبيعية.. وأبسط مثال على أنه برغم أن الثروة الحيوانية في كازاخستان كانت مصدر أساسيا من مصادر الطعام في الاتحاد السوفيتي، فقد كانت أسعار اللحوم في موسكو أرخص بكثير عنها في كازاخستان.

أشهر العاشقات

وهناك على أبواب (جمبول)، مدينة أخرى من أشهر معالم طريق الحرير الطويل، تغير اسمها القديم، ولكنها أخذت اسمها الحديث من الشاعر جمبول الذي خرج من هذه المنطقة وآمن بستالين، وخصص له الكثير من قصائده خاصة.

وفي كازاخستان اضطرت شركة اجيب البريطانية للغاز للتوقيع على عقد تعطي بموجبه ١٥% من حصتها في غاز (كاشاجايك)، وهو واحد من أكبر عشرة حقول للغاز الطبيعي في العالم، لشركة جازيورم التي تمتلكها الحكومية الروسية بسعر ٨,٨٤ دولار لكل ألف متر بينما ثمنه الحقيقي في السوق العالمية ٨٠ دولارًا.

ظلال الوجود العسكري الروسي

ولا يتركز التأثير الروسي في تحكمه في الطرق والثروات فقط، ولكن وجود روسيا العسكري مازال مؤثرا أيضا، ربما كانت (أوزبكستان) هي الدولة الوحيدة من وسط آسيا التي لا يوجد على أرضها أو على حدودها جنود روس.. وكلهم موجودون في بقية الدول. أما بشكل سافر أو خفي، وقد حدث منذ سنوات في طاجكستان المجاورة أن قامت حرب ضروس – لم يعلن عن ضحاياها – بين الحكومة التي تملكها فلول الشيوعيين القدامى والمعارضة الإسلامية، كذلك الحال في أذربيجان.. أما في كازاخستان فهم يملكون المفاتيح الرئيسية للقوات المسلحة، ويشرفون على قواعد الصواريخ، ويقومون بتدميرها وفق معاهدات (سولت) دون تدخل من الحكومة.

فخبرة الشعوب وسط آسيا بالحياة العسكرية قليلة إلى حد ما، فقد كان معظمهم يعملون في الجيوش السوفيتية كطهاة أو عمال للنظافة.. وأسفر تفكك الاتحاد السوفيتي عن قواعد عسكرية في هذه الدول لا تعرف عنها شيئا، وحدود لا يدرون كيف يراقبونها، حتى أن نزار بياف رئيس كازاخستان اضطر في حينه إلى الموافقة رسميا على مشاركة روسيا في قواته المسلحة، واعترف بالروسية كلغة رسمية بجانب الكازاخية، كما وافق أيضا على مشاركة روسيا في كل مشاريع الطاقة.. وعلى حد تعبير دبلوماسي غربي في (الما آتا): (.. هذا هو السبب الرئيسي في الترنح الذي يعانيه الاقتصاد الكازاخي، فليس أمامه خيارات كثيرا..)

قوة الرؤساء في كازاخستان وبقية الدول المسلمة في ازدياد مستمر، فهم كما هي الحال في بعض بلادنا العربية لا يؤمنون كثيرا بأسلوب الانتخابات، ويفضلون بدلا منها الاستفتاءات التي تسفر في العادة عن النتيجة الشهيرة ٩٩,٩%.

لذا فإن هؤلاء الرؤساء يمسكون بزمام السلطة دون أي معارضة حقيقية، وحتى بعد أن رفضت المحكمة العليا في كازاخستان نتائج الانتخابات البرلمانية التي حدثت عام ١٩٩٦، أعلن الرئيس نزاربياف بوضوح عدم نيته في إجراء انتخابات أخرى، أنهم (خانات) جدد كما يؤكد كل المراقبين، تربوا منذ الحزب الشيوعي على عدم حب الديمقراطية، وأغلبهم يجاهر بذلك.

سحر السهوب

..(السهول الواسعة خارج (الما آتا) امتداد خرافي، أثر دائم عبر الزمن، خضرة تنام على حافة الجبال التي تغطيها الثلوج.. الطرق إلى شمكنت يمتد جنوبا على مدى ٩٨٠٠ كيلو متر، السيارة التي تمضي نحوه روسية خشنة تتقافز فوق تشققات الأسفلت، قطعان من الأغنام والأبقار والخيول ترعى في هدوء، تبدو من فرط بريتها أنها ليست ملكا لأحد، إنها تنتمي فقط إلى عمق السهوب، كأنها تنتظر جحافل المغول حتى تأتي فيأكلون لحمها، ويعتلون ظهورها ثم يقومون بغزو أثناء الحرب العالمية الثانية، وقد فاز مائة من ابناء كازاخستان بلقب (بطل الاتحاد السوفيتي) وهو عدد كبير بالنسبة لقومية واحدة، بل أنها كانت قومية مهمشة عسكريا أيضا.

وفي جمبول أشهر العاشقات الكازاخيات، قبر (عائشة بيبي) وللوصول إليه لابد من الدوار في الطرق الملتوية وغير الممهدة، والصعود تله وهبوط أخرى واجتياز البوابات المغلقة للوقوف بعد لهاث أمام قبرها.. أحجار تكسوها الفسيفساء الذائبة، ودمعه وحيدة على قبر العاشقة التي تنمو حولها أزهار شقائق النعمان.. ترمز دائما إلى كل مآسي العشاق.

كانت عائشة صغيرة عندما وقعت في غرام واحد الخانات.. قال لها أنه ذاهب إلى الحرب وعندما يعود سوف يتوجها أميرة على قلبه وبلاده.. ولكن والدها حذراها من أن الخان يخدعها، وأنه لن يتوج بجانبه أبدا فتاة من العامة.. ولكن عندما عاد الخان من الحرب كان مازال يذكرها، وأرسل إليها رسولا يقول لها أنها أول وجه يحب أن يراه عندما يعود.

لم تبال عائشة باعتراض أبويها، وهرعت في الليل لتلاقي حبيبها، ولكن حية لدغتها في قدمها فماتت في موضعها، وحزن الخان حزنا شديدا عليها، ولم يكتف ببناء هذا القبر العالي، بل بنى في مقابله صومعة يعيش بها طوال حياته ويدفن فيها بعد أن يموت زاهدا في متاع الدنيا من أجل حبيبته.. ولكن الحياة هي الحياة فقد نسى الخان أحزانه، وتزوج وهجر صومعته في مقابله ولم يعد إليها.. ولكن القبر بقى شاهدا على أشهر قصص الحب في طريق الحرير والطويل.

وسط متاهة السهوب الخضراء يبرز سؤال: أين ذهبت المزارع النموذجية؟ الكلوخوزات؟ ملاحم الفلاحين في مواجهة الطبيعة القاسية، كل الأدبيات والرموز التي تغذينا عليها صباح مساء من التجربة السوفيتية.. كيف اختفى كل هذا؟.. على امتداد البصر لا توجد الصحراء الخضراء قاحلة من البشر تنتظر الغراس والبذر. ولكن مع هذا فهناك مزرعة وماكينات ري عملاقة تتحرك، تعلو قليلا على مستوى العشب، سيارات الشرطة توقف حركة الطريق تنتظر في تشكك الوجوه.. إنها قرية (تشو) أشهر قرى زراعة المخدرات في كازاخستان، أكثر من مرة هاجمتها الشرطة ودمرت مزروعاتها، ولكنها عادت للنمو من جديد دون السيارات القادمة إليها من العاصمة، إنها تبعد حوالي ٣٥٠ كيلو مترا، ولكن الحركة إليها لا تهدأ خاصة سيارات الشباب الذين يتطلعون إلى مخدرات جيدة ورخيصة السعر.

وأخيرًا وبعد سفر متواصل منهك تبدو ملامح الخضرة الكثيفة (شمكنت) قبل أن تغيب الشمس، ويسود الظلام الدامس. بعد أن انقطعت عنها إمدادات الغاز والطاقة التي كانت تصل إليها من دولة أوزبكستان المجاورة.

فالمسافة بين شمكنت وطشقند عاصمة أوزبكستان لا تتجاوز ١٥٠كيلو متر، أي أنها أقرب مدينة كبيرة إليها، وكان من الطبيعي في ظل الاتحاد السوفيتي أن تعتمد عليها في إمدادات الغاز والطاقة.. ولكن طشقند أصبحت الآن عاصمة دولة أخرى. مستلة، وهي تطالب بثمن كل ما تقدمه من خدمات، ولأن كازاخستان كانت عاجزة عن الدفع فقد تم قطع الغاز.

لقد تراجعت القرى المحيطة بشمكنت إلى العصور الوسطى، ولم تعد تسمع عن الكهرباء من أعوام، لقد عادوا للضخ من مياه الآبار وأصبحت الأراضي المحيطة بها معددة بالبوار، وتعود الناس في شمكنت على السير في الظلام الدامس وحتى داخل البيوت فإن درجات الإضاءة في أدناها.

وحتى في الصباح، في عز الشمس لم تكن الإضاءة كافية، فهذه العاصمة الدينية القديمة التي كانت محط القوافل ومهبط العلماء تعاني مشاكل خطيرة، كان أول ملامحها باديا على أبواب مصنع النسيج الذي كان يعد ثاني أكبر مصنع نسيج في الاتحاد السوفيتي، كان مغلقا، وأفواج العمال العاطلين يجلسون حول أسواره في كل صباح، ربما لم يعترفوا بعد بهذا، وربما لأنه لا يوجد مكان آخر يذهبون إليه.

لم يكن هذا المصنع وحده هو المغلق، كل مصانع (شمكنت) كانت صامتة، ولا توجد ذرة دخان واحدة تتصاعد إلى السماء، مصنع الأدوية والكيماويات، مصانع المعادن، مصنع الحافلات، المنظفات، الملابس، مؤسسات ضخمة وعملاقة ترتفع مداخلها كأنها أذرع تتوسل

دون جدوى، مقابر من المعدن يزحف عليها الصدأ، كانت كلها تعمل ضمن منظومة الاتحاد السوفيتي القديمة. كل مصنع كان يتكامل بشكل أو بآخر على مصنع آخر في جمهورية أخرى، كانت الشرايين موصولة بين كل هذه المؤسسات الصناعية، الآن تمزقت كما تمزقت الدول، وكما تمزقت الأندلس قديما بين ملوك الطوائف. كلها تنتظر الاستثمارات الغربية، والاستثمارات الغربية جاءت بالفعل، فقد اشترى الأمريكيون مصنعا لإنتاج البسكويت، وأصبحوا ينتجون نوعا لذيذا منه، كما أن هناك مصنعًا لإنتاج سجائر المارلبورو، وربما يكون هناك مصنعًا آخر للعلك تحت الإنشاد.

التعليم أيضًا

التعليم أيضًا يعيش محنته أكشفت شمكنت عن تلك الفتاة الجميلة التي كانت معلمة في المدرسة العليا بالمدينة، إنها تعمل الآن جرسونة في المطعم التركي في المدينة عندما كانت معلمة لم يكن راتبها يتجاوز ثلاثين دولارا، أما الآن فهي تعمل طوال اليوم مقابل ١٢٠ دولارا وهو مبلغ يكفي بالكاد احتياجاتها.. المعلمة الجرسونة تقول: (كنا كلنا نعتقد أنها فترة مؤقتة من الركود وعدم الاستقرار وسوف تنتهي.. ولكنها طالت أكثر مما ينبغي..)

أقدم من العالم

لا نهاية للمسافات في هذا البلد الشاسع، الطريق الضيق المليء بالأشجار العتيقة يصل إلى واحدة من أقدم مدن العالم.. (تركستان) مدينة عمرها الآن خمسة عشر قرنا الطريق إليها مليء بمعالم الماضي، والمدن الصغيرة ليست مجهولة، أسماؤها متناثرة في كتب الرحالة، وبرغم أنها تقع في الطرف الجنوبي من كازاخستان فإنها ذات يوم كانت قلب العالم التجاري.

في بلده (سيرام) في هذه المنطقة يتراجع الكازاخ، وتسود قومية أخرى هي (الأوزبيك) لذا فإنهم أكثر نشاطا في مجال الزراعة، يتغير الطابع الرعوي الذي كان يغلب على الأرض في الشمال، وتبدو الأرض مقسمة تشي خطوطها الطينية بجهد البشر..

عبر تضاريس تركستان تبدو ملامح خطى الذين ساروا قبلنا على درب الحرير، لم يكن الحرير ما يباع فيه من بضائع، ولكن كم يبدو هذا الاسم آسرا خاصة أنه يعبر عن واحدة من أطول الرحلات الدورية التي عرفها البشر.

في بدايتها ينتصب أشهر المزارات في منطقة وسط آسيا كلها.. مزار حاجي أحمد عيسوي، ولأن الاسم الأخير ثقيل على النطق التركي فإنه يطلق عليه (أحمد ياسقي)، أو مكة الثانية كما يطلق عليه هنا.

بناء قديم ومهيب، مهابته من عالم الأسطورة، الإصلاحات تدور في كل مكـــان فيـــه، الأحفاد من الخبراء الأتراك أقبلوا على عجل كي ينقذوا البناء المتـــداعي بأساســـات جديـــدة، وبمكعبات من (السيراميك) تحاكي الأصل القديم نفسه.. وبرغم الإصلاحات فوفود الـــزوار لا تنقطع مثلما لم تكن القوافل تنقطع عن هذا المكان.. كلهم يريدون التبرك بهذا الحاجي الشاعر الذي مازال يسكن في القلوب برغم مرور كل هذه القرون على وفاته فـــض زمـــن الاتحـــاد السوفيتي، عندما كان الخروج إلى بيت الله الحرام أشبه بالمستحيل، كان الجميع يزورن هـــذا المقام.. والآن حتى بعد أن انفتحت الأبواب فإن الأقدام مازالت تسعى إليه من كـــل أطـــراف وسط آسيا.. في باحة المسجد – بين أعمدة السقالات ودعامات الإصلاح – تتـــزاحم النـــسوة حول الإناء المعدني الضخم الذي يتوسط المكان.. إناء أسطوري، محفور عليه آيات قرآنيـــة، مصنوع من سبيكة مجهولة التركيب كما يقولون. تكفي شمعة واحدة تضاء تحته حتى يتحـــول ما فيه من ماء بارد إلى شديد الحرارة حتى في أقسى شهور الشتاء.. إنه ماء مبـــارك يقـــف أمامه طابور مكون من عشرات النسوة اللواتي لا يكففن عن التوافد.. كل واحدة منهن حريقة على لمسة أو أخذ بضع قطرات منه، فهو يشفي من الأمراض، ويعالج العقم، ويعيد الغائـــب، ويحافظ على توهج مشاعر المحبة!

والأساطير لا تخص الإناء المعدني وحده، وكلنها تحيط بصاحب المكان أيضا حـــاجي أحمد باسفي (أو عيسوي) الذي كان فقيها وعالما وشاعرا.. استقر في هذه المدينة بعد تطواف طويل في بلاد المسلمين.. ثم أحب هذا المكان الذي كان واحدا من أهم مراكز طريق الحرير، ويقال أنه عندما بلغ سن الثالثة والستين اعتكف في قبر هذا المسجد ورفض أن يتناول طعـــام أو شرابا، حتى لا يعيش أكثر من العمر الذي عاشه الرسول الكريم.. وعندما مات دفـــن فـــي هذا المكان وعندما مر به تيمورلنك الذي كان سلطان العالم في هذا الوقت أمر بتشييد كل هذا البناء الضخم.

القوافل تستيقظ

تتردد أصوات القوافل وهي قادمة لتحط رحالها عند أبواب تركستان، تتناهى عبر غبار السنين، تصل بين الحاضر وبين ذلك الطريق الأسطوري الذي احتل خيالات البشر تحت اسم (طريق الحرير).. فهو لم يكن مجرد طريق تجاري، ولكن كان شريانا للاتصال بين الحضارات المختلفة.

لقد ضاعت معالم هذا الطريق مع تقلبات الزمن، وطمر الغبار المدن التي كانت زاهرة، ولكن دعوة منظمة اليونسكو في عام ١٩٨٥ إلى إعادة إحيائه جعلت الكثيرين من الباحثين والمنقبين يعاودون فتح مساراته القديمة مرة أخرى.

في متحف (الما آنا) يقولون: (لقد كان الرحالة الإيطالي فرانسيسكو بيجولوتي هو أول من أشار إلى هذا الطريق عام ١٣٥٥ بعد أن عاد إلى بلدته فلورنسا أثر غياب غامض ثماني سنوات كاملة، ليحكي عن ذلك الطريق الطويل الذي قطعه من أوروبا حتى قلب الصين، وقد أمر بطبع هذا الكتاب الذي سجل فيه رحلته ليكون فيما بعد دليلا للتجارة).

بدأت رحلته من قلعة (أزوف) على نهر الدون في أوروبا، ثم أخذ عربة (الكيبيكا) لمدة عشرين يوما نحو مدينة (استرخان) على نهر الفولجا، ثم عبر سهول كازاخستان إلى خوارزم حتى وصل إلى نهر (سرار ادريا)، أو نهر سيمون كما يعرف في كتب الرحالة العرب، ومنها سار إلى (اورار) عاصمة كازاخستان القديمة بلدة العالم الفارابي قبل أن يدخلها جنكيز خان ويدمرها.. ثم استأجر البغال ليصعد بها فوق جبال (التاد) ويهبط منها إلى مقاطعة (تيان شان) في الصين.. ومنها ركب القوارب عبر القناة الكبرى في (هوانج هو) التي قادته إلى نهر (اليانجستي) ومنها إلى بكين قلب الصين.

هذا هو خط الرحلة الذي ظل أساسيا على مدى آلاف السنين مع إضافة بعض التفاصيل موسكو شمالا.. القدس جنوبا.. ولكنها الرحلة نفسها التي صنعتها جيوش الإسكندر المقدوني منذ آلاف السنين.. فهذا القائد الصغير الذي حلم بامتلاك العالم قد غير شكل خارطة الأرض، ووسع مع المساحات الماهولة.. لقد تحول العالم بفضله إلى شيء دائم الحركة.. واكتشفت أوربا أن عليها التعامل مع آسيا؛ أي إن الـ (ايوكومن) الشرقي قد انفتحت بينهما شرايين لا لتبادل التجارة فقط، ولكن لتبادل المعارف والخبرات الحضارية.

لا يوجد تاريخ قديم يحكي لنا عن طريق الحرير قبل الفتح الإسلامي، وربما كان السبب أنه كان طريقا مضطربا غير آمن، لا توجد فيه محطات كافية لاستراحة القوافل، وتزويد الركاب بالمؤن، لم يشهد الطريق أمانه وازدهاره إلا تحت أمره المسلمين، وبرغم ذلك

يروق للمستشرقين أن يروجوا قصة زائفة عن فتح قتيبة بن مسلم لمدينة خوارزم عام ٧١٢م، وكيف أنه جمع كل الذين يعرفون الكتابة وكل حفظة التاريخ والأساطير وقتلهم جميعـا، وأراد بذلك أن يمحو ذاكرة ما قبل الإسلام وهو أدعاء باطل يكذبه سلوك العرب كفاتحين فـي كـل البلاد.. وحقيقة عدم وجود تاريخ لطريق الحرير قبل الفتح الإسلامي هو أن الطريق لم يكن له وجود فعلي منتظم ومردود وثقافي ملحوظ لا تحت إمرة حكام المسلمين.

وعلى مدى ألفي عام كانت القوافل تتحرك على طريق الحرير، قامـت العديـد مـن الحروب الدموية، وانتشرت الأوبئة والمجاعات، قامت أقوام وبادت، وازدهرت مدن واندثرت حتى الأنهر غيرت مسارها وظل مسار الطريق كما هو.. أكثر من مرة ارتفعت سيوف الغزاة حتى تقطع أوصاله أو تصنعه تحت سيطرتها.. الإسكندر المقدوني، جنكيز خان، تيمـورلنكط فشلوا جميعا، لا المدن المدمرة ولا السيوف ولا الطاعون قد استطاع أي منها أن يوقف.

وإذا كان قد أخذ لقب الحرير، فإن بضاعته الأصلية لم تكـن كـذلك. كانـت مادتـه السحرية التي أعطته تلك الديمومة عبر الزمان هي (البهارات).. فعلى مدى قـرون طويلـة كانت الحروب المتواصلة تمزق أوروبا. وفي كل عام تسقط عشرات القلاع والحصون، تسير الجيوش لمسافات طويلة ويهاجر إناس أو تتم محاصرتهم داخل الحصون.

وحتى يمكن مواجهة كل هذه الظروف كان لابد من وجود وسيلة لحفـظ الطعـام، إن قدرة المحاربين على الصمود، وحركة الجيوش، والرحلات البحريـة الطويلـة لاستكـشاف الأرض الجديدة لم تكن تخضع لقوة الجدران، أو براعة القادرة، أو متانة السفن، ولكنها كانت بالضرورة تعود إلى وسيلة حفظ الطعام من التلف.. وفي البداية كان البهار يـستخدم لحفـظ الطعام من موسم لآخر، ولكن بعد ذلك أصبح ضروريًا في الحرب والسلم والاستكشاف.. من يملك مصدره يملك السيطرة على مصير أوروبا.

إن موطن البهار هو آسيا الاستوائية، ففي قلب غاباتها الاستوائية توجد أشجار جـوز الطيب والقرنفل ونباتات الآس العطري وبقلات الينسون والمـسطردة والفانيليـا والجنزبيـل والفلفل الأسود والكمون والكزبرة.. كانت القوافل تسير على أوروبا محملة بأثقالها وهي فـي أشد الحاجة للتخلص منها.

ولكن بحارة لشبونة استطاعوا اختراع أشرعة رباعية تسير ضد اتجاه الـريح، وقـد أحدث هذا الاختراع ثورة هائلة في كل طرق الملاحة.. وقد أدرك كريـستوفر كـولمبس أن الوقت قد حان للوصول إلى بهار الهند بواسطة البحر، ولكنه اكتشف بدلا منها أرضا جديدة.. ولكن الانتصار الحقيقي لأوروبا كان هو عودة (فاسكو دي جاما) الذي كان أول من اكتـشف

أرض البهار، وكانت حمولته من جوز الطيب والقرنفل التي عاد بها تساوي ستين ضعفا تكاليف رحلة الاستكشاف التي استغرقت عامين.. وكان هذا إيذانا بموت طريق الحرير وأخذت مكانه الاستكشافات الجغرافية الكبرى، وازدهرت المدن البحرية بينما بدا التراب يطمر مدن الحرير.. لقد تغير الطريق من الصحراء والثلوج إلى البحار المفتوحة.

يقول أحد حكام القرى: (لقد خرجنا من تحت الحكم الشيوعي وعقولنا كالأوراق البيضاء، يستطيع كل من يريد أن يخط عليها ما يشاء، الصراع هنا شديد وإذا لم يسارع المسلمون بتقديم العون لنا فسوف يرتد الناس عن الإسلام، إننا نريد المزيد من المدارس والمعلمين، حتى تروي عقولنا إلى العالم بالإسلام، قبل أن يصيبها الجفاف..)!

حكمة خطيرة تصور ما يحدث في الما آتا والمدن الأخرى، الحملة التبشيرية الضخمة التي يقودها مجلس الكنائس العالمي أثارها في كل مكان، كتب ملونة ومجلات جذابة ومبشرون مقنعون وكل وعود الغرب البراقة، يفسرون آيات الإنجيل في التليفزيون، ويقيمون حفلات موسيقية في ألأندية، ويقدمون الهدايا والهبات المالية ووعود الهجرة والعمل في الخارج ويساعدون في نشر كل الكتب التي تسيء إلى الإسلام.

يوجد في (الما آتا) أربعة مساجد وثلاث عشرة كنيسة. ومسجد المفتي الرسمي، في مقابل ذلك توجد بعض الجمعيات الإسلامية التي تعتمد في جهودها وتحديها على تبرعات الأفراد أكثرهم نشاطا وحضورا على الساحة هي لجنة مسلمي آسيا، إنها تحاول من خلال مشروعاتها (التواصل الحضاري مع أحفاد البخارى)، أن تصل تلك المنطقة بقلب الإسلام من خلال العديد من المشروعات الدينية والتنموية، وأهمية دورها يظهر وسط الكازاخ العاديين الذين هم في أمس الحاجة إلى مؤسسة دينية ترعى شئونهم وتقف بجانبهم في أزماتهم..،كما يقول رجال الدين هناك: (لم يترك المبشرون مدينة إلا وحاولوا أن ينشروا نفوذهم فيها، لقد أقاموا احتفالا كبيرا في الاستاد الرياضي الكبير في الماآتا احتفالا بدخول ٢٥٠ ألف مواطن كازاخي إلى المسيحية، وهم يحلمون بتكرار ذلك في كل مدينة)!

ولكن للإسلام عنصره الإيجابي برغم كل هذه التحديات، إنه جزء من الشخصية الكازاخية التي يريد الكازاخيون استعادتها، إنها تمثل ماضي العزة والاستقلال التي يتصورها مثل ظلال لأحلام عابرة يود لو إنها تتحقق على أرض الواقع، وهو يريد رابطا قوي مع العالم الإسلامي الذي تقطعت روابطه معه منذ زمن طويل.

الإسلام في كازاخستان يواجه تحديا كبيرا لا تجدي معه التمنيات الطيبة ولا صدقات الزكاة، إنه يحتاج إلى كل ما هو أكثر من ذلك، وعلى حد تعبير الشيخ عظيموف أمام المسجد في بلدة (سيرام): (كيف يقرأ المصلون القرآن وهم جوعى؟).

مجلس الكنائس لم يذهب هناك بمفرده، ولكنه كان أشبه بحصان طرواده لكل الدول الأوروبية، إسرائيل أيضا موجودة هناك بشدة، وهي موجودة في الشارع من خلال بضائعها المتناثرة من زجاجات الخمر حتى قطع الحلوى، كما أن عملاءها ينتشرون بحثا عن أسرار الترسانة العسكرية السوفيتية. وكذلك تسلل خبراؤها الزراعيون إلى حقول الكازاخ، البلد ساحة حقيقية لصراع الأفكار والأديان، ويجب ألا تجد المؤسسات الإسلامية نفسها غائبة عن كل هذا.

أين نحن؟.. هل تكفي دور الجمعيات.. أعتقد أن هذه البلاد في حاجة إلى بنك إسلامي قوي يقوم بتمويل المشروعات الصغيرة ثم الكبيرة للمسلمين الكازاخ، إنهم في حاجة ماسة إلى رأس المال، وإلى الاستشارة الصناعية حتى يمكنهم القدرة على الإبداع والاستثمار، فأحوال البنوك في كازاخستان متردية، وهي مؤسسات مالية تتحكم فيها المافيات ونشاطها الأساسي هو غسل الأموال، وإذا أخطأ أحد وأودع تحويلا لن يستطيع سحبه الابرشوة ضخمة..

لذا فإن وجود بنك إسلامي أمر كفيل بحفظ أموال المسلمين ومساعدتهم على النهوض والانتقال من الاقتصاد الرعوي الذي أرغموا عليه طويلا، إلى بوبا الاستثمار المعاصر.

آفاق التعاون بين مصر وكازاخستان

لكل هذه عقدت ندوة فريدة من نوعها في مركز الدراسات الأسيوية لكلية الاقتصاد والعلوم السياسية – جامعة القاهرة – واستمرت عشرة أيام كاملة، ابتداء من ٢٤ يناير ٢٠٠١، ضمت وفدا رفيع المستوى من كازاخستان (قاراقستان) يجمع بين الأكاديميين ومن يمتلكون القرار في بلادهم.

وشملت الندوة ١٤ جلسة نقاش حول: قضايا النظام الدولي فيما بعد الحرب الباردة وقضايا العولمة، وحوار الحضارات، وأسلحة الدمار الشامل، والأمن الإقليمي، والتوجهات الجديدة في السياسة الخارجية لكلا البلدين.

وقد أدى صندوق المعونة الفنية لدول الكومنولث بوزارة الخارجية دورا هاما لكازاخستان على طريق توثيق العلاقات بها وبغيرها من دول رابطة الكومنولث في مختلف المجالات الدبلوماسية والسياحية والشرطة والبنوك والخصخصة والنقل والإعلام وغيرها.. وقد ألقى د. فوزي دروسين بهذه المناسبة بعض الضوء على هذا البلد الناقض.

.. وهكذا بعد عقود زمنية سبعة من النظام السياسي السوفيتي، ومركزية التخطيط بدأت كازاخستان تشق طريقها كبلد مستقل تتوجه نحو اقتصاد السوق، وتتميز كازاخستان بإنها تملك طاقات اقتصادية أكثر تطورا بالمقارنة بدل آسيا الوسطى الأخرى وبنية تحتية صناعية ضخمة تقع في غالبيتها بالقرب من روسيا.. وتبلغ نسبة الروس ٣٧% من جملة سكان كازاخستان (٢٠ مليونا).. ويوجد القزق في جنوب البلاد وهم على مذهب السنة، وكلمة قزق بالتركية معناها (الأحرار)، وبالبلاد جامعة الإمام الفارابي، والجامعة القزقية التركية – وكلية الاستشراق، وجامعة القانون الدولي، وعاصمة البلاد (الما–آتا) وإن كانوا يبنون الآن عاصمة جديدة في مركز أكثر توسطا مع بقية دول رابطة الكومنولث.

الميراث العسكري السوفيتي

كانت كل من بيلا روسيا وروسيا الاتحادية وأوكرانيا تشكل واحدة من أعلى مناطق العالم تسليحا، وإمكانات نووية وإمكانات الأسلحة النووية الإستراتيجية للاتحاد السوفيتي سواء بالنسبة للصواريخ الباليستية عابرة القارات أو الطائرات القادمة قم تم نشرها في كازاخستان، وكان إجراء التجارب النووية السوفيتية الرئيسي يتم في موقع (سيمي بلاتينسك)، كما كانت أهم منشآت الإطلاق في القضاء تتم في (باكينور)، وكلها في كازاخستان.. وكان عدد الأسلحة الجاثمة على أرض أوكرانيا وكازاخستان يجعلها في المرتبتين الثالثة والرابعة على التوالي

على مستوى العالم في القوة النووية، وقد كان في كازاخستان في بداية ١٩٩١ (٦٥٠ رأسا نووية).

الاقتصاد الصناعي والزراعي الحديث لكازاخستان لم يتم بناؤهما إلا في النصف الثاني من القرن العشرين بغرض إمداد الاتحاد السوفيتي بالمواد الخام والغذاء وأصبح هدف كازاخستان حاليا هو تجاوز هذا التوجه الاقتصادي.

وتعتبر كازاخستان دولة بترولية جديدة تذهب تقديرات الخبراء إلى أن احتياطياتها من البترول على مستوى العالم فضلا عما يزيد على ٢ تريليون متر مكعب من الغاز الطبيعي.

الأرضية المشتركة بين البلدين

تجلت في حلقات النقاش بين الجانبين ثلاث مساحات رئيسية مشتركة تتعلق بالبيئة والأمن والدعوة لعدم الانتشار النووي.. وأما الأمن فهو يشغل بال المسئولين في بلادهم نظرا ما تموج به المنطقة في حركات أصولية.. أما الدعوة بعدم الانتشار النووي فإن كازاخستان لم يعد يعنيها وجود مثل هذه المؤسسات على أراضيها (ولقد تم استكمال إزالة جميع الرؤوس النووية الإستراتيجية من كازاخستان، وإرسالها إلى روسيا في إبريل ١٩٩٥).. ويأتي في هذا الإطار مؤتمر طشقند ١٩٩٧ لجعل منطقة آسيا الوسطى خالية من السلاح النووي.

آفاق تطوير العلاقات

ومن واقع ما أبداه الوفد الزائر، تجلت آفاق التعاون في المجالات الآتية: إعطاء دفعة للتبادل التجاري، وإنشاء خط مباشر لمصر للطيران، التعاون الزراعي (في مجال القمح)، (افتتاح كلية أنور- مبارك) في أقرب وقت، إنشاء قاعدة إطلاق أقمار صناعية مشتركة في باكينور، إنشاء مكتب إعلامي لمصر في (كازاخستان)، رحب الوفد بهذه المبادرة من جانب رئيس هيئة الاستعلامات.

التعاون في المجال الرياضي، في ضوء ما أحرزته كازاخستان من ميداليات في دورة سيدني.. أيضا البث التليفزيوني المصري إلى كازاخستان، إنشاء مؤسسة باسم (الظاهر بيبرس) للتعاون الثقافي.

وقد قام الطرفان بتوقيع بروتوكول للتعاون بين مركز الدراسات الأسيوية، ومعهد الدراسات الفلسفية في كازاخستان.

تدشين المقر الجديد لسفارة كازاخستان بالقاهرة

وفي بداية شهر فبراير ٢٠٠١ تم تدشين المقر الجديد لسفارة جمهورية كازاخستان بالقاهرة.. وصرح السفير (اسكار موسينوف) سفير جمهورية كازاخستان بالقاهرة بأن انتقال سفارة بلاده لذلك المقر الجديد يأتي تزامنا مع بدء مرحلة جديدة في العلاقات المصرية – الكازاخية، والتي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، رغم أن التاريخ الرسمي للعلاقات الدبلوماسية بين البلدين بدأ قبل نحو ثماني سنوا، بعد عام واحد من استقلال كازاخستان.

وأضاف أن المقر الجديد لسفارة كازاخستان سيتيح – نظرا لاتساعه – إقامة مركز ثقافي متكامل، وتخصيص قاعات للمعارض والأمسيات الثقافية، وإنشاء مكتبة كبيرة مشيرا إلى أنه يوجد حاليا نحو ١٥٠ طالبا كازاخيا يدرسون في الجامعات المصرية..

وأوضح أنه منذ تعمله اللغة العربية عام ١٩٧٨ في جامعة لينجراد، وتعرفه على العالم العربي، فقد كان حلمه الكبير الذي ظل يراوده أن يزور مصر ويشرب من نيلها وقد تحقق حلمه بعد عشرين عاما عندما تم تعيينه سفيرا لبلاده بالقاهرة.

وأكد سفير كازاخستان أن هناك إمكانات وأفاقا واسعة ورحبة لتطوير علاقات البلدين في شتى المجالات، خاصة أن الشعب الكازاخي يكن لمصر في تقدير واحترام باعتبارها البلد الذي احتضن أحد أبنائها قبل أكثر من تسعمائة وخمسين سنة وتم تنصيبه حاكما للبلاد، وهو السلطان الظاهر بيبرس الذي أصبح جزء من التاريخ المشترك لكلا البلدين.

أوزبكستان

إنها بلاد نصف الابتسامة تبدد النصف الأول وسط زمن التحولات الحائرة التي تمــر بها الآن.

وبقى النصف الآخر بعد أن استردت شخصيتها وامتلكت تاريخها بعد ثمانين عاما من الضياع وأوزبكستان لم تكن أبدا دولة هامشية.. بل كانت دوما القلب النابض لوســط آســيا.. امتزجت فيها حضارات الغرب والصين والعرب.. وأضاف إليها الإسلام قبسا مــن الــضوء مازال يشع منها حتى الآن.

(لا تتحدث مع أحد في السياسة بواسطة الهاتف) كان هذا أول تحــذير يلقــاه دكتــور محمد المنسي قنديل وهو يستعد لعبور حدود أوزبكستان، قاله له عالم ديني شاب مــن أصــل أوزبيكي يعيش في مدينة (شمكنت) في جنوب (كازاخستان) وهناك وحين تنطلق سيارة العابر للحدود سوف يلاحظ الطبيعة حوله آخذه في التغير، تترك طابعها البري، تستكين في خطــوط مستقيمة مرورية تحت سواعد البشر، تتغير الملامح، يختفي الطابع المغولي، وتظهر صفوف الفلاحات بأثواب (الأطلس) الحريرية الزاهية الألوان وهن يجمعن القطن.

علامات الحدود تبدأ في الظهور.. بوابة فضية فخمة تعلوها قباب صغيرة وأهلة تحتها توجد حركة صاخبة، سماسرة وباعة ومهربون شاحنات ضخمة يحاول الحراس عبثا تنظيمها، أكشاك للأطعمة السريعة للشاي دون سكر وعند المنفذ الحدودي لا يأبه جندي الحدود بــالنظر إلى العابرين، يمرون دون أن يوقفهم أحد أو يرى جوازاتهم أو حتى يتكرم بختمها.

الحدود كانت على الدوام مفتوحة أما داخل الدولة نفسها كان الأمر مختلفــا.. فعلــى حدود كل مدينة، بل وفي داخل طشقند كان رجال الشرطة يستوقفون الغرباء ليــروا إن كــان معهم تأشيرة للمدينة التي سيتوجهون لزيارتها.. ولهذا فإن الحدود بقــدر مــا هــي مفتوحــة للخارج، منغلقة من الداخل.. ومن الصعب على أي وافد أن يجد مكانا في أحد الفنادق دون أن يتضمن تأشيرة الزيارة للدولة اسم المدينة.

الرحلة في شوارع طشقند تبدو مليئة بالحركة، كأنها تحولت إلى ورشــة ضــخمة.. حركة الهدم والبناء فيها لا تهدأ، مبان قديمة تجث من جذورها، وتنهض بدلا منهــا مــشاريع لناطحات سحاب عملاقة.

الخضرة الكثيفة في الشوارع، فهي تقع في منطقة شبه استوائية حارة صــيفا، دافئــة شتاء مدينة رقيقة وعذبة وخاصة في المساء، خاصة شارع العشاق في (شــان راق)، رغــم

شهرتها لم تكن هي العاصمة التقليدية لأوزبكستان.. كانت العاصمة في مدينة سمرقند، ولكن لأن رجال الدين الأقوياء الذين كانوا يتركزون فيها يعارضون الوجود الروسي فقد قاموا بنقل العاصمة من مدينتهم.

في الوسط نصب حجري ضخم، امرأة ورجل وطفل يهرعون في فزع.. أنه ذكرى الزلزال الذي حطم المدينة عام ١٩٦٦.. لقد انهارت بسببه كل المباني القديمة والتقليدية في المدينة.. وبدأت إعادة البناء من جديد، وحضر العديد من الخبراء الروس في الشمال، وكانت هذه بداية استقرارهم في طشقند، فقد كانوا لا يألفون كثيرا الإقامة في هذا الجزء المسلم من إمبراطوريتهم. ولكنهم لم يتجاوزوا هذه المدينة ويقوموا بالسكن في بخارى أو سمرقند أو في وادي قرغانه، فأعدادهم هناك قليلة إلى حد ما.

الوجوه في شوارع طشقند تشى بكل خلطة الأجناس فبالإضافة إلى الروس هناك الكوريون الذين تم تهجيرهم من على حدود منشوريا بتهمة التعاون مع اليابانيين أثناء الحرب العالمية الثانية، وهناك القوقاز الذين تم تهجيرهم أيضا من الشمال بتهمة التعاون مع الألمان، وهناك الطاجيكون والكازاخ والتتار والمغول والعديد من الأجناس التي يصعب ذكر أسمائها.. تمثال لينين كان يحتل الساحة الحمراء، وهو بالطبع أهم تمثال في أية مدينة سوفيتية، التمثال هبط من طشقند مثله في المدن الأخرى، وحلت بدلا منه كرة نحاسية بلا معالم واضحة، لعلها تمثل الكرة الأرضية التي أحست أنها تنتمي إليها بشخصيتها المستقلة.

ولكن النصب الذي اكتسب أهمية جديدة، واحتل ميدانا مهما في طشقند هو تمثال تيمور لنك.. سلطان العالم.

هو بنفسه تيمور لنك الذي أحرق البلاد، وأفزع العباد كما تذكره كتب تاريخنا العربي، الرجل الذي حاصر دمشق وأحرق المسجد الأموي، كما أحرق خوارزم والبصرة والكوفة والعديد من المدن.. ولا أحد يدري إلى أي شيء كان يهدف هذا الغازي المسلم الذي كانت هوايته في إحراق العمائر الإسلامية.. وإذا كان يريد أن يمتلك زمام العالم.. فلماذا أراده محروقا مدمرًا؟.. ولكن لعلماء التاريخ في أوزبكستان رأيا آخر، فكما يقول البروفسير خوجا خاريياتوف: (لقد أفترى المؤرخون كثيرا على الأمير تيمور أنه بطلنا القومي الذي جمع شتات الدولة الأوزبكية منذ أكثد من ٦٠٠ عام فأنشأ المدارس الدينية والقصور والعمائر، وأعظم مثال لذلك ضريح أحمد باسفي في كازاخستان، الذي يحج إليه المسلمون، الذي أنشأنه هو تيمورلنك، وفي سمرقند توجد مدرسته وقبره ومدرسة زوجته بيي خاتون.. لم يكن أبدا سلطان الخراب، ولكنه سلطان العمار) وبهذا الحديث يبدو أنه لم يغير أحد مجرى التاريخ كما يفعل المؤرخون!

جذور الشخصية:

إنه بحث وسط رماد التاريخ عن جذور الشخصية المفتقدة.. ثمانون عاما من حكم القياصرة ثم البلاشفة خرجت منها أوزبكستان عارية من كل معالم شخصيتها، ذهبت مفردات اللغة، وحوصر الدين، ألغى التاريخ واختلطت فيها الأجناس والعروق.. ومنذ أعلنت استقلالها في ٣١ أغسطس عام ١٩٩١ وهي تحاول ملمة أشلاء هذه الشخصية.. بعد أن كانت وبذلك الاستقلال أول دولة إسلامية تعلن خروجها عن منظومة الاتحاد السوفيتي.

إنها تقع في قلب آسيا الوسطى، وتبلغ في حجمها مثل ألمانيا وإيطاليا، ويزيد عدد سكانها على سكان أفغانستان والعراق، وهي تقع بين نهرين من أشد الأنهار هما: سيرداريا أو (سيمون) كما كان تسميه كتب التراث العربي وأموداريا تنتمي إلى كل الحضارات النهرية التي عرفها العالم لقد امتزج على أرض أوزبكستان عنصران أساسيان هما الجنسان الآري والتركي، ولم يعيشا بمعزل عن التطورات الإثنية في العالم من حولهما، فقد قام الإسكندر المقدوني بغزو هذه المنطقة في القرن الرابع قبل الميلاد، وحدث أول امتزاج بين الحضارتين الهلينية والشرقية، وأصبحت أوزبكستان أهم الحلقات التي تربط طريق الحرير.

في عام ٦٥١ بدأ الفتح الإسلامي تحت قيادة (قتيبة بن مسلم) وبدأت بهذه الموجة الحضارة الثالثة التي غمرت هذه المنطقة.. وقد وجد الإسلام طريقا صعبا للنفاذ إلى هذه القبائل الرعوية المتناثرة، ولكن دخول أهل أوزبكستان – أهل الاستقرار والزراعة – أعطى الإسلام دعما قويا، بل إنها أنتجت طائفة من العلماء مثل البخاري والترمذي اللذين أصبحا من الأعمدة الأساسية في الحديث والتفسير.

ولم يحضر العرب الإسلام إلى وسط آسيا فقط، ولكنهم أحضروا اللغة العربية التي استمرت سائدة في هذه المنطقة لمدة ألف عام على الأقل.

ثم أقبل جنكيز خان في موجة عاتية لم تبق مدينة، دمر خوارزم وبلخ وسمرقند وبخاري، ولم يذر أحد من البشر الذين صادفهم ولو كان طفلا أو امرأة.. كان يتعمد أن يدمر كل مدينة يقابلها بقسوة حتى يرهب المدينة القادمة، ويدفع الهزيمة في روح أهلها مبكرا.. وعندما مات ترك إمبراطورية عظيمة شبه مدمرة، ولكنه قسمها بين أبنائه.. وبدأ الناس يفيقون من الهزيمة ويعيدون بناء مدنهم المحطمة، وكان التحول الكبير حين قيل الغازي المنتصر دين الذين غلبهم.. ففي عام ١٢٦٤ دخل الخان مبارك شان في الإسلام.

ولكن الثورة الحقيقة على بقايا سلالة جنكيز خان قادها الأمير تيمور، الذي أسس أول حكومة مركزية في وسط آسيا عاصمتها سمرقند.. لقد صعدها حاكما وهو في سن الرابعة

والثلاثين، وظل حاكما لمدة أربعة وثلاثين عاما أخرى بعد أن كون إمبراطورية تمتد من الهند إلى بحر أرال، ومن قيان شان بالصين حتى البسفور.. وفي اعتقاد الأوزبيك فقد دخل التاريخ مثل الإسكندر ونابليون.

ولكن يبقى السؤال مطروحا.. ما سر هذا الاحتفاء الكبير بذكرى تيمور، ولماذا العودة ٦٠٠ عام إلى الوراء، إلى زمن أسطوري لا يمكن التحقق من مدى صدقه، وهل هناك صلة بين القاري الأكبر والصامت الأكبر؟!

الصامت الأكبر:

عندما أصبح (إسلام كريموف) رئيسا لأوزبكستان في عهد جورباتشوف قام بزيارة لشمال البلاد حيث توجد أكبر مناجم للذهب في العالم، فهي تنتج ٥٠ طنا كل عام.. وهناك رفض الخبراء الروس الذين يقومون بالإشراف على هذه المناجم إدخاله أو اطلاعه على أي بيانات.. كانوا يعتبرون استخراج الذهب الذي تذهب كمياته مباشرة إلى موسكو أحد أسرار الدولة العليا، لا يجوز أن يطلع عليها أحد ولو كان رئيس الجمهورية المحلي.. يومها ثارت ضجة كبيرة، واحتج كريموف الشهير بالصمت لدى جورباتشوف الذي أمر بإدخاله إلى بعض المناجم، وإطلاعه على بعض الأسرار.

يتناول البعض هذه القصة في طشقند للدلالة على كراهية كريموف لوجود كل ما هو روسي، والواقع أن المواطنين الذين ينتمون إلى أصل روسي هم الأقل من أوزبكستان عن أية جمهورية إسلامية أخرى، وهي الوحيدة التي يوجد في داخلها أو على حدودها أي وجود عسكري روسي، بينما تخوض القوات الروسية في الدولة المجاورة (طاجكستان) حربا فعلية ضد المعارضة الإسلامية.

أوزبكستان والتجربة السوفيتية

ومسيرة أوزبكستان مع التجربة السوفيتية لم تكن سهلة، فقد كانت ذات يوم في المدينة الفاضلة والنموذج الأمثل لتطبيق الاشتراكية.. ثم أصبحت سبب كل المصائب والقدوة السيئة، وربما السبب المباشر لفشل التطبيق الاشتراكي، وما بين الرأيين المتطرفين تعرض الأوزبيك لحملات لا تهدأ، شنتها ضدهم الصحف السوفيتية.. فقد قاد الرئيس الأسبق شرف رشيدوف أكبر حملة تضليل ضد قيادات الحزب، وباع لهم أسطورة الإنجازات الاشتراكية في آسيا الوسطى.. أعطاهم أرقاما مضللة عن إنتاج القطن وتقارير زائفة عن انتشار الفكر الشيوعي في كل مكان، ثم مات فجأة فانكشفت كل الأكاذيب.

اكتشفوا أن شيدوف واتباعه لم يكونوا أكثر من (مافيا) محلية تزور الأرقام وتدير شبكات الدعارة وتجارة المخدرات وتمارس عمليات القتل المؤجرة وتتدخل في الامتحانات الجامعية.. وحتى إنتاج القطن – فخر التجربة السوفيتية – كانت أرقامه وهمية وتقل عن أي معدل عالمي.

ولقد كان للحملة الشرسة التي شنتها الصحف السوفيتية أثر كبير في إيقاظ الوعي الأوزبيكي بالذات، واعتزازهم الذي تقادم بشخصيتهم القومية.. وقد لعب كريموف ببراعة على هذا الوتر حيت كان أول رئيس إسلامي أسيوي يعلن استقلاله عن سلطة موسكو.. فقد ظل صامتا أبان كل التغيرات التي أحدثها جورباتشوف.. وزادت درجة صمته عندما قام الانقلاب العسكري ضده في أغسطس ١٩٩١، وحجب الأخبار التي بثها التليفزيون عن مقاومة الانقلاب وفشله.. ثم تحين اللحظة المناسبة، وأعلن استقلاله، ونصب نفسه رئيسا للجمهورية في استفتاء (معتاد) كانت نسبته ٨٦% دون أن يكون ودًا مفقودًا للديمقراطية.

إسرائيل موجودة:

إسرائيل موجودة بالفعل في أوزبكستان، فهي الدولة الوحيدة التي تملك شركة نقل منتظمة إلى أوزبكستان في الشرق الأوسط.. بعد أن أسرعت إلى هذه المنطقة للاستئثار بها في ترويج بضائعها، بضائعها المنتشرة على ألأرصفة والمحلات الصغيرة من أول زجاجات الخمر والعطور حتى أجهزة الكمبيوتر، وهي موجودة في كل دول وسط آسيا، وبالطبع فإن ثمة خطورة في تواجد إسرائيل بجوار القلب النابض لهذه المنطقة، خاصة إنها كانت الدولة الثانية بعد أمريكا، فقد انفردت بتقديم وعود التكنولوجيا المغرية غير المكلفة، ولعبت على وتر أوزبكستان الحساس (القطن).. فقد استفادت من التجربة التي قامت بها لزراعة القطن في صحراء النقب، وطريقة التنقيط، وأقامت في أوزبكستان مشروع (أيزنبرج) الذي استطاع أن يدفع محصول الفدان بنسبة ٤٠% دفعة واحدة، كما قلل استهلاك المياه بنسبة ٣٥% وهو نجاح باهر جعل بقية الدول الإسلامية تلتفت إلى إسرائيل وتسارع إلى عقد الكثير من الاستثمارات الحكومية لصالحها.

إسرائيل وبعيدا عن منطق العداء السياسي – استفادت من صراعها مع العالم الإسلامي التقليدي الذي كان يرفضها، أو يتعامل معها بتحفظ، وقفزت في الوقت المناسب لتقدم الدعم السياسي لهذه الدول التي كانت في أمس الحاجة إليه، والدعم التكنولوجي في وقت تقادمت فيه البنية الأساسية لتلك الدول.

نهر الجنة:

حان موعد الرحيل إلى المدن التي حازت شهرة ذائعة في العالم العربي والإسلامي والعالمي.. إلى بخارى وسمرقند الملونة في سطور التاريخ، وكتب الأسفار وجغرافيا الخيال وأشعار الخيام وأيضا إلى طشقند.

الطريق يمضي وسط الضواحي المتاخمة لطشقند، صفوف من البيوت المتشابهة يخفف من جهامة تصميمها ذلك اللون الأزرق السماوي.. وعلى الجانبين تماثيل من بقايا المرحلة الاشتراكية، عمال وفلاحون.. يجمعون الثمار ويرفعون المناجل، أولاد وفتيات يمدون أيديهم نحو شمس المستقبل البعيدة.. كل الرموز أخذه في التغير، مثلما تتغير الطبيعة، وتمتد الحقول وفيرة الخضرة، وهي تعلو وتنخفض مع حركة التلال المناسبة، لمحة من الفردوس المفقود الراقد بين نهرين.. هكذا بدت هذه الأرض دائما في كتب التراث الإسلامي.. كل مفكري الإسلام الكبار الذين رحلوا عبر بلاد المسلمين المفتوحة حملوا في أعماقهم لمحة من هذا الفردوس، الطبري، البخاري، ابن سينا، الترمذي، الفارابي، البيروني، الخوارزمي، السمرقندي.

ويلوح أشهر الأنهار سيرادريا (سيحون)، النهر الذي ينبع من الجنة وسوف يعود ليكون نهر العسل بها.. ضفافه الممتدة وسط الخضرة، مياه داكنة متدفقة منذ أن استوطنت قبائل الترك هذا المكان، وأقاموا أول محطات طريق الحرير، يمتد هذا النهر ليغذي خمس الجمهوريات ألإسلامية ما عدا أذربيجان قبل أن يصب في بحر أرال، وهو أكبر بحر مغلق في العالم، تتشارك في محيطه الواسع كل من أوزبكستان وكازاخستان، ويسكن حول شواطئه زهاء الـ٣٥مليون شخص.

ولكن مأساة هذا البحر بدأت منذ زمن بعيد، وكانت أحد الهموم التي تشغل بال السلطات السوفيتية، ثم انتقلت التركة إلى أكبر دولتين تطلان عليه، فبيئة هذا البحر في تدهور مستمر، مستوى المياه أخذ في الانخفاض، مع ارتفاع حاد في درجة الملوحة، حتى أنها تضاعفت مرتين ونصفا خلال سنوات قلائل، وأخذت الأرض التي حوله تموت ببطء بينما امتدت الملوحة إلى الأنهار التي تصب فيه بل انقسم البحر فعليًا إلى قسمين ظهر بينما خط فاصل من الأرض التي برزت من القاع وهلك كل ما في القسمين من أسماك وأعشاب بحرية.. نهر الجنة أذن مهدد بالموت على ظهر الأرض، والسكان الذين يقيمون عند مصبه مصابون بأمراض الالتهاب الكبدي الوبائي، والقرحة المعوية والسرطان.. وقد عقدت الكثير من المؤتمرات انطلقت منها دعوة عالمية لإنقاذ بحر آرال.. ومازالت أوزبكستان في حاجة

إلى ٦٠ ألف متر مكتب من الماء لمواجهة التوسع في رقعتها الزراعية فهل يمكن للأنهار المريضة أن تفي بها؟!... وكان لابد من مغادرة نهر سيمون إلى بخارى، حتى تتبدد صورته الرومانسية القديمة فهذا النهر الذي كان منبعا للحضارة، يجب ألا يترك ليكون مصدرا للموت.

بخارى.. زهرة الإسلام:

تقع مدينة (بخارى) في إقليمها (الصفد) الذي يشمل البلاد الخصبة فيما بين نهري سيمون وجيجون، وإقليم الصفد أحد أقاليم بلاد (ما وراء النهر)، كما سموها العرب – ويراد به ما وراء نهر جيجون بخراسان.

كان نهر جيجون القديم، يعد الحد الفاصل بين الأقوام الفارسية والتركية، أي إيران وتوران فما كان في شرق وشمال جيحون من أقاليم يدعى ما وراء النهر، وما كان في جنوبه وغربيه فهو خراسان.

وكان (الصفد) يحسب أحدى جنان الأرض الأربع وهي: غوطة دمشق، والصفد، ونهر الأبلة، وشعب بوان، وكان الصفد قوى متصلة خلال الأشجار والبساتين، لا تبين القرية حتى تصل إليها لالتفاف الأشجار بها.. والبلاد كثيرة الأشجار عزيزة الأنهار، متجاوبة الأطيار. وكانت أجمل مدن إقليم الصفد: سمرقند وبخارى.. ويمكن القول: أن سمرقند كانت عاصمته السياسية، وبخارى كانت عاصمته الدينية.

بخارى مدينة قديمة كانت كثيرة البساتين عزيزة الفواكه جيدتها، تصدر فواكهها إلى (مرو) في خراسان، وإلى (خيوة) في خوارزم، وإلى أماكن بعيدة أخرى.. في ذلك العهد لم يكن في بلاد المسلمين أجمل منظرا من بخارى، ومتصلة خضرتها بخضرة السماء فيها، وأرض ضياعها مستوية، ولم يكن فيما وراء النهر وخراسان بلدة أهلها أحسن قياما بالعمارة على ضياعهم من أهل بخارى، ولا أكثر اهتماما بإدارتها ولم تكن بخارى مدينة فخمة تتميز بخصائصها الطبيعية العظيمة فحسب، بل كانت أيضا سوقا رئيسية تلتقي فيها تجارة الصين وآسيا الغربية، فضلا عما كان بها من مصانع كبيرة للحرير والديباج والمنسوجات القطنية وأجود أنواع الأبسطة والمصنوعات الفضية والذهبية وكان تعداد سكان ما وراء النهر وبخاصة بخارى في الزمن القديم، قبيل الفتح الإسلامي وبعده أكثر منه الآن بكثير.. ففي أيام الفتح كانت عدة قبائل عربية تنزل في كل مدينة من مدن ما وراء النهر.. وكانت المساكن مع ذلك تتوفر للسكان الجدد، حتى كان الرجل يركب لعدة فراسخ صوب الجنوب أو الشمال على السواء بين صفوف المساكن.. والغالب أن الثلاثمائة والستين مسجدًا، التي لا يزال أهل بخارى يتحدثون عنها حتى اليوم، كانت قائمة هناك بالفعل.

وأخذ عدد سكان بخارى يتناقص بالتدريج، فكان سكانها خمسة أو ستة أضعاف ما هو عليه اليوم، وما يقال عن بخارى يصدق على ما وراء النهر.. وقد تدفقت قوات ضخمة بدون انقطاع في الغالب باتجاه غرب آسيا حتى وادي النيل من بلاد ما وراء النهر، وهي قوات لا يمكن بطبيعة الحال أن تتوفر إلا في إقليم مكتظ بالسكان.

فتح عبد الله بن زياد التمهيدي:

استطاع الأحنف بن قيس التميمي فتح (خراسان) سنة (١٨هـ/٦٣٩م) وفي قول آخر سنة (٢٢هـ/٦٤٢م) على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ولكن (خاقان) ملك الترك، ومعه يزدجر آخر ملوك الساسانينن عبر نهر جيجون إلى (بلخ) التي كان المسلمون قد فتحوها قريبا، واستعاد المدينة.

وقاتل المسلمون جيش الترك بقيادة خاقان، وكان المسلمون بقيادة الأحنف بن قيس، فانسحب الترك من (بلخ)، وعادوا إلى ديارهم فيما وراء النهر، ومعهم يزدجرد.

واستعاد الأحنف (بلخ) وسائر خراسان، وكتب إلى عمر بن الخطاب بالفتح، فجمع عمر الناس وخطبهم، وأمر بكتاب الفتح مقرئ وعليهم وقال في خطبته:

(إلا أن الله قد أهلك ملك المجوسية وفرق شملهم، فليسوا يملكون من بلادهم شبرا يضر بمسلم، ألا وأن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعلمون، والله بالغ أمره ومنجز وعده ومتبع آخر ذلك أوله، فقوموا في أمره على رجل يعرف لكم بعهده، ويؤتكم وعده، ولا تتبدلوا ولا تتغيروا فيستبدل الله بكم غيركم، فأني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتي إلا من قبلكم).

ولما قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، نقض أهل خراسان، وغدروا، فاستعاد عبد الله بن عامر بن كريز القرشي العبشمي فتح (خراسان) بمعاونة الأحنف بن قيس سنة (٣١هـ/٦٥١م) على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وانتقضت بعض مناطق (خراسان) في أيام الفتنة الكبرى، والاقتتال الداخلي، وكانت مدينة (بلخ) من المدن الخراسانية التي انتقضت.

وفي سنة (٥١هـ/٦٧١م) أصبح الربيع بن زياد الحارثي على (خراسان) عاملا لزياد بن ابيه على عهد معاوية بن أبي سفيان، فغزا الربيع (بلخ) وفتحها صلحا.

ومدينة (بلخ) على الدوام باب بلاد ما وراء النهر الجنوبي، وكانت باستمرار عرضة لهجمات الترك الذين يعبرون نهر (جيجون) فيغزونها، فلا عجب أن يقرر المسلمون فتح ما وراء النهر للدفاع عن (خراسان) باعتبار أن الهجوم أنجح وسائل الدفاع.

ففي سنة (٥٤هـ/ ٦٧٣م) قطع عبيد الله نهر (جيحون) إلى جبال (بخارى) على الأبل في أربعة وعشرين ألفا، فكان عبيد الله أول من قطع إليهم جبال (بخارى) في جند، ففتح (راميثن) و(نسف) و(بكند) وهي مدينة غنية وكانت عاصمة للدولة.

وأرسلت (خاتون) ملكة (بخارى) إلى الترك تستمدها، فأمدوها بعدد كبير منهم، وداهموا المسلمين وهم يحاصرون (بخارة). فهزمهم عبيد الله.

وبعثت خاتون تطلب الصلح والأمان، فصالحها عبد الله على ألف ألف درهم، فانسحب المسلمون من حصار (بخارى) قبل فتحها وعادوا أدراجهم إلى مدينة (مرو).

(وخاتون) ملكة بخارى هي زوجة الملك (بندون) ملك بخارى الذي توفي عنها وترك من بعده ولدا يدعى (طغشاد) وكان حدثا، فانفردت بشئون الملك أمه (خاتون)، ويقال أن حكمها دام خمسين سنة ظهر المسلمون في أثنائها بهذه الديار.. وخاتون ليس اسمها، بل صيغة التوقير للسيدات ذوات المقام الرفيع، أصلها فارسي، أو تركي، ومعنى خاتون (السيدة الوجيهة) أو ما يقارب هذا المعنى.

وقد ذاع صيت هذه السيدة وإجلال الناس لها، وكانت تغادر مقرها كل يوم بعد الشروق، فتقصد باب السهل (الريكستان)، فتجلس فوق عرش، ومن حولها رجال البلاد والأعيان، وتقيم العدل بين الناس، وكان يقوم على حراستها في الحضرة كل يوم مائتا شاب يتمنطقون بالذهب، ومعهم سيوفهم الذهبية كذلك، كانوا يستبدلون بغيرهم كل يوم، وعلى هذا الوضع كانت تتيح لكل قبيلة أن تشارك في أداء واجب حراستها أربع مرات كل سنة.

وبهذه السيدة انتهى الحكم الفعلي لأول أسرة حاكمة في بخارى، وقد احتفظ ابنها (طغشاد) باستقلاله لمدة ثلاثين سنة لاعتناقه الإسلام.

واشتبك طغشاد في حروب مع الترك إلى جانب المسلمين الذين ثبتوا ابنه على العرش من بعده تكريما له، وكان قد سمى ابنه: قتيبة تيمنا باسم: قتيبة بن مسلم، ولكن أبنه قتيبة هذا لم يخلص للإسلام والمسلمين كما كان أوبه مخلصا، فكان يتظاهر بالإسلام ويخفي ممارسة طقوس المجوس، فقتل متهما بالزندقة.

فتح سعيد بن عثمان بن عفان:

ولى معاوية بن أبي سفيان سنة (٥٦هـ/٦٧٥م) خراسان، سعيد بن عثمان وعزل عبيد الله بن زياد، وقدم سعيد خراسان، فقطع النهر إلى (سمرقند)، فكان أول من قطع نهر (بلخ) من العرب، وبلغ خاتون ملكة بخارى عبور النهر، فحملت إليه الصلح الذي صالحت عليه عبد الله ابن زياد.

وأقبل أهل (الصغد) و(كسن) و(نسف) إلى سعيد في مئة ألف وعشرين ألفا، فالتقوا ببخارى، وقد ندمت خاتون على أدائها الجزية، ونكثت العهد، ولكن قسما من الحشود المجتمعة لقتال سعيد انصرفوا قبل مباشرة القتال.. فأثر انصرافهم في حماسة الآخرين واهتزت معنوياتهم، فلما رأت خاتون ذلك، أعادت الصلح فدخل سعيد مدينة بخارى فاتحا.

وطلب سيعد من خاتون أن تبعث إليه برهائن ضمانا لتنفيذ ما تصالحا عليه، فبعثت إليه بثمانية من أعيان بلادها ممن كانوا على رأس الخارجين عليها، فتخلصت بذلك من أعدائها خطرا على عرشها.

وحين تم الصلح، زارت خاتون سعيدا في مقره، فطلعت عليه في زينتها الملكية وكانت نادرة الجمال على ما يقال، فادعي أهل بخارى أن القائد العربي أعجب بجمالها، أو جرى ذكر إعجاب سعيد بها في الأغاني الشعبية التي لا يزال أهل بخارى يرددونها حتى اليوم ولكن هذا الإعجاب لا ذكر له في المصادر التاريخية العربية، ومن الواضح أنه أقرب إلى خيال الأدباء منه إلى حقائق المؤرخين.

وغزا سعيد (سمرقند) فأعانته خاتون بأهل بخارى، فصالح أهل سمرقند من غير أن يفتحها ثم انصرف إلى (ترمذ) ففتحها صلحا.

فتح سلم بن زياد:

عزل معاوية بن أبي سفيان عن (خراسان) سعيد بن عثمان بن عفان سنة (٥٧هـ/٦٧٦م) وأضيفت إلى عبيد الله بن زياد في رواية أخرى أن معاوية ولى عليها عبد الرحمن بن زياد، فلم يصنع شيئا، ومات معاوية وعبد الرحمن على خراسان.

وولى يزيد بن معاوية سلم بن زياد (خراسان) سنة (٦٢هـ/٦٨١م) فغزا خوارزم، فصالحوه على أربعمائة ألف درهم وحملوها إليه.

وقطع سلم النهر ومعه امرأته أم محمد بنت عبد الله بن عثمان بن أبي العاص الثقفي، وكانت أول عربية عبر بها النهر، فوجد (خاتون) قد نقضت العهد.. فقد استنجدت خاتون مرة أخرى بجيرانها في الصغد، كما جاء ملك الترك في عسكر لجب كثيف.

ولم تؤثر هذه الحشود الفخمة في الجيوش المعادية من معنويات المسلمين، فحاصر المسلمون بخارى دون الهجوم عليها، ليقفوا أولا على تفاصيل قوات أعدائهم ومواضعها.. وأمر سلم الملهب أن يكلف غيره بهذه المهمة، لأنه معروف المكانة بين المسلمين، وقد يفشى تغيبه عن معسكر المسلمين سر الواجب الذي كلف به، وهذا الواجب ينبغي أن يبقى سرا مكتوما.

ولكن سلم بن زياد أصر على إيفاد المهلب الواجب الحيوي، وأرسل معه ابن عمه ورجلا من كل لواء من ألوية جيش المسلمين، فاشترط المهلب على سلم ألا يخبر أحدا بمهمته ومضى في سبيله ليلا، واستطلع العدو دون أن يشعر جيش العدو بمكانه.. ويبدو أن المسلمين افتقدوا المهلب في صلاة الفجر، فأخبرهم سلم أنه أرسله ليلة أمس للاستطلاع.

وفشا الخبر في المعسكر، وأسرع جمع بالركوب وذهبوا أثر المهلب، فلم أبصرهم لامهم على ما أقدموا عليه؛ حيث كشفوا جماعة استطلاعه للعدو، وأصبح موقفه ومن معه من المسلمين في خطر محدق.

وأحصى المهلب المسلمين الذين التحقوا بمفرزة استطلاعه، فكانوا تسعمائة، فقال لهم: (والله لتندمن على ما فعلتم).. وحدث ما توقعه المهلب: فما كاد ينظم المسلمين صفوفا حتى هاجمهم الترك وأبادوا منهم أربعمائة مجاهد، ولاذ الباقون منهم بالفرار.

وأحيط بالمهلب نفسه ومن بقى من مفرزته الاستطلاعية ذات العدد القليل ولكنه ثبت ثبوتا راسخا كالطود الاشم، فالموت بالنسبة لأمثاله أهون من الفرار.. وصاح المهلب بصوته القوي مستغيثا، فسمع صوته في معسكر المسلمين الذي كان على بعد نصف فرسخ من موضعه.. وبادر فورا إلى نجدته فريق من قومه، فشاغلوا الترك ريثما أقبل المسلمون سراعا، ونشب القتال بين الجانبين، فقاتل المسلمون الترك حتى هزموهم هزيمة منكرة، فتركوا ساحة القتال مخلفين أموالهم وأثقالهم، فغنمها المسلمون حتى أصاب كل فارس ألفين وأربعمائة درهم في رواية، وعشرة آلاف درهم في رواية أخرى.

وطارد المسلمون الترك المنهزمين، فلم ينج منهم إلا الشريد، وكان من القتلى ملك الترك (فيدون) أو (بيدون).

وأعادت (خاتون) الصلح مع سلم بن زياد، فعاد أدراجه إلى (مرو) بعد أن استعاد فتح (بخارى)، ويبدو أنه قطع النهر في سنة (٦٣هـ/ ٦٨٢م)، فأخرج المسلمون سلم بن زياد من خراسان، ونشب الخلاف الشديد بين القبائل العربية من بعده، فأصبحت سيوفهم عليهم لا على أعدائهم، وتوقف الفتح، وانتفضت البلاد.

فتح قتيبة بن مسلم الباهلي:

ولى الحجاج بن يوسف الثقفي – الذي كان على العراقيين – قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان بعد زيد بن المهلب بن أبي صفرة، وكانت تولية قتيبة سنة (٨٦هـ/٧٠٥م) في أيام الوليد بن عبد الملك ابن مروان.

وعبر قتيبة النهر من (زم)، فلقيه الصغد وأهل ركش ونسف في طريق المفازة وقاتلوه فانتصر عليهم.

وغزوا (وردان خذاه)، فلم يظفر بشيء فرجع إلى (مرو).. ومن الواضح أن المقاومة العنيفة التي صادفها قتيبة في طريقه إلى بخارى، كبدت جيشه خسائر كبيرة، وأتعبت رجاله، فعاد إلى مقره في (مرو) ليستعيد قوته، ويريح جنده، ويعرض خسائره، ويمد جيشه بعناصر جديدة، ولكن الحجاج أمر قتيبة بالتوبة مما كان من انصرافه عن (وران خذاه) ملك بخارى.

وفي سنة (٩٠هـ/٧٠٨م) خرج قتيبة من (مرو) متوجها إلى بخارى، فأرسل (وردان خذاه) إلى الصغد والترك ومن حولهم يستنصرهم فأتوه، وقد سبق إليه قتيبة وحصره.

ووردت الإمدادات إلى ملك بخارى، فخرج إليها ليقاتل المسلمين مع الذين جاءوه مددا، وتقدم الأزد، فقاتلوا قتالا ضاريا، ولكن العدو تكاثر عليهم، فتقهقروا إلى الخلف حتى دخلوا معسكر قتيبة وجاوزوه، فضرب النساء وجوه الخيل، وبكين، فكر الجند راجعين، وأطبقت مجتنبا المسلمين على الترك، فقاتلوهم حتى ردوهم إلى مواقفهم السابقة، ورأى قتيبة أن الترك هم القوة الضارية في العدو، وقد سيطروا على نشز من الأرض، هو مفتاح مواضع العدو، فإذا استطاع المسلمون السيطرة على هذا النشز، استطاعوا ريح المعركة كلها.

ووجه قتيبة بن تميم وعلى رأسهم وكيع بن حسان بن قيس التميمي، وأمرهم بإزالة الترك من النشز واحتلاله، وقدم وكيع الخيل، وتقدم بالرحالة، فوصلت الخيل إلى نهر بينهم وبين الترك، فاقتحمته الخيل واقتحمه المشاه على جسر شده وكيع على النهر، ودنا من العدو، فأمر الخيل أن تشاغلهم، وهجم بالمشاة فقاتلوهم حتى أزاحوهم عن مواضعهم، وسيطروا على النشز من الأرض.

وانهارت مواضع العدو، فانهزموا لا يلوون على شيء، وجرح يومئذ خاقان ملك الترك وابنه واستعاد قتيبة فتح بخارى، فكتب بالفتح إلى الحجاج.

و(وردان خذاه) هذا وزير أصله من تركستان، وكانت له أمرة (ورادنه) وهي قرية من قرى بخارى، وقد استأثر بملك بخارى بعد وفاة (الخاتون)، وبعد اندحاره أمام قتيبة هرب إلى التركستان ومات هناك، فأعاد قتيبة الملك إلى (طغشاد) على بخارى، فأسلم طغشاد وبقى ملكا ثلاثين عاما، وسمى ابنه قتيبة، واقتدى بالملك كثير من أهل بخارى فأسلموا.

وقد دعا قتيبة إلى اعتناق الإسلام بعد أن استعاد فتح بخارى للمرة الرابعة:

فتحها في المرة الأولى: عبيد الله بن زياد.

وللمرة الثانية: سعيد بن عثمان.

وللمرة الثالثة: سلم بن زياد.

فكان أهل بخارى في كل مرة يسلمون ثم يرتدون حين يعود العرب المسلمون إلى ديارهم في الشتاء، وقد مر قتيبة ببخارى أربع مرات حتى سنة (١٤هـ/٧١٢م) في طريقه إلى الفتح، فكان في كل مرة يدعو أهل بخارى إلى الإسلام، فيسلم من يسلم منهما صادقا، ويتظاهر منهم من يتظاهر بالإسلام منافقا.. فرأى قتيبة من الصواب أن يأمر أهل بخارى بأن يعطوا نصف بيوتهم للعرب ليقيموا بها معهم، ويطلعوا على أحوالهم، فيظلوا مسلمين بالقدوة الحسنة والمعايشة الحقة للمسلمين.. فأظهروا الإسلام بهذه الطريقة وألزمهم بأحكام الشريعة وبنى المساجد، وأزال الكفر والمجوسية، وبنى المسجد الجامع سنة (٩٤هـ/٧١٢م)، وأمر أهل بخارى أن يجتمعوا هناك يوم الجمعة من كل أسبوع للصلاة.. وكان يعطي الفقراء المصلين من أهل بخارى درهمين لكل واحد منهم تشجيعا لهم على الصلاة، وكانت القوة الشرائية للدرهمين، حينذاك كبيرة جدا، فقد كان الخروف السمين نصف درهم.

أراجيف أعداء الإسلام:

كثيرا ما تحفل كتب المستشرقين أن أسباب انتصار الفاتحين الإسلاميين هو:

(عدم وجود جيش منظم قوي يستطيع صد الفتح الإسلامي ويحمي البلاد المفتوحة ولأن الحرب الساسانية البيزنطية قد استنزفت قوى الدولتين، وأن محاولة الفاتحين اقتصرت على السكان المحليين بطاقاتهم المحدودة).

كما يردد ذلك أعداء العرب والمسلمين من المؤرخين الأجانب، ومن المؤسف أن قسما من المؤرخين العرب والمسلمين نقلوا مزاعم هؤلاء الأعداء المغرضين، نقلا إلى المدارس

والمعاهد والجامعات العربية والإسلامية، وسمموا بها أفكار التلاميذ العرب والمسلمين والطلاب بمزاعم باطلة لا يقرها المنطق ولا يصدقها العقل، وهي تناقض وقائع التاريخ حيث أنه وبمجرد قراءة: (فتح البخارى) نجد مثالا واحدا على معاناة المسلمين في الفتح، واستعادة الفتح لمدينة واحدة فقط، فقد لاقى المسلمون مقاومة عنيفة جدا، ولم يحققوا النصر إلى بالتضحيات الجسام.

لقد قاومت البلاد بضراوة وعنف شديدين، ولعل من أسباب تلك المقاومة، مناعة البلاد الطبيعية والصناعية، وتفوق المقاومين من أهل البلاد على الفاتحين عددا وعددا، والدفاع عن النفس والعقيدة والتقاليد، ودفاع الحكام عن سلطانهم.. كما أن طول خطوط مواصلات المسلمين، وتغافلهم بعيد عن قواعدهم الرئيسية والأمامية والمتقدمة، ساعدا أعداءهم على مقاومتهم بشدة وعنف.

لقد كانت كل العوامل العسكرية إلى جانب أعداء المسلمين، ولكن المسلمين كانوا متفوقين على أعدائهم بالعقيدة، فكانت انتصاراتهم انتصار عقيدة بلا مراء.

وفي الوقت الذي كان فتح الإسكندر والفرس والروم والاستعمال الحديث فيه سحابة صيف، لأنه كان فتح قوة وبطش، بقى الفتح الإسلامي فتحا دائما، سيبقى واضح المعالم بارز الأثر ما بقى التاريخ، لأنه فتح مبادئ لا فتح سيوف، والمبادئ تبقى وغيرها يزول.

عبرة الفتح:

أن الفتح الإسلامي واستعادة الفتح لم يكن نزعة للترفيه، كما يصوره المغرضون والحاقدون بل كان فتح عقيدة زاد عنها حماة قادرون.. كما أن المسلمين لا يكرهون غيرهم على الإسلام، فقد بقيت (الخاتون) على دينها خمسين سنة، ومن البديهي أن المسلمين كانوا يستطيعون إكراهها على اعتناق الإسلام لو أرادوا لكنهم لم يفعلوا، وقد اعتنق ابنها الإسلام وقاتل المسلمين، ولم يذكر انه أجبر على اعتناق الدين الجديد.

وكان بإمكان المسلمين الفاتحين إكراه الناس المغلوبين على اعتناق ألإسلام.. ولكنهم لم يفعلوا، وأكبر دليل على ذلك، هو بقاء كثير من الأديان الغابرة حتى اليوم بين صفوف المسلمين الفاتحين لقد استطاع الإسبان إجبار المسلمين على التنصر بالضغط والشدة ومحاكم التفتيش بعد سيطرتهم على الأندلس، ولو كان المسلمون يكرهون أحدا على الإسلام، لما بقى في الأندلس الإسبان النصارى الذين استعادوها من المسلمين.

وفوق هذا وذاك فإن الفتح واستعادة الفتح يقوي ويشتد حين تشمل المسلمين الوحدة، يقاتلون تحت قيادة موحدة، لتحقيق هدف واحد، هو إعلاء كلمة الله ونشر المثل العليا بين الناس. وأن البلاد المفتوحة تنتفض وتضطرب، حين يختلف المسلمون فيقتتلون تحت قيادات شتى لتحقيق أهداف غير موحدة.

أن سيوفهم بالوحدة تكون لهم على أعدائهم، وسيوفهم بالفرقة تكون عليهم، لا على أعدائهم.. تلك كانت عبرة فتح بخارى واستعادة فتحها.

ومرة أخرى نعاود القفز إلى (الآن) في حياة مدينة بخارى:

هناك في أضخم مدارس بخارى وأقدمها (مدير عرب) ينتشر الطلاب الصغار الذين يدرسون ويعيشون داخل حجرات المدرسة، يضعون أيديهم صدورهم، ويحنون رءوسهم قليلا وهم في الأزهر، أو دمشق، والمدرسة بجدرانها العريقة مازالت تحتفظ بعبق من حضارة الإسلام القديمة.

(مير عرب) تعني أمير العرب، والمقصود به الشيخ عبد الله اليمني الخضرمي الذي قصد إلى هذه البلاد ليتتلمذ على يد الصوفي الشهير (خوخا أحرار)، ثم أصبح مستشارا خاصا لأمير بخارى، وقاد جيوشه للانتصار على جيوش إيران التي كانت تهاجم (بخارى) في هذا الوقت، وقد أخذ غنائمه من هذه الحرب وبنى منها هذه المدرسة، وكان هذا المكان قليل الماء فسير لها فرعا من نهر (زراجاه).. وفي المدرسة الآن (١٩٩٦) ٢٥٠طالبا، وطوال تاريخها لم تغلق إلا لسنة ١٥عاما، عندما استولى الشيوعيين على الحكم، وقد أرغموا على فتحها بسبب الضغوط الشعبية والدينية في الوقت الذي بقيت فيه بقية المدارس الدينية مغلقة ولم تفتح إلا بعد تطبيق (البيريسترويكا).

لا تنتهي المساجد والآثار والمعالم الإسلامية في بخارى.. وهناك عند أطرافها يوجد أشهر مزار في آسيا الوسطى، مزار قطب الأئمة الصوفية الخواجة محمد بهاء الدين النقشبندي، والخواجة هنا لقب من ملك ناصية علوم الدين؛ حيث الزيارات لا تنتهي، وتظلل القبر شجرة عتيقة، لعل الصوفي جلس تحتها ذات يوم، يقصدها كل طلاب الحاجات، يربطون مزقا من الأقمشة لعل دعوتهم لا تذهب هباء.

وفي حديقة أمير بخارى الصيفية ترفرف لحظات المجد الغابر للخان (علم الدين) آخر من حكم بخارى قبل أن يطرده السوفيت عام ١٩٢١، لقد ذهب بعدها منفيا إلى القاهرة، وعمل ابنه الدكتور نصر الدين خان أستاذا بجامعة عين شمس.

الحديقة تضم قصرا فاخرا مزينا بالنقوش، ومليئا بالتحف، فـردوس آخـر مفقـود، المقتنيات محفوظة خلف الزجاج، وأشجار الحديقة مازالـت مثمـرة بالأعنـاب والـسفرجل، والبحيرة التي كان يجلس عندها يتأمل استحمام محظياته تجري فيها مياه عقيم.

في ضيافة الإمام البخاري:

كل الناس ينتسبون إلى مدن.. إلا بخارى فهي تنتسب إلى رجل هو الذي رفع شـأنها وأبقى ذكرها إلى يومنا هذا.

وفي رحلة على الطريق الرئيسي وقبل الوصول إلى سمرقند ببضعة كيلو مترات، يتم الانسياب إلى شارع جانبي تحيط به أشجار سامقة، وأوراقه خضراء وأطرافها فضية، عبـور الجسور المقامة فوق الأنهار، قراداريا أي النهر ألأسود، وآق داريا أي النهر الأبـيض.. ثـم يمتد صف من زهور الأقحوان الحمراء التي تقود إلى قبر البخـارى والمدرسـة والمـسجد يحيطان به.

هناك أمام قبره بالتأكيد سوف يتم استرجاع خطواته على وجه هذه الأرض، فقد جـاء إلى الحياة يتيما من الأب، وحيدا لأمه، حفظ القرآن وهو في السابعة من عمره.. ولكن مـا أن بلغ العاشرة حتى فقد بصره تماما، وأخذت أمه تبكي وتبتهل إلى الله، وفي ذات يـوم زارهـا خليل الله إبراهيم وبشرها بعودة البصر إلى ابنها لخدمة الدين.. وهكذا استرد بصره ووفت أمه بالنذر وسارت معه عندما بلغ السادسة من عمره إلى مكة المكرمة ليقوم الحج، وهناك وهـو يمسك أستار الكعبة عرف الطريق الذي سوف ينذر له كل ما بقى من عمره، جميع الأحاديث النبوية.

ولعل مناهج البحث العلمي في الإنسانيات لم تتوصل إلى نفس الدرجة من دقة التحري التي جمع بها أمامنا البخارى أحاديثه.. فقد آل على نفسه ألا يجمع إلا الأحاديث التي رواهـا عن النبي ﷺ أربعة من الصحابة. وعن كل صحابي أربعة من التابعين، وعن كل واحد منهما أربعة من تابعي التابعين.. وجمع في مرحلته الأولى حوالي ٦٠٠ألف حديث، استبعد معظمها واقتصر على ١٠٠ألف.

وعكف على التحقق منها وفرزها حتى دون منها ٧٣٩٧ حديث فقد قسمها إلى ٩٧بابا في كل وجوه الفقه تحت عنوان (الجامع الصحيح). أو ما يطلق عليه (صـحيح البخـاري).. والذي يعد أهم كتاب في اللغة العربية بعد القرآن الكريم.. ويحلق التاريخ وسط سكون الليـل، تحت سماء ينيرها نصف قمر، فوق دبيب خطوات الشيخ وهو عائد إلى بخارى بعـد طـول تجوال ليستقر بين أهله، ولكن أمير بخارى ويرسل إليه.. لو جئت إلى قصرنا لنـتعلم منـك،

فيرد عليه البخارى.. لو شاء الأمير لجأ إلى المسجد وتعلم مع الناس.. ويغضب الأمير منه، فيأمر بإخراجه من بخارى، فيبدأ الرحيل مرة أخرى إلى سمرقند.. ولكنه يتوقف في هذه القرية (خزنتك) بالقرب منها، ويموت ويدفن بها عن عمر ٦٢ عاما.. ثم يشرق الصباح وخطوات الأمام قد توقفت عن الرحيل.. ولكن حان الرحيل من جديد إلى سمرقند.

سمرقند ياقوتة آسيا الوسطى:

في سمرقند تخرج رغما عنك من خريطة العصر، لتدخل في خزائن التاريخ! تمشي وسط غابة من النباتات الحديثة والضخمة في أهم شوارع المدينة التي تقودك إلى أحدث المطاعم ودور السينما والملاهي، ثم إلى مصانع (كتاب) للآلات الدقيقة.. ومع هذا لا أحد يرى في هذا العالم سوى أقنعة هشة، وأعضاء غربية زرعت في جسم المدين.

وعلى البعد تبدو آثار شاه زنده ومآذن مدرسة شيردار وضريح كوارمير فتتضح على الفور عاصمة تيمورلنك، فاتح العالم، وسيد آسيا، ويتحول المشهد إلى لوحة عريضة ومثيرة، تتزاحم فيها جحافل الفاتحين وغارات البرابرة، وقوافل التجار والبنائين، وطوابير الرقيق والسبايا، وحلقات الفقهاء والمتصوفة والدراويش أن سمرقند المقاطعة تضم ١٣٥كلوخوزا، و٥٧سوفخورا، وأن انتاجها الزراعي المدهش حقق معدلات في كل مجال – كما ترتد إلى الأصطخري قبل ألف عام في (المسالك والممالك) الموصوف من متنزهات الأرض سغد وسمرقند ونهر الأبله وغوطة ودمشق، وسغد سمرقند انزه الأماكن الثلاثة، وهي أزكى بلاد الله وأحسنها أشجارا وثمارا، وفي عامة مساكنهم البساتين والحياض الجارية، قبل ما يخلو سكن أو دار، من نهر جار.

التاريخ يلاحق كافة الأمكنة في سمرقند، وتتقافز صورة وأحداثه مع كل خطوة، وتنتصر سمرقند بلاد ما وراء النهر، على سمرقند تاني من جمهورية أوزبكستان تلقائيا وبغير وعي، يحدث ذلك ربما لأن سمرقند ما وراء النهر لها مكانة عزيزة غالية في أعماق كل مسلم منذ كانت دعامة أساسية في الجناح الشرقي لديار الإسلام.. أما سمرقند الثانية فهي مركز إداري في جمهورية غريبة علينا، وديار أشد غربة.. سمرقند لها أربعة أبواب: باب الصين الذي يقود إلى الشرق، وباب بخارى المدينة التوأم بل المدينة الأم إلى الشمال، وباب النوبها إلى الغرب؛ حيث كان يوجد معبد بوذي في الزمن القديم، والباب الكبير، أو باب كسن إلى الجنوب الذي يرتبط باسم بلدة كسن، موطن تيمور الأصلي.

وعلى طول التاريخ الإسلامي، كان طريق المسلمين إلى سمرقند يمر بمدينة (بلخ الأفغانية الآن)، التي ظلت بوابة بلاد ما وراء النهر، بينما الطريق إلى سمرقند هذا الزمان، لابد أن يمر بطشقند بوابة الشرق الروسي.

طشقند لماذا؟

كانت المدينة مقر النشاط الحكومي السوفيتي لمسلمي آسيا الوسطى، فضلا عن أنها مركز صناعي وزراعي وعلمي وثقافي كبير، ومع هذا فقد كان غريبا أن تكون طشقند هي المدينة الأولى في آسيا الوسطى، بل أن ثمة شك في حسن النية الذين اختاروها لتتبوء هذه المكانة.

فعلى مدار التاريخ بخارى وسمرقندها أعظم مدن آسيا الوسطى، بخارى هي (مثابة العلوم كلها) على عهد الزرادشت، ثم (بخارى الشريفة) طوال التاريخ الإسلامي، على غرار مكة المكرمة والمدينة المنورة، وهي عاصمة بلاد ما وراء النهر لمدة خمسة قرون منذ العهد السامافيشين إلى التيموريين، وسمرقند هي الياقوتة العظيمة الراقدة على ضفاف نهر (زارفشان)، عند كل الرحالة العرب، وهي المنافسة الدائمة لبخارى، والعاصمة الرائعة التي أعدها تيمورلنك لتحتل صدارة العالم.

أما طشقند فقد كانت تقع في المرتبة الرابعة، أو الخامسة طوال التاريخ الإسلامي، تسبقها خيوه وفرغانة وخوقند.. وكانت تستمد أهميتها من كونها مركزا على طريق التجارة إلى الصين، الذي كان يعبر عليه الحرير السمرقندي الشهير، وكان اسمها (الشاسعة) في البدء، ثم بينكينت، ولم يعرف أسمها الأخير إلا منذ ثلاثة قرون فقط.. وذكرها ياقوت الحموي عرضا في (معجم البلدان) بقوله: (الشاس خرج منها العلماء، ونسب إليها خلق من الرواه والفصحاء) وكان ذلك أمرا شائعا في بلاد ما وراء النهر، القريبة من بخارى، منارة المعرفة الكبرى.

ومنذ اجتاحت قوات الجنرال الروسي كاوفمان، الإمارات والخانات الإسلامية فيما وراء النهر عام ١٨٦٨ في ظل حكم القيصر الكسندر الثالث – وثمة تركيز شديد على بخارى أولا، وسمرقند ثانيا، هدفه تقليل الدور التاريخي لهاتين المدينتين الإسلاميتين العظيمتين، وهدم ما تبقى من صورة بخارى الشريفة، وسمرقند ياقوتة آسيا الوسطى، وكان البديل للاثنين هو طشقند.

ومنذ ذلك الحين لم تقد قائمة لبخارى، ولم تعد سمرقند أكثر من متحف الفن والعمارة، وتقدمت طشقند الصفوف، صارت هي المدينة الأولى، واحتلت سمرقند المركز الثاني، وأدار

الزمن ظهره لبخارى الشريفة، التي أصبحت قرية متقدمة نسبيا، تعيش على الذكريات القديمة، وينتصب فيها بعض شواهد المجد الذي ولى.. وهي التي خاطب مندوب القيصر أميرها نصر الله، قبل سنوات قليلة من سقوطها بقوله: (إلى مرجع الحكمة والشرع، المبجل الكامل، الأمير العظيم الخطير، أبن الخانات الكريم، مصدر العرفان والمجد، مشيع السعادة والرخاء، نقدم أخلص احترامنا وأجلالنا، ثبتك الله على عرش المملكة والعز، وحفظ الله من كل سوء وشر، ومد في عمرك..) إلى آخر الخطاب.. كأنما أريد بأبعاد بخارى وسمرقند عن مسرح الأحداث طي صفحة التاريخ الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، وبدء صفحة جديدة من عاصمة جديدة، وبديلة هي طشقند.. أي أنه بقدر ما ترتبط بخارى وسمرقند بديار الإسلام فيما وراء نهر جيحون، فإن طشقند تبقى مرتبطة في الأذهان بالسيطرة الروسية على هذه الديار، وعزلها عن العالم الإسلامي بعد أكثر من ١٢ قرنا من الاتصال عبر أواصر العقيدة والدم.

دوق موسكو يدفع الجزية!

لماذا سمرقند وليست بخارى؟

لأن ما تبقى في الواقع من آثار المرحلة الإسلامية في سمرقند أكثر منه في بخارى بعد التشويه والمسخ والإهمال الذي اختصت به تلك المدينة الشريفة عبر القرن الأخير، منذ عهد القياصرة، ويبدو أن بخارى التي تعرفها قد آثرت الانطواء والعزلة، وأنها رضيت بقدرها الذي ألقى بها في بحر النسيان والأحزان!

ثم أن بخارى الوقورة قد بلغت سن الشيخوخة، واستسلمت له، بينما سمرقند الفاتنة منذ الأزل لا تزال تحتفظ ببقية من حيوية وشباب، رغم أنهم احتفلوا منذ سنوات بمرور ٢٥قرنا على ميلادها!

يزدحم السياح في الطائرات المتجهة من طشقند إلى سمرقند، تملأ خيالاتهم تلك الأساطير والقصص التي روجتها السينما العالمية حول مملكة تيمور الأعرج العظيمة، جميعا يحملون آلات التصوير انتظارا للحظة يقفون فيها على عتبات عاصمة فاتح العالم، ووسط السياح اندست جماعات من الأوزبك المسلمين، تميزهم وجوههم المغولية، وأغطية رؤوسهم السوداء المطرزة بخيوط بيضاء حريرية، وهؤلاء يحملون حقائب يد منتفخة، مكدسة بالفواكه والقدور، تماما كما يفعل أهل الريف عندنا، الطعام هو هديتهم المفضلة ومخاطبة البطون أسلوب تقليدي في كسب الود والتعبير عنه وسوف يظهر لراكب الطائرة بلاد ما وراء النهر المترامية الأطراف، ونهر جيحون بروافده التي تفوق الحصر، مجارى المياه الأخرى الهابطة من قمم الجبال العالية بمياه وصفها الاصطخري بأنها أعذب المياه وأبردها وأخفها، ثم

زراعات القطن الشاسعة وحدائق الفاكهة التي ذكرها كل الرحالة العرب في كتاباتهم، حتى قال الاصطخري أنه رأى (من كثرتها ما يزيد على سائر الآفاق، حتى ترعاها لكثرتها دوابهم).

طوال ١٢ قرنا على الأقل، كانت هذه البقعة الممتدة وراء نهر جيحون مسرحا لأحداث جسام كان يمكن أن تغير وجه آسيا كلها، لو مضت في مسارها الصحيح، منذ فتحها باسم الإسلام قتيبة بن مسلم في عام ٧٨ هجرية (كانت غزوات المسلمين للمنطقة قد بدأت منذ عام ٤٦هجرية) وتقدم الإسلام منها إلى الصين والهند.. وانتشر في روسيا ذاتها، حتى ظلت الأراضي الروسية الخاضعة للسيطرة التترية الإسلامية على مدى ثلاثة قرون، بل كان دوق موسكو ذاتها يدفع الجزية سنويا لأمير بخارى.. وكانت روسيا مع إسبانيا وشعوب البلقان هي البلاد الأوروبية الوحيدة التي رفعت راية الإسلام.

لكن المسلمين أساءوا، وتحول أكثرهم في هذه المناطق من مبشرين وفاتحين إلى غزاة وأصحاب ملك وسلطان، وهزموا أنفسهم، فهزمهم غيرهم، وتكرر القصة بحذافيرها في الأندلس وصقلية والبلقان وروسيا.. كانت النهاية واحدة، لأن الله بنص القرآن الكريم يدافع فقط عن الذين آمنوا، عملوا الصالحات بداهة.

تقبع سمرقند الجديدة بعمارتها العالية ذات النط الواحد، والمتراصة على مساحات شاسعة، ثم المدينة القديمة بشوارعها الضيقة وبيوتها الواطئة، ومآذنها وآثارها البديعة تلمع بفسيفسائها تحت ضوء الشمس الساطع، ثم مجرى نهر (زار نشان) أو ناثر الذهب الذي تتمدد سمرقند على ضفافه في دلال على مدار التاريخ، تماما كما سجل ياقوت الحموي وصفا لها في (معجم البلدان): كأنها السماء للخضرة، وقصورها الكواكب للأشراق، ونهرها المجرة للأعتراض، وسورها الشمس للأطباق.

فقد كانت سمرقند بغير سور، تداعي سورها القديم والشهير، الذي ذكر الحموي أن أحد ظرفاء العراق كتب بخط يده عليه:

(وليس اختياري سمرقند محلة

ودار منام لاختيار ولا رضا

ولكن قلبي حل فيها فعاقني

وأقعدني بالصغر عن فسحة الفضا

وأني لمن يرقب الدهر راجيا

ليوم سرور غير مغرى بما مضى)

وهي إحدى مفارقات القدر، أن يقام مطار سمرقند في نفس موضع الباب الشمالي، الذي كان يتخلل سور المدينة القديم، وهو الباب المؤدي إلى بخارى الشريفة، وهو أيضا الذي قال الأصمعي أن كتابه بالحميرية (اليمنية القديمة) وجدت عليه هذا نصها: (بين هذه المدينة وبين صنعاء ألف فرسخ، وبين بغداد وبين أفريقية ألف فرسخ، وبين سجستان وبين البحر مائتان فرسخ، ومن سمرقند إلى زامين سبعة عشر فرسخا).

ابن الأثير.. ليتني مت:

على مسرح الحقيقة بعد النزول إلى أرض الواقع، يصبح لكل شيء لون مختلف، ومذاق مختلف، فما بالكم إذا كان المسرح يمتد بطول ٢٥قرنا.. يقف فيه قرب نقطة البداية إسكندر الإغريق فاتحا لسمرقند.. وعند النهاية يقف إسكندر الروس قابضا عليها وبين الإسكندرين، تتابعت عروض، وتفوضت عروش وتقلبت سمرقند بين العدو والنحس، وبين النعيم والجحيم، والمجد والذل.

.. عبر الكتب تتابع العروض من مقعد المشاهد، لكن عند الوصول إلى سمرقند، فأنت تلقائيا تصعد إلى خشبة المسرح، وتقف وسط عناصره الحية.. تكاد تسمع صوت قعقعة السيوف وصهيل الخيول وزئير المحاربين، وأنات الجرحى، بل تكاد تغمض عينيك لتحميهما من غبار المعارك الطاحنة التي دارت فوق أرض سمرقند،، وأسفرت عن تدميرها ثلاث مرات: مرة عندما هاجمتها قوات الإسكندر المقدوني في عام ٣٢٩ قبل الميلاد (كانت تعرف وقتئذ باسم مرقفدا) ومرة عندما اجتاحها وهي في أوج مجدها الفكري العمراني جحافل جنكيز خان، أو تنكيز اللعين كما يصفه ابن بطوطة في عام (٦١٧هـ/١٢٢٠م) وسويت مدينة سمرقند وحصنها بالأرض، وحدث الهول الذي أتى على الحرث والنسل بما تحفل به كتب التاريخ وهو ما وصفه ابن الأثير من مؤلفه (الكامل) بقوله: (لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة، استعظاما لها كارها لذكرها، أقدم إليه رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب بنعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك، فياليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا، وكنت نسيا منسيا!).. ثم مضى يسرد ما فعلته جيوش جنكيز خان ممهدا لذلك بقوله: (ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة، إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا!).. وكان التدمير الثالث على أيدي الأوزبك حوالي منتصف القرن التاسع الهجري والخامس عشر الميلادي، وقد كانوا قبل إسلامهم مثلا للبرابرة، الأجلاف الذين أثاروا الفزع في قلب آسيا.. ويصفه الشيخ كمال الدين عبد الرازق، والذي شهد الحادث في مؤلفه (مطلع السعدين) هجومهم على سمرقند بقوله: (إن صور الفسيفساء الجميلة التي كانت قد طليت

خصيصا من الصين قد حطمها هؤلاء الأوزبك بهراوتهم، وكانت تزين جدران بهو الصور (جين خانة) كما نزعت زخارف الذهب، وهكذا حطمت تحطيما تاما في مدى ساعات قليلة، الأشغال الفنية التي استغرق إنجازها سنوات بأكملها.

كيف جرى هذا كله لسمرقند، وكيف أنها بعد كل غزوة كانت تقيم العمائر والمدن فوق الخرائب، وتعود تخطر من جديد على ضفاف نهر زارفشان!!

الأضرحة وجميلات سمرقند:

على مسرح الحقيقة في سمرقند، تثير الانتباه ظاهرة انتشار الأضرحة، والإقبال الشديد للناس عليها خاصة أيام الجمع والمناسبات الدينية وترى مع يفعله الناس أمام هذه الأضرحة من صور التقديس، حتى كادت تصبح أصناما جديدة تلتف حولها طوابير المؤمنين والمؤمنات من ذوي النوايا الطيبة، وتلتقي هذه الصورة إلى حد ما مع ما سجله المؤرخون عما أصاب الحياة العقلية الفكرية في سمرقند وبقية آسيا الوسطى بعد غزوة (تنكيز اللعين).. وكيف أن الدمار لم يكن مقصورا على جسم سمرقند وبخارى مثلا ولكنه أصاب في الصميم (عقل) المدينتين، الأمر الذي فتح الباب واسعا لانتشار التصوف والبدع، واشتغال الناس بشئون العبادات دون غيرها.

وقد كانت جولة ابن بطوطة في بلاد ما وراء النهر في أعقاب هبوب إعصار (تنكيز اللعين) على تلك المنطقة فكتب يقول: (فمساجدها الآن ومدارسها وأسواقها خربة إلا القليل وأهلها أذلاء، وشهادتهم لا تقبل بخوارزم وغيرها لأشهادهم بالتعصب ودعوى الباطل وإنكار الحق، وليس بها اليوم من الناس من يعلم شيئا من العلم، ولا من له عناية به)، وهو يصف مشهدا رأيته، الناس وهم يتعالمون مع ضريح قثم بن العباس بن عبد المطلب ابن عم النبي عليه السلام، الذي يقال أنه: استشهد في فتح سمرقند، وأقيم له ضريح أية في الجمال والروعة، وينذرون له النذور العظيمة، ويأتون إليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير، فيصرف ذلك في النفقة والوارد والصادر ولخدام الزاوية والقبر المبارك، وعليه قبة قائمة على أربع أرجل، ومع رجل ساريتان من الرخام، منها الخضر والسود والبيض والحمر، وحيطان القبة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب، وسقفها مصنوع بالرصاص وعلى القب خشب البنوس المرصع مكسو بالفضة، وفوقه ثلاثة من قناديل الفضة، وفرش القبة بالصوف والقطن.. وخارجها نهر كبير يشق الزاوية التي هناك، وعلى حافتيه الأشجار ودوالي العنب والياسمين.

ترى في عيون جميلات سمرقند أصلا لقصة (الرقيق) التي حاول كثير من المستشرقين أن ينفخوا فيها، حتى اعتبروها السبب الأساسي الذي دفع المسلمين إلى فتح بلاد

ما وراء النهر، ومن الثابت فعلا أن مناطق آسيا الوسطى كانت أحد المصادر التي كان يستجلب فيها الرقيق إلى الشرق، نساء ورجالا، وما من واحد من الرحالة العرب مر بتلك المناطق إلا وأشار بشكل أو بآخر إلى موضوع الرقيق، وهو أمر كان طبيعيا في الزمن القديم، بل كان الأرقاء لهم وضع مقنن عند اليونان والرومان، وأيده المشرعون والفلاسفة مثل أفلاطون وأرسطو.

ومع التسليم بهذه الحقيقة، إلا أن الاعتراض الوحيد هو أن يكون السعي وراء الرقيق والجواري هو (سبب فتح المسلمين لهذه المناطق).. لقد كان استجلاب الرقيق من آثار ما بعد الفتح، وفي عصور الانحطاط الفكري، وليس سببا للفتح بأي حال.

وليس أدل على ذلك من أنه عندما توجه جيش المسلمين بقيادة قتيبة بن مسلم ليفتح بلاد ما وراء النهر، بأمر من الحجاج بن يوسف الثقفي، وإلى العراق (٨٦هـ/٨٠٤م). ودخل قتيبة بجيشه مدينة سمرقند، عندئذ توجه وفد من أهلها إلى خليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز، ويشكو غليه من أن قتيبة دخل ديارهم من غير أن يخبرهم بين الإسلام أو العهد أو القتال، وأنه قاتلهم من غير تخيير، فكلف عمر بن عبد العزيز قاضيا بأن يستمع إلى الشكوى، ويتحقق من وقائع الحديث.

قضية في القضاء الإسلامي خالدة:

هذه القضية رواها أبو عبيدة معمر بن مثنى (المتوفى سنة ٢١٠هـ) ومعناها أن قتيبة قد فتح سمرقند غدرا، وهذا أمر تأباه تعاليم الإسلام، ذلك أن الله تعالى يقول مخاطبا نبيه الكريم في شئون الحرب والمعاهدات (وأما تخافن من قوم خيانة فأنبذ إليهم على سواء أن الله لا يحب الخائنين (الأنفال – آية٥٨). ومفاد هذه الآية أنه إذا كان بين المسلمين وقوم آخرين عهد، وخشى المسلمون عدم وفائهم به، فلهم الحق في رد عهدهم إليهم، ولا يتبادرونهم بالحرب وهم على توهم بقاء العهد، لأن هذا يكون خيانة في نظر الإسلام (تفسير الفخر الرازي).. والذي فعله قتيبة مع أهل سمرقند كان من هذا القبيل، وقبله أهلها تعلى مضض خشية أن ينكل بهم، فلما مات وآلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩هـ، وبلغ أهل سمرقند عنه ما ملأ أطراف الدولة وجوانبها من الحديث عن عدله ونصرته للحق، ووفائه وبغضه للظلم، أنابوا عنهم وفدا يلقى الخليفة يشكو له ما كان من قتيبة معهم.

ولقى الخليفة وفدهم، فعرضوا الأمر عليه، وقالوا فيما قالوه أن قتيبة غدر بنا ظلما، وأخذ بلادنا، الأمر إليك لترفع عنا ما أنزل بنا على يديه.. وتناول الخليفة قرطاسا وقلما وكتب إلى سليمان بن أبي السرج عامله على سمرقند كتابا قال فيه:

(.. إن أهل سمرقند شكوا ظلما أصابهم، وتحاملا من قتيبة عليهم، فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم قاضيا يقضي بالحق في هذه الظلامة) وعاد وفدهم بكتاب الخليفة إلى عامله، فأحال قضيتهم إلى القاضي (جميع بن حاضر الناجي) قاضي سمرقند، فاستمع إلى ظلامتهم، واستدعى شهودهم عليها، ثم استدعى شهودا من الجيش الذي حضر الموقعة في قتيبة فشهدوا بالحق، شهدوا بأن قتيبة لم ينبذ إليهم عهدهم، بل فاجأهم بفتح بلادهم عنوة.

وعندما وضح هذا أمام القاضي أصدر حكمة في هذه القضية صريحا لا غموض فيه، قويا، مجلجلا بعدالة الإسلام وسماحته قال القاضي:

(على الجيش الإسلامي الذي فتح سمرقند بقيادة قتيبة أن يتأهب للخروج منها فورا).

وكذلك يخرج منها المسلمون الذين دخلوها بعد الفتح، وبعد أن يتم هذا ينابذ الجيش أهل سمرقند على سواء – أي يرد إليهم عهدهم السابق مع سعيد بن عثمان – فأما صلح أن أرادوا، وإما حرب إذا لم يختاروا الصلح.

كان هذا هو الحكم الذي أصدره القاضي، وقد كان له رجة في أنحاء سمرقند، إذ ما كان يتصور أحد أن تعاليم الإسلام تمضي على هذا النحو، وتعطي الحق للقاضي أن يأمر الجيش بالخروج من بلد فتحه واستقر فيه.

وأسرع الوالي يخطر الخليفة بالحكم، ويطلب مشورته، فجاء الرد بتنفيذ حكم القاضي بحذافيره، وعندئذ أصدر أمره إلى الجيش بالتأهب للرحيل، وإلى المسلمين المدنيين بمغادرة سمرقند.

وبينما هذا يجري على قدم وساق والجيش يجمع أسلحته وأمتعته ويفك مخيماته، وبينما المسلمون المقيمون بالمدينة يودعون أهل سمرقند، ويحزمون أمتعتهم، ويعلنون بيع أملاكهم فيها، وإذا بمفاجأة تحدث لم تكن في الحسبان.. فقد جاء وفد يمثل أهل سمرقند إلى الوالي، وأبلغوه أنهم تشاوروا فيما بينهم بعد هذا الحكم الذي ما دار بخلدهم لحظة واحدة أن تعاليم الإسلام لا تضيق بمثله، وأنهم ما كانوا يتوقعون أن هناك قاضيا يجرؤ على مطالبة الجيش الفاتح بالجلاء عن بلد يفتحه، وأنهم ما كانوا يتصورون أن القاضي سيهمل في هذه القضية عصبيته لقومه ولا يعيرها اعتبارا ولا وزنا، وأنهم استبعدوا أن يأمر الخليفة بتنفيذ الحكم كما صدر مع انصياع الجميع له، دون أن يكون هناك اعتبار لما يترتب على تنفيذه من عنت لمن صدر في شأنهم.

أمام هذا وأمام حسن المعاملة التي وجدوها من أخوانهم المسلمين المقيمين بالبلد حال إقامتهم بها لا يسعهم إلا أن يعلنوا عن تنازلهم عن حقهم، والمطالبة ببقاء الحال على ما هو عليه لأنهم لا يخشوا بعد اليوم غدرا أو ضرا ينالهم.

وإزاء هذه الرغبة الصادقة من أهل سمرقند أمر الجيش بالبقاء وأمر المسلمون بعدم الخروج.. وكانت فرحة مزدوجة من الجانبين.

وكانت هذه القضية سببا في إسلام كثير من أهل سمرقند وانضوائهم تحت راية الإسلام، والإخلاص لتعاليمه والعمل على نشرها، والاستمساك بما أمرت به، والاعتصام بحبل الله المتين، حتى غدت سمرقند بعد مركزا هاما من المراكز الإسلامية المرموقة يأتيها الداني والقاصي للتزود بزاد المعرفة من علمائها.

وكانت هذه هي المرة الأولى في التاريخ – وربما الأخيرة التي يخرج فيها جيش من بلاد فتحها – بناء على حكم قضائي صادر من الدولة الغازية!

ومع ذلك يتجاهل بعض المستشرقين هذا الحدث الفريد من نوعه، ويصر على أن المسلمين ذهبوا إلى بلاد ما وراء النهر جريا وراء جميلات سمرقند، ذوات الأعين الكحيلة الواسعة، والضفائر التي تحصى والثياب الفضفاضة الزاهية.

وجبة طول اليوم:

حتى على مائدة الطعام السمرقندية، تستحضر أوصاف الرحالة والمؤرخين وتكتشف صحة رواياتهم عن خيرات سمرقند، ووفرة فاكهتها (حتى يراعاها لكثرتها الدواب) كما قال الاصطخري.

مجلس الطعام على الأرض أو فوق أريكة خشبية مربعة على أحسن الفروض، وهم يبدأون أي وجبة بالفواكه التي هي في الأغلب خليط من البرقوق والتفاح والخوخ والعنب قد يضاف البطيخ والشمام في موسم الصيف، وإلى جانب سلال الفواكه ترى صحون مليئة بالزيت واللوز المقشور، وتتناثر في الأركان أرغفة الخبز السمرقندي الشهير (نون). بعد هذه المشهيات (البسيطة) تقدم شطائر محشوة باللحم الضاني، كملحق أضافي لفتح الشهية، ويحين أوان تقديم (الوجبة) فيقوم الحساء وقد دست فيه قطع اللحم والبطاطس، يعقبه الكباب، وفي الختام يقبل الأرز البخاري (يسمونه جزرية) الذي تضرب به الأمثال، والمكون من أرز وجزر مخروط وزبيب وسمن.. وفي هذا كل يتوالى الشاي الأخضر الخالي من السكر في أكواب صغيرة لا تفرغ أبدا.

وحتى تقدم هذه القائمة الطويلة من الأطعمة، وترفع صحون وتوضع صحون، لابد أن تستغرق العملية وقتا طويلا، وتكاد تصل المدة التي تستغرقها الوجبة ما بين ساعة وساعة ونصف، حتى يقولون هناك أن وجباتهم تكاد تكون متصلة طوال اليوم والنكتة التي يتداولونها أمام الضيوف تقول أن أوزبكيا سأل عربي: كم وجبة تتناولون كل يوم. فرد ثلاثا، عندئذ قال الأوزبكي بدهشة: ثلاث وجبات على مدار اليوم؟.. أأنا نأكل وجبة واحدة في النهار، تبدأ في الصباح وتنتهي في المساء!

نقوش على المرمر:

لكن ذلك كله في جانب، وآثار سمرقند القديمة في جانب آخر.. وليس معروفا على وجه الدقة لماذا أطلق على الشارع الموصل بني سمرقند القديم والجديدة اسم أديب روسيا الكبير مكسيم جورجي، وقد يكون من بين هذه الأسباب أن جوركي استلهم عصر تيمور، في بعض رواياته، مثل (نشيد الأم) و(قصص من إيطاليا).

لقد كانت العمارة فنا رفيعا في مدن آسيا الوسطى حتى قبل الإسلام، كما تؤكد أكثر المراجع.. وعندما قال الإسكندر المقدوني عن سمرقند في القرن الرابع قبل الميلاد: (كل ما سمعت عن محاسنها صحيح باستثناء أنها أجمل مما تصورت).. عندما قال الإسكندر ذلك فأنه كان يعرب عن تقديره للمسات الجمال النسبية التي تمتعت بها سمرقند منذ ذلك الوقت.

وعندما صعد نجم هذه المدن بعد الإسلام، وصارت تموج بحياة جديدة، حافلة بمختلف صور التقدم العلمي والرواج التجاري، كان لابد أن ينعكس ذلك على فنون العمارة والتشييد، التي مضت على الطريق ذاته، حتى فرزت هذه الأعمال المعمارية البالغة الروعة والجمال والمنتشرة في أكثر مدن بلاد ما وراء النهر، وفي مقدمتها سمرقند.

كانت المساجد أول ما أبدعت فيها يد فنان هذه المنطقة، وحينما انتشرت الأضرحة في مرحلة لاحقة أصبح تجميلها الذي يرتكز على فكرة التقديس، مجالا آخر للإبداع، ومع كل خطوة تقدم تالية كانت تتسع قاعدة النهضة المعمارية، حتى امتدت إلى القلاع والمدارس وقصور الحكام ومنشآت الدولة وأسوار المدن.

وقد كان منطقيا أن تبنى بعض هذه المنشآت حتى القرن التاسع الميلادي من اللبن والطوب.

وأن يعوض المعماريون بساطة الخامات بجهد كبير بذلوه في زخرفة واجهات تلك المنشآت وتزيينها، حتى استخدمت الزخارف والنقوش على الجص المرمري منذ عصر

الميلاد الأولى (أقول أن ذلك منطقي وطبيعي، وإنما الغريب في الأمر أن يطول عمر هذه المنشآت ففي ظل المناخ القاري التي تسود آسيا الوسطى حتى يعيش بعضها إلى وقتنا الراهن.. وزخرفة محراب المسجد الذي بني خلال القرنين التاسع والعاشر، ولا يزال محتفظا بنقوشه الجميلة على مسطحات المرمر اللامعة.

ومع تقدم عمليات الإنشاء، استخدم الطوب الأحمر استخداما واسعا، مما سمح بزيادة أحجام القباب والأطواق، وكافة المنشآت بوجه عام، كما أدى استخدام هذا الطوب إلى تحسينات واجهات المنشآت، التي استخدم فيها طوب أحمر، مزخرف، وكان هذا التطور بمثابة مرحلة تحول في سميرة إبداع فنان آسيا الوسطى، بلغت ذروتها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين وهي المرحلة التي بلغت فيها مدن ما وراء النهر ذروة مجدها.

والدراسات المعمارية تعتبر بوابة مسجد (مغطاك عطاري) المقام في بخارى خلال تلك الفترة، نموذجا بديعا تمثلت فيه جميع أنواع الزخرفة المعروفة في ذلك العصر، من الطوب الصغير المصقول، إلى صفائح الفخار المنقوشة الزخارف النباتية، والهندسية والكتابية.

ويمكن العثور في كل مدينة من مدن بلاد ما وراء النهر على نموذج أو أكثر، لا زال ينطق بالتقدم الباهر الذي بلغته فنون المعمار، مئذنة مسجد (كلان) في بخارى التي يبلغ ارتفاعها ٤٦متر، ولا يزال جزؤها السفلي مغروسا في ألأرض، ومئذنة (جرقور غان) القريبة من ترمذ، التي يتكون برجها من ١٦عمودا مربوطة في أعلاها بنطاق كتبت على آيات من القرآن الكريم، وضريح سنجر في مرو (عاصمة السلجوقيين)، يعد واحد من أعاجيب فن المعمار العالمي، إذا غطيت قبته بقبة أخرى خارجية مكسوة بالطوب الأزرق، حتى كتب ياقوت الحموي (أن قبة الضريح الزرقاء يمكن رؤيتها من مسيرة يومين، إذ يبلغ ارتفاع القبة الداخلية عن الأرض ٢٦مترا، وقطرها ١٧مترا؛ أي إنها أكبر قبة في آسيا الوسطى).

غزوة (تنكيز اللعين):

لكن هذه النهضة المعمارية العريضة، لقيت أسوأ مصير تحت سنابك خيل (تنكيز اللعين) في القرن الثالث عشر.. ولعل أبلغ ما وصفت به الحال في آسيا الوسطى بعد غزوة جنكيز، هو ما كتبه المستشرق المجري (أرمينوس فاميري) في تاريخ بخارى إذ قال: (لقد سويت مدينة سمرقند العامرة، وحصنها أيضا بالأرض، كما جرد الناس من كل ما يملكون، وسير مهرة البساتين من أهلها إلى الشرق الأقصى ليزينوا عاصمة المغول الصينية بمنتزهات على نمط مغاني سمرقند، أما مهرة الصناع، لاسيما نساجي الحرير والقطن منهم، فقد ألحقوا

بخدمة زوجات جنكيز خان وأقربائه، بوصفهم أرقاء نافعين، أو سيروا مع الخان المغولي نفسه إلى خراسان).

ثم يستطرد قائلا: (فلا عجب إذن أن نرى في مدن خمس سنوات من هذه الحروب، طرق آسيا العظيمة التي كانت بواسطتها تنقل حاصلات الصين والهند إلى آسيا الغربية وأوروبا وقد هجرت، وأن الواحات التي اشتهرت بخصبها قد باتت جرداء مهملة، أو نرى آخر الأمر أن تجارة الأسلحة والجواهر والحرير، ونقوش الميناء، التي ذاع صيتها في العالم الإسلامي قد انهارت إلى الأبد.

وسط هذا المناخ المقبض الكئيب، ظهر تيمورلنك، واختار سمرقند عاصمة له، وحدثت القفزة المعمارية الفخمة في المدينة التي استعادت ليس فقط جمالها المعماري، ولكنها استعادت لقبها باعتبارها (ياقوتة) بلاد ما وراء النهر، وتحولت الكلمة من وصف ينتغنى به الشعراء إلى حقيقة يلمسها الجميع أمام الآثار في سمرقند يتسمر السياح، ويكاد ينتزعهم ممثلو شركات السياحة بالقوة من أماكنهم، ليواصلوا الطواف على بقية المعالم المدرجة في البرامج.

في دنيا (الملك الحي)

مجموعة (شاه زنده) عالم كبير بحد ذاته.. وشاه زند معناها الملك الحي والمقصود به هو قثم ابن العباس، ابن عم الرسول (ص) الذي يقال أنه استشهد عام ٥٧هـ في إحدى الغزوات التي سبقت فتح بلاد ما وراء النهر، وتقول الأسطورة المتداولة هناك أن قثم عندما سقط قتيلا، أخذ بين يديه رأسه المقطوع، ونزل إلى بئر عميق تؤدي إلى حديقة تحت الأرض، ولا يزال حيا هناك حتى الآن.

وهم يستشهدون على صدق القصة، بالآية الكريمة المحفورة على قبره البديع (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون).

فوق أطلال مدينة (افراسياب) التاريخية التي يقول الأثريون أن سمرقند القديمة بنيت في مكانها. هناك أقيم قبر قثم بن العباس، ولأنه ابن عم النبي (ص) ففضلا عن هالة التقديس والاحترام التي تحيط به، فقد اعتبر المكان بقعة مباركة، كان يدفن فيها الأمراء والشخصيات الهامة.. في عهد تيمور اختار هذا المكان ليصبح مدفنا لآل تيمور، بوجه أخص.

وهذه الملابسات كلها كانت كفيلة بأن توفر للأضرحة المقامة، والمساجد التي أنشئت حولها أسبابا قوية للعناية، والإنفاق الباذخ، جعلت منها في النهاية قطعا فنية رائعة، اجتمعت لأجلها قدرات أمهر الغنائين والبنائين في عهد تيمور، وبعده، حتى أصبحت مجموعة (شاه زنده) على رأس المجموعات المعمارية الفريدة في آسيا.

في البداية يجتاز الزائد مدخلا ظليلا، وأول ما يصادفه مدرسة حاول بناتها أن ينقلـوا على واجهتها الزخاف والنقوش التي تحفل بها الأبنية الأخرى الداخلية.. ثم مسجد يقولون عنه أنه كان معدا للصلاة في الشتاء فقط، ولكنه صار فرعا لمتحف تاريخ الفن والحـضارة فـي أوزبكستان(!).. وإلى يساره مسجد آخر – صيفي – يرتفع أيوانه على أعمدة خـشبية، بينمـا ركب سقفه من الخشب، وزين بألوان بهيجة ورقيقة، فوزعت على نقوش ذات أشكال متباينة.

وبينما الدرج يتجه، عريضا وعاليا، نحو مجموعة الأضرحة الداخلية، يجذب الانتبـاه إلى اليسار ضريح جميل من طابقين، يتميز ليس فقط بفخامة زينته، ولكن أيضا بتركيبه الفريد وتناسق نسبه، والضريح مبني على فوق قبر عالم الفلك (قاضي زاده الرومي) معلم أو لـوغ بك حفيد تيمور لنك وأمير سمرقند فيما بعد، وعالم الفلك البارز.

وعند نهاية الدرج مجموعة من الأضرحة، التي ترجع إلـى القـرن الرابـع عـشر الميلادي، عندما اختار تيمورلنك سمرقند عاصمة له.

على الجانب الشرقي للممر ضريح لإحدى الأميرات (طوغلوتكين)، وقد استخدمت في تكسيته الفخارات المنقوشة المطلية بدقة متناهية، وإلى جواره ضريح على نفس النسق اصطلح على تسميته (أمير زاده) وأن لم يعرف صاحبه بعد.. وفي ركن جانبي من الحجرة فتحه تؤدى إلى مصلى صغير (زيارة خانه) غطيت جدرانه بنقوش كثيفة تلمع رغم الظلام النسبي الـذي يسود المكان.

وبعد خطوات باب حجرة تالية غطيت جدرانها بالفسيفساء المنقوشة، بينما تمت تكسية الضريح الذي يتوسط الحجرة بلون أرزق مذهب، والحجرة مع الضريح تحفة معمارية ناطقة، واضح فيها الاهتمام الزائد الذي يليق بصاحبه المكان، الأميرة (شيوين بيكـة أقـا)، شـقيقة تيمورلنك.

وفي مواجهة هذا المتحف الصغير حجرة أخرى تخطـف واجهتهـا البـصر، إذ أن طوابير السياح تقف مشدوهة أمام تكسية البوابة، وتـصميم الواجهـة، إذ لا يـصبح الأمـر مقصورا على نقوش وزخارف وفسيفساء غاية في الرق والإبداع، ولكن تضاف إلى هذا كلـه أعمدة ركنية مقامة في تجويفات داخل الجدار، والأعمدة مغطاة بنقوش دقيقة بلون الفيـروز، وتقف على قواعد معقدة ومشكلة، وتغطي حيطان التجويف الجانبية برسوم من المايوليكا ذات حواش بكتابات، أغلبها آيات من القرآن الكريم.

هنا أيضا في هذا المتحف الثاني ترقد شقيقة أخرى لتيمور هي: الأميرة (تركان أقـا) في الجانب الآخر بنيت مجموعة كاملة من المباني بأمر من (ترمان أقا)، زوجة تيمور، وتضم

حجرة متوسطة للخدمة، ومسجدا (خانقاه) وضريح ترمان أقا، الذي لا يقل روعة وجمالا عن أي ضريح آخر في شاه زند، بل ويتميز عليها جمعيا ببوابة مكسوة بالفسيفساء ليس كمثلها بوابة أخرى.

وتتكرر القاعات والأضرحة، وتتكرر معها اللوحات الفنية التي تكسو الجدران، وتطوق بالأعمدة، وتلمع في السقوف.. حتى يمكن القول بحق أنها بمثابة متحف أصيل للطلاء الزخرفي؛ حيث تلتقي في كل لوحة نماذج باهرة للفخارات المنقوشة المطلية، والمايوليكا المزخرفة والترابيع البارزة، والفسيفساء التي لا نظير لدقة وجمال ألوانها.

وعند نهاية ممر مظلم ورطب يكون مقر (الأمير الحي) قثم بن عباس والمقر أو الضريح مكون من ثلاث قاعات: واحدة فسيحة يتوسطها قبر مع ابن عم النبي (ص) –كورخانة–، ثم مسجد صغير في القاعة الثانية (زيارة خانة)، والقاعة الثالثة وهي مجرة صغيرة مخفية تحت المسجد، يقال أنها كانت مخصصة للعبادة لمدة ٤٠ يوما، ويطلق عليها اسم (تشيلا خانه).

بنى قبر قثم بن عباس أكثر من مرة كما تؤكد شواهد المكان، فإذا صح أن قثم استشهد في سنة ٥٧هـ، فإن تاريخ البناء الحالي لضريحه هو ٧٥٣هـ، الأمر الذي يعني أن هذا التاريخ آخر بناء أقيم في المكان.

ويعجز القلم عن وصف الجمال الذي يتمتع به غطاء القبر، الذي لابد أن يكون الجهد الذي بذل في تصميمه وتجميله أضعاف ما بذل في التحف المعمارية الأخرى المماثلة.. هذا الغطاء الحالي للقبر أقيم في عهد تيمور، وهو يتكون من أربع دوائر تصغر على التوالي ويزين عن لون أخضر آخر.. ويتخلل هذه المجموعات من الألوان عروق من الذهب، به كتبت أيضا بعض آيات القرآن على الأسطح الجانبية للدائرتين الثالثة، والرابعة من الغطاء أكثرها وضوحا الآية التي تقول (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله.. إلى آخر الآية).

ريكستان: عالم متميز:

ومجموعة ريكستان تنقل الزائر إلى عالم آخر متميز.. وكان ميدان ريكستان هذا هو قلب سمرقند على عهد تيمور (ريكستان تعني المكان الرملي) إذ كانت مقر للسوق الرئيسي، يمكن تصور أهميته في بلد تموج بالرواج التجاري وتتوقف فيها القوافل المتجهة بين الشرق والغرب، ومع النهضة العلمية التي رافقت حكم (أولوغ بك) أوائل القرن الخامس عشر الميلادي، اختلفت وظيفة الميدان، وظهرت فيه على التوالي ثلاث مدارس ضخمة توزعت على أركانه! مدرسة أولوغ بك، ومدرسة شيردار (عرين الأسد) ومدرسة طلا كاري (المطلية

بالذهب) ويقال إن الميدان الذي يتوسط هذه المدارس كان فيه حتى عهود متأخرة بقية من المحال التجارية، تتوسطها ساحة واسعة، كانت بمثابة مسرح يقدم فيه الحكاءون والمداحون أعمالهم، من أناشيد وتمثيليات تروي مآثر وبطولة المحاربين الأمجاد في الأيام الغابرة.

وكل من هذه المدارس بمثابة عمل معماري ضخم، التقت فيه عناصر الجمال والفن والإبداع، التي تجسدت في التحف التي أقيمت على عهد تيمور، وهو أمر له دلالته التي تشرف تلك المرحلة، أن تلقى المدارس هذه العناية التي تضعها في صف واحد مع أعظم القصور ومدرسة أولوغ بك- التي تولى بنفسه التدريس فيها – ذات واجهة مهيبة وعالية، يتخللها قوس حاد، أقيمت في داخله البوابة الرئيسية، وتنتصب حول البوابة مئذنتان عاليتان، بينما تبدو على البعد قبة خلفية في ركن جانبي، والكل حافل بالنقوش البديعة التي تظهر فوق البلاط المطلي، وتضم المدرسة ٥٠ غرفة للدراسة والإعاشة كان يدرس بها مائة طالب في البداية، وكان المبنى يشتمل على طابقين وأربع قباب عالية فوق قاعات الدراسة الركنية (درس خانة)، مع أربع منارات في الأركان، وقد لحق التلف والدمار ببعض هذه المعالم فلم يعد للقباب وجود، وبقيت مئذنتان فقط من الأربع.

ومدرسة شيرادار (عرين الأسد) كانت في الأساس زاوية للصوفيين، أو مسجد لهم ثم أقام حاكم سمرقند في المكان ذاته هذه المدرسة العظيمة، المواجهة لمدرسة أولوغ بك على مدى ١٧عاما وزين واجهتها الفخمة بنقوش جميلة ودقيقة لأسود وقطط وحيوانات خيالية، أحاطت بقوس البوابة، بينما غطيت بقية البوابة والمئذنتان اللتان تحيطان بهما بنقوش مماثلة لزخارف مدرسة أولوغ بك، لكن الجمال المذهل يطل من قبة داخلية كبيرة كسيت كلها بزخارف تتميز بقدر هائل من الدقة وبراعة تفوق الوصف لاستخدام اللون في إشاعة جو من البهجة والوقار، وتخللت هذه النقوش والتكوينات آيات قرآنية، كتبت باستدارة القبة جميعها.

أما مدرس طلاكاري، الضلع الثالث في المنشآت المعمارية الشامخة التي تنتصب في رشاقة وكبرياء حول ميدان ريكستان، فإن دلالة أسمها فيها الكفاية، ذلك أن إطلاق وصف (المدينة الذهبية) على المدرسة والمسجد الملاصق لها، يوحى على الفور بالطبيعة الجمالية التي يتميز بها البناء، فضلا عن ثروة الألوان والزخارف التي تنطق بكل عبارات الروعة والجمال، فإن هذه الألوان والزخارف قد حظيت بميزة إضافية هي استخدام الميناء المذهبة، التي لا يستطيع المر أن يتخيل المدى الحقيق للإبداع فيها، إلا عندما تتكسر عليها أشعة الشمس عند الظهيرة.

ولأن المدرسة بنيت حوالي منتصف القرن السابع عشر (١٦٤٦م) فقد كانت آخر أثر معماري كبير ذي كساء غني بالألوان، وهذا في الواقع شيئا محزنا وأليما، خلاصته أن مسيرة الجمال وسط آسيا قد توقفت إلى الأبد بعد هذا البناء البديع.

تقول الكتابات السوفيتية. إنه في عام ١٩١٨ بعد إقامة السلطة السوفيتية في سمرقند توقفت رسالة مدارس ريكستان كمدارس دينية، وتحولت بعد ذلك مبان أثرية تستثمر لأغراض السياحة وتجميل المدينة.

على أن ميدان ريكستان ذاته، الذي تحول إلى منتزه عام، يذكر في الكتابات السوفيتية أيضا باعتباره الميدان الذي رفع العلم الأحمر ولأول مرة في سمرقند بعد ثورة ١٩١٧، وعقدت فيه الاجتماعات الثورية التي أسفرت عن الاستيلاء على السلطة، ويذكر أنه فيه (أحرقت النساء والبنات الأوزبكيات والتارجيكيات البراقع والحجب الكريهة، رمز العبودية والظلم ووقفن عام ١٩٢٧ – في صفوف البنات النشيطات للحياة الجديدة).

مسجد بي بي خاتم:

وفي جهة الشرق من ميدان ريكستان، في شارع طشقند، ترتفع أطلال مبنى المسجد الضخم الذي بنى في آخر القرن الرابع عشر، ويطلق عليه اسم زوجة تيمورلنك الكبرى الحسناء (بي بي خاتم)، وإن كان الأثريون يقولون أنه لا توجد زوجة لتيمور بهذا الاسم، وأن زوجته الكبرى كانت تحمل اسم (سراي ملك خاتم)، ويضيف الأثريون أن تيمور ذاته هو الذي وضع أساس مسجده في أعقاب حملته المظفرة في الهند.

ومسجد بي بي خانم عبارة عن مجموعة منشآت معمارية تحيط بها الأسوار على شكل مستطيل طوله ١٦٧مترا، وعرضه ١٠٩أمتار وتقع وسط الأسوار، وفي جهتها الشرقية بوابة المدخل الرئيسي.. وعلى جانبيها مئذنتان، وكان يتوسط الجهتين الشمالية والجنوبية مسجدان صغيران، وقد اتصلت هذه المنشآت جمعيها بعضا ببعض برواق ارتكزت سقوفه ذات القباب على ٤٠٠ عمود من الرخام، بينما ارتفعت المآذن في أركان الأسوار التي تحيط بالمجموعة.

وكانت جدران المسجد الرئيسي مزخرفة بالتوشية الهندسية الكبيرة، على شكل شبكة من الطوب الأزرق، المطلي بالميناء التي نقشت عليها آيات من القرآن الكريم كتبت بخط كوفي.. وعلى عكس ذلك تتميز بوابة المسجد والمئذنتان ذواتا الأضلاع الثمانية والمجاورتان لها بكثافة عناصر الزينة، التي يشترك فيها الرخام والأحجار المنقوشة وفسيفساء التراببع، وترتفع قبالة البوابة قبة فيروزية ضخمة، وصفتها مخطوطة من القرن الخامس عشر بأنها (كانت قبة وحيدة لم تكن في السماء تكرار لها).

وفي الجانبين الشمالي والجنوبي يقوم مسجدان صغيران، لكل منهما قبة تواجه الأخرى.. وكان الفناء مصمما في الماضي بشكل مدهش، إذ كان مرصوفا بألواح مرمرية وفسيفساء خزفية، وقد وضع ألولوغ بك داخل المبنى الرئيسي دعامة مرمرية ضخمة للقرآن الكريم، نقلت عام ١٨٧٥ إلى وسط الميناء.

غير أن المسجد الهائل، كان قد شيد على عجل، مما أدى إلى حدوث انهيارات فيه منذ السنوات الأولى لإنشائه، كما ساهمت الزلازل في تشويه وانهيار القباب، وزادت من التصدعات في الأقواس، حتى دمر زلزال عام ١٨٩٧ جزءا كبيرا من بوابة المدخل الرئيسي الملبسة بالمرمر بالألواح لا زالت محفوظة في فناء المسجد، مما حول الساحة التي كان مقدرا لها أن تشهد نموذجا آخر لروعة الفن المعماري، إلى بقايا وأنقاض غير مكتملة متناثر هنا وهناك.. ومع ذلك تظل هذه البقايا شاهدا أبدا على عظمة الأشكال وبهاء الزينة الزخرفية.

الأمير والفقيه اللغز:

وعلى اتساع هذه الآفاق وقراءتها وتميزها فإن زيارة سمرقند تظل ناقصة بغير مرور على ثلاثة مواقع، ترتبط بأسماء ثلاثية أشخاص مرصد الوغ بك، الأمير العالم، وقبر الإمام البخاري أمير الفقهاء ورواه الحديث، وقبر تيمور لنك الأمير اللغز.. ومع هذا فإن هذه المعالم ليس هي كل ما في سمرقند، فالقائمة طويلة، والرحلة بين آثارها تستغرق في حالة الهرولة والاستعجال والاستنفار – ثلاثة أيام عمل على الأقل – ويعلم الله كم تستغرق من الصفحات.. ولكن لا مفر من الوقوف أمام هذه المعالم المتميزة في سمرقند الجميلة والعزيزة أو القديمة كما يقولون.. مرصد (أولوغ بك) المقام عند سفح هضبة (تشوبان أقا)، قيمة عظيمة وتاريخية هامة، أكثر من قيمة معمارية أو جمالية، فقد بناه هذا الأمير العالم ما بين عامي ١٤٢٨، ١٤٢٩ وأقل ما يمكن أن يقال في حقه أنه كان من أكبر المراصد العلمية في الشرق، وأن ألوغ ذاته يوصف بأنه من رجال الفلك البارزين في العالم، وأنه كان صاحب الكلمة الأخيرة في علم الفلك بالشرق خلال العصور الوسطى، وله مؤلف ضخم باسم (الجداول الفلكية الجديدة) من بين ما يضمه (كتالوج ١٠١٩ نجمة) مرتبة وفقا للأبراج، ولكل نجمة رقم ووصف مختصر بوضعها في البرج، وقد حدد ألوغ بك السنة النجمية بـ٣٦٥يوما و٦ساعات و١٠دقائق و٨ثوان والمقدار الفعلي للسنة يساوي ٣٦٥يوما و٦ساعات و٩دقائق، ٩,٦من الثواني وتشير الدراسات الأثرية إلى أن مرصدا ألوغ بك كان مقاما في ثلاثة طوابق، وأنه كان أسطواني الشكل، وفوق سقف المبنى وضعت بعض الأدوات الفلكية التي كان يستخدمها، وكان تخطيط المبنى معقدا، حتى أنه وجدت فيه صالات واسعة وممرات ومعابر تربطها فيما

بينها، وشغلت وسط المرصد الأداة الرئيسية لعمله، وهي السدسية المرمرية التي أن يطل منها على السماء، وكان طول الجزء المتبقي الذي تم اكتشافه من هذه السدسية ١١مترًا.

ويلقي (ألوغ بك) من الكتابات السوفيتية اهتماما ملحوظا، ليس فقط كعالم بارز، ولكن أيضا بسبب موقف رجال الدين منه، إذ ليس مستغربا في ظروف تدهور الفكر الديني في هذه المناطق التي سادت فيها البدع وتعاليم المتصوفة أن يعلن رجال الدين الثورة عليه، ويتهمونه بالفكر والردة وتستغل بعض الكتابات السوفيتية هذا الموقف وتصوره باعتباره دليلا على تخلف الدين ذاته، الذي أنكر على عالم مثل (ألوغ بك) جهده، وليس باعتباره تدهورا مني به رجال الدين الذين حطموا المرصد بعد وفاته!!

غير أن زيارة قبر أمير الفقهاء الإمام البخاري تقتضي الخروج من سمرقند المدينة إلى سمرقند الضواحي، لأن قبر الإمام يقع على مشارف قرية (باي أريق) التي تبعد ٢٥كيلو مترا عن سمرقند.. أيضا، فليس للقبر قيمة معمارية، ولكن قيمته تتعاظم بقدر الراقد فيه، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، شيخ المحدثين ومصنف الجامع الصحيح الذي قضى ١٦عاما في تصنيف ثلاثة، من بين ٦٠٠ألف حديث وقعت بين يديه، كما قال هو.

تقول الرواية الإمام البخاري عاد إلى مسقط رأسه بخارى بعد غيبة طويلة بين الشام ومصر والحجاز والعراق، فطلب منه أمير بخارى أن يأتيه بكتابه الصحيح، ويحدثهم في قصره، فكان رد الإمام: (أنا لا أذل العلم، ولا أحمله إلى أبواب السلاطين، فإن كانت لك حاجة إلى شيء منه، فلتحضر إلى مسجدي أو داري، فإن لم يعجبك فأنت سلطان فامنعني من المجلس)!.

وكانت النتيجة أبعد البخارى من بلدته، فخرج إلى سمرقند، بين مرحب وكاره، فاختار أن يبقى في هذه القرية التي كانت تعرف في ذلك الوقت (منتصف القرن الثالث الهجري) باسم (بخزنتك). وهي على بعد فرسخين من سمرقند كما تقول كتب سيرته – وهناك مات شيخ المحدثين عن اثنين وستين سنة، إلا ثلاثة عشر يوما، وجاءت ميتته ليلة عيد الفطر.. وقد زاره ابن بطوطة بعد وفاته بخمسمائة سنة، ويبدو مما كتبه أنه كان مدفونا إلى جوار عدد من علماء بخارة، سجل ابن بطوطة أسماءهم، ومؤلفاتهم، إذ كتب على كل قبر اسم صاحبه ونتاجه الفقهي والعلمي، ولكنه لم يذكر تفصيلات الزيارة لأنه كما ذكر (كنت قد قيدت من ذلك كثيرا، وضاع مني في جملة ما ضاع لي، لما سلبني كفار الهند في البحر).

الآن يرقد الإمام البخاري وحيدا في ضريح متواضع يتناسب مع زهد الرجل في حياته العامرة، وإلى جوار الضريح الذي أقيم مسجد حديث جدا، ولعله أقيم بمناسبة الاحتفال بمرور

١٢ قرنا على مولده منذ أكثر من ربع قرن، والضريح والمسجد تحيط بهما حديقة واسعة تتناثر فيها أشجار الفاكهة الشهية في المنطقة، وعلى رأسها الخوخ والبرقوق والتفاح.. وبالقرب من المسجد بنيت حجرات معدودات للاستراحة، تطل على بركة مياه تستخدم للوضوء عادة.. ولا ينقطع زوار الضريح، فالناس يعرفون مقامة، وأن جهل أكثرهم من هو.. ولكن ثمة مفاجأة سوف تذهل الزائر حين يلتقي بها في الحديقة التي أقيم فيها قبر الإمام البخاري، والتي تدخل في نطاق (كلخوز) بتلك المزرعة التعاونية التي سبق وحملت اسم زعيم السوفيتي لينين!.. لهذا يبدو غريبا وعجيبا أن يقترن مرقد الإمام البخاري باسم (كلخور لينين) ثم عودة إلى ضريح (تيمور لنك) في شارع أخو نبا بايف حيث تبدو تلك القبة الباهرة التي تعلو الضريح.. القبة الفيروزية المضلعة والمكسوة بكم هائل من زخارف الفسيفساء الدقيقة البديعة في لمعة أخاذة ورصينة، وقد ركبت فوق تصميم أسطواني، وتستند هذه الإسطوانة على بناء من ثمانية أضلاع، فيه يرقد تيمورلنك مع أفراد أسرته.. يسمونه (كوارمير)، أو مدفن خلفاء الأمير تيمور الذين سبقوه ولحق بهم في دورة الزمن التي لا تخطئ أحدًا.

وكوراميرا أيضًا اسم يطلق على مجموعة من المباني، مرتبطة باسم حفيد تيمور الحبيب إلى قلبه محمد سلطان وتضم هذه المجموعة مدرسة خانقاه (مقر إقامة وضيافة لوجهاء الدولة) ثم ذلك الضريح الذي لحق بمسجد، وحول هذه المباني حيطان عالية، تطل مئذنة من كل ركن فيها، ويمر الزائر عبر بوابة مغطاة بكساء من الفسيفساء ذي جمال نادر، لكن يصل إلى هذه المنشآت التي يتصدرها المسجد والضريح.. ويلمح الزائر في الفناء حجرات من المرمر الرمادي سداسي الشكل ومزينا بزخرفة منقوشة ودقيقة.

وقد كان هذا الحجر الملقي في ركن جانبي ذا شأن خطير عند التيموريين، إذ كانوا يعتقدون في تأثيره السحري، وكيف أن السحرة استخدموه ليشيع الفوضى في صفوف أعدائهم الفرس.. ومنذ ذلك الحين حظى هذا الحجر الخطير بتقديس بالغ، حتى أنه كان يغطي بلباد أبيض، ليجلس عليه الأمير لحظة مبايعته، ليستمد منه القوة والجسارة في تحدي كل خصومه.. ولا يزال يطلق على هذا الحجر (العرش) اسمه التقليدي القديم: كوك طاش.

كان تيمور هو الذي أمر ببناء الضريح، وانعكست على تصميماته ونقوشه كل سمات عهده القوة والجبروت والترف الجمالي، وفي عام ١٤٠٣ مات حفيده الذي كان يؤهله لتولي الحكم بعده، ثم لحق به تيمور ذاته بعد عامين، ودفن الاثنان في قبرين متجاورين لكن المدهش في الأمر أن تيمور لنك أوصى قبل وفاته بأن يدفن عند قدمي أستاذه ومعلمه مير سيد بركة، فجئ بجثمان الرجل من بلده (أند خوي) في أفغانستان، ودفن في الضريح، ووضع قبر تيمور بمحاذاة قديمه، ويقال أنه بنى هذا الضريح أصلا لمعلمه الشيخ سيد بركة.. على أن قبر تيمور

أضيف إليه بلاطة من صخرة اليشم الأخضر الداكن، فريدة في حجمها، استجلبها أولوغ بك بعد عشرين عاما من موت تيمور، خصيصا لتوضع فوق قبر (فاتح العالم) وعلى البلاطة كتبت باللغة العربية سيرة تيمور ونسله الذي يشير إلى أنه من سلالة واحدة من جنكيز خان، كما تشير الكتابة إلى أن أحد أجداد جنكيز خان، ولدته امرأة تدعى (الانكوفا) من النور الذي نفذ إليها خلال الباب الجبلي، ومثل أمامها في صورة إنسان كامل، وهو أحد بناء الإمام علي بن أبي طالب.

والقصة مختلفة بغير شك، ولكنها نموذج للطريقة التي يمكن أن يكتب بها الحكام التاريخ والتي تصل إلى حد (اختراع) علاقة نسب بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وبين أمير الظلام في آسيا القرن الثالث عشر جنكيز خان!

الوجه الآخر لتيمور:

ومع ذلك تظل شخصية الأمير تيمور، الذي ارتبط مجد سمرقند باسمه، حافلة بالغموض والإثارة، فالشائع في أذهاننا أن الرجل كان امتدادًا لجنكيز خان، في الغلظة والقسوة وشهوة التدمير والخراب، وهي صورة ناقصة للرجل الذي لم يتح لوجهه الآخر أن يقدم بصورة معقولة، ذلك أنه دخل التاريخ بسيفه قبل كل شيء في ذلك شك، ولكن شخصيته لم تكن تخلو من أشراق.

صحيح أنه أراق دما كثيرا، وأن نصف آسيا كان يرتعد فرقا منه، بعد ما وصلت جيوشه ما بين أزمير وبغداد ودلهي وموسكو، ومات عن واحد وسبعين عاما، وهو في طريقه إلى الصين لكن هذا الرجل ذاته هو الذي طلب أن يدفن عند أقدام معلمه، وهو الذي كتب في مذكراته مراسيم تيمور أو توزوكات تيمور يقول:

(.. في سن الثانية عشرة، بدأت استوعب كتب الحكمة العالية والقوة الخارقة، وفي سن الثانية عشرة تعلمت مهارة الصيد والفروسية.. وكنت أمضى وقت في قراءة القرآن الكريم ولعب الشطرنج وهوايات أخرى).

وهو الذي أمر جنده وهم ينهبون أصفهان ألا يتعرضون بسوء للحي الذي يسكنه العلماء، وكان يشارك فلاسفة وفقهاء هراه وحلب محاوراتهم الشرعية. ويروي عنه أنه أمر بنقل مكتبة بأكملها على متون البغال من بروصة في تركيا إلى سمرقند، ثم أنه كان يعتبر أن أعظم كسب خرج به من البلاد التي فتحها هو استقدامه لطوابير الصناع وأهل الفنون من أهل تلك الأصقاع، وإلحاقهم بخدمته.

ومن الثابت أن تيمور كان ذواقة للفنون والجمال، الأمر الذي دفعه أن يخلد كل انتصار حققه بإنشاءات معمارية يقيمها، حتى جلب لذلك مئات البنائين من الهند، وأمهر رجال المعمار من شيراز وأصفهان ودمشق، وعبر الجميع نهر جيجون ليسهموا في تجميل عاصمته سمرقند، فضلا عن إسهاماتهم في الآثار العظيمة التي أمر تيمور بإقامتها في تبريز وشيراز وتركستان وبغداد.. كما أن هذا (البربري المتوحش) هو الذي أرغم على الهجرة إلى سمرقند أمهر النساجين والصياغ في تركيا وبلاد الكرج في (القوقاز)، مما لعب دورا في ازدهار ورواج سمرقند ومدن مملكته الكبرى.

ويشير المستشرق المجري أرمنيوس فابري في كتابه عن تاريخ بخارى إلى أن بلاط تيمور – على بذخه وترفه– كان يزخر بالعلماء والفنانين، وأنه شخصيا كان يكتب بلغة تركية رصينة ولم يكن يحب العبارات الضخمة والمتكلفة، حتى أنه وهو في أوج عظمته كان يبدأ رسائله بهذه العبارة: (من تفكري قولي تيمور..) أي يقول عبد الله تيمور أن..

وكان طبيعيا أن يفرز هذا المناخ نماذج مرموقة من الفقهاء والمتصوفة والمؤرخين والشعراء ونهضة علمية نسبية بلغت ذروتها في عصر أولوغ بك، الذي حاول أن يتمثل جده تيمور في مجالات الإنشاء والعمرة، وأن يضيف إليه الاهتمام بعلوم زمانه الدنيوية والدينية.

ولكن المجد الذي صنعه تيمور كان سلاحا بحدين، فبقدر ما أستثمره تيمور ليبني دولة عظيمة، فإن أكثر خلفائه أفسدتهم هذه التركة، وسرعان ما انهارت دولة التيموريين بعد قرن واحد من الزمان.

مات أمير سمرقند مساء السابع من شعبان عام (٨٠٧هـ/١٤٠٥م) وكان من بين وصاياه أن يقوم على غسله الملا هيبة الله، وأن يقرأ القرآن على فراشه.. ولم يكد تيمور يواري الثرى في سمرقند وتنتهي مراسم العزاء حتى انطلق ورثته يتحاربون في سبيل التاج.

ولم يكن أحد يعلم أن موت تيمور يعني أن على سمرقند أن تنازع لكي تبقى متربعة على القمة التي بلغتها، ولقب ياقوته بلاد ما وراء النهر الذي اكتسبته عن جداره.

وبينما كانت الجيوش العثمانية تهدد في منتصف القرن السادس عشر وسط أوروبا، وتزحف متقدمة في أفريقيا وآسيا، كانت روسيا القيصرية تنطلق في مهاجمة المناطق الإسلامية حتى سقطت قازان في منطقة الفولجا أولا.. وبعدها دولة خانات ستراخان، ثم مملكة سيبريا المسلمة في سيبريا، ثم اتجهت الجيوش الروسية إلى الجنوب.. إلى تركستان في القرن التاسع عشر.

وتساقطت الخانات فيما وراء النهر واحدة تلو الأخرى، حتى زحف ٨ آلاف من جيوش الروس بقيادة الماجو جولوفا تشوف نحو سمرقند وعبروا نهر زارا فشان يوم ١٣ مايو عام ١٨٦٨، ليستولوا على سمرقند في اليوم التالي: ١٤مايو.

وكان هذا فصلا جديدا ومحزنا في القصة التي بدأت عام ١٨٥٢ عندما سقط بيد الروس أول حصن في بلاد ما وراء النهر، هو حصن أق مسجد.

وقتئذ كتب الجنرال الروسي بروفسكي، إلى قائد حصن آق مسجد المسلم الذي أبدى بعض المقاومة ضد القوات الغازية، وكان مما قاله الجنرال الروسي في رسالة: (لم يأتوا الروس هنا ليقضوا يوما أو عاما، وإنما ليقيموا إلى الأبد، ولن ينسحبوا من هنا)!

ونسى الجنرال في غمار زهوه بقوته وغزواته قول فلاديمير اليتش لينين (.. مثل أي كائن حي، يولد الحزب، وينمو، ويموت).. وقد مات الحزب البلشفي بالفعل، الحزب الذي أسسه لينين، وحكم به تلك البلاد الشاسعة التي كانت تعرف باسم الاتحاد السوفيتي، مات بعد أن أدى مهمته التاريخية، وحاول بعدها أن يتجاوز (عمره الافتراضي) في محاولة فاشلة للانقلاب على الديمقراطية، التي أصبحت ضرورة حتمية لتلك البلاد، بعد عهود من الحكم المطلق.. واستعدت الجمهوريات الإسلامية في وسط آسيا استقلالها عن الاتحاد السوفيتي بعد أن لفظ أنفاسه إلى الأبد.. وليت الجنرال بروفسكي كان حيا حتى يرى بعينيه انهيار معتقداته ومقدسات نظامه.

طشقند العاصمة والتاريخ:

طشقند هي الآن عاصمة أوزبكستان الإسلامية، لكن طشقند التاريخ كان لها شأن آخر، أنه على أي حال تقع في إقليم الشاش الذي يقع غربي إقليم فرغانة على ضفة نهر سيمون اليمني، أي الضفة الشمالية الشرقية.

والخوائب المعروفة اليوم بطشقند القديمة، هي موضع المدينة التي سماها العرب المسلمون: الشاش، وسماها الفرس (جاج)، وكان لكثير من أسماء المدن في بلاد ما وراء النهر تسميتان – فارسية وتورانية.. وكان يقال لمدينة الشاش بنكث أو بيكث، وهي قصبة إقليم الشاش.

ومقدار عرض إقليم الشاش مسيرة يومين في ثلاثة أيام سيرا على الأقدام، وليس بخراسان وبلاد ما وراء النهر إقليم على مقدار مساحة إقليم الشاش ولا أكثر منابر منه ولا أوفر قرى وعمارة، وإقليم الشاش عموما في أرض سهلة منبسطة ليس في هذه العمارة

المتصلة جبل ولا أرض مرتفعة، وأبنيتهم واسعة من طين، وعامة دورهم يجري فيها المـــاء، وهي كلها مستترة بالخضرة ومن أنزه بلاد ما وراء النهر.

وكان على طشقند (الشاش) أسوار كثيرة، فقد كان لها مدينة داخله، لها قلعة تلاصقها، عليهما سور، وفي خارج المدينة الداخلة البرض (الضاحية) الداخل، وعلى هذا الربض سور، ويليه أيضا الربض الخارج، وفي بساتين وحقول كثيرة، وحول هذا الربض الخـــارج ســـور ثالث، وأخيرا السور الكبير، على غرار ما كان لبخارى، يحمي الناحية كلها، فيكـــون حـــول طشقند من ناحية الشمال بهيئة ونصف دائرة يصل ما بين ضفة نهر الترك في الشرق ونهـــر سيمون في الغرب.

وفي القلعة دار الإمارة والحبس، وللقلعة بابان: أحدهما يفضي إلى المدينـــة الداخلـــة، والآخر إلى الربض الداخل، وكان المسجد الجامع على سور القلعة.

والمدينة الداخلة فرسخ في مثله، وفيها بعض الأسواق، ولها ثلاثة أبواب: بـــاب أبـــي العباس، وباب مدينة ركش يفضي إلى الجنوب حيث يصل الطريق القادم من سمرقند وبـــاب الجنيد.

وكان للسور الذي يحيط بالربض الخارج سبعة أبواب، وكانت أســـواق المدينـــة فـــي الربض الداخل، ويشق البلد أنهار وقنوات كثيرة، تسقي البساتين والحدائق في داخل الأسوار، والمدينة نزهة تكسوها الخضرة والأشجار الباسقة وتغطي أبنيتها، فكأنها الجنة في خـــضرتها وكثرة مياهها.

وقد نبغ في طشقند علماء كثيرون، منهم أبو بكر محمد بن على بن إسماعيل القفـــال الشاش (٢٩١هــ - ٣٦٦هــ)، رحل عن الشاش طلبا للعلم، فنفقه وعاد إليها، وكان أوحد أهل الدنيا في الفقه والتفسير واللغة، سمع أبا عروبة وأبا بكر بن خزيمـــة، ومحمـــد بـــن جريـــر الطبري، وأبا بكر الباغندي وأباب بكر بن دريد، روى عنه الحاكم أبو عبـــد الله وأبـــو عبـــد الرحمن السلمي.

وينسب إلى الشاش أبو الحسن بن الحاجب بن جنيد الشاشي، أحد الرحالين في طلـــب العلم إلى خراسان والعراق والحجاز والجزيرة والشام، وتوفي بالشاش سنة ٣١٤هــ. قال أبو الربيع البلخي يصف مناخ الشاش:

الـــشاش بالـــصيف جنـــة ... ومـــــن أذى الحـــــر جنـــــة
لكنـــــــي يعترينـــــــي ... بهــــا لـــدى البـــرد جنـــة

ولقد كانت طشقند حصنا منيعا من حصون الإسلام دينا، والعربية لغة، ولا تزال على الرغم من تحملها في سبيل دينها ولغته الأهوال!

التمهيد للفتح:

في سنة (٩٣هـ/٧١١م) سار قتيبة بن مسلم الباهلي إلى سمرقند، بعد أن صالح أهل خوارزم وقبض صلحهم.. وكان المجشرين مزاحم السلمى قد قام إلى قتيبة وقال له سرا.

(أن أردت الصغد يوما من الدهر، فالآن.. فإنهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام).

وكان المسلمون يغزون كل سنة إقليما لفتحه، فغزوا تلك السنة خوارزم، فكان عليهم أن يعودوا إلى مرو عاصمتهم في خراسان، قبل حلول موسم البرد القارس في تلك الأصقاع ذات البرد الشديد.

والصغد والسغد، هو الإقليم الذي يضع سمرقند وبخارى، كما يطلق على القوم الذي يعيشون فيه: الصغد أو السغد أيضا، وهذا الإقليم هو تركستان الغربية الذي أصبح فيما بعد تحت سيطرة الاتحاد السوفيتي.

وقد قال قتيبة للمجشر: (أشار بهذا عليك أحد؟) قال: (لا) قال: (فأعلمته أحدا؟) قال (لا) فقال قتيبة: (والله لئن تكلم به أحد، لأضربن عنقك).

ومن الواضح أن قتيبة قصد أن يلتزم الكتمان الشديد في عمليته، ليباغت أهل الصغد بها مباغتة كاملة بالزمان، فيشل حركتهم، ويضمن النصر لعمليته.

ولما أصبح الغد، دعا قتيبة أخاه عبد الرحمن بن مسلم، وأمره أن يتحرك بالفرسان والرماة باتجاه مرو، ويستصحب معه أثقال الجيش، فمضى عبد الرحمن، وقدم الأثقال، وسار يوما كاملا، فلما أمسى، كتب إليه قتيبة: (إذا أصبحت وجه الأثقال إلى مرو، وسر بالفرسان والرماة نحو الصغد، واكتم الأخبار، فأني بالأثر).

وبلغ قتيبة الصغد بعد عبد الرحمن بثلاثة أيام أو أربعة، وقدم معه أهل خوارزم وبخارى، فحصرهم شهرا، وقاتلهم في حصارهم من وجه واحد في سمرقند.

وكتب أهل الصغد إلى ملك إقليم الشاش (إقليم طشقند) وإقليم فرغانة (أن العرب أن ظفروا بنا عادوا عليكم بمثل ما أتونا، فانظروا لأنفكم، ومهما كان عندكم من قوة فأبذلوها).

واستقر رأي ملكي الشاش ومزغانة من أولاد الملوك وأهل النجدة من أبناء المرازبة والأساورة والأبطال، وأمروهم أن يأتوا عسكر قتيبة، لأنه مشغول عنهم بحصار سمرقند، وبلغ

قتيبة الخبر، فاختار من عسكره أربعمائة مجاهد، وقيل: ستمائة مجاهد، من أهل النجدة والشجاعة والأيام، وأعلمهم الخبر، وأمرهم بالمسير إلى عدوهم.. وسارت هذه المفرزة المؤلفة من المغاوير المسلمين، وعليهم صالح بن مسلم أخو قتيبة، ونزلوا على فرسخين من المعسكر على طريق أهل الشاش وفرغانة، الذين قدموا خفاقا لنجدة أهل سمرقند والصغد.

وأرسل صالح عيونه وأرصاده، فأخبروه أن العدو سيصل إليه ليلا، ففرق خيله ثلاث فرق، كل فرقة منها جعلها كمينا، فجعل كمينا في موضعين بالقرب من الطريق، وأقام هو وبعض فرسانه على قارعة الطريق.. وطرقهم العدو ليلا، وهم لا يعلمون بمكان صالح ورجاله وكانوا آمنين في أنفسهم من أن يلقاهم أحد دون معسكر قتيبة حول سمرقند، فلم يعلموا بصالح ومن معه من مغاوير المسلمين فين كمائنهم حتى عشوهم، فشدوا على كمين صالح، حتى إذا اختلفت الرماح بينهم، خرج الكمينان الآخران، فقاتلوا العدو وطوقوه، قال أحد رجال صالح: (أنا لنقاتلهم إذ رأيت تحت الليل قتيبة، وقد جاء سرا، فضرب ضربة أعجبتني، فقلت: كيف ترى بأمي وأبي؟ فقال: أسكت فض الله فاك).

واستطاع فرسان صالح التغلب على عدوهم، فلم يفلت منهم ألا الشديد، وأسروا بعض الأسرى، وغنموا خليهم وسلاحهم.

وعلم الصغد في سمرقند باندحار أهل الشاش وفرغانة الذين جاءوا لنجدتهم، فأثر ذلك في معنوياتهم أسوأ الأثر، وانهارت معنويات الصغد.. وبعد قتال عنيف، صالح قتيبة أهل سمرقند، وفتحها صلحا.

لم يكن فتح إقليم الصغد وتطهيره من المقاومة المعادية، وهو أقوى الأقاليم في بلاد ما وراء النهر وأحصنها وأعتاها وأخصبها وأكثرها سكانا، إلا تمهيدًا لفتح بقية أقاليم بلاد ما وراء النهر، ومنها إقليم الشاش.

وبالطبع لم يكن قتيبة من أولئك القادة الذين يسكتون على تكرار مهاجمة أهل الشاش لجيشه مددا لأهل الصغد ولغيرهم.. فكان لابد من فتح بلادهم وإسكات مقاومتهم المتجددة في كل فرصة سانحة، وضم بلادهم إلى الدولة الإسلامية.

ومضى شتاء سنة ٩٣هـ، وجاء ربيع سنة (٩٤هـ ٧١٢م) فقضى الشتاء وأوائل الربيع في الاستعداد لغزو فرغانة والشاش.. وفي أواخر ربيع سنة ٩٤هـ وأوائل صيفها، قطع قتيبة نهر جيحون، وفرض على أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم عشرين ألف مقاتل، فقطع قتيبة النهر (نهر جيحون) وسار إلى الفتح.. ووجه أهل بخارى وكش ونسف إلى إقليم

الشاش، وتوجه هو إلى إقليم فرغانة في وقت واحد ليحول دون تعامل أهل الإقليمين في صد الفاتحين.

واصطدام قتيبة بالعدو في (حجنده) حيث جمع له أهلها، فلقوه واقتتلوه مرارا وفي كل مرة يكون الظفر فيها للمسلمين.

وفتح الجند الذين ساروا إلى إقليم الشاش هذا الإقليم، كما فتحوا مدينة الشاش وأحرقوها، لأنها قاومت بعناد، ثم رجعوا إلى قتيبة بالفتح والغنائم.

وعاد قتيبة بالناس إلى مرو، ليقضي فيها الشتاء، وليعد رجاله لفتح جديد.

وفي سنة (٩٥هـ/٧١٣م) بعث الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراقيين جيشا من العراق، فغزا بهم قتيبة الشاش من جديد، فلما كان بالشاش أتاه صوت الحجاج فغمه ذلك كثيرا، لأن الحجاج هو الذي ولاه خراسان، وكانت الثقة بينهما متبادلة إلى أبعد الحدود، فقفل قتيبة راجعا بجيشه إلى مرو.

وتفرق الناس، فخلف في بخارى قوما، ووجه آخرين إلى كشن ونسف، وفي مرو أتاه كتاب الخليفة الوليد بن عبد الملك: (قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك واجتهادك في جهاد أعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي يجب لك، فأتم مغازيك وانتظر ثواب ربك، ولا تغب عن أمير المؤمنين كتبك، حتى كأني أنظر إلى بلادك والثغر الذي أنت فيه).

وحينذاك اطمأن قتيبة إلى أن الوليد لن يعزله عن خراسان فاستأنف مغازية الرائعة، واستعاد انتصاراته المجيدة، فما كانت فتوح قتيبة في كثافتها وتلاحقها كسائر الفتوح، بل كانت في سرعتها، وكثرتها كالطوفان الجارف، والتيار الهادر.

رحلة المصحف العثماني:

لم يكن من الممكن أن نودع تاريخ طشقند قبل أن نرى أثمن الآثار الإسلامية بها.. رغم الطابع العصري الذي أصبح يسود مدينة طشقند الصاخبة، وهناك حيث توجد داخل خزانة محكة الإغلاق في المكتبة ذلك الأثر النفيس (المصحف العثماني).

كانت رقائق النسخة النادرة تبدو من خلف زجاج الخزانة متراصة فوق بعضها البعض، ضخمة تحمل عبق الزمن والحبر وذر الرمال، وبعضا من دم الخليفة المقتول.. رقائق المصحف المصنوعة من جلد الغزال غير تامة الصقل، متآكل الأطراف، من الصعد قراءة الحروف السوداء المخطوطة عليها، أمين المكتبة يشير إلى نسخة أخرى موضوعة فوق منضدة وسط المكتبة، نسخة طبق الأصل والحجم لمن يريد القراءة أو الدراسة والبحث، هي

الأخرى أصابها القدم حتى أوشكت أن تصبح أصلية، كانت متطابقة، نفس أشكال الحرف العربي عندما كان يكتب دون نقاط، وصفحة منه مخضبة بدماء الخليفة عثمان بن عفان الذي قتله الثائرون عليه وهو يقرأ في المصحف عام ٦٥٦م. وترك ذلك الأثر الدامي عند الآية الخامسة من سورة البقرة.

عند هذه الصفحة ثارت الفتنة الكبرى، ولم يصل المسلمون من يومها خلف إمام واحد كما تنبأ وقتها الخليفة المغدور.

ولكن.. إذا كان هذا هو المصحف الأصلي حقا، فكيف قطع المسفة بين صحراء العرب إلى سهوب آسيا؟

هناك أكثر من رواية على حد تعبير الدكتور شمس بابانوف الذي كان رئيسا للإدارة المدنية والمفتي السابق، ثم أصبح سفيرًا لأوزبكستان في القاهرة بعد استقلالها.

لقد كتب من هذا المصحف نسخة واحدة عندما خشي الخليفة عثمان موت حفظة القرآن في الحروب والغزوات، وخشي أيضا أن تحرف الذاكرة بعض الآيات، لذلك كتب هذه النسخة وأمر بإحراق كل ما عداها من صحائف، ثم نسخ منها مصاحف أرسلها إلى مكة والمدينة والكوفة والبصرة والشام.

وظلت النسخة الأصلية في حوزة الخليفة حتى قتل.. ويتبادل الشيوخ والعجائز في أوزبكستان العديد من الروايات حول هذا الأمر، أكثرها شيوعا يعود إلى عصر المماليك، وبالتحديد إلى عصر السلطان الظاهر بيبرس الذي ينتمي بجذوره إلى هذه المنطقة.. لقد قامت علاقات وطيدة بين هذا السلطان وبين بركة خان أحد أحفاد جنكيز خان وزعيم القبيلة الذهبية التي أخضعت قياصرة الروس لسطوتها، وكان للرجلين عدو مشترك هو هولاكو قائد جيوش التتر الوثنية التي كانت تقف متحفزة عند حدود إيران.. لذلك فقد نشأت بينهما علاقات وطيدة وتبادل الرسائل والسفراء.. ولأن بيبرس أراد أن يحبب السلطان التتري حديث الإسلام إلى هذا الدين فأرسل له الكثير من الهدايا من بينها هذا المصحف الثمين.

ولكن.. هل يمكن أن يتخلى سلطان مملوكي شديد التطير عن وديعة بمثل هذه القداسة، لقد كان سلاطين المماليك يتفاءلون ويتشاءمون بأي شيء يمكن أن يبقى ملكهم الذي لم يكن أبدا ثابتا من تحتهم، وهي صفة لم تغادر حكامنا المحاصرين بأي حال.

ربما أخذ المصحف العثماني عنوة، وهذا هو الأرجح، سلبه تيمورلنك – البطل القومي أياه – بعد أن أحرق النسخ منه داخل المسجد الأموي في دمشق، ولابد أنه انتبه إلى هذا الخطأ الجسيم فلم يحرق البصرة إلا بعد أن حصل على نسخة المصحف التي بها سليمة، وكانت

المصادفة أنها نفس النسخة الأصلية، وانتقلت مع جيوش تيمورلنك المنتصرة إلى سمرقند، وظلت محفوظة في صومعة خاصة قرب (خوجة أحرار) الصوفي الشهير لا تخرج منها وتعرض على الناس إلا في المناسبات الدينية الخاصة.

وفي عام ١٨٦٩م بعد أو وقعت سمرقند في قبضة قياصرة الروس انتبه الجنرال أبراموف حاكم الإقليم إلى أهمية هذا المخطوط، لا من الناحية التاريخية فقط، ولكن لأنه كان يمثل رمزا حيا للإسلام الذي كان الروسي يسعون لانتزاعه من قلوب السكان المحليين.. وهكذا أبدأ مفاوضات مع شيوخ الصومعة لنقل المخطوط إلى طشقند، ولم تكن مفاوضات سهلة، ولابد أنه هدد وتوعد ثم انتزعه منهم في النهاية، ولم يرسله إلى طشقند بطبيعة الحال، ولكن إلى العاصمة الإمبراطورية (بطرسبرج).

ولابد من الاعتراف بأنه قد تم الاعتناء بهذه النسخة، فقد حفظت في المكتبة الإمبراطورية، وعكف عشرات المستشرقين على دراستها والتأكد من صحتها بل وصنعت منها عدة نسخ مطابقة.. ولكن قلوب المسلمين ظلت واجفة تطالب بعودة المصحف إلى موطنه في سمرقند، ولم تعر حكومة القيصر هذه الرغبات أي اهتمام.. ولكن الأمور اختلفت بعد قيام الثورة البلشفية في أكتوبر ١٩١٧، وكان لينين يأمل في كسب تأييد ودعم القوميات الإسلامية، وبناء على رغبة حارة من مؤتمر مسلمي آسيا قرر أن يعيد المخطوط الثمين، ولكن هذه الرغبة لم تتحقق إلا في عام ١٩٢٤.

كانت عودة المصحف مناسبة دينية حافلة، فقد حضر وفد ديني عالي المستوى لمرافقته في السفر، وأعدت عربة خاصة في قطار، وفي كل محطة كان آلاف المسلمين يخرجون لتحية المصحف والوفد الذي يرافقه.. وكان الاستقبال الأضخم في طشقند التي علقت فيها الزينات وأقيمت الأفراح، وخرجت أفواج البشر لمشاهدة المصحف وهو يذهب إلى مقره داخل خزانة الإدارة الدينية حيث مازال باقيا بها حتى الآن رمزا للإسلام الذي أثار هذه البقعة من الأرض.. وفي رواية أخرى عن المصحف العثماني عرف أن المصحف وجد بسمرقند في القرون الأولى للإسلام دون تحديد التاريخ، وفي عام ١٩٦٨م بعد الاستيلاء على سمرقند، علم الحاكم القيصري العام لتركستان أن المصحف العثماني محتفظ به بمسجد سمرقند خواجة أحرار، فعمد الحاكم إلى انتزاعه من رجال الدين (مقابل مائة روبل..).

وبالرغم من احتجاجات المسلمين بآسيا الوسطى فقد احتفظ بالمصحف بالمكتبة العامة بعاصمة الإمبراطورية القيصرية ببطرسبورج.. وأثر سقوط القيصرية حاولت ثلة من الجنود المسلمين (فوج بريوبرا جينسكي) إرجاع المصحف إلى مسلمي آسيا الوسطى لكن بدون نتيجة وأطلق عليهم الرصاص.

وبعد ثورة ١٩١٧م، اتخذ لينين قراره السياسي المشهور القاضي بإرجاع المصحف إلى جماهير المسلمين بآسيا الوسطى، فأرسل كتاب من رئيس الحكومة السوفيتية إلى مفوضية الشعب لشئون التعليم هذا نصه:

(إلى أناتول فاسيلييفيتشن لونا تشارشكي مفوض الشعب لشئون التعليم ٩ ديسمبر عام ١٩١٧ بتروجراد.

تلقى مجلس مفوضي الشعب التماسا من مؤتمر الدائرة الإسلامية في مقاطعة بتروجراد القومية يطالب المؤتمر المذكور بإعادة (مصحف عثمان الشريف) الموجود حاليا في المكتبة العامة للدولة، وذلك تأبيه لأماني كافة مسلمي روسيا، وكلف المؤتمر عثمان هداية الله توقومبتوف رئيس مجلس الشورى العسكري عامة روسيا، وكريم محمد شون سعيدوف بتنفيذ هذا القررا.. وقرر مجلس مفوضي الشعب أعطاء (مصحف عثمان الشريف) الموجود في المكتبة العامة التابعة للدولة إلى المؤتمر الإسلامي في المقاطعة دون إبطاء.. ونظرًا لذلك يطلب منك إصدار أمر مناسب).

ف.أوليانوف (لينين):

رئيس مجلس مفوضي الشعب

وأثر ذلك القرار نقل المصحف الشريف من (بطرسبورج) إلى مدينة (أوما).. وبالرغم من أن مدينة أوفا يقطنها الكثير من المسلمين، وبها مقر الإدارة الدينية المركزية للمسلمين منذ ما يقرب من قرنين، فقد طالبت جريدة (إظهار الحق) الصادرة في طشقند عام ١٩١٨ بإرجاع الصمحف إلى سمرقند (إذا أن مسنده) الحجري ما يزل قائما فيها.. وصدر نفس الطلب عن جميعة المسلمين بطشقند..

ثم في عام ١٩٢٢ تكرر الطلب من قبل اللجنة التركستانية لشئون المتاحف وحماية الآثار التاريخية والفنون والبنايات الأثرية.. فما كان من اللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفيتي عام ١٩٢٣م، إلا أن قررت إرجاع المصحف الشريف من أوفا إلى تركستان (آسيا الوسطى)، وبعدما احتفظ بالمصحف طيلة خمس سنوات بأوفا سلم فيما بعد إلى وفد الجمعية الإسلامية في طشقند ومقاطعة سرداريا المكون من رئيسها ومن المفتي السيد ظهير الدين أعلم، والسيد محمد خوجه، والسيد قاسم جايف ممثل لجنة المعالم الأثرية، ونقل بعربة قطار خاصة كما سبق وأن أسلفنا.

وبعد احتفال أقيم بمحطة القطار بطشقند حمل المصحف الشريف على الرؤوس إلـــى جامع خوجة أحرارا، وطيلة عام كامل تواصل جماهير المسلمين لمشاهدته، ثم حمل المصحف إلى متحف التاريخ.. وبعد ذلك في عام ١٩٤١، نقل إلى متحف تاريخ شعوب أوزبكستان.

ولما أنعقد المؤتمر الإسلامي عام ١٩٤٣م، وضع المصحف الشريف مؤقتا بـــالإدارة الدينية.. وبالإضافة إلى هذا المصحف الشريف الثمين فإن بطشقند نفائس المحفوظات بمكتبـــة جامع (طلاشيخ) وبمعهد أبى الريحان محمد بن أحمد البيروني والذي يتبع لأكاديمية العلوم في اوزبكستان، والذي يحتوي على أكثر من ٢٥ألف مخطوطة، وبتداول تلك المؤلفـــات يتحقـــق للدراسين ذلك القسط الوافر الذي أرسته أوزبكستان في الحضارة الإسلامية، فقد وجـــد الـــدين الحنيف في بلاد ما وراء النهر لبنة طيبة نماها فرعته، وحـــدث التفاعـــل الحـــضاري، وإذا بالإسلام يفجر طاقات كامنة وجدها في هذه الأصقاع التي بدورها عززت قوة الإسلام.

ولما دخل العالم العربي عصور الانحطاط، انتقل مشعل الحضارة ألإسلامية إلى بلاد ما وراء النهر، وكما لاحظه العلامة (كراتشكوفسكي) حين قال: (في طلب العلم رحل النـــاس من الأندلس إلى بخارى).. وبعد ما أصبحت بخارى مركز علم كسمرقند أخذ الإشعاع العلمي ينتقل من الجنوب نحو الشمال، ثم من الشرق إلى الغرب.

كما يذكر هذا العالم الروسي أن من أكبر معاوني ألوغ بك في مرصده على بن محمد القوشجي (توفي عام ٨٧٩هـــ/١٤٧٤م)، الذي اضطر إلى مغادرة سمرقند، ووجد الملاذ بعـــد تجوال طويل لدى السلطان العثماني محمد الفاتح بالقسطنطينية.. حيث أصبح المـــسئول الأول عن انتشار المعارف الفلكية والجغرافية في الدولة العثمانية.

وهكذا انتقل ركب الحضارة من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغـــرب مـــارا بآسيا الوسطى.

سطور أخيرة قبل الرحيل عن أوزبكستان:

ولما كانت أوزبكستان هي الجمهورية الثانية في آسيا الوسطى، وتمتلـــك المقومـــات الرئيسية، فهذا يؤهلها لأن تصبح دولة حديثة ومتطورة إلى جانب كونها عاصمة تجارية لآسيا الوسطى، ومحطة بين العتيق الغارب والحديث الوافد من العصور، كما أن ثورتها المعدنيـــة وصناعاتها وتمتعها بفئات متعلمة ومثقفة وآلاف من الخبراء الفنيين، تجعلها في موقع ممتـــاز بين جاراتها، إلا أن استمرار الحكم الشرعي الشامل تحت اسم الحزب الديمقراطي، وابـــتلاء المجتمع الأوزبكي لكل الأمراض التي تعاني منها المجتمعات السوفيتية السابقة، فـــضلا عـــن انتشار أمراض المجتمعات الرأسمالية التي دخلـــت الـــبلاد بمجـــيء المـــستثمرين الأتـــراك

والأمريكيين، على جانب النزاعات العرقية والطائفية وأخيرا الدينية، تعتبر من العوامل السلبية التي تهدد هذه الجمهورية.

ولقد أصبح الدولار هو المفتاح لحل جميع المشاكل، وأصبح طبيعيا في أوزبكستان أن يتزوج الوافدين الأثرياء الفتيات الشابات لقاء خمسين دولارا!.. وبعضهم من الأتراك خاصة، يشترون الفتاة ولا يتزوجونها، مما يثير كراهية المواطن الأوزبكي وغيرته إزاء هذه السلوكيات.. وعلى كل حال فإن الدول المسلمة في آسيا الوسطى تناضل الآن من أجل تأكيد استقلالها.. بينما العوامل التي تساعد الدول على ضمان استقلالها لا تزال وللأسف غير متوافرة في هذه الجمهوريات.

أذربيجان

حين كانت أذربيجان إحدى الجمهوريات الآسيوية السابقة في الاتحاد السوفيتي وكانت أحد المعابر التاريخية بين آسيا وأوروبا.

وقد عرفت بأرض الزلازل، ضربتها الزلازل الأرضية، ومستها الزلازل الفكرية، وعاشت بين حضارة الشرق والغرب.. ومازالت تضم مزيجا مدهشا من آثار العرب والفرس والترك في تناغم لم يستطيع أن يمحوه الزمن.. ومازال الكثير من أبنائها يؤرقه الحنين إلى كل ما يرمز إليه الشرق.

إن الرحلة إلى أذربيجان ليست مجرد انتقال من مكان إلى أخرى، بل قفزة حقيقية إلى عالم مغاير تماما، إلى مسرح كامل لتاريخ حي تتداخل فيه الصور مع حركة بناء شاملة في مجمع عصري.

وعالم أذربيجان يبدو حاملا، تلمس فيه الفروق بين الجانب الأوروبي والجانب الأسيوي في روسيا، وبين معالم الحياة الأوروبية في شمال ومعالم التقشف والجدية في الجنوب.. بين عظمة أوروبا القرن التاسع عشر التي مازالت أطيافها في قصر بطرس الأكبر والقصر الصيفي والشتوي في لينجراد، وتراها في عظمة الشرق فيما بقى من آثار، قصر آل شروان شاه وبرج العذراء والقلعة والسور ومساجد القرن الخامس عشر.

وهي من جانب آخر نقطة وسط بين لينجراد وبين سمرقند، فإذا كانت أزربكستان قد تمنعت طويلا وتحصنت خلف ما فيها في مواجهة الأفكار الجديدة بعد الثورة الروسية فقد كانت مقاومة أذربيجان أقل، وخطاها أسرع، وبدأت البناء الجديد منذ إبريل ١٩٢٠ إن اللقاء بوجوه أهل باكو، وبموسيقاها الشرقية وعماراتها القديمة بصل بك إلى أحد شوارع اسطنبول، أو مقاهي بغداد أو القاهرة.. فعاصمة أذربيجان هي أقرب مدن آسيا الوسطى إلى الوطن العربي، وأول بلد في آسيا الروسية يدخله الإسلام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب.. وهي تقع على حدود إيران، ويتكلم أهلها لغة هي مزيج من التركية والفارسية.. وهي أول بلد ينتج النفط في المنطقة، ثم انتقلت نقلة واسعة في بناء الصناعة وميكنة الزراعة، رغم أنها لا تختلف عن بقية الأقطار الأسيوية والعربية، بعد أن تم انتزاعها من التخوم الإسلامية وصارت تدور في فلك الكرملين.

وهي مثل كافة الجمهوريات الأسيوية، كما لها امتدادات خارج الاتحاد السوفيتي وشعبها جزء من كل، قوميا ودينيا، يصعب اليوم التعرف على الكثير من المعالم القديمة فأسماء كثير من المدن تغيرت أو محيت.

أطلق عليها النار عندما ضربت أرض أبشيرون الملتهبة (باكو الآن)، واشتعلت السنة اللهب من الأرض، وظلت مشتعلة ليل نهار، إنها جزء من آسيا القبائل والصراع والفروسية التي اختلطت فيها الحقيقة بالأسطورة، والحلم بالواقع على مر العصور.

كانت يوما قلعة الإسلام، وفيها اختلط الدم والحلم، وتتابعت عليها العهود وتقوضت عروش وتقلب أذربيجان بين المجد والذل، ومواكب الغزاة تتوافد عليها.. ودفع أهلها غاليا ثمن موقعهم.

وعزلت عن الإسلام بعد ما يزيد عن ١٢ قرنا من الاتصال، ووقع ذلك في درس تاريخي هام، فعندما تحول المسلمون من دعاة أصحاب سلطان، ودبت بينهم الفتنة واشتعل الاقتتال، هزموا أنفسهم فهزمهم غيرهم.. وهو الدرس الذي طالما تكرر.. وللأسف لا يريد أن يستوعبه أحدا.

لقد وضع وصول القوات الروسية القيصرية نهاية حقبة طويلة من الاقتتال، بعد أن عاشت تحت النفوذ الديني الثقافي للشرق.. ثم استولت عليها عام ١٩١٨ القوات البريطانية والتركية، بعد معركة دبلوماسية حادة بين بريطانيا وروسيا القيصرية، وساعدت الثورة السوفيتية الانتفاضة التي قام بها قياباني عام ١٩١٩.

وهناك في باكو تبدو مناظر المدينة ذات طابع فريد تتميز به المدن الجبلية.. شوارعها واسعة عبوره لا يمكن أن تشعر معها بالزحام، ينتشر فيها اللون الأخضر الذي يعد (مصنع الأوكسجين) فهذه الخضرة هي التي تنقي هواء عاصمة، بمبانيها ومداخن مصانعها ومنارات جوامعها وآثارها التاريخية.. وميناءها بأرصفته ومعداته وربوتها التي تحولت إلى حديقة خضراء أقيمت عليها التماثيل والشعارات، ونصب شهداء الثورة، والشعلة المقدسة..

الرياح العاتية:

وإذا كان معنى أذربيجان هي أرض النار، فمعنى باكو مدينة الرياح، وبالفعل تهب عليها الرياح الدافئة من الجنوب، وتعصف بها الرياح الباردة من الشمال، وقد تنتقل دفعة واحدة من الدفء إلى الصقيع، إنها خامسة مدن الجمهوريات الإسلامية في وسط آسيا من حيث تعداد السكان، فهم يبلغون ٦,٧١٩,٠٠٠ نفس (عام ١٩٨٦) ويكون المسلمون ٧٥% من

مجموع سكانها وهم مزيج من السنة والشيعة وتبلغ مساحتها ٨٦,٦٠٠٠كم أي نفس مساحة سويسرا أو بلجيكا، وهي تقع إلى شمال إيران وتشترك معها في الحدود السياسية وقد نقلت وكالات الأنباء (يناير ١٩٩٠) إن بعض السكان قاموا بمظاهرات وحطموا الحواجز التي تفصل بينهم وبين إيران وطالبوا بحرية التنقل إلى إيران والتبادل الاقتصادي معها.

في أذربيجان تلمس الفروق بين الجانب الأوروبي والجانب الأسيوي من الاتحاد السوفيتي، بين معالم الحياة الأوروبية في الشمال، ومعالم التقشف والجوية في الجنوب، بين عظمة أوروبا القرن التاسع عشر التي تراها في قصر بطرس الأكبر والقصر الصيفي والشتوي في لينينجراد، وتراها في عظمة الشرق فيما بقى من آثار، قصر آل شروان شاه وبرج العذراء والقلعة والسور ومساجد القرن الخامس عشر.

وهي من جانب آخر نقطة وسط بين لينجراد وبين سمرقند.. فإذا كانت أوزبكستان قد تمنعت طويلا، وتحصنت خلف ماضيها في مواجهة الأفكار الجديدة بعد الثورة الروسية. فقد كانت مقاومة أذربيجان أقل، وخطاها أسرع، وبدأت البناء منذ إبريل عام ١٩٢٠.

وعند يرى الزائر وجوه أهل باكو، أو تسمع موسيقاها الشرقية، أو تشاهد عمارتها القديمة! تميل إلى الزائر أنه في أحد شوارع اسطنبول، أو مقاهي بغداد أو القاهرة.. فعاصمة أذربيجان هي أقرب مدينة آسيا إلى الوطن العربي، وأول بلد في آسيا الوسطى يدخله الإسلام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب.

وهي تقع – كما أسلفنا – على حدود إيران، ويتكلم أهلها لغة هي مزيج من التركية والفارسية، وهي أول بلد تنتج النفط في الاتحاد السوفيتي.. وانتقلت نقلة سريعة نقلة واسعة في بناء الصناعة وميكنة الزراعة، رغم أنها لا تختلف عن بقية الأقطار الأسيوية والعربية وبالتالي تستحق تجربتها التسجيل بعد أن تم انتزاعها من التخوم الإسلامية لتدور في فلك الكرملين.

لابد من التعرف على حياة أهلها، ونستعيد موقعهم من الذاكرة العربية؛ حيث تبدو لنا مساحة مشتركة بين عالم الشرق وتجربة الغرب، بين الماضي والحاضر.. وهي مرصد تطل منه على ما كان عليه عالم الاتحاد السوفيتي، وعلى جزء من تاريخنا بحلوة ومره!.. لهذا لا بد من تقديم العقل للحاضر، والقلب للماضي حتى لا يبدو الماضي من خلال سحابة الحاضر، وحتى تبدو الرؤية أكثر وضوحا وأكثر إلصاقا للماضي والحاضر معا..

وهي مثل كافة الجمهوريات الآسيوية، لها امتدادات خارج الحدود، وشعبها جزء من كل، قوميا ودينيا، يصعب اليوم التعرف على الكثير من المعالم القديمة، فأسماء الكثير من المدن تغيرت ومحيت.

ولكن رغم الاستقلال مازالت هناك بقايا التسلط الشيوعي بعد أن تحول أعضاء الحزب إلى طبقة جديدة صاعدة تمتلك كل الامتيازات، الرئيس حيدر علييف على قمتها، واحد من الخانات الجدد الذين خلعوا ثيابهم الشيوعية القديمة، بعد أن كان أحد القادة في الاتحاد السوفيتي والذي تولى منصب نائب رئيس مجلس الوزارة وعضو المكتب السياسي، وكان أميناً عاما للجنة المركزية في باكو لهذا اعتلى السلطة دون مبالاة كبيرة بالممارسة الديمقراطية باعتبارها بدعة غريبة عن عالمنا الإسلامي.

لا تبدو (باكو) أليفة منذ النظرة الأولى، فهي لا تحمل سمات أي مدينة شرقية، ولكنها مدينة غربية نسيت منذ قرن مضى، قلبها ممتلئ بالمباني القيصرية القديمة يعلوها غبار الزمن الداكنة كأنها خارجة من إحدى روايات (ديستوفيسكي)، بينما تحيط بهضابها مساكن المرحلة السوفيتية، صفوف تتشابه في كل شيء حتى في أماكن تساقط الطلاء.. كلها ترتعد تحت البرد بعد أن توقفت الغلايات التي كانت تمد المدينة بالدفء والماء الحار، أما تحت الأرض فالحالة أفضل بكثير حيث توجد محطات المترو التي تخترق قلب المدينة، كل محطة هي متحف حقيقي مرصع بالفسيفساء وأعمدة الرخام والثريات المدلاة من الأسقف، محطة (نظامي) التي أخذت أسمها من شاعر أذربيجان العظيم تحمل صورته ومنمنمات من الزخارف الفارسية، لمحة من تراث الماضي البعيد.

المحطة تؤدي إلى شارع (تراجوفل) النابض بالحركة، زحام من الوجوه ذات الطابع الشرقي، البشرة داكنة بعض الشيء والشعر أسود والعيون واسعة نجلاء تخالطها مسحة من الألوان.

في الميدان المواجه للمحطة ينتصب تمثال للشاعرة (نتافان) تفرد ذراعيها كأنها تلقي قصيدة صامتة، إنها أول امرأة خلعت الحجات، ووقفت تروي شعرها الثوري أمام الجميع.. الوجود الروسي قليل جدا، لا يقاس بالكثافة الموجودة في الجمهوريات الأخرى والمشاعر نحوهم عدائية لدرجة إنهم كانوا من أسرع الدول التي تخلصت من اللغة الروسية.. إن ذلك يتضح في منطقة (الشهيدلار) الموجود على أحد التلال المحيطة بالمدينة.

أقواس قزح

(ميدان النوافير) هو قلب المدينة، ساحة واسعة تتألق فيها خيوط المياه المتصاعدة لتصنع مع ضوء الشمس الشحيح عشرات من أقواس قزح، في جانب منها يوجد تمثال لشاعر آخر هو (فضولي) الذي قال أشعاره بالعربية والفارسية، بينما يتوسطها (شرح نظام الذي) تعلو واجهة تماثيل مشاهير التاريخ الأذري، وحولها توجد المطاعم الحديثة، وتظللها أشجار الحور الكثيفة الأغصان، تحت الأشجار يتناثر العشاق الصغار، يجلسون على المقاعد الحجرية والدرج الرخامي الفتيات الجميلات، تلك الخلطة القفقاسية التي تمزج برودة السهوب الشمالية بدفء الشرق ونعومته، ذلك السحر المملوك الذي سبى العيون قبل أن يأسر الأجساد.

الخطوات تصل إلى شارع ضيق متفرع من الميدان، مزدحم بباعة اللوحات الفنية والقطع الأثرية والتحف القديمة، إنه شارع الفن.. أحد الباعة يضع على طاولته كل النياشين السوفيتية التي تباع بثمن زهيد، ولكن لا أحد يشتري.. لوحة ملونة لشيخ مهيب طويل اللحية، دقة التفاصيل تجعله أشبه بوجه حقيقي.. يهتف البائع: نعم هو حقيقي، إنه الشيخ شامل بطل القفقاس الداغستاني الذي وقف في وجه الاحتلال الروسي، واستشهد وهو يحاربهم.

البائع الشاب يتحدث بالعربية بصورة بارعة، واتضح إنه مستشرق وأستاذ اللغة العربية بجامعة أذربيجان رغم ملابسه الرثة وقطع العاديات التافهة التي يقوم ببيعها..

لاشك أن صورة سوء الحال بذلك قد اكتملت.. ولكنها سوف تستكمل أكثر من أكاديمية العلوم والآداب التي تضم صفوة العقول المتخصصة في أذربيجان – ثمة الكثير من المتخصصين في كل فروع الأدب المقارن، وكان انفتاحهم مدهشا، كل واحد في تخصصه.. ورغم هذا لا توجد إمكانات، الأكاديمية كلها متوقفة لهذا السبب، مرتبات الأساتذة الأجلاء وفقا لأسعار السوق لا تتجاوز العشرين دولار، وأحيانا تمضي شهور دون أن يأخذوا رواتبهم.. والجامعات الأهلية تزحف عليهم ولا تأخذ من الطلاب إلى أبناء القادرين، ومن الأساتذة إلا من يجيد الإنجليزية وهم قلة.

الدرج الرخامي في ساحة (النوافير) يصل إلى المدينة القديمة، السور الذي يحيط بها شهد كل أحداث التاريخ منذ أن احترقت (تبريز) العاصمة الأصلية، وأصبحت (باكو) هي العاصمة، داخل السور يكمن الطابع الشرقي للمدينة، الأزقة العتيقة تعلوها المشربيات المزينة بأصص الأزهار، خانات المسافرين، بقايا طريق الحرير السرمدي، خان الديوان، وخان القوافل، الأخير تحول إلى مطعم تقليدي يقدم الكباب الأذري الملفوف برقائق الخبز، الحمامات التي أقامها الشاه إسماعيل في القرن الخامس عشر، بقايا الدولة الصفوية التي كانت مليئة

بالفظائع ونبش قبور الموتى، ومغارات المسجد ذات الأطراف المستدقة، وقصر آل شــروان شاه الغائر تحت الأرض بعد أن ارتفاع مستوى الطريق من حوله، وأسواق الـسجاد الزاهــي الألوان، ولكن أهم ما في المدينة القديمة بطبيعة الحال هو برج العذراء.

البرج يطل من ارتفاع شاهق، مئات الدرجات في الدرج الحجري المتلف تصل إلــى فوق حيث تبدو السماء الواسعة، وتتمدد باكو على ضفاف بحر قزوين مثل حورية متعبة.

أحد العجائز هناك يقول عن قصة البرج (الحقيقية التاريخية الباهتة تقول أنــه ســمي بالعذراء لشدة مناعته، ولأن أحدا من المهاجمين لم يستطع اختراقه، ولكنــي أفــضل كثيــرًا الأسطورة التي يحكي عن تلك الفتاة التي لم تر الشمس ما هو أجمل منها، كانت بنــت شــاه عظيم، ولكنها أحبت شابا من عامة الشعب، ولم يرض أبوها عن ذلك فعزلها في هذا البــرج العالي، حتى يجد من يليق بمكانتها، ولكنها لم تطق ذلك فألقت بنفــسها فــي البحــر وماتــت عذراء).

حتى الحب لم يكن يبدو بلاهة في ذلك الزمن البعيد.

ثم تبوح الطبيعة بسحرها على وجه السجاد، وديان وتلال وأزهار ونباتات أذربيجــان تعاود التنفس، تستوحي عشرات الأساطير والحكايات المحفوظة.. تراث تمتــد جــذوره إلــى أرض النار القديمة، قبل أن يأتي حذيفة بن النعمان فاتحا ويعتلي الساحليون عرش الزمــان لا يكفون عن التنازع، تورق الأزهار فوق اتصال السلاجقة الذين حلموا بإقامة دولة تمتلك العالم القديم، وتدهشها تحت المغول ونيران هولاكو المحرقة.. قبل أن يهزم أمام فرســان القوقــاز، ويصاب التاريخ بالجنون على يد (قره – يوسف) ابن تيمورلنك وتشتد ضراوة الصراع بــين الإيرانيين والعثمانيين حتى يأتي الروس يزيحوهما معا.

تاريخ طويل ومثقل، يرتسم كالأسى على وجه السجاجيد التي تواصــل الحكــي فــي صمت.. التاريخ لا ينتهي داخل حدود المدينة، ولكن أذربيجان تحتفظ بجزء من أندر تراثهــا في عهد المخطوطات.

تاريخ من الحروف

معهد المخطوطات أنه يحتل واحدا من المباني المهيبة على أطراف ساحة النــوافير، ومع هذا فإن أروقة المعهد معتمة وهي تحوي ١٤٠ألف مخطوط.. وقد كان الثالث من نوعــه في الاتحاد السوفيتي بعد متحفي لينجراد وأوزبكستان، منها ١١٢ ألفا باللغة العربية، والباقي باللغتين التركية والفارسية، وهي تشمل كل صنوف المعارف الإســلامية مــن علــوم وفقــه

وشريعة وآداب وموسيقى، وفنون الطب والجراحة.. يعود أقدمها إلى القرن السابع الميلادي وهي عبارة عن آية قرآنية بخط كوفي مكتوبة فوق جلد غزال.

كما يوجد بالمعهد أربع من المخطوطات النادرة لا يوجد منها إلا نسخة وحيدة في العالم كله.. من أهمها (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) لجمال الدين بن حسن الشيباني.. بالإضافة إلى بعض المصاحف النادرة.

ومن المؤكد أن المخطوطات العربية تمثل أهمية خاصة، لأنها تحتوي على صورة كاملة لكل النشاط العقلي العربي، في الوقت الذي لا تحتوي فيه المخطوطات التركية والفارسية إلا على الأشعار وبعض التفاصيل.. ولما كان من المهم المحافظة عليها، لأن المعهد يفتقد إمكانات الصيانة، فقد بدأت بعض الهيئات العربية تهتم بها مثل: مؤسسة البابطين وجمعية الماجد، ومكتبة الملك فهد.. ومع هذا فإن الأمر في حاجة إلى جهد أكبر لإنقاذ هذه الثروة من الضياع..

وعند قمة التلال المحيطة لباكو تبدو مئذنة مسجد الشهداء وتترامى أمامه في مشهد مهيب صفوف مقابر الشهداء، ومعظمهم من الشباب والطلبة.. ومحفور تحت كل صورة الاسم وتاريخ الاستشهاد.. في القسم الأول من المقبرة يظهر أن تاريخ الاستشهاد حدث في يوم واحد، بالمذبحة لم تستغرق سوى ساعتين، في العشرين من يناير ١٩٨٩ عندما كانت أحلام أذربيجان في الاستقلال على وشك البزوغ، اقتحمت دبابات الجيش الأحمر.. وقام الشباب الأذري بمواجهتها، وأقاموا من أجسادهم دروعا حية، داستهم جميعا، ومات أكثر من ٨٠ فردا غير الذين أصابتهم الطلقات.. تلك كانت صورة خفية من الوجه البشع لجورباتشوف الشيوعي المتطهر صاحب (البيرويسترويكا) لقد تحول هذا اليوم إلى يوم حداد عام، يتلقى فيه رئيس الجمهورية التعازي، وأصبح سببا جوهريا لقدرة الوجود السوفيتي في أذربيجان.

الكافيار ينقرض

وذلك لأن (الحفش) تلك السمكة النادرة لا توجد إلا في جوف بحر قزوين المغلق، مثلها مثل العديد من الكائنات المائية التي ينفرد بها هذا البحر النادر، الذي يحمل في أعماقه كل بذور المستقبل، وكل أسباب الصراع الضاري الذي يمكن أن يجرف كل الدول المطلة عليه حتى الآن.. فالنيران هادئة، الموج الرمادي الداكن لا يعكس إلا ألوان قوس قزح بسبب قطرات النفط السابحة فوقه، وهو دائم الارتفاع، يلتهم الأرض المحيطة به في بطء محتوم.. ورغم ذلك فسمكة الحفش التي تحمل في بطنها ذلك النوع النادر من البيض المسمى الكافيار،

والذي تتخاطفه الأسواق العالمية، توشك هذه السمكة على الانقراض، فالصيد بطرق مشروعة وغير مشروعة قد ارتفع بصورة محمومة منذ استقلال أذربيجان.

ويلتف بحر قزوين مثل الذراعين حول مدينة باكو ويحولها إلى شبه جزيرة تتدثر بالريح الباردة، واسم مدينة باكو – كما أسلفنا – يعني مدينة الرياح العاتية، وذلك لمدى برودة هذه الرياح التي تهب من سهوب القفقاس والتي بالفعل تخترق.

وهناك على الجسر الممتد داخل البحر تبدو منصات النفط الغائبة وسط الضباب الشفاف الذي لا يكاد يفارق سطح الموج، الجسر محطم تماما، كان ضحية للإهمال وسوء الصيانة رغم أنه كان منذ بداية إنشائه في الستينيات لؤلؤة متألقة على بحر قزوين.

أذربيجان أيضا كانت متألقة على بحر قزوين، فقد كانت تمد الاتحاد السوفيتي بحوالي ١٠% من الخضروات والفواكه، وكانت أغلبها مصدر للنبيذ الفاخر الذي يتجرعه الروس – بعد الفودكا طبعا – كما أن شهرة الأذريين في تربية (دودة القز) والحرير الطبيعي الذي ينتج منه قد اكتسب شهرة عالمية.. لكن ماذا عن حال الزراعة الآن بعد ما استقلت البلاد.. إنها في أسوأ الأحوال، لقد انهار نظام المزارع الجماعية القديم ووزعت الأراضي على الفلاحين، ولكنهم لا يملكون الأموال اللازمة لشراء الآلات الضرورية، ولكن هذا هو الحل الصحيح على أي حال، فالأرض لن تثمر حقا إلا إذا تملكها الفلاحون.

وماذا عن مستقبل سمكة الحفش؟.. عند هذه النقطة لا يبدو أن هناك تفاؤلا فالثروة السمكية بأكملها في بحر قزوين مهددة بالخطر الجسيم، فالتقديرات تقول أن عدد أسماك الخفش القادرة على التكاثر قد انخفض من ١٤٢ مليونا في عام ١٩٨٧ إلى أقل من ٤٠ مليونا في عام ١٩٩٧ وهو رقم مثير للفزع، لقد كان ٨٠% من بحر قزوين تابعا للاتحاد السوفيتي، والجزء الباقي يتبع لإيران ورغم أن آلاف الأطنان من المخلفات الصناعية كانت تلقي فيه فإن السلطات السوفيتية كانت تعوض ذلك من خلال برامج تجديد الثروة السمكية، ولأنها كانت تحتكر الكافيار فقد كانت قبضتها قوية في مواجهة قراصنة الصيد.. الآن انتهت كل المحظورات، وأصبح البحر نهبا لكل قراصنة الدول التي تطل عليه دون أن تبذل جهدا في تجديد ثروته السمكية.

وبالدوران حول البحر، لا بد من الوصول إلى منطقة (بيلوجا)، المنطقة التي يرتبط اسمها بأشهر أنواع الكافيار، على امتداد الشاطئ توجد عشرات القرى لا تعيش إلا على الصيد المهرب.. ثمة صياد عجوز يعد قاربه للرحيل في عرض البحر في وضح النهار.. دون خوف من ملاحقة السلطة، أفاد بالنفي لأنه – وحسب قوله – دفع ما يكفي من الرشاوى،

وهكذا يبدو أن الفساد هو سبب آخر من أسباب دمار بحر قزوين، وماذا عساه يفعل وهو ليس لديه مهنة أخرى، لقد وصل ١٩٩٨ سعر الكافيار إلى أكثر من ٢٠٠٠دولار، ويصل إلى أضعاف هذا الثمن في الأسواق الخارجية.. وهذا بالطبع شيء أفضل بكثير من تهريب المخدرات.

النفط الأمل والتحدي

بحر قزوين هو مصدر الأمل الوحيد لأذربيجان في الوقت الراهن على الأقل فهو المصدر الأساسي للنفط الذي يجعلها لا تكف عن الحلم بأن تكون (كويت وسط آسيا)، وقد اعتبر يوم الخامس والعشرين من أكتوبر عيد للنفط.. ففي مثل هذا اليوم من عام ١٩٩٧ تمكنت أذربيجان من تصدير أول شحنة للنفط لها منذ الاستقلال بعد ثلاث سنوات من الخلافات والصراعات الخفية حول تقسيم عائداته.. وفي الحقيقة فهذا الصراع كان جزء من اللعبة الكبرى التي بدأت في هذه المنطقة في القرن التاسع عشر ولا تزال متواصلة.. واللعبة الكبرى تعبير أطلق على الصراع الذي دار في وقتها بين المستكشفين الروس الذين كانوا ينطلقون من بطرسبرج، والمستكشفين الإنجليز الذين كانوا ينطلقون من الهند.. اللعبة مستمرة مع إضافة الأمريكيين في المقدمة وخلفهم الإنجليز، كما أن النتيجة لن تكون بالتأكيد لمصلحة الروس كما انتهت قديما.

يعود النفط في أذربيجان إلى أقدم العصور، فهي أرض النيران كما تطلق عليها كتب التراث كلمة (آذر) تعني النار في اللغة الفارسية، و(بيكان) تعني البيت أو المكان، فالبراكين لم تكن تعرف الهدوء في هذا الزمن، كما أن الأرض القلقة كانت تنفث النار والدخان سبب غير معلوم، لم يخطر في البال أن سببها هو النفط الذي سيحدد معالم الصراع في هذه المنطقة.. وكان أول من اكتشف وجوده بهذه الكميات التي تصلح للاستخراج والتصدير هو واحد من الآخرين (نوبل) اللذين اخترعا المتفجرات، وقد جاء هذا الأخ إلى أذربيجان بحثا عن نوع من الخشب يصلح لأعقاب البنادق.. وبدلا من ذلك عاد وفي ذهنه فكرة تأسيس شركة لإنتاج النفط بشكلها الحديث تعود إلى ٥٠عاما.

أي أنه قريبا من عمر بترول الشرق الأوسط – ولكن السوفيت الذين احتكروا استخراجه وتوزيعه لم يحولوا منه عائدا يذكر للأذريين.. حيث كان الطن من البترول المستخرج من شبه جزيرة (آبشرون) في بحر قزوين، كانت السلطات السوفيتية تشتريه بسعر يوازي ثلاثة دولارات للطن وفقا للمعاهدة بينها وبين باكو، بينما بلغ سعره في الأسواق العالمية ١٥دولارا – أي خمسين ضعفا.

ورغم ذلك فقد أحدث إنتاج النفط نقلة مهمة في بنيـــة المجتمـــع الأذري مـــن الـــنمط الزراعي التقليدي إلى الصناعي، أي أنه ترك عصر (الخانات) ودخل العصر الحـــديث، ولـــم تكن النقلة سهلة، فقد سعى الأذريون إلى تلك الجزيرة الصناعية التي أقيمت وسط بحر قزوين، والتي كانت تسمى المدينة السوداء التي قال عنها مكسيم جوركي: (إنها إحدى صور الجحـــيم على الأرض)، ليكتسبوا خبرة جديدة، ويكونوا نواة طبقـــة جديـــدة تـــشمل العمـــال المهـــرة والمهندسين.. وتحولوا بذلك إلى واحد من أكثر شعوب وسط آسيا مهارة وتعلما، وتفيد آخـــر التقارير السوفيتية أن حوالي الثلثين من الأذريين قد تلقوا التعليم الثانوي والعالي. وهـــي مـــن النسب المرتفعة عالميا.

وتعتبر أذربيجان إحدى الجمهوريات التي لعبت دورا أساسيا في الانتصار الـــسوفيتي في الحرب العالمية الثانية، ليس بسبب عدد الجنود والقادة الأذريين في هذه الحرب، بل لأنهـــا أمدته بـــ٧٥% من النفط الذي يحتاج إليه.

كانت المشكلة الأولى التي واجهت استخراج النفط بعـــد الاســـتقلال هـــي الإصـــرار الروسي على اعتبار بحر قزوين مجرد بحيرة وليس بحرا، وبالتالي فإن كل ما ينتج من هـــذه البحيرة، يجب أن يقسم على الدول الخمس المطلة عليها، ولكن أيا من بقية الدول لـــم توافـــق على هذا الرأي، فقد كانت كل واحدة منها ترفض الوصاية الروسية حتى ولو بدت مغرية في ظاهرها.. المشكلة الثانية كانت في نقل هذا النفط من بلـــد يملـــك أي منفـــذ علـــى البحـــار الخارجية.. ومرة أخرى تثور معركة شرسة بين تركيا وروسيا، هذا إذا استثنينا إيران التي لا يفضلها الجميع في هذا الموقع، والمقصود بالجميع هنا الولايات المتحدة وأذربيجـــان وتركيـــا وروسيا أيضا، روسيا تريد أن ينقل هذا البترول الذي سوف يصل إلى ٨٠٠ألف برميل فـــي اليوم من خلال خط الأنابيب الذي يبدأ من بحر قزوين وينتهي في مينـــاء نوفورسيـــسك فـــي الشمال.. وقد أجرت في هذا الشأن مفاوضات صعبة مع مواطنيها الألداء في الشيشان حتـــى يمر هذا الخط عبر أراضيهم – لأن الجغرافيا تحتم ذلك – وخضعت قليلا لشروطهم السياسية.

في الوقت نفسه تحاول تركيا أن يمر الخط عبر أراضيها إلى مينـــاء (جيهـــان) فـــي الجنوب على البحر المتوسط حيث توجد سوق عالمية متعطشة للنفط، وهو الخط الآمن وإن لم يكن الأقرب والأرخص، وهي تقيم الدنيا وتقعدها بسبب ازدياد حركة ناقلات النفط في مضيق البوسفور، وهي لا تريد الحفاظ على البيئة بقدر ما تريد أن تقيم العراقيل في وجه مشاريع نقل نفط الجمهوريات الإسلامية عبر الموانئ الروسية.

لقد دارت عجلة تصدير النفط وسارت أولى الشحنات منه إلى ميناء نوفورسيسك على البحر الأسود، وأقيم احتفال ضخم حضرته هيلاري كلينتون زوجة رئيس أمريكا السابق لتعطي الوجود الأمريكي لمسة أنثوية.

وحسب التقديرات الأولية فإن حوض بحر قزوين يحتوي على أكثر من ١٠٠ بليون برميل، وهي احتياطي ضخم يفوق بترول الشرق الأوسط وروسيا معا، كما أنه من المتوقع أن تصل ذروة الإنتاج الأذربيجان إلى ١,٦مليون برميل يوميا، وهي صفقة يسهل لها لعاب إحدى شركة نفط عالمية، لذا فإن هناك ثماني شركات تعمل في وقت واحد في أذربيجان منها شركات ضخمة مثل شيفرون شركات تعمل في وقت واحد في أذربيجان منها شركات ضخمة مثل شيفرون وموبيل وتوتال، وقد بلغت استثماراتها في المنطقة حوالي ٢٢ بليون دولار.

هل ستصبح أذربيجان وهي (كويت وسط آسيا) في بداية هذا القرن؟.. يبدو أن هذا الأمر في سبيله إلى التحقق، ولعل هذا يفسر تلك الهجمة الأوروبية والتركية على كل مجالات الاستثمار، حتى إسرائيل وجدت لها مجالا هناك، واحتلت سوق الإعلام والاتصالات، الجميع هناك ما عدا العرب!!

وهناك السؤال لا يقل أهمية، هل ستنجو عوائد النفط من فساد بعض مراكز القوى التي يمكن أن تستولي على هذه العائدات.

هل يمكن أن تنجو من حصار أقارب الدرجة الأولى، والشيوعيين من الحرس القديم الذين مازالوا يحتلون مراكز متقدمة في السلطة؟

في ظل العلاقات القائمة في باكو فإن هذا سوف يحدث بالتأكيد والأمل أن تكون هذه العائدات وفيرة بحيث يذهب جزء منها على الأقل للتنمية الحقيقية.

وعلى جانب آخر، وفي ظل غياب السلطة المركزية الذي عاشت فيه أذربيجان في السنوات الأولى عانت بعض مؤسسات الخدمات – خاصة تلك التي تقوم على رعاية الأطفال – مأساة حقيقة، حتى أن إحدى المؤسسات هناك والتي كانت تقوم برعاية اليتامى والمعوقين تحولت إلى مكان مرعب للموت اليومي، وكان المشرفون عليها يقفون عاجزين دون دواء ولا طعام ولا وسائل للتدفئة، كل ما كانوا يفعلونه هو القيام بدفن طفل أو أكثر كل يوم، وقد تدخلت لجنة من مسلمي آسيا للمساعدة والإشراف حتى استطاعت توقف هذه المأساة، لقد بدأ الأطفال يستردون عافيتهم، وتوفر لهم الطعام والدواء، وتحولت المؤسسة إلى مكان للحياة، بعد أن كانت موطئا للموت.

بذور الخير

إن الدور الذي يقوم به أهل الخير في أذربيجان يتميز بالشمولية، ونوع من وضوح الرؤية بصورة قلما نجدها في مكان آخر، فهي لا تقتصر على أوجه الخدمات الأساسية في إقامة مساجد أو حفر آبار أو رعاية للأيتام، ولكنها بالإضافة إلى ذلك كله تطمح إلى أن تكون خدماتها جزءا من تنمية المجتمع الأذري والمساعدة في تأسيس بنيته الدينية والروحية.

المئذنة متداعية

هناك في وسط الساحة الواسعة مخيط (بردا) تعصف الريح الباردة وتوشك أن تقتلع الخيام، أكوام الصفيح، بؤس اللاجئين واحدة في كل مكان، أحلامهم التعيسة هي نفس الأحلام فالمشهد ليس غريبا علينا – نحن الذين نمت تحت جلودهم مشاهد مخيمات البؤس الفلسطيني منذ طفولتنا – صفوف الأطفال تهتز وتنتفض جوعا وألما، وغربة عيون النسوة تقطر دمعا خلف أستار القماش الممزق، ومن خلال الدخان المتصاعد من نيران الحطب وفوقها قدور سوداء لا أحد يدري ماذا يطهي فيها، الرجال العاطلون الذين لم يجربوا من الحرب إلا الهزيمة والفرار وضياع الأرض التي ولدوا فيها.. صفوف الأكواخ المتتابعة تكاد تتكفئ على الأرض، مسجد صغير في منتصف المخيم، المئذنة متداعية، أحدهم يصرخ:

ماذا سيفعلون بنقود النفط، هل سيشترون السلاح لتحرير أرضنا، أم سيواصلون حياتهم المرفهة في باكو ويتركونها في العراء؟!

المخيم على بعد ٤٠٠ كيلو متر من العاصمة التي تبدو وكأنها تنتمي إلى عالم آخر.. أحاديث طويلة وباكية ومتصلة عن تفاصيل الحرب والطرد والإبادة التي مازالت هناك تثير رعب الذاكرة.

السؤال يقفز وهو يكاد أن يلتهب نارا.. هل بدأت الحرب بين أذربيجان وأرمينيا حول إقليم (كاراباخ) بعد شهر أغسطس ١٩٩١؟.. أي عندما بدأت أذربيجان خطواتها الرسمية للأنفصال عن الاتحاد السوفيتي.. أم أن الأمر كان مدبرا قبل ذلك بكثير؟

المصادر الأذرية تؤكد أنهم كانوا ضحية لمؤامرة دولية، وإن الخطوات التي تمت للإيقاع بدولتهم كانت جزء من مخطط يشبه كثيرا ما حدث في فلسطين.. يقول المؤرخ الأذري غالي على الله ورديوف: (إنها ليست قضية الأرض وإن أخذت هذا الاسم، إنها نتيجة للتناقضات الروسية الإنجليزية، وأطماعهما ومعا في رجل أوربا التركي المريض، ولقد استغلنا معا وهم أرمينيا الكبرى – أي دولة أرمينيا من البحر إلى البحر – لأضعاف تركيا

العثمانية وإعادة تقسيم العالم في أواخر القرن التاسع عشر).. فطول عمر منطقة (كاراباخ) وهي تدار كولاية ذات حكم ذاتي داخل دولة أذربيجان، وهي منطقة غنية بالوديان والجبال والأنهار، ونظرا لهذا الطبيعة السخية استوطنتها القبائل التركية منذ بداية عهد الاستقرار.

وعندما تسيد الحكام المغول وسط آسيا كانت (كاراباخ) هي المقر الشتوي المفضل لحكامهم، وقد توالى على حكمها بعد ذلك العثمانيون ثم الإيرانيون حتى استولت عليها روسيا القيصرية في كل المنطقة.

وتقول المعلومات التاريخية أنه حتى ذلك الوقت – أي في عام ١٩١٣ – لم يكن يسكن في ألإقليم سوى ١٢ألف عائلة أرمينية فقط وكانت (كاراباخ) منطقة إسلامية أصيلة، ولكن روسيا سهلت هجرة الكثير من الأرمن من تركيا وإيران لإقامة نوع من السد الحي يفصل حدودها عن هاتين الدولتين.. والأرمن أنفسهم لا ينكرون حدوث هذه الهجرات، وتعترف المصادر الروسية بأنه قد حدث في هذه المنطقة تغيير مفتعل للتركيبة السكانية كان هدفه زرع الأرمن وطرد الأذريين المسلمين.. وقد بلغت المسألة ذروتها في عهد ستالين عندما قام بنفي أعداد كبيرة من الأذريين إلى أصقاع سيبريا الباردة، وأحل أقواما أخرى محلهم، الأمر الذي كان جزء منه عقابا جماعيا، وجزء منه رغبة السلطات السوفيتية في خلق تمازج سكاني لم يتحقق أبدًا.

إن أذربيجان ضحية موقعها في جنوب القوقاز، الكل تصارعوا على اقتسام كعكتها الحجرية، فقد قاسمتها روسيا وإيران من قبل في معاهدة جولستان عام ١٩١٣، وأصبح هناك حوالي ٩ملايين أذري تحت الحكم الإيراني حتى الآن.

الأكثر إثارة للدهشة أن دولة أرمينيا لم يكن لها قبل ذلك أي نوع من الوجود السياسي، ولم يتم تشكيلها إلى تحت إمرة الاتحاد السوفيتي.. ولكنهم منذ أن استوطنوا هذه المنطقة وارتفعت كثافتهم السكانية حتى بدأت النزاعات بينهم وبين الأذريين بغية تطهير الأرض منهم.

أبيدت قرى، وأحرقت مساكن، وقتل العديد في شوارع باكو نفسها رغم أن القوتين كانتا تحت ظل نفس الدولة.. لكن علينا أن نعترف بأن الأرمن كانوا أكثر تنظيما، وقد عقدوا المؤتمرات الموسعة من أجل الحصول على (كاراباخ) حتى قبل انهيار الاتحاد السوفيتي.

وقد ضمت الجاليات الأرمينية المهاجرة إلى كل بقاع العالم.. وكان أول هذه المؤتمرات في مدينة (لوزان) السويسرية في عام ١٩٨٥ – ولعل المصادفة تذكرنا بالمؤتمر الصهيوني الذي عقد في نفس المدينة من حوالي مائة عام – وأعلن الأرمن فيه بصراحة

(كراباخ.. لنا، نريد أرضنا). وبنيت الكنيسة الأرمنية هذا الشعار، ودعت الشباب الأرميني إلى القتال.

وبدأت في تشكيل التنظيمات العسكرية، فأعادت للحياة منظمات إرهابية قديمة مثل (الطاشاق) وتدفقت عليها الأموال والتبرعات من الجاليات الأرمنية في الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا وبعض الدول العربية أيضا!.. كانت كل النار كافة تحت أمواج بحر قزوين تنتظر لحظة هبوب العاصفة.

عندما حان الوقت وأطاحت العواصف الاتحاد السوفيتي، كانت أذربيجان ضائعة وارمينيا متأهبة، ويكفي دلالة على ذلك أن أذربيجان لم تصدر قرارها بتشكيل جيشها الوطني إلا بعد أن وقعت الكارثة وضاعت أراضي (كاراباخ) الجبلية كلها.. بينما أعدت أرمينيا جيشها بطريقة سرية وشارك في هذه العمليات مرتزقة من إيران ولبنان.

وفي مدة بسيطة فقدت أذربيجان ٢٠% من أراضيها التي تحتوي على أكثر من ١٦٢قرية وعشرات من المدن ومئات من الآثار والقصور التاريخية ومناجم الذهب والزئبق والرخام والجرافيت، وينابيع المياه المعدنية والمساجد والمعابد بالإضافة إلى آلاف القتلى.

معكسر اللاجئين

يبدو معسكر (بردا) أنه بلا نهاية، يضم أكثر من ٢٠٠ألف لاجئ، وهو من العديد من المعسكرات المنتشرة في هذه المنطقة.. فعدد اللاجئين يبلغ حسب التقديرات الأذرية حوالي مليون وسبعمائة ألف لاجئ يعيشون تحت ظروف بالغة السوء.. ولولا جهود بعض المنظمات الدولية والهيئات الخيرية الإسلامية لتحول الأمر إلى كارثة.

وكان السؤال وسيظل إلى متى سوف يطول انتظارهم؟ بينما أرمينيا ترفض التفاوض، هي بطبيعة الحال لن تتخلى عن أرض انتزعتها بالقوة، هل ستشعل الحرب من جديد، وهل أذربيجان قادرة على ذلك؟

ثمة مسئول أذري يقول في همس: (إن بعض الشركات الأمريكية قد اتفقت مع الحكومة الأذرية على استثمار مناجم الذهب في منطقة – كاراباخ– وهذا يعني إنهم معنيون بالوصول إلى حل لهذه المشكلة.

حتى أذربيجان تنتظر الحل الأمريكي الذي تنتظره المنطقة العربية منذ عشرات السنين، بالطبع لم يخطر في بال واحد أن نفس الشركات الأمريكية يمكن أن تقوم بالمناورة في الجانب الآخر.

لاشك أن ثمة مستقبل مرعب ينتظر هؤلاء اللاجئون، رغم أنه توجد بجانب المخيم أرض قفر خالية يشقها نهر صغير.. لا أحد يفكر أن يحمل فأسه وينهض لزراعة هذه الأرض التي تجاوره، بدلا من انتظار المعونة الضئيلة كل صباح.

والسؤال الأخير الذي ضاعت أجابته مع الأسى والجوع والألم، كيف يمكن للأرمن الذين لا يزيد عددهم عن ٣ملايين أن يهزموا أذربيجان التي يبلغ عددها أكثر من ٧ملايين نسمة؟

هل هي نظرية المؤامرة الدولية، أم ضلوع روسيا في القتال إلى جانب الأرمن؟ سؤال مثله يرن في المنطقة العربية العاجزة منذ خمسين عاما أمام إسرائيل والتي يبلغ تعدادها أيضا بالمصادفة ٣ ملايين نسمة.

لقد تدفق النفط من بحر قزوين، ولكن ماذا عن النيران الكامنة تحت الأمواج؟

وعودة إلى الحياة في أذربيجان.. وجولة في باكو

لنتوقف عند طرق العلاج القديم في مجتمع المعمرين، والذي توجد فيه مادة فريدة تسمى النفطلان، لا توجد إلا في أذربيجان، هو سائل يشبه النفط، ويستخدم في علاج عدد من الأمراض توصل إليه قديما في أذربيجان، وسجله الشاعر نطافي في أحد قصائده.. أقيمت في مكان استخراجه مدينة كاملة تضم مصحة ومركزا علاجيا، وقد توصل العلماء إلى استخراج مجموعة من العقاقير من هذه المادة تعالج أمراض المفاصل والحروق.

وكانت في إحدى حدائق باكو مصحة تعالج الكثير من الأمراض بطريقة فريدة عن طريق استنشاق رحيق أنواع خاصة من النبات، وتتكون المصحة من وحدة صغيرة من الزجاج، يأتي إليها المرضى، ويتحلقون حول نبات له رائحة نفاذه، ويقضون مدة محددة كل يوم.

هذا النبات الذي يستخدم في العلاج، يعالج ببعض الأدوية مثل الإسبرين والجلوكوز والمياه المعدنية لتخلصه من الضار ويبقى المفيد، ويصبح مناسبا للعلاج، أما الرائحة التي يستنشقها المريض فهي تؤثر في مراكز بعض خلايا مخ الإنسان مما يؤدي إلى شفائه.. وقد ثبت نجاح هذا العلاج في أمراض اضطرابات القلب، وانسداد الشرايين والربو وأمراض القصبة الهوائية، وبعض الأمراض العصبية كما يقولون هم هناك.

ولا شك أن هذا النوع من العلاج هو امتداد لطب ابن سينا، كما أن هذه الوحدة تقود الذكرى إلى مدرسة الطب التي أقيمت في شماخة بأذربيجان في القرن الثاني عشر، والتي

أقامها كافي الدين عمر بن عثمان والذي درس الخواص العلاجية للنبات، ووضع دراسات تصف وتحدد الاستخدامات العلاجية للأعشاب.. وتواصلت هذه المحاولات حتى القرن الرابع عشر في جامعة دار الشماء التي كان يتلقى العلم فيها بضع مئات من الطلاب، والتي خلقت مكتبة تضم ما يزيد عن ٥٠ ألف مخطوط لم يكشف عن كل أسرارها بعد.

وبالطبع لم يكن هذا غريبا، فقد أمدت منطقة آسيا الوسطى عالم الإسلام على مدى التاريخ بأهم مفكريه وفلاسفته وعلمائه ومؤرخيه.

صهيل الخيول

هناك عند المدينة القديمة، يتم الخروج اضطرارًا من العصر الذي نعيشه، للدخول في مشاهد وصور الماضي، حتى تكاد تسمع صهيل الخيول وقعقعة السيوف.

تحمل المدينة القديمة بصمات عاصمة الرشيد في مواجهة المسجد والقلعة والأسوار والمدرسة والحمامات التي أقامها الشاه إسماعيل.. يرجع تاريخ ما تبقى من آثارها إلى القرن الخامس عشر، عندما انتقلت العاصمة إلى شيروان (باكو الحالية)؛ حيث منارات المساجد وقصر آل شروان شاه وبرج العذراء وخان القوافل، وخان الديوان، والأزقة العتيقة التي يستطيع سكانها أن يصافحوا جيرانهم بالأيدي من الشرفات المزينة بالمشربيات الشرقية.

أما خان الديوان الذي كان مقرا للحكومة، فهو كشف أثري لم تعرف كل أسراره بعد ويشمل المحكمة التي يصدر منها القاضي أحكامه، ويضم ضريح عالم الرياضيات والفلك الشهير سعيد يحيي باكو في والذي كان معلم الشاه، معا يعكس القدر الكبير الذي كان يتمتع به علماء ذلك الزمان، ثم هناك حمام تركي للنساء كان مطمورا تحت الأرض وتم اكتشافه عام ١٩٣٨.. كما عثر مؤخرا تحت مياه بحر قزوين على مجموعة حجرية وعليها كتابات عربية.. ومازال الأثريون يبحثون عن سر فخامة السجن القائم تحت سدنه المحكمة، المشهد يعبر بمنارته وقبته وعمارته إلى لوحة مثيرة تتزاحم فيها جحافل الفاتحين وقوافل البنائين وحلقات الفقهاء والعلماء.

تلوح بقايا سور المدينة، ومن فوقه مبان قديمة، وأثار الشيخوخة على السور الذي انهارت أكثر أجزائه، ولم يفلت من عبث الصغار الذين يتقافزون فوقه غير مدركين أنهم فوق جزء من التاريخ.

وهناك حيث (قرمان شاه) أحد المطاعم والذي كان خانا للقوافل، مازال قائما ويتكون من غرف وبواك تركت على حالها، وتسمع فيها الموسيقى الشرقية، وأغاني أم كلثوم

المعروفة هناك على نطاق واسع، والحان ناظم الغزالي، والأغاني الأذربيجانية – رغم عدم إدراك كلماتها.

كما أن هناك متحفا للسجاد الأذربيجاني، المتحف كان واحد من أجمل المساجد، وهو ضمن المساجد التي تحولت إلى متاحف.. وقد استخدمت فيه كل أدوات الفن من زخارف نباتية وهندسية وحروف عربية وآيات من القرآن الكريم، يتسمر السياح الأجانب أمامها مذهولين.

طرز المسجد هو ذات طرز المدرسة المستنصرية في بغداد ومسجد السلطان حسن في القاهرة ويتكون من جدران حجرية ملساء حتى قاعدة السقف، تنعقد عليها الحواش الأفقية المتدلية، والنوافذ التي تقوم على المحاريب، ولابد من انبهار عند النظر لباب أو نافذة وتغطي المساحة المواجهة تكوينات رقيقة شبيهة بتكوينات الأرابيسك التي نحتت في الحجر، في لوحات صامتة تسجل عظمة الحضارة التي أبدعتها، الفن العظيم بالضرورة نتاج طبيعي لحضارة عظيمة يشكل هذا الفن إحدى عرباتها.

لقد نقل هذا الطراز من العراق ليحتفظ به في أذربيجان في الشمال، ونقل إلى مصر في الجنوب والقائم في جامع السلطان حسن.

أما السجاد المعروض فإن ألوانه ألحان شرقية بديعة، ويكشف بوضوح وجدان الأهالي في أذربيجان، وتلمس فيه مرة أخرى التأثيرات العربية والفارسية والتركية.. وتسجل رسوم السجاد ذات الألوان، والقصائد الخمس للشاعر نظامي الذي ظهر في القرن الثاني عشر والتي من بينها مجنون ليلى.

الرسم بالكلمات

لا بد من زيارة معهد المخطوطات في باكو؛ حيث التجول بين ما يزيد عن ١٥ألف مخطوط من أهم ما خلفته الحضارة الإسلامية، معظم هذه المخطوطات باللغتين العربية والفارسية، وكتبت عندما كانت العربية والفارسية لغتين العلوم والثقافة.

هناك وبكل الوضوح يبدو الجهد الخارق والصبر الذي كان يتحلى به الوراقون الذين نسجوا هذه الكنوز العلمية والفنية والمحلاة بالرسوم والألوان، وببديع الخط العربي.. والفضل بالطبع يعود إلى عدد من الباحثين والعلماء الذين يجيدون اللغات العربية والفارسية والعاكفين على تحقيق هذه المخطوطات ودراستها، بعد أن شهدت هذه المناطق الأسيوية انتعاش معاهد الاستشراق، مع العمل على تحقيق ونشر القيم من هذه المخطوطات، أنهم يعطون الأهمية

الأولى لتلك المخطوطات العلمية في الفلك والرياضة والطب وبعدها تلك الكتابات التي تتناول الجانب الأدبي والقومي لتلك المناطق، ولا يعطون نفس الاهتمام لما يحفل به معهد المخطوطات من مؤلفات تتناول الجوانب الفقهية والصوفية الإسلامية.

وتعامل المخطوطات بعناية فائقة، لا تلقاها في العديد من الأقطار العربية، وتم نشر العديد منها، كما تم نشر العديد من مخطوطات الفارابي بمناسبة الاحتفال بالذكرى المائة بعد الألف لميلاده، وعدد من مؤلفات البيروني وابن سينا بمناسبة الذكرى الألف لميلادهما، وبعض مؤلفات الخوارزمي بمناسبة ذكرى ميلاده المائتين بعد الألف.

وبعض الأعمال التي تم نشرها ترجمت إلى اللغتين الروسية والمحلية، وقليل منها نشرت باللغة العربية.. ويلمس في أسلوب انتقاء بعض المخطوطات العمل على إشعال جذوة الروح القومية المحلية.. ويمكن ملاحظة ذلك من تقسيم تركستان إلى خمس جمهوريات من عائلات مختلفة للترك، ويعملون على جعل تاريخ قومي خاص لكل منهما، يتغنى الشعب بإبطاله، يصاحب ذلك إحياء الفلكلور الشعبي لكل جمهورية، وإن كانوا في آسيا الوسطى يتعاملون مع الظاهرة القومية، فهم يتبعون منهجا مختلفا مع منهج اليهود الذين يتمتعون دون سواهم بإقليم للحكم الذاتي على أساس ديني، لا قومي، بمنطقة أذربيجان في الشمال!

جمهوريات وأقاليم شمال القوقاز

المعلومات قليلة، والمصادر نادرة والبحث عن تاريخ وطبيعة هذه الأقاليم تستلزم جهدا فائقا وتنقيبا دؤوبا لا يعرف الكلل ولا يذق الملل. إن تلك البقعة وباختصار معيب تتكون من:

جمهورية جورجيا (وبها الإنجلز المسلمون ٩% من سكانه والأجار المسلمون ٤٢% من سكان).

جمهورية ناجيتشيفان ويكون المسلمون ٩٦% من مجموع سكانها

جمهورية داعستان ويكون المسلمون ٨٥% من مجموع سكانها

جمهورية الشيشان ويكون المسلمون ٦٥% من مجموع سكانها

إقليم (قايرديا والبلكايا) ويكون المسلمون ٥٥% من مجموع سكانها

إقليم (قرطشاي – شركانيا) ويكون المسلمون ٥٠% من سكانه

إقليم الفولجا وأورال، جمهورية تتاريا (في شبه جزيرة القرن).

وجميعها تتبع جمهورية روسيا الاتحادية. وتتمتع بالحكم الذاتي.

وهناك في بلاد القوقاز قليلون أولئك الذين لا يلبسون أسنانهم الطبيعية بالذهب والفضة.. وخصوصًا في القوقاز الشمالي.

فهل هو الغنى والثراء، أم هي العادات والتقاليد وراء ظاهرة الأسنان المكسوة بالذهب والفضة عند نساء القوقاز ورجالها على حد سواء.

لا هذا، ولا تلك، فوراء الظاهرة الإنسانية ظاهرة أخرى طبيعية، تتمثل بغنى المنطقة بالينابيع المعدنية، وقلة مادة الكلور الضرورية للأسنان في مياه الشرب.. ولأن الأمر كذلك فإن الأسنان سريعا ما تتآكل، لذلك فإنهم يكسونها بالذهب والفضة.

ومع ذلك أعلى معدلات الأعمار قد سجلت في المنطقة، أو أن متوسط عمر الإنسان هناك يقارب خمسا وسبعين سنة، وتجاوز أعمار نسبة كبيرة من السكان المائة سنة.

هذا جانب

أما الجانب الآخر من الصورة في بلاد القوقاز فيشرحها القوقازي حين تسأله عن بلاده فيجب: (إنها بلاد الجبال العالية، البلاد التي كتب عنها تولستوي وبوشكين وليرمنتوف).

ويبرز سؤال: لماذا يكتب هؤلاء الأدباء البارزون في الأدب الروسي والأدب العالمي عن هذه البلاد التي أغرقتها القيصرية الروسية بالجهل واستنزفت خيراتها؟

القوقاز الشاشانيون والأنغوش يقولوا ذلك، ويضيفون (أن القمم العالية وشواطئ نهر تيرك) قد تركت بصماتها على أدب هؤلاء الكتاب فجاءت طبيعتنا وطبيعة شعبنا مسجلة أدق تسجيل في أدب هؤلاء الكتاب الكبار)!

والداغستانيون يقولون ذلك أيضا وكذلك البلكار والكباردين والأوسيست والشركس وهم شعوب قوقازية، فما الذي دفع بهؤلاء المشهورين إلى العين في تلك البلاد.. في مرحلة شهدت فيها ثورات وثورات عديدة (بداية القرن التاسع عشر)؟

لقد كانت منطقة جبال القوقاز تعتبر من جنوب روسيا القيصرية، بعد أن انتزعتها من الأتراك العثمانيين، ومن ملوك الفرس،وبعد أن قضت على بعض الإمارات المحلية التي كانت قائمة آنذاك.

وفي منتصف القرن التاسع عشر وصل الروسي إلى ذروته في السيطرة على المناطق الجنوبية، ومن ثم سيطر الروسي سيطرة كاملة على تلك المناطق، وتم انتزاعها من أيدي الدول الأخرى، والإمارات المحلية.

أن تخليد تلك المنطقة في نتاج الكتاب المشار إليهم يعود إلى سبب قهري، تمثل في نفي بوشكين سنة ١٨٢٠م إلى تلك المنطقة.. ثم نفى برمنتوف سنة ١٨٣٧م إليها أيضا، ويذكر أنه عاش سنوات قليلة من صباه فيها أيضًا، ويعتبر هذا النفي هينا إذا ما قيس بالنفي إلى سيبريا.

ولقد جاء هذا النفي بسبب انتقاد الشاعرين للأوضاع التي كانت قائمة آنذاك، والتحريض على مساوئ النظام القيصري ومبادئه وظلمه الذي وزعه على الشعوب التي خضعت له.

أما تولستوي فإنه كان من النبلاء الإقطاعيين، جذبه الجيش فعين فيه ملازما، واشترك في الحرب التي كانت دائرة في القوقاز وأقصى هناك من سنة ١٨٥١ إلى سنة ١٨٥٥.

هذه البلاد ومنذ البداية نعرفها وتعرفنا منذ مئات السنين، فخيول الفتح وصلتها منذ السنوات الأولى للدعوى الإسلامية، وحصل الامتزاج وامتد الناس من هنا وهناك، ومن هناك إلى هنا، وتشابكت حروف اللغة والأسماء، وأصبحت أجزاء من عالم كبير موحد مترامي الأطراف، تجمعه الوحدة الثقافية المشتركة، ذلك هو العالم الإسلامي.. أما تلك البلاد فهي بلاد شمال القوقاز.. فما هي حكاية (فسيفساء) اللغات والناس فيها.

الطبيعة الغربية في شمال القوقاز تلفت النظر، تلال من الرمال تكونت وتكومت وراء الجبال المنخفضة وأسباب الظاهرة رمال قذفت بها العواصف والأعاصير والرياح من شاطئ بحر قزوين، وساقتها إلى ما وراء التلال، فتكونت منها تلال رمل صفراء خلف المرتفعات الجبلية التي تراها.. حتى الطبيعة هنا فعلت ما فعلته عواصف الشعوب الغازية التي كانت تهب على المنطقة فتذرى ناس هذا المكان وتفرقهم أشتاتًا.

محاولة تفسير

هل هي محاولة تفسير وجود عشرات اللغات وعشرات الشعوب المتوطنة في بلاد القوقاز.

إن ذلك دون شك صحيح، فقد ذكر المؤرخ اليوناني بليني في القرن الأول الميلادي أن ١٣٠ لغة كانت موجودة في بلاد القوقاز.

وذكر ابن الفقيه المؤرخ العربي أن في بلاد القوقاز حوالي ٧٢ لسانًا لا يعرف كل إنسان لغة صاحبه الابترجمان.

في المصادر التاريخية

القوقاز، أو القفقاس.. هكذا يسميها بعض سكانها الآن، وتسميها بعض المصادر جبال القوقاز أيضا، إلا أن المصادر العربية وبخاصة (ياقوت الحموي) في معجم البلدان يطلق اسم (القبق) على تلك الجبال، وقد جاء في تعريفه: (قبق): بفتح أوله: وسكون ثانية، وآخره أيضا قاف، كلمة أعجمية وهو جبل متصل بباب الأبواب، بلاد اللان، وهو آخر حدود أرمينية.

وقال الشاعر البحتري عنها:

مغلق بابه، على جبال القبق

إلى دارتي خلاط ومكس

حلل لم تكن كأطلال سعدى

في قفار من البسابس فلس

وتعد جبال القوقاز حدا فاصلا بين آسيا وأوربا، فما يقع منها إلى الشمال يدخل ضمن أوربا، وما يقع جنوبًا يدخل ضمن آسيا، وتمتد هذه الجبال بين البحر الأسود وبحر قزوين، ويصل أعلى ارتفاع فيها إلى حوالي ٥٦٣٧ مترا في جبال البروز.

وفي جنوب الجبال جمهوريتان تم استقلالهما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي هما جورجيا وأرمينيا.. وفي الشرق جمهورية أذربيجان.. أما في شمال هذه الجبال فإن مناطقها تشمل عدة جمهوريات ذات حكم ذاتي هي: داغستان وشاشان وأنغوشيا، وكباردينا – بلكاريا وأوسيتا الشمالية، وولاية قرتشاي الشركسية وولاية الاديجا.. وكلها في الاتحاد السوفيتي الآن.

أسماء قديمة لمناطق في الجبال

وقد جاء في دائرة معارف القرن العشرين – المجلد السابع – عن بلاد القوقاز: (القوقاز مأهول بأقوام مختلفي الأجناس، منهم أقوام يسكنون الجبال وهم الجركس في جهة الشمال من تلك الجبال، وقوم يقال لهم الليوغيس والتشيتشين والجورجيان والأوسيت، والأقوام الذين يسكنون الجهات المجاورة لجبال القوقاز وهم من الروس والترك والكالموك والكرد والأرمن).

وتفيد بعض المصادر التاريخية بأن سكان شمال القوقاز ينتمون في أصولهم إلى قبائل الشركس، وهذا الأمر يختلف عليه المؤرخون والباحثون حتى الآن.

كما جاء في دائرة المعارف الإسلامية – المجلد السادس: (الجركس: اسم عام يطلق على الأقوام التي كانت تسكن فيما مضى القسم الشمالي الغربي من القوقاز، وقسما من الشاطئ الشرقي للبحر الأسود، ولم يبق من هذه القبائل التي كانت أكثر عددا قبل الاحتلال الروسي لهذه المنطقة إلا بقايا لا يعتد بها، إذ هاجر أغلبها إلى تركيا).

ضحية موقع

وحقيقة هجرة بعض هذه القبائل هي حقيقة مؤكدة في التاريخ، إذ أن الكثير من الشركس أو الجركس ذكروا في تاريخ الدويلات التي قامت على أنقاض الدولة العباسية، ومنهم الجراكسة الذين حكموا باسم دولة المماليك في مصر بعد سقوط دولة الأيوبيين، وبعضهم ذكر في تاريخ الدولة العثمانية وتهجيرهم إليها، ويعود سبب ذلك إلى أن بلادهم تقع بين دولة قرية متنازعة وطامعة كروسيا القيصرية، والإمبراطورية العثمانية والدولة الفارسية، مما حتم عليهم دفع ثمن الحروب التي كانت تقوم بين هذه الإمبراطوريات، وقد كانوا في بعض الأحيان يناصرون هذا الطرف على ذلك، أو يشقون عصا الطاعة على الدولة الحاكمة، مما جعل هجراتهم تتوالى مناطق الدولة العثمانية، فتوطن بعضهم في تركيا الحديثة، وآخرون وصلوا إلى بلاد الشام، والعراق وغيرها.

وكانت أكبر تلك الهجرات هي هجرة سنة ١٧٦٤م، ويحمل بعض الشركس الدولة العثمانية المسئولية عن نكبتهم لسياستها في تهجيرهم من مواطنهم الأولى إلى أماكن أخرى ليكونوا حاجزًا أمام روسيا القيصرية.

كما أن بقية العناصر المحسوبة في بعض المصادر على الشركس كالشيشان، والداغستانيين، أصابها أيضا بعض ما أصاب الشركس من تهجير، وخاصة من قياصرة الروس وأكاسرة الفرس، وسلاطين العثمانيين.

كانت هناك لغة واحدة

إن الاكتشافات في تلك المناطق تشير إلى أنه في قديم الزمان دون الوقوف عند أية مرحلة كانت هناك لغة واحدة للشعب القوقازي، ثم حصل الافتراق، ولا يعرف – حتى الآن – متى تم ذلك.. ولكنه يمكن القول بأنه يوجد في القوقاز حوالي ٥٠ لغة تعود – في جذورها – إلى جذور واحد، إضافة إلى أن أية لغة من تلك اللغات لا نجدها نقية تماما.. بل نجدها فيها تأثيرات تركية، وإيرانية، وعربية، وتترية، وروسية..إلخ

ويمكن القول أن ثمة قرابة بين لغاتهم وبين اللغة التركية.

جورجيا

كان حاضرًا في المناقشات، في الساحات والميادين، كان حاضرًا في السياسة كما كان حاضرًا في الاقتصاد والمعمار والاجتماع.

كان حاضرًا في الماضي، كما هو الحاضر وربما المستقبل أيضًا.

لقد كان رجل الاتحاد السوفيتي الأول لما يزيد على ربع قرن.. وفي المرحلة الخطيرة التي تلت الحرب العالمية الأولى وتجاوزت الثانية تم ترسيخ أركان الدولة الاشتراكية الأولى.. على الرغم من جميع المواجهات والمؤامرات والحروب الداخلية والخارجية. وعلى الرغم من كل الخطايا والأخطاء الكثيرة والكبيرة.. أنه ستالين..

وستالين ابن جورجيا، هذه البلاد الجبلية القفقاسية التي تقع في جنوب روسيا.. تنصب عليه الآن ومنذ منتصف الخمسينيات لعنات كثيرة، ولم تترك فيه أجهزة الإعلام والأفراد نقيصة إلا وذكرتها.. ومع ذلك كانت صورة تلصق في سيارات كثيرة في تبيليسي – عاصمة جورجيا – بل كان له تمثالا منحوتا على واجهة مدرسة كانت مخصصة للكوادر الحزبية في أهم شوارع العاصمة المرسومة بالزيت وهو يرتدي الزي العسكري موضوعة على بوابة محطة القطارات في مدينة غورى التي ولد فيها، والتي تبعد عن تبيليسي مائة كيلو متر.. هذا بجانب أن أجمل المباني وأضخمها في كثير من مدن الاتحاد السوفيتي، قد بنيت في عهده، وبصماته مازالت واضحة عليها.

على السفوح الغربية من جبال القفقاس – القوقاز أو القبق كما سماها العرب قديما – تقع جمهورية جورجيا التي سماها العرب قديما بلاد (الكرج) أو (كرجستان).. يحدها من الشمال والشمال الشرقي جمهوريات ومناطق ذات حكم ذاتي، تابعة لجمهورية روسيا الاتحادية، ومن الجنوب الشرقي جمهورية أذربيجان ومن الجنوب جمهورية أرمينيا والجمهورية التركية.. أما من ناحية الغرب فإن حدودها تقع على البحر الأسود.. مساحتها حوالي ٧٠,٠٠٠ ألف كيلومتر مربع ٨٠% من هذه المساحة جبال، وأعلى قمة في هذه الجبال هو قمة جبل (شخارا) القوقازية، ويصل ارتفاعها إلى ٥٠٦٨ مترا فوق سطح البحر، وأكثر من ثلث هذه المساحة مكسو بالغابات.

يصل عدد سكانها إلى حوالي ستة ملايين نسمة، نصفهم تقريبًا يعيشون في المدن وما يزيد على ٥٠% من دخلها يأتي بطريق الصناعة والبناء والنقل، وحوالي ٣٥% منه يأتي بطريق الزراعة، والباقي بطريق التجارة وغيرها من الخدمات.

عاصمتها مدينة تبليسي (تبيلسي باللغة الجورجية تعني المياه الدافئة) أو (تفليس) كما سماها العرب أبان أيام فتوحاتهم في القرن السابع الميلادي.. تم فتحها زمن الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٦٣٩م.

يعيش فيها الآن حوالي مليونين من السكان، وهي مدينة طولية، تقع في واد تحيطه الجبال والتلال من جهات عديدة، وبمر بها نهر (كورا) وهو في طريقه نحو مصبه في بحر قزوين.

وجورجيا كغيرها من بلاد القفقاس كانت ضحية موقعها المهم الإستراتيجي، لأنه يمثل بوابة لآسيا على أوروبا والعكس.. لذلك فإن الدولة الأقوى في العالم القديم وفي عالم القرون الوسطى كانت تستولي على جورجيا وما عداها من مساحات في القفقاس، كي تنفذ إلى الجهات الأوروبية أو إلى الجهات الأسيوية.. هكذا كان وضعها زمن الممالك القديمة من يونان ورومان وبيزنطيين وعرب وفرس ومغول وتتار وأتراك وسلاجقة أتراك وغيرهم.

تارة تخضع لهذه القوة أو لتلك، أو تقوم فيها إمارات ودويلات مستقلة عندما تقع الواقعة بين القوة الكبرى، إلى أن أخذ الروس بالتمدد جنوبا محاولين الوصول إلى المياه الدافئة.. كانت جورجيا في تلك الفترة واقعة بين ناري الأتراك والفرس.

وكي تتخلص من هذه النار، خاصة أن الجورجيين كانوا مسيحيين أرثوذكس، في حين أن الفرس والأتراك مسلمون.. لذلك قرر الملك هيركلي الثاني ملك جورجيا الشرقية الالتحاق بالروس.. فالتقت المصالح، وعرض الجورجيون إقامة معاهدة تحالف بينهم وبين الروس.. وقد عقدت المعاهدة سنة ١٨٧٣ بين جورجيا وروسيا.

ثم ألغيت هذه المعاهدة، وتم الاحتلال الكامل لكل جورجيا، من قبل الروس في بداية سنة ١٨٠١.. وحقق الروس حلمهم بالوصول إلى المياه الدافئة – البحر الأسود وبحر قزوين – في تلك المرحلة.

ومنذ ذلك التاريخ لم تحتلها أي قوة خارجية غير الروس إلا في سنة ١٩١٨ عندما قامت فيها حكومة محلية معادية للسوفيت بمساعدة الإنجليز واستمرت حتى سنة ١٩٢١ حيث أعيدت السلطة السوفيتية، وتم الإعلان عن قيام جمهورية جورجيا اتحادية كجزء من الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٣٦.

تفليس الأسطورة

تنسب الأسطورة نشأة مدينة (تفليس) – الاسم القديم لتبيليس – للملك فختانج جورجيا سالي المشهور الذي حكم جورجيا في النصف الأخير من القرن الخامس الميلاد. ويرتبط اسمها فيما يرويه الناس بالينابيع الكبريتية الساخنة التي لا تزال هناك. حيث كان المقطع الأول وهو (تفلي) يعني بلغة أهل جورجيا (ساخن).

وينسب مؤرخو جورجيا القلعة التي تقع في قلب المدينة الحالية والتي بنيت خلال النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي إلى الملك فارازبكر، فقد أقامها لحماية عاصمة متسخيتا.

ولعبت تبيليس دورا بارزا في صراع ملوك جورجيا من أجل توحيد بلدهم منهم بداية القرن التاسع.

وأخيرا توصل الملك داود إلى توحيد مملكة جورجيا ومن السلطان التركي عام ١١٢٢ والاستيلاء على تبيليس بعد ذلك بسنة واحدة، ونقل إليها عاصمة من قطايزى.

وبرزت المدينة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، واتسعت كثيرا حتى زحفت على شاطئ نهر كورا.. مع إنها خربت وأحرقت مرتين في مطلع القرن الثالث عشر. وكانت أول مرة سنة ١٢٢٦م على يد السلطان خوريزم شاه جلال الدين، والمرة الثانية سنة ١٢٣٥ على يد المغول، ومع ذلك فقد نهضت من جديد خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر كما يؤكد ذلك ماركو بولو الرحالة المعروف.

وتغير مظهر تبيليس وازدادت رقعتها، وأقيم ميدان كبير خلف حائط القلعة الغربي أطلق عليه ميدان (لينين)، وخرج من هذا الميدان شارع جديد كبير أطلق عليه (رست ها فيلي) أخذ يمتد تدريجيا مخترقا المدينة الحديثة. ومع ذلك ظلت تبيليس ترتدي ملامح المدينة الشرقية، كما وصفها الشاعر الروسي بوشكين.

وشهد القرن التاسع عشر إنشاء أحياء جديدة، وشق شوارع مستقيمة ومتقاطعة، وإقامة ميدان رئيسي.

تمت كل هذه الإصلاحات وتركت المشكلة الرئيسية دون حل، وهي مشكلة زيادة السكان وضرورة تزويدهم بالسكن والخدمات مما أضطر المسئولين عن الحكم المحلي في جورجيا إلى إهمال المناطق والأحياء التي تتركز فيها الجماهير، علما أن السكان كان تعدادهم ٦٧,٠٠٠ سنة ١٨٦٥ وصار ١٦٠,٠٠٠ سنة ١٨٩٧ (جريدة الشرق – أكتوبر ١٩٦٠).

مدينة شرقية

حتى على متن الطائرة يمكن من النافذة رؤية المدينة القديمة في تبليسي، وتتضح أكثر عن السير في أزقتها المرصوفة ببلاط البازلت أو الصوان الأبيض وكذلك مبانيها وطرقاتها.

القرميد الأحمر يغطي المباني، وشرفات واسعة تطل على جانبي البيت، فيها نقوش وتخريمات وتوريقات شناشيل شرقية الطابع، تعتمد على الأشكال الهندسية المعروفة، بعض النوافذ مقببة بالجص الأبيض، ومدهونة باللون الأزرق أو الأخضر أو الأصفر، أجزاء من ساور القلعة التي تحيط بالمدينة ثم ترميمها، وظهرت البيوت القديمة بمحاذاتها، للبيت ساحة داخلية، وفيه حديقة تصعد إلى طوباقه بواسطة سلم خشبي أو حجري، تتوالى فيه التشكيلات الفنية الهندسية المنحوتة على الخشب أو على الأحجار، قناديل قديمة تحتل زوايا بعض الطرق الضيقة، تخريمات ونقوش شرقية على بعض الأبواب.

هذا حمام تركي، وآخر حمام كبريتي (تشتهر تبليسي بحماماتها الكبيرة البيضاوية الشكل والدائرية) وذلك مسجد.. وتلك كنيسة مازالت تعمل وأخرى تحولت إلى متحف، وذلك مصنع ومعرض للمصنوعات الشعبية، وآخر مرسم أو مسرح للأطفال أو بيت للدمى، وغيره مقهى، أو مطعم، أو بيت رفض سكانه مغادرته بعد أن ورثوه أبا عن جد، فتم تجديده مع الاحتفاظ بطابعه القديم.. وذاك فندق أو خان قديم، وهذه ساحات ملأى بالتماثيل، فيها مجموعات ترقص، ورجل بملابسه الجورجية التقليدية يحتل زاوية أحد الشوارع، وكأي مدينة شرقية حقيقية، الطرق ضيقة والشرفات تقاربه، يكاد بعضها أن يلتصق ببعض.

القديم الجميل

لقد كان في الحفاظ على المدينة القديمة، وإنقاذها من براثن التجويد والتدمير قصة طويلة، أن مدينة تبليسي نمت نموا متسارعا، فقد كان عدد سكانها سنة ١٩٣٩ حوالي نصف مليون نسمة، وكان يمكن للمدينة القديمة وقتها أن تستوعب هذا العدد، لكن مع ازدياد السكان حتى وصل مجمل أعدادهم سنة ١٩٧٩ إلى حوالي مليون نسمة، ثم قفز العدد في هذه الأيام إلى ما يقرب المليونين.

وقد شهدت المدينة في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية نموا متسارعا في قطاع الصناعة، وبناء المؤسسات، فتطلب ذلك نموا في عدد السكان، وبالطبع كان لا بد من إقامة بيوت للأعداد الجديدة الغفيرة، لذا حدث التمدد خارج الهرم والقدم وأخذ ينهار مع الاعتبار أن بعض المباني والكنائس يعود تاريخ بنائها إلى القرن الخامس الميلادي.

ويمكن القول بأن البيوت قد تم تجديدها حسب ما كانت عليه قديما، ومع ذلك فإن بعض السكان يميل إلى العصرنة، فأخذ يجدد على هواه.. وخوفا على المدينة أن تفقد طابعها الجورجي أتخذ قرار من قبل اللجنة المركزي للحزب الشيوعي الجورجي، ومجلس الوزراء فيها سنة ١٩٧٥ بالمحافظة على طابع المدينة القديمة بعد الترميم والتصليح، وعاد للمدينة القديمة طابعها المميز.

وقد تم الاحتفال بيوم صدور القرار (الأحد الأخير من شهر أكتوبر) واعتبر عيدا قوميا للمدينة، تقام فيه الاحتفالات والرقص الشعبي، خصوصا بعد جني محصول العنب، ويرتدي الناس الملابس القومية المميزة، وتعرض المسرحيات والتمثيليات المناسبة.

إن ما هو موجود في تبيلسي في مبان قديمة، وحتى المباني الحديث مثل دار الأوبرا أو دار البلدية، ما هو إلا نتاج تفاعل جورجيا مع الحضارة الإسلامية (العرب، الأتراك، والفرس وغيرهم) تعد تراثا قوميا خالصا كما توجد تأثيرات (كلاسيكية)، روسية وأوروبية (الباروك والروكوكو) وتأثيرات عصرية حديثة.

المدينة مليئة بالمنحوتات الملونة، المنفذة بالسيراميك التي تمثل نشاطات العمل أو التي تمثل أشخاصا، فتجد أن مستواها متقدم دقيق، وإنها تضفي جمالا أخاذا على محيطها وكذلك هي وكثير من المدن في آسيا الوسطى.

التلال والجبال المغطاة بأشجار الغابة تحيط بالمدينة، تمددات البناء فيها تتجه نحو المساحات الفارغة طوليا في غرب المدينة.. وهناك في الساحة الرئيسية للمدينة التي كانت (ساحة لينين)، يقع على اليسار تمثال الأم الجورجية التي تقع في نهاية طريق الكومسمول في الناحية الجنوبية الشرقية، بالقرب من (نارا قلعة) أي قلعة نارا القديمة التي تم ترميمها.

طول التمثال يزيد على عشرة أمتار، وقد صنع من الألمونيوم الأبيض، تلبس المرأة الملابس الجورجية التقليدية الفضفاضة، وتحمل بيدها سيفا لمواجهة من يريد شرا بالمدينة، وفي اليد الأخرى ترفع كأسا من الشراب لمن أتى المدينة قاصدا الخير والصداقة.

في منتصف الطريق الصاعد بالمركبات التي تسير على سلك كهربائية توجد كنيسة سانت ديفيد التي بنيت عام ١٨٥٥، وقد تحولت المساحة التي تحيط بها إلى مقبرة للفنانين والكتاب المبدعين الجورجيين، وعلى كل قبر وضع نصب كتب عليه اسم المتوفى ودوره والغريب أن من بين تلك الأنصاب واحدا خاصات بوالدة ستالين، منحوتا من رخام أسود وأبيض (الأسود للحزن والأبيض يمثل الخلود).. وقد كتب على هذا النصب، كاترينا جوكا شغيلي (١٨٥٦ – ١٩٣٧).

وحتى في شهر أغسطس المطر لا ينقطع، مع أن درجة الحرارة لم تكن تزيد قبل المطر عن ٣٢°م ويصل معدل الرطوبة إلى حوالي ١٠٠%، حتى أن الشجر كان ينتج الماء وينقطه على رؤوس المارة، وقد انخفضت درجة الحرارة بعد نزول المطر إلى ٢٨°م. مع بقاء ارتفاع الرطوبة.

جغرافيا جورجيا

توجد ثلاث مناطق تتبع جورجيا هي:

جمهورية ابخازيا (عاصمتها سوخرمي) وهي تطالب بالانضمام لموسكو.

جمهورية أجاريا (أغلب السكان مسلمون – مساحتها ٣ آلاف كم^{2}، عدد سكانها حوالي مليون نسمة – عاصمتها باطومي، وهي من أشهر موانئ البحر الأسود).

جمهورية أوسيتا الجنوبية

تصل نسبة الجورجيين في الجمهورية كلها إلى حوالي ٦٩% من السكان: في حين أن الأرمن يصلون إلى ١٠%، ومثلهم الروس، يليهم الأذربيجانيون حيث أن نسبتهم تصل إلى حوالي ٧%.. وهناك أقليات أخرى مثل اليونانيين والأكراد والآشوريين وغيرهم.

وأهم المواد الخام في الجمهورية المنجنيز، والفحم الحجري، والحديد، والتنجستين، والتوتياء.. وغيرها.

وتعد ثروة المياه والغابات من أشهر ثرواتها.

وأهم الصناعات هي قاطرات السكك الحديدية، وأن إنتاج ٣٠% من قاطرات الاتحاد السوفيتي كله – عام ١٩٨٨ – يتم في جمهورية جورجيا.. كما تصنع فيها الماكينات والحاصلات الزراعية، وتصنع فيها حتى الطائرات، وصناعة الالكترونيات، كما أن ٩٤% من إنتاج الشاي في الاتحاد السوفيتي (عام ١٩٨٨) كان من إنتاج جورجيا.. هذا عدا إنتاج المشروبات الكحولية.

التعليم الثانوي في جورجيا إجباري، وتوجد جامعتان الأولى في تبيليسي وقد تأسست عام ١٩١٨ والثانية في سوخومي (عاصمة أبخازيا) وقد تأسست سنة ١٩٧٨.

كما يوجد ١٩كلية للتعليم العالي، وكليتان تقنيتان، وكليتان للزراعة، ومدارس عليا للمعلمين، وأكاديمية للفنون، وأكاديمية للعلوم.. وغير ذلك.

والطبع فإن تجمع العديد من القوميات والشعوب الصغيرة في بلاد القفقاس كان لا بد أن يخلق لجورجيا مشكلة قومية تسمى (أبخازيا) ما تشبه مشكلة (كاراباخ) في أذربيجان، فقد قامت في جمهورية أبخازيا ذات الحكم الذاتي عام ١٩٧٨ حوادث تشبه الأحداث التي قامت في (كاراباخ).. هل كان العقل الديني أو القومي هو الذي حرك الأحداث؟

كان هذا هو السؤال، أما الجواب فكان:

يصل عدد السكان الأبخازيون الأصليون إلى حوالي ٢٩% من عدد سكان الجمهورية (مساحة الجمهورية ٨,٦٠٠ك^{٢} ويتجاوز سكانها نصف مليون نسمة – ١٩٨٨– وتقع في شمال غرب جورجيا وعاصمتها سوخومي التي تعد من أهم موانئ البحر الأسود).

ويوجد بينهم مسلمون ومسيحيون (الأغلبية من المسيحيين أرثوذكس مثل أغلبية سكان جورجيا وروسيا، أما بقية السكان فهم جورجيون وروس وأرمن وغيرهم.

وقد قامت أحداث في الجمهورية عام ١٩٧٨ وتمت خلالها المطالبة بإلحاق أبخازيا بموسكو مباشرة وليس عبر جورجيا، وجاء الطلب وقتها عبر المتظاهرين وليس طلبا رسميا من السوفيت المحلي (ممثلي الشعب المحليين).

وكما قالوا هناك أيامها تعود أسباب الأحداث إلى العبث بقوانين الدولة السوفيتية، وعدم تطبيقها بشكل عادل منصف، كالنقص في الخدمات وغيرها..

كما قوال أن العامل المحرك لم يكن دينيا أو حتى قوميا.

وأثر الأحداث قم اتخاذ قرارات مناسبة لتطوير المنطقة في جميع جوانب الحياة، وتم إنشاء جامعة أبخازيا في العاصمة سوخومي، وتم اعتماد اللغة الأبخازية لتدريسها في المدارس والجامعة.. وأقيم مركز للبث (التليفزيوني) باللغة الأبخازية إضافة إلى الروسية.

(سوليكو).. (سوليكو)!

حمرة الشفق تتسلل من بين الغيوم التي أخذت تدر مطرا خفيفا، وما زال نهر كورا يحمل مياها معكرة، لونها لون الطين الموزع بين الأصفر والأبيض، وأوراق أشجار السرو والجور والصنوبر ترتعش وتتمايل مع هبات الرياح.. والمدينة القديمة المرممة، وفوق التلال تمثل الجانب الآخر من المدينة، وقد تم ترميم الكثير من المباني المقامة عليها فظهرت في أبهى صورها.

المكان كنيسة نيكولاس الجورجية القديمة (بنيت في بداية القرن التاسع عشر الميلادي) عشرات المقاعد مصفوفة في الداخل، عشرات الأشخاص – خصوصا من السياح – يحتلونها، لقد تحولت الكنيسة إلى قاعة للعروض الفلكلورية، وفرقة شاورى للرقص الشعبي تحتل الخشبة الصغيرة وتطلق العنان لأصوات أعضائها مطعمة بالأنغام، وموقعة معها ضربات الأرجل العنيفة على الخشبة، ورجل يقفز، بل يطير راقصا بعنف، بشكل دائري شامخ سريع يحاكي النغم، أو ربما يحاكي سمو الجبل وعلوه وشموخه.

وترن الموسيقى، ثم يدق الطبل بعنف، ويقفز راقص آخر يتحدى سابقه، ثم يأتي جمع من الراقصين، فتلمع الخناجر والسيوف، ويبدأ استعراض التنافس بالحركات الأرشق والأعنف والأسرع، يرتفع صوت الأكورديون والطبل وآلة تشبه الكمان.

ثم يرق الجميع عندما يحضر الناي، ويأتي صوت رقيق ناعم، سلس مغنيا: (سوليكو.. سوليكو) ويستمر الاحتفال.

كانت هذه أغنية من الأغاني المحببة لستالين!!

الملابس التقليدية الجورجية الرجالية والنسائية تشابه الملابس الشركسية ولا شك أن طبيعة بلاد القفقاس تركت آثارها على الكثير من المناحي في جورجيا، وهي مشتركة بين شعوب المنطقة، ويمكن أن يكون الاسم الأشهر بين شعوب القفقاس في هذا المجال هو الشركسي.

وملابس الرجل التقليدية يقال لها (الشركسيا) وهي تختلف قليلا بين هذا الشعب أو ذاك.. كما أن الموسيقى والألحان والكلمات والرقصات هي محاولة لتقديم التراث كما هو مع تعديلات بسيطة في الألحان أو الكلمات أو الحركات.

غذاء أساسي

ومن النقاط البارزة في التقدم الفني في جورجيا، حصاد السينمائيين الجورجيين المتطورين لجوائز مهمة في بعض المهرجانات العالمية، فقد حصل المخرج أبو لاذرة بالجائزة الأولى على فيلمه (التوبة) في مهرجان كان السينمائي صيف عام ١٩٨٨، وفازت مخرجة جورجية أيضا بجائزة من نفس المهرجان.

ومع أن وزارة الثقافة في جورجيا لا علاقة مباشرة لها بصناعة (الفيلم) السينمائي، ولكنها تقوم بتوفير الجو الصحي للإبداع، إذ يوجد في البلاد عشرات النوادي السينمائية

للمحترفين والهواة، وفيها تعرض الأفلام وتناقش، كما أن اتحاد السينمائيين في جورجيا ينظم برامج سنوية لعرض الأفلام الأكثر شهرة في العالم، سواء للحرفيين أو الهواة.

كما يعني بأجواء ثقافية مساعدة كوجود ٢٢ مسرحا تبعا للدولة في جورجيا بينها ثلاث مسارح الأوبرا والأوبريت، وخمسة مسارح للأطفال والباقي مسارح درامية.

كما يوجد خمس فرق سيمفونية و٣٢ فرقة موسيقية صغيرة، و١١ فرقة فلكلورية معتمدة. كما يوجد حوالي ٢٠٠ مدرسة للموسيقى بأنواعها ومستوياتها المختلفة، و٢٣كلية فنية (رسم، نحت، رقص، موسيقى،..الخ)، وكليات أخرى عند (الكوادر) الإدارية لنوادي الثقافة المنتشرة في المدن والقرى الجورجية.

ومما يجب ذكره أن الصحف تصدر في جورجيا بخمس لغات هي: الجورجية، والروسية، والأرمينية، والأذربيجانية والأبخارية. كما أن الإذاعة تتعامل رسميا بهذه اللغات.

وإزاء التعامل مع التراث الفني والموسيقى فيتم الاعتماد على أسلوبين في هذا المجال:

الأول: اتجاه لتقديم التراث كما هو، وكما هو متداول بين الناس، وتقدم ذلك كثير من فرق الهواة.

الثاني: اتجاه يقوم على تطوير (الفلكلور) وهذا الأمر لا يترك للأفراد حسب أذواقهم بل يتم الأمر ضمن معايير ودراسات متأنية، يقوم متخصصون علميون لهم خبرتهم الطويلة في هذا المجال.

وذلك مع تشجيع الموهوبين في شتى مجالات الإبداع الفني، كما يتم الاحتفاظ بتسجيلات للفلكلور – النقي – لأنه يمثل قاعدة الحركة الفلكلورية.

في أرض الكروم

وتشتهر منطقة شرقي جورجيا بزراعة الكروم، وهي التي تقع شمال شرق العاصمة تبليسي؛ حيث يقع فيها مجمع (سيجناجي) الزراعي وسهل الآزاني الذي يسقيه نهر الأزاني (أحد فروع نهر كورا) وهي منطقة تبعد حوالي مائة كم عن العاصمة.

وفي الطريق المؤدي إلى شمال شرق العاصمة الذي يتجه إلى (باكو) عاصمة أذربيجان التي تبعد حوالي ٥٧٠كيلو مترا عن العاصمة الجورجية – وكذلك ٢٣٠ كيلو مترا عن (بريفان) العاصمة الأرمينية تجد تلال وجبال مكسوة بغابات السرو والشربين والحور والجوز تحف بالطريق.. وبالمرور قرب المطار ينتصب تمثال يرتفع إلى حوالي ١٥ مترا لامرأة تحمل الشمس بيديها، كأنها تنير الطريق.

مزارع كثيرة وقرى قليلة كانت تحاذي الطريق، أبقار ترعى بجانب الطرق، قطعان الغنم والماعز ترى من بعيد ترعى في الحقول الخضراء، بعض البيوت تسمى (داشات) وهي بيوت لاستراحة الأفراد، وهي مملوكة للأفراد لقضاء أيام العطل في أحضان الطبيعة.

حقول مزروعة بالذرة، تحاذيها حقول مزروعة بنبات عباد الشمس، وأخرى مزروعة بكروم العنب.

الطرق على العموم مرصوفة، تربة الأرض في بعض الحقول سوداء، كما تظهر بعض القلاع المرممة على جانبي الطريق في أماكن مرتفعة على التلال والجبال.

وثمة مجموعة من الأشجار الجرداء (١٨شجرة) معلق عليها ثلاثة أجراس، وتحتها خمسة الضبة، على إحداها نحتت صورة ستالين بشاربه الكث، وكتب تحت النحت (لأجل مجد الوطن والنضال ضد الفاشية، سقط الشهداء) وكانت تلوح قلعة على مقربة المكان.

إيبيريا الجورجية

حسب نظرية بعض العلماء فثمة قرابة بين لغة الباسك في أسبانيا الواقعة في شبه الجزيرة أيبيريا، وبين اللغة الجورجية، خاصة أن جورجيا القديم هو أيبيريا ومن المعلوم أن ثمة حضارة قبل الميلاد قامت في جورجيا عرفت باسم الحضارة الأيبيرية.

وقد فسر البعض هذا الأمر بأن شعب الباسك الذي يعيش في شبه عزلة بين جباله المرتفعة يبدو تماما كالشعب الجورجي ومع هذا لم يتم التثبت من الأمر تماما ولم يتم الخروج منه بنظرية متكاملة حتى الآن، والعمل جار بين قبل بعض العلماء للتوصل إلى ما يثبت نظرية النسب والعلاقة.

وفي النهاية كان لا بد أن يقفز خاطر في الرأس قبل الرحيل عن جورجيا (.. كان دأب الشعوب من قبل الغزو والتنقل والبحث عن الأمان والكلأ والمياه، وربما بفعل الغزو طول المسير، وربما بفعل التهجير، وصل هذا الشعب إلى هذه الأرض، أو أن الآخر انتقل إلى تلك الأرض، فاختلط وتناسل واستقر)!

روسيا وجورجيا.. علاقات الإخوة الأعداء!!

في ظل التطورات التي تحدث الآن في الاتحاد السوفيتي السابق يبدو أن شبح الحرب يخيم على منطقة القوقاز، وذلك لأن الوقع المتوتر في هذه المنطقة والناتج عن استمرار المشكلة الشيشانية حتى الآن، تسبب في استمرار التوتر بين جورجيا وروسيا، التي تتهمها الأخيرة بإيواء عدد من قادة المقاومة الشيشانية في أراضيها وتهديدها المتواصل بأنها ستتدخل

في جورجيا لتعقب عناصر المقاومة، وهو التهديد الذي رفضته جورجيا بشدة، واصفة ما تقوم به روسيا بأنه نوع من البربرية الجديدة في العلاقات الدولية. وكانت الفترة الماضية قد شهدت تطورات جديدة وصفها المراقبون بالغموض، وذلك عقب اللقاء الذي تم بين الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، والرئيس الجورجي إدوارد شيفرنادزه، الذي وصفه الأخير بأنه نقطة تحول في تاريخ العلاقات بين البلدين. وكان التوتر بين البلدين قد تجدد أخيرًا ولكن هذه المرة حول ممر بانكيسي الذي يقع شرق جورجيا والذي يستخدمه أحيانا المتمردون، وذلك بعد أن استغل الرئيس الروسي ذكرى الحادي عشر من سبتمبر في التلويح باحتمال توجيه ضربة عسكرية إلى جورجيا، مستخدما نفس المبرر الذي ساقه الرئيس الأمريكي جورج بوش في الهجوم على أفغانستان.

وكرد على هذا التهديد أرسل الرئيس الجورجي بتعزيزات عسكرية إلى المنطقة، أعلن بعدها أنها خالية من المتمردين الشيشان، ولكن عقب الاشتباك بين المتمردين الشيشان والقوات الروسية في جمهورية أنجوتشيا عثرت القوات الروسية على رفات ومتعلقات المصور البريطاني (روديك سكوت) التي كان من بينها شرائط صور فيها الطريق الذي يسلكه المتمردين الشيشان عبر ممر بانكيسي، وهو الشريط الذي أمد موسكو بالدليل الذي كانت تبحث عنه، ودفع (اندريه نيكوليوف) رئيس لجنة الدفاع بالدوما إلى القول إنه مادام شيفرنادزة في السلطة فإن الوضع في جورجيا لن يتغير. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا هذه النبرة المتشددة بين الطرفين، ولعل الإجابة أن تدهور الأوضاع في منطقة بانكيسي ربما يكون السبب، فبعد الحملة التي شنتها القوات الروسية في مطلع عام ٢٠٠٠، شهد الوادي تدفقا من اللاجئين، وترتب على ذلك وجود متزايد لعصابات التهريب وأفراد يمارسون الجريمة المنظمة في ظل عدم قدرة السلطات الجورجية على السيطرة على الوضع، وكان التطور الأخير هو الادعاءات غير المؤكدة أشارات لوجود عناصر من تنظم القاعدة فدى وهو الاتهام الذي رفضته جورجيا بشدة، وأيدها في ذلك الدبلوماسيون الغربيون الذين أشاروا إلى أن الوادي لا يوجد به سوى بضع مئات من أعضاء المقاومة الشيشانية، في القوت الذي أكد فيه سكان الوادي الأصليون أن معظم أفراد المقاومة غادروا الوادي بعد التهديدات التي أعلنها بوتين.

والتفسير الذي يقدمه الجانب الجورجي هو أن السبب ربما يعود إلى خط الأنابيب الجديد الذي بدأ العمل فيه أخيرا والذي يمر من باكو عبر الأراضي الجورجية إلى جنوب تركيا، بينما البعض الآخر يرجع ذلك إلى وجود متشددين حول الرئيس بوتين، وبعضهم يشعر بمشاعر سلبية تجاه الرئيس الجورجي، الذي كان يشغل منصب وزير خارجية الاتحاد السوفيتي سابقا، والذي لعب دورا في تفكيكه، وبغض النظر عن السبب فكلما زاد الضغط من

روسيا، كلما ازداد لجوء الرئيس الجورجي لحلفائه الغربيين للحصول على الدعم. وهو الرأي الذي يؤكده بصراحة أحد الدبلوماسيين الأمريكيين الذي يشير إلى أنه لولا الصداقات التي بصراحة أحد الدبلوماسيين الأمريكيين الذي يشير إلى أنه لولا الصداقات التي يحتفظ بها الرئيس شيفرنادزة مع واشنطن. والتي تعود لعدة سنوات ما كانت جورجا لتحصل على كل هذه المساعدات.

وفي كل الأحوال فإن الهدنة التي حدثت بين الجانبين مؤخرا ربما تعود إلى الوعد الذي قطعته جورجيا بتسليم ١٢ من المتمردين الشيشان إلى روسيا، وإن كان معظم الجورجيين يعتقدون أن هدف الروس الرئيسي هو إشاعة حالة من عدم الاستقرار، خاصة أن السلطات الروسية منحت أكثر من ٢٢٠ ألف من مواطني إقليم (إبخازيا)، الذي أعلن استقلاله من طرف واحد عن جورجيا، جوازات سفر.

ولكن مشكلة منطقة بانكيسي دعمت من موقف الرئيس شيفرنادزة الذي قضى عشر سنوات في السلطة فشل خلالها في القضاء على الفساد أو النهوض بالاقتصاد، وهو الأمر الذي أدى لتراجع شعبيته، لتأتي بعد ذلك مشكلة بانكيسي لتسهم في رفع مستوى شعبيته ولتجعل حتى معارضيه يلتفون حوله، والسؤال الذي يطرح نفسه هو ماذا بعد انتهاء فترة حكم الرئيس الحالي شيفرنادزة، هل سيختار مواطنو جورجيا شخصية موالية لموسكو لضمان تجنب الخلافات أم سيحدث العكس؟، هذا ما سوف تجيب عليه الأيام القادمة، بعد انتهاء فترة رئاسته المقرر لها عام ٢٠٠٥.

داغستان

ليس سهلاً أبدًا أن يتعلم الإنسان من تلقاء نفسه لغة أخرى، لكن – فرحات – دليل قلعة دربند – المدينة الثانية في جمهورية داغستان الروسية – ومعناها (باب الأبواب) بالعربية، (الباب المغلق) بالفارسية.. استطاع هذا الرجل تعليم نفسه اللغة العربية، وتولى شرح الكثير من الأمور حول العالم القلعة والمدينة.

فرحات لم يأت بمعجزة خارقة، لأن اللغة العربية لم تطو صفحتها من بلاد القوقاز إلا منذ عقود قليلة من السنين، فلجأ إلى مكنون ما تكون في ذهنه، وذاكرته، مما سمعه عن جده أو ربما من أبيه، وما قرأه من القرآن الكريم، ومن خلال الاجتهاد النابه تشكلت على لسانه الحروف والكلمات.

يشير فرحات إلى شواهد القبور المنصوبة على التلة التي تشرف على المدينة، ويحكي حكاية القادة العرب الأربعين الذي دفنوا في المقبرة فسميت (مقبرة الأربعين).

لقد خاض هؤلاء حربهم مع دولة الحرز اليهودية التي كانت قائمة في المنطقة، واستشهدوا.

وهناك بعد مغادرة نارين قلعة أي (القلعة الصغيرة) تنتصب شواهد القبور والحجارة والصخور.. وهي تكاد تبوح بشيء عن ملامح الماضي.

إغريق، ورومان، وبيزنطيون، وهون، وبلغار، ولان، وفرس، وخرز، وروس، وأتراك، ورعب وتتار وغيرهم.. كلهم مروا هنا وتركوا بعض الآثار.

وثمة حفريات في الطريق تشير إلى أن المدينة ربما سكنها الإنسان قبل خمسة آلاف سنة قبل الميلاد.

ذكريات التاريخ

تلك الذكريات تؤكد أن مدينة (دربند) سكنها الإنسان منذ قديم الزمان، ربما منذ عهد السومريين، وإنها بقيت مأهولة بالسكان منذ تلك العهود.. أنها (باب الأبواب) كما قال عنها العرب، وهي بوابة على آسيا وبوابة آسيا على أوروبا، وموقعها فرض عليها أن تلعب دور البوابة، فجبال القوقاز تطل عليها وتحاذيها، وهي تغسل أرجلها في مياه بحر قزوين، وبحر

الخرز كما كان يطلق عليه في السابق، ومن أراد الانتقال من هذه الجهة إلى تلك فما عليه إلا أن يمر بها.

ومرت بها ومن خلالها خيول كثيرة، وعربات وناس من شتى الأجناس، لم يكفوا عن المد والجزر، وحمحمات الخيول لم تهدأ، ولم تستكن في هذه المنطقة، وصوان الجبل كان يقدح نارا تحت سنابكها وشعب المكان يرتبك، ويرتعد، ويقاوم ويتجاوب، أو يستسلم إلى يحن ثم يثور، ويحتج، ويحتمي بجباله، وراء صخوره، موجة يقاومها، وأخرى يحاول أن يتعايش معها أو يخضع لها إلى حين، ثم تثور زوابعه وبراكينه، ويتقافز بين الصخور والوديان، وتصهل خيوله في المخدرات وتتفرق، فيتشتت قسم منه وتبقى أقسام، ويهجر أقلنه، ويتأقلم بغيرها ويتواءم إلى أن تثور زوبعة شعب آخر فيحصل افتراق جديد مع المكان هكذا ضربت دوامة الحروب تلك البلاد.. وهكذا كانت تتفرق الكثير من الشعوب التي سكنت المكان.

أما (داغستان) فهو اسم مستحدث (أطلق على منطقة بعينها في القرن السادس عشر الميلادي) وهو مؤلف من مقطعين، (داغ) وهي لفظة تركية ومعناها جبال (وستان) لفظة فارسية بلاد، فيكون معنى الاسم هو (بلاد الجبال).

هذه الثنائية في إطلاق الأسماء أو التي تزيد على ذلك في تركيبها ما هي إلا من باب إقرار حقيقة التعددية القائمة في بلاد الداغستان.. وقد ذكر ما أعلنه المؤرخون من تعدد الشعوب واللغات قديما في تلك البلاد.. وربما مازال الأمر كما كان؟

نعم إن الأمر مازال كما كان، من حيث التعددية، لكن الأمر تجاوز تعددية الشعوب والقبائل ليدخل في تنظيم وحدوي جديد، هو الجمهورية الداغستانية ذات الحكم التي أعلن عن قيامها سنة ١٩٢١، ومازالت إلى الآن قائمة كجزء من جمهورية روسيا الاتحادية.. أما قبل هذا التاريخ فإن داغستان – كما أشرنا من قبل – تم غزوها من قبل كثير من القوى، وقد تم فتح بعض مناطقها من قبل العرب (سنة ٢٢هـ ٦٤٢م) زمن الخليفة عمر بن الخطاب وتمت السيطرة على مدينة (دربند) الساحلية بعد ذلك، تم انتزاع بعض المناطق من الدول التي كانت قائمة آنذاك أي من دول الفرس ومن دولة الخرز اليهودية أيضًا.

وقد أسقط الروس دولة الخرز اليهودية التي كانت قائمة في المنطقة، واتخذت من مدينة أتل – بالقرب من مدينة استراخان الحديثة على نهر الفولجا عاصمة لها – وكان ذلك في سنة ٩٦٥م، ولم تقدم لها قائمة بعد ذلك في التاريخ.. ويمكن تفسير وجود عدة آلاف من اليهود حتى الآن في بعض مناطق داغستان إلى كونهم بقايا يهود ذلك الزمان، وخصوصا أن بعضهم يطلق عليهم اسم يهود الجبال.

وبعد سقوط دولة الخزر استمرت المنطقة موزعة على عدة قوى، كالعباسيين والفرس والروس، وبعض الإمارات المحلية، ثم الدولة العثمانية، ثم التتار والمغول.

إلا أنها في النهاية أخضعت روسيا القيصرية المنطقة بأكملها اعتبارًا من سنة ١٨٥٩م بعد إخماد ثورة (الشيخ شامل)، وفي هذه النقطة تتحدث دائرة المعارف الإسلامية: (ولم يحدث قط أن توحدت النجاد، والوهاد – في داغستان – التي على الساحل مدة ما في ظل شعب واحد، أو تحت أسرة واحدة حتى كان الاحتلال الروسي).

داغستان الحديثة

تبلغ مساحة الجمهورية ٥٠٣٠٠ كيلو متر، ويبلغ عدد سكانها حوالي مليون و٧٠٠ألف نسمة (١٩٨٦)، عاصمتها مدينة (ماختسكلا) أو (محج قلعة) وعدد سكان العاصمة حوالي ٣٠٠ ألف نسمة (١٩٨٧م).

والاسم محج أو ماختش يعود إلى أحد الثوار الوطنيين الذين حاربوا الروس البيض فقتلوه سنة ١٩٢٢ عندما كان يدافع ضد السلطة السوفيتية، وبعدها أطلق اسمه على المدينة، وكانت تعرف بيوت بتروفسك منذ بداية القرن الثامن عشر، وحملت اسم القيصر الروسي بيتر.

تؤلف الجبال حوالي ثلاثة أرباع مساحة الجمهورية، ومع ذلك فهي مشهورة بالزراعة، أهم محصولاتها القمح، والكروم والذرة والخضرة والفواكه..

وكثير من تلال جبالها تم استصلاحها منذ سنوات قريبة، وتزرع بها الفواكه والحبوب، وتسقى أراضيها عشرات الأنهار، ومن أهمها يترك وصولاق وسومار.

وقد كانت تنتشر فيها زمن الفتح العربي اليهودية والمسيحية والوثنية والزرادشتية عبدة النار – ويوجد هناك بعض رموزهم داخل قلعة دربند – واستمر الأمر كذلك بعد الفتح إلى أن دان كثير من السكان بالإسلام، وخاصة بعد السيطرة العثمانية على بعض المناطق، ثم سيطرة التترا المسلمين على مناطق أخرى.

وبعد سيطرة روسيا القيصرية بدأت محاولات نشر المسيحية الأرثوذكسية بين السكان، إلا أن أكثرهم استمر محافظا على دينه الإسلامي، وبعضهم هاجر إلى تركيا وبلاد الشام والعراق وغيرها من البلاد كما سبق وأن ذكرنا.

وبعد قيام الحكم السوفيتي بعد ثورة سنة ١٩١٧ جاءت المادة ٥٢ من القانون السوفيتي الذي صدر سنة ١٩٢١ تعلن الدولة أنها: (تضمن لمواطني الاتحاد السوفيتي حرية العقيدة، أي

الحق في اعتناق أي دين، وأداء الشعائر الدينية، أو القيام بالدعاية الأحادية، وعدم اتباع أي دين، وتمنع إثارة العداوات والأحقاد بسبب المعتقدات الدينية، والدين في الاتحاد السوفيتي مفصول عن الدولة، والمدرسة مفصولة عن الدين) وبهذا وجد في الاتحاد السوفيتي – قبل انهياره – ٤٠ دينا أو اتجاها دينيا، وقد كان الدين الرسمي للدولة قبل الثورة هو الدين المسيحي الأرثوذكسي، وكانت بقية الأديان تعامل معاملة لا ترقى إلى ما يعامل به الدين الرسمي وعلى سبيل المثال فإن بناء المساجد في بعض الحقب القيصرية كان يجب أن يتم من تراب وليس من حجارة.

القضاء على الأمية

السيدة إيفا تنتمي إلى قرية جبلية اسمها أوسيشا. وقد كانت المعلمة الوحيدة فيها في أربعينيات هذا القرن، ولكن حتى عام ١٩٥٦ كان يوجد فيها ثلاث مدارس، يصل فيها ٨٠ معلما ومعلمة من أبناء المنطقة.. أيامها كانت نسبة المتعلمين في البلاد تصل إلى ١٢% (سنة ١٩٢٦م)، وارتفعت بعد حملة محو الأمية إلى نسبة ٨٠% (سنة ١٩٣٩م) لتختفي الأمية تماما في أربعينيات هذا القرن.

والآن (سنة ١٩٨٦) يوجد في ماختشكلا جامعة فيها ١١ كلية، كما كان يوجد فيها فرع لأكاديمية العلوم السوفيتية، و٥ معاهد عليا، و٢٨ معهدا تقنيا في مستوى الثانوية، وبلغ عدد طلاب المعاهد ٢٧ ألف طالب.

ولكن كيف تم القضاء على الأمية بالرغم من وجود عشرات اللغات المختلفة في بلاد داغستان؟

تم ذلك باستخدام اللغة الروسية في البداية وقد كانت اللغة الرسمية في جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي.. ثم بدأ باستعمال اللغة القومية لكل منطقة وشعب بعد ذلك مع اللغة الروسية.

القوانين في داغستان تصدر بـ١١ لغة، وتبث أجهزة الراديو بـ١١ لغة أيضًا، وتصدر الكتب الأدبية بعشر لغات، وكان يتم تدريس الصفوف الابتدائية من الأول إلى الثالث باللغات القومية، ويتم تعليم بعض المواد بالروسية، وتصبح اللغة القومية إحدى المواد الدراسية، ويتم التدريس في المعاهد والكليات والجامعات باللغة الروسية، وفي كل منطقة تصدر صحف باللغة القومية إضافة إلى صحف أخرى باللغة الروسية.. وثمة إحصاء هناك بعدد الجماعات القومية المتوطنة في جمهورية داغستان (حسب إحصاء عام ١٩٧٩) وجاء فيه:

الأفاريون وعددهم ٤١٨,٦٣٤ نسمة

الداغينيون وعددهم ٢٤٦,٨٥٤ نسمة

ثم الكوميكيون – الغوميق وعددهم ٢,٢,٢٩٣ نسمة

والروس وعددهم ١٨٩,٤٨٤ نسمة

والليزكينيون وعددهم ١٨٨,٨,٤ نسمة

واللاكيون وعددهم ٨٣,٤٥٧ نسمة

يليهم البتارانيون والأذربيجانيون والشيشانيون والنوغائيون والروتوليون واليهود، ثم الأغووليون والتساخوريون والتايتون ويهود الجبال وغيرهم.

من على قمة الجبل

هناك قمة جبل (تاركي تاو) الذي يشرف على ماختشكلا عاصمة داغستان، فالمدينة تؤاخي البحر، وتنتقل رسائل الجبليين وتحياتهم إليه وإلى جانبه الآخر.. من بعيد تلمح نار غارات البترول المشعلة، وقد تم إغلاق بعض آبار البترول البحرية نظرا للحاجة إلى تعميقها بأضعاف أضعاف ما هي عليه.. والمعروف أن داغستان مشهورة بوجود مكامن بترولية فيها منذ قديم الزمان والبترول المستخرج منها هو من النوع الخفيف المستعمل في الطائرات.

وعند النزول والمرور بالأحياء يتضح أن ثمة حي بناه رجال من جمهورية أوزبكستان وآخر بناه الكازخستانيون، ثم مستشفى بناه الأوكرانيون، وأيضا فندق بناه الليننجراديون، وهذا.. وذاك، وذلك.

ولكن لماذا تم ذلك؟

السبب أن في سنة ١٩٧٠ حدث زلزال في المدينة أودى بالكثير من معالمها، فجاء الأخوة من جميع جمهوريات الاتحاد السوفيتي بإمكاناتهم ومساعداتهم التي جمعوها من شعوبهم وأعادوا بناء المدينة، فلم يبق بعد ذلك شيء من آثار الزلزال.. بل مدينة حديثة، مرتبة ونظيفة، ليس فيها ازدحام، وتظهر بعض الإشارات على المباني تشير إلى أن سكانها شرقيون، وذلك من خلال تكرار بعض الأشكال الهندسية على الحوائط والنوافذ والشرفات، ويظهر أيضا غسيل الناس المنشور (يظهر إن هذه العادة هي عادة شرقية أيضا) لأن من النادر ملاحظة غسيلا منشورا في المدن الأوربية الروسية.

وذلك تمثال (ماختش) التي أخذت العاصمة اسمها من أسمه، وهذا تمثال (محمد جـــاد دييف) البطل الداغستاني الذي أغرق كثيرا من سفن الأعداء.. ثم ها هي حديقة الأبطال الستة الذين أعدمهم أعداء الثورة عام ١٩١٩، وقد انتصبت تماثيلهم داخل الحديقة، بجانــب تماثيــل الشاعرين المبدعين حمزة تسادسا، وسليمان ستالسكي وغيرهم.

وبالمناسبة فقد قدم الشعب الداغستاني مائة ألف إنسان بساحات الوغي فـــي الحـــرب العالمية الثانية، صحيح إن هذا الرقم متواضع إذا ما قيس بالعشرين مليون إنسان الذي دفعتهم شعوب الاتحاد السوفيتي وقومياته من هذه الحرب، ولكن مهما كان الأمر فالشعب الداغستاني صغير. ودم راله غال دائما وأبدا.

ثورة (شامل)

إذا ذكرت داغستان فإن (شامل) أيضًا يذكر معها، لا لأنه الثائر الوحيد الذي كان فيها، بل لأنه قاد ثورة الجبال لتحرير كامل داغستان ضد القيصر الروسي، وقد اســتمرت الثــورة لمدة خمسة وعشرين عاما طوالا اختلطت فيها الدم بمياه الأنهار، وتلاحمت أجــساد الرجــال بالصخور، وتعفرت الجبال بالبارود، ولمعت السيوف في الفيافي والقفــاز، وطــال الزمــان، وشاب شعر الرؤوس.

قبل كلام كثير حول الثورة، بعضهم جعل منها ثــورة إســلامية أساســها المريــدون الصوفية، والبعض الآخر جعل منها ثورة وطينة همها كان استقلال داغستان وإخراج الغــزاه الأجانب.. وآخرون قالوا أنها ثورة رجعية سيطر عليها دعاة مسلمون متعصبون.

ما دام الأمر قد اختلط إلى هذا الحد فما حقيقة هذه الثورة؟

جاء في دائرة معارف بطرس البستاني – المجلد العاشر – ما يلي:

شامل: زعيم طائفة من القوقاز ولد في مدينة أول حمرى (عمرا – الآن) في شــمالي داغستان نحو سنة ١٧٩٧م.. وتوفي في المدينة المنورة عام ١٨٧١م، مال فــي صــباه إلــى طريقة قاضي ملا الصوفي، وحدث في سنة ١٨٢٣ أن عدة قبائل من داغستان انضمت تحت لواء قاضي ملا المذكور، وجاهدت في سبيل مذهبه، فتوفي وخلفه أحد مريديه، فأدركته الوفاة عام ١٨٣٤م، فولت القبائل شاملا، فأصلح الشئون، وشكل حكومة دينية، وأصلى على الروس حربا عوانا فضعضع جيشهم سنة ١٨٤٤م، وأكمل تشكيل حكومته، فجمع شتات القبائل، وسن لهم النظامات والقوانين، وقرر المكوس والضرائب، وجعل مدينة دارغو قاعــدة لحكومتــه.. وفيما هو كذلك زحف الإمبراطور نقولا بجيشه إلى القوقاز، فجــرت بينهمــا عــدة مواقــع،

وخرجت ضد شامل سنة ١٨٥٣ عدة قبائل فأضعفت من أمره.. ولما انعقد الصلح في باريس بعد حرب القرم (التي قامت بين روسيا والإمبراطورية العثمانية) عاد الروس إلى إخضاع القوقاز، فدافع شامل عنها ثلاث سنين متواليات، ثم أسروه سنة ١٨٥٩م. فأخذ إلى بطرسبورج ووضع في كلجا، ثم زايل كلجا إلى مدينة كياف سنة ١٨٦٨. وذهب منها إلى مكة المكرمة سنة ١٨٧٠).

ينقل الشاعر حمزاتوف هذا الحوار بين الأمير الروسي باريانتسكي – الذي قاد حملة إخضاع الثورة – وشامل في كتابه (بلدي).

- عبثا كانت جهودك، كل جهادك!

وإجابة شامل:

– كلا، لم تكن عبثا، وستبقى ذكراها في قلب الشعب، لقد جعل جهادي من أعداء كثيرين أخوه، ووجد قرى كثيرة كانت تتنازع فيما بينها، وصب شعوب داغستان الكثيرة التي كانت تتعادى فيما بينها ويردد كل منها (شعبي) (أمتى) شعبا داغستانيا واحدا، لقد غرست الشعور بالوطن، والشعور بداغستان الواحدة، وهذا الشعور أخلفه لأحفادي فهل هذا شيء قليل؟

لسنا ندري أن كان الكلام السابق هو كلام شامل حقيقة، لكن يمكن القول بأن الكلام السابق هو كلام حمزاتوف نفسه، ووجهة نظره في الثورة، وما تمنى أن تقوله وتحققه، بل إن حمزاتوف قائلا: (.. إن ثورة شامل ثورة وطنية ديمقراطية، ولو جاء الفرس أو الأتراك المسلمون فإنهم كانوا سيرقون نفس المواجهة من شامل وأتباعه).

أما الجانب المسئول في هيئة الرئاسة العليا فقد تصدى للحديث باعتباره وقتها كان يمثل الحكم الشيوعي بقول: (.. الأدبيات الماركسية تعتبر ثورة شامل ثورة شعب مضطهد ضد السلطة القيصرية وباعتقاد فإن الهدف الرئيسي كان تحقيق حرية الشعب الداغستاني وليس إقامة حكومة دينية).

كيف هذا أيها المسئول وفي تفكير الشيخ شامل وتصرفاته ما كان يفيد بأن منطلقاته إسلامية؟

باعتقادي أن حلم الحرية والاستقلال هو ما كان محرك الشعب، وقد اختلط الوطني بالدين في تفكير شامل.

باب الأبواب

تبعد مدينة دربند (باب الأبواب) عن العاصمة مختشكلا حوالي ١٧٠كيلو مترا من ناحية الجنوب، الطريق إليها تحفة منشآت النفط وبعض المصانع وتليها حقول الكروم والقمح والذرة وبعض حقول الخضار والفواكه، وكما أن هناك قزوين الإيرانية، فإن هناك مدينة قزوين داغستانية أيضا، وهي مدينة على الساحل تماما وتقع بين ماختشكلا ودربند حقول النفط المغلقة في البحر ثم تلال تحف بالسهول، وغابات وحقول من بعيد من خلال ثغرات بعض التلال القصيرة.

تلوح دربند من بعيد، تغسل ساقيها في البحر، وتحرسها الجبال، واللغة الثانية في المدينة بعد الروسية هي لغة أذربيجانية، ودربند ليست بعدية عن أذربيجان الجمهورية المستقلة.

مبانيها قديمة، وآثارها كثيرة، ولباس بعض الناس وهيئاتهم لا تختلف كثيرا عن لباس الأذربيجانيين وهيئاتهم، وقد أفاضت المصادر التاريخية بذكر المدينة، حتى قبل الميلاد، واسمها كان كذلك، ومعلومات هيرودوت تفيد أن المدينة كانت موجودة منذ ٧ آلاف سنة قبل الميلاد.

مرت منها واحتلتها شعوب كثيرة، وقلعتها بنيت كما ذكر المستشرق الدكتور كودييف الكسندر في القرن الخامس بعد الميلاد، وهي تشبه في تصميمها قلعة حلب، وقد فتحها العرب وجعلوها حصنا، واختط فيها مسلمة بن عبد الملك كثيرا من المساكن، وتنازع عليها العرب مع دولة الخرز التي كانت قائمة في شمال بلاد القوقاز واستعادها هارون الرشيد العباسي سنة ٧٨٩م وبقى فيها سبعة أشهر.

ومن التاريخ القديم إلى أيامنا الحاضرة تعد دربند المدينة الثانية بعد ختشكلا في عدد السكان، فيها ما يزيد على ٩٠ ألف نسمة، وهي مدينة تجارية وصناعية، تصنع فيها الكثير من المصنوعات كالزجاج والسجاد ومواد البناء والملابس، وفيها ٢١ مدرسة ثانوية تستوعب حوالي ١١٨ألف تلميذ، يدرس فيها حوالي ألف مدرس ومدرسة.. وفي المدينة ٥٠٠ طبيب و١٥٠٠ مساعد وممرضة، ويعمل في المدينة عمال من حوالي ٤٠ قومية من قوميات الاتحاد السوفيتي المنحل (كانت توجد هذه النسبة في معظم مدن الاتحاد السوفيتي).

بتعايش في المدينة كثير من القوميات الداغستانية من بينهم (عام ١٩٨٦):

٢٢ألف أرذبيجاني، و١٨ ألف ليزغيني، ٤ ألفا من اليهود والتاتيون، وفي المدينة ثلاثة مسارح قومية: ليزغيني، وأذربيجاني، ويهوى.

ومسرحيان شعبيان، و٤ دور سينما وكثير من النوادي السينمائية في الأحيـــاء. وفـــي المدينة مسجد وكنيسة وكنيس.

وتشتهر دربند بالمصنوعات الشعبية والصناعات التقليديـــة منتـــشرة فـــي البيـــوت، وأشهرها صناعة السجاد.

الصلاة.. يا أهل القوقاز

هذا مسجد (بناه مسلمة بن عبد الملك في سنة ٧٣٤م) وقد تم تجديده عدة مرات فيمـــا بعد، وعلى بابه الرئيسي كتب (حب الوطن من الإيمان) بالعربية، وأمامه شجرات معمرة عمر أحداها ٧٠٠سنة لهذا صارت في نظر الحكومة أثرا تاريخيًا.. معظم المصلين رجال من كبار السن، الشباب من بينهم قليلون.. وفي المسجد حاجز يفصل مصلى النـــساء عـــن الرجـــال، المسجد منقوش بالسجاد وتزينه الآيات القرآنية والمصاحف موجودة، بعضها متآكل من كثـــرة الاستعمال، أدى الجميع الصلاة، قيل أن الصلاة في المسجد تجمع المسلمين الـــشيعة والـــسنة، كانت امرأة كبيرة في السن أمام المسجد سبحتها طويلة ملابسها لا تفرقها عن أية بدوية فـــي بلادنا وكانت تردد كلاما هامسا، ربما كانت تدعو للعالم بالسلامة والبركة!

كوباتشي

جاء في دائرة المعارف الإسلامية – المجلد التاسع – إن كوبة معناهـــا الـــزرد فـــي التركية وجي أوشي قد يكون معناها صانعا – فيكون معنى المقطعين:

صانع الزرد، وقد أكد هذا المعنى أهل كوباتشي أنفسهم.

وكوباتشي، أو كوبه مجاهي قرية معلقة في أعـــالي جبـــال القوقـــاز علـــى ارتفـــاع ١٥٠٠متر عن سطح البحر في الجنوب الغربي من مدينة ماجتشكلا على بعـــد حـــوالي ١٦٠ كيلو مترا تقريبا.. والطريق طريق جبال، من يصعد عليه أن يأخذ حذره، يلتـــوي هنـــا، ثـــم هناك، وترتج السيارات اللاهثة، فالمطب يحلق بالآخر، والنهر الذي كان مجاورا أصبح تحت الأنظار، أنه نهر أولوتشاي، وقد حملت اسمه القرية التي يخترقها.

السيارات لا تستطيع تجاوز سرعة معينة، فالاستدارات واللفات الكثيرة، والارتجاجات تتوالى على أجساد راكبيها، إلا أن منظر غابات الجبال وحقولها وزراعاتها تخفف من بعـــض معاناة هؤلاء الركاب.

الأخضر السابغ، وأشجار حور وشربين وسرو وأرز وصنوبر، وأسماء أخرى غيـــر معروفة، العليق على غدران الماء، والتوت البري تلمع حمرته كأنه القطوف الدانية، وأشجار

كروم، وقطيع بقر، يتلوه قطيع ماعز، وعين ماء وسيارات قليلة أخرى، ورعـــاه قليلـــة مـــن الصخور، معظمها مكسو بالأعشاب والمزروعات، القرى قليلة ومتباعدة، الغيوم لم تعد بعيدة، السماء تطل من بين الغيوم البيضاء زرقاء صافية، ثمة أصوات رخيمة تتوالى فـــي الغنـــاء، أصوات أنثوية ينقل صداها ريح الجبال الخفيف الناعم، ومهما دقق النظر فلا أثر لمن يغنين، مع أن الأصوات لا زالت تدندن بأغانيها.. فجأة التمعت المناجل، وظهرت النـــسوة، وأغمـــار قمح كانت تتكون والمناجل تحصد، وأغاني الحصاد يشتعل حماسيها، وضربة المنجل كانـــت تعني أن كوما من الحصاد قد أنجز.

العاملات يبلغ عددهم ٥٠، إنهن قرية شيشلي القريبة، ينتمي إلى القومية الدارغونية.. هنا من الصعب استعمال الحاصدات الآلية في طبيعة كطبيعة هذه البلاد – لأنها وكمـــا تبـــدو التلة فوق الأخرى، والمسافات والمساحات بينها قصيرة وصغيرة، لذلك يتم الاعتمـــاد علـــى العمل اليدوي في الحصاد.

لقد حان وقت الحصاد ولابد من أياد تحمل المناجل، والأفـــالطيور جـــاهزة لالتهـــام السنابل.

نفوس الناس والزمان

رحلة إلى قرية (كوباتشي)، وفي داخل مصنع وحيد بها يعمل به حوالي ٦٥٠ عـــاملا وعاملة. عدد سكان القرية يصل إلى حوالي ألفي إنسان، ينتمون إلـــى القوميـــة الدارغونيـــة، معلومات الكتب تقول: القوقاز، وخاصة داغستان مجمع الشعوب والقوميات كثيرة! يتفـــاهمون مع الغير بالروسية، وقبل الروسية كانت العربية والفارسية والتركية.. لم تعـــرف داغـــستان وحدة سياسية الأبعد احتلال الروس لكامل منطقة القوقاز.

كوباتشي مشهورة منذ القديم بالصناعة، وبنقشها الخاص، وانطلاقا من هذه النقطة فقد تم التركيز إلى استمرار تقاليد الصناعة الكوباتشية، فتخصصت فـــي الـــنقش علـــى النحـــاس والخشب والتطريز على الملابس، إن نقش كوباتشي معروف في كل أنحاء العالم، يتم إدخالـــه على السجاد والملابس والصحون، وغلايات القهوة، والفناجين والأطباق، والصواني والجرار وغيرها.

هناك مادة أساسية ضمن مواد الدراسة في كل المراحل الدراسية حتى الثانويـــة فـــي قرية كوباتشي، هي مادة الفن الكوباتشي، وبعد التخرج من الثانوية هناك دراسة متخصـــصة لهذا الفن فقط، وقد نال مصنع كوباتشي الكثير من الجوائز وشهادات التقدير في الكثيـــر مـــن المعارض الدولية.

ما رأته العيون وسمعته الآذان

البيوت في القرية واسعة مؤلفة من طابق واحد أو طابقين، وأغلبها يطابق بطابقين، إحدى الغرف يجب أن تخصص كمتحف، وهذه عادة داغستانية منتشرة في معظم المناطق، يحتفظ فيها صاحب البيت بالكثير من التحف والصناعات التقليدية التي ورثها والتي جاءت ببعضها زوجته عند زواجهما، فعلى الأب أن يجهز ابنته بالكثير من الملابس والمصنوعات التقليدية عن انتقالها إلى بيت زوجها.

الغريب إنه في الوقت الذي كانت فيه العطلة الرسمية في الاتحاد السوفيتي هي يوما السبت والأحد تحدد عطلة قرية كوباتشي يوم الخميس.. ولذلك قصة، ففي القرية سوق اسمه سوق يوم الجمعة، وهو أحد تقاليد القرية القديمة، وفيه يعرض الصناع ما صنعوه وما يريديون بيعه، وربما أتى البائعون والمشترون من قرى أخرى، وقد رأى مجلس القرية الإبقاء على هذا التقليد، لذلك قام برفع مطالبه إلى السلطات بجعل يوم الخميس عطلة (أي اليوم الذي يسبق يوم السوق) وإن يستمر العمل يومي السبت والأحد كأيام عمل عادية.

وبدلا من أن تكون ساعات العمل ٨ساعات وهي ساعات العمل الرسمية، فإنها تصبح ٧ساعات لنيلهم يوم إجازة واحد بدلا من يومين، قد تمت الموافقة أيامها على المقترح.

ولكن ألا يعطل هذا صلاة الجمعة؟ فكان الجواب من يريد يصلي فهو حر وللعلم فإن المسجد بلا إمام، وقد تهدم ولم يتقدم أحد بالصرف عليه وإعادة ترميمه.. ومن يريد الصلاة فإنه يصلي في بيته!!

ومن الملاحظ أن أهل القرية لا يشربون المسكر، ولا يأكلون لحم الخنازير، والكثير من تقاليدهم إسلامية.. وقد علل بعضهم بأن تلك هي عادات الناس وهم يحافظون كثيرا على العادات إلى درجة أن كثيرا منهم لا يدخنوا أمام أبائهم أو الكبار في السن، كما أن المرأة هناك تلبس (نقابا) لا يختلف كثيرا عما هو سائد في بعض البلاد الإسلامية هكذا درجت المرأة على هذا النوع من القديم.

ومع سماع الطبل والزمر، ثم الإدراك بأن ثمة عرس يقام وأن اليوم يوم الخميس تلك عادة موجودة أيضا في كثير من البلاد العربية والإسلامية بأن يتم الزواج يوم الخميس.

أخذت الأصوات تخف تدريجيا حتى صارت كأنها صدى. لقد تحرك الموكب إلى بيت العروس يمر الموكب، نساء ورجال يغنون على توقيعات مزمار وطبول، كل فرد من بين الجمع كان يحمل هدية ما، صحون مليئة بالمأكولات، صحون مشغولة بشكل فني فارغة،

وأطباق مليئة بالسكر والأرز، وجرار ماء، وملابس، وتحف فنية مصنوعة مـــن البورســـلين، والنحاس، ومطلية بالفضة والذهب.

وهناك في القرية كان ثمة فرقة فنية بأزيائها، ترتدي ملابسها التقليدية، ومعها مزمار وطبل وأورج صغير، وأرجل النساء توقع على الأرض دقاتها، من بينهم شيخ كبير وامـــرأة كبيرة في السن، مزين ثوبها بعشرات العملات النحاسية والحديدية، وقليـــل منهـــا فـــضي أو ذهبي، يعود زمان بعضها إلى بداية القرن الماضي أو قبله، عليها كلمات من لغات متعـــددة، وتتوالى الألحان ويتوالى الرقص والدبك، فهذه الرقصة داغستانية، وتلك شيـــشانية وأخـــرى أوستيه (أي روسية).

وعلى رؤوس الأصابع يقف الشيخ، وتدور حوله المرأة العجوز ثم يليه شـــاب تـــدور حوله صبية شابة، الألحان شجية واللحظة مشبعة بغنى الألوان والألحان، نسمة الهواء النقيـــة تتسلل بوادعة وتضفي رونقها على بهجة الحالة.

وقد تم تأسيس فرقة الفن في القرية منذ بداية الستينيات، وهي تتغير في عناصرها بين فترة وأخرى، والألحان والكلمات قد تتطور ويتم التغير فيها، لكن الطابع الـــشعبي يجـــب أن يبقى سمة أساسية فيها، وقد اشتركت الفرقة في كثير من العروض داخل داغستان وخارجهـــا ونالت جوائز وشهادات تقديرية كثيرة.

صوت الألحان وتوقيعات الأرجل، والغناء الشجي، يطغي على ما عداه، يرتفع هـــدير الأصوات، وتبقى تجليات اندماج الكلمات باللحن وبحركات الجسد.

العلاقات مع العرب

سبق الإشارة إلى أن العرب فتحوا قسما من داغستان في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)، واستمر وجودهم بين مد وجزر.. وقد كان لذلك تأثيرات تركوها في هذه البلاد.

ويقول وليم الديركي الذي زار الإقليم في نوفمبر من عام ١٢٥٤م حسب ما جاء فـــي دائرة المعارف الإسلامية – المجلد التاسع – ما يلي:

(.. للآن النصارى يسكنون الجبال، ويسكن بين الجبال والبحر الأعراب، أي الليـــزك المسلمون – والليزك اسم كان يطلق على كامل بلاد داغستان من قبل).

وتجدر الإشارة إلى أن معظم إقليم داغستان قد انتشر ألإسلام فيها بعد ذلك التاريخ من خلال تأثيرات العرب والفرس والأتراك، ثم التتار، قبل أن يسيطر الروس على البلاد اعتبارا من منتصف القرن التاسع عشر، أما بالنسبة لانتشار اللغة العربية فإنه من المرجح أن الأمـــر

سار مع انتشار الدين الإسلامي، وإن كان الأمر قد سار ببطء لا يتساوى بطبيعة الحال مع سرعة انتشار الدين.

يقول المستشرق باتولد في دائرة المعارف الإسلامية – المجلد التاسع –: (إن معرفة العربية شائعة في هذه الربوع – الداغستانية – أكثر منها في أي بلد إسلامي آخر ليست العربية لغته الأصلية. ولذلك بفضل ما يبديه أبناء الطريقة النقشبندية – طريقة صوفية زاد انتشارها في داغستان في منتصف القرن التاسع عشر – من نشاط، كما أن عددا من العلماء الذين درسوا في الكعبة شتاء عام ١٨٨٤ –١٨٨٥، وذكرهم سنوك هرجونية قد ولدوا في داغستان).

أما المؤرخ الروسي الشهير كراتشكوفسكي فقد نشر مقالا ضمن مقالات اللغة العربية في شمال القوقاز سنة ١٩٣٦، وترجمة: د.قائد محمد طربوش، ونشره في مجلة الحكمة اليمانية عدد مايو ١٩٨٤ ورد به:

(.. تعزز الاهتمام بظاهرة العلاقات اللغوية والأدبية بداغستان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، بالاستخدام الحي لوجود وتعايش عدد كبير من اللغات المحلية المختلفة، التي لم تملك حروفا كتابية، ولم تنل معالجة أدبية، وكانت اللغة المكتوبة الأساسية المتبعة الوحيدة على ما يبدو هي اللغة العربية بشكلها الأدبي الكلاسيكي في الغالب، وقد أخذ بها كل تعداد إداري عملي ودعمتها التقاليد المدرسية، ومنها نشأت الكتابة المحلية بشكلها النثري والشعري).

وقد ذكر الأساتذة العلماء في معهد التاريخ واللغة والأدب في ماختشكلا ما يلي:

(.. لقد تم تحقيق كثير من الكتب العربية في داغستان بواسطة علماء داغستانيين، منها – على سبيل المثال – كتاب للإدريسي تم تحقيقه في القرن السادس عشر الميلادي، ووجدنا قرآنا كريما يعود تاريخ طباعته إلى القرن الثاني عشر، وتم تحقيق كتاب برهان الحقائق – وهو كتاب صوفي – في القرن الرابع عشر، وكتاب المراد الذي تم تحقيقه في القرن الخامس عشر وغير ذلك بكثير).

وقد عاش مع الليزك وهو الشعب الداغستاني كثير من العرب، وتعايشوا معه، وكان هؤلاء يتكلمون العربية حتى نهاية القرن التاسع عشر، وبعد ذلك آل حالهم إلى مآل أهل البلاد.

إن كثيرًا من علماء العرب، خاصة من رجال الدين كانوا يأتون إلى داغستان ويعيشون في شعوبها، ويعلمون الناس ما لديهم من العلوم، وقد نشر بعضهم بعض الطرق

الصوفية، كما أن علماء من داغستان كانوا يشدون رحالهم على البلاد الإسلامية والعربية، على الأخص لتلقي العلم، والدليل بعض تلك القرى التي تحمل أسماء عربية كقرية عريب في غرب داغستان.

إن تلك البلاد تعرفنا ونعرفها من مئات السنين، المصادر التاريخية تعلن ذلك، وديننا ولغتنا، وكثير من عاداتنا وتقاليدنا التي انتشرت هناك تقول ذلك، وكثير من الآثار الموجودة في متحف ماخنتشكلا، ومتحف مصنع قرية (كوباتشي)، وكثير من الآثار التي مازالت قائمة في مدينة دربند، وشواهد القبور تشهد على ذلك، وأشعار حمزة تسادسا والد الشاعر رسول حمزاتوف الذي كتب بعض أشعاره بالعربية تقول ذلك أيضا.

نعم هذه البلاد تعرفنا ونعرفها تماما، وكثير من أبنائها أصبحوا مواطنين في بلادنا، وكثير منا أصبحوا مواطنين فيها لكن ربما بالسنة أخرى، وحتى لا نسجن أنفسنا في زنزانة الماضي، ومع آثاره الدارسة، فإن الماضي يمكن أن يكون لنا فيه حضور.

مسئول قال عند سؤاله عن انطباعاته عن العرب قال:

(.. قد لا أجيد الحديث عن الماضي، لكنني أعرفه أنه يجمعنا وإياكم الكثير من الأهداف المشتركة في الحاضر والمستقبل أيضا.. ونحن مع أهدافكم المشروعة، ومع أمانيكم لاستعادة صفوفكم وتحقيق وحدتكم، وتوفير كل سبل التقدم لشعبكم.. على هذه الأرضية نتعاون، وفي سبيل السلام وتقدم البشرية نضع أيدينا بأيديكم)!

منطقة (القراطشاي – شركاسيا)

مرة أخرى نحن في إحدى مناطق أعلى معدلات الأعمال، إذ أن متوسط عمر الإنسان هنا يقارب خمسا وسبعين سنة، وتجاوز أعمار نسبة كبيرة من السكان المائة سنة ترى ما هو السر؟

عن منطقة (القراطشاي – شركاسيا) في القوقاز نبحث عن إجابة، وندور في استطلاع.

(القراطشاي – شركاسيا) هي منطقة ذات حكم ذاتي، داخل مقاطعة ستافربول التابعة لجمهورية روسيا الاتحادية.. وفي قرية (بروفلنيوا) القريبة من مدينة ستافربول عاصمة المقاطعة ولد ميخائيل جورباتشوف الزعيم السابق للاتحاد السوفيتي. تبلغ مساحة (قراطشاي – شركاسيا) حوالي ١٤,١٠٠كيلو متر مربع.. واسمها الثنائي جاء من جود قوميتي القراطشاي والشركسي بصورة غالبة فيها.. يبلغ عدد السكان حوالي ٤٠٠ ألف نسمة، أكثر من ثلثهم من

قومية القراطشاي، ويبلغ الشركسي حوالي ٥٠ ألفا، فيما يبلغ الأبازة، أو (الأباظة) حوالي ٣٠ ألفا، ويبلغ النوغاي حوالي ١٥ألفا. وهم من قوميات القوقاز المحلية، وبقية السكان يتوزعـون على بقية أمم ما كان يسمى الاتحاد السوفيتي وشعبه كالروسي والبيلاروسيا والأوسيت والتتار والأرمن، والجورجيون.. وغيرهم (إحصاء عام ١٩٨٩) بين قوتين.

ولغة القراطشاي والنوغاي تعود في جذورها إلى العائلة التركية اللغوية، بينما تعـود لغات الشعوب الأخرى المحلية إلى العائلة القوقازية، والأبازة أو الأباظة هم المجموعة نفـسها التي حملت الاسم نفسه في مصر أو تركيا، وقد هاجرت عائلات قوقازيـة محليـة كثيـرة – والأباضة من بينهم– في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إلى تركيا وسوريا والأردن وفلسطين والعراق ومصر، نتيجة الصراع الطويل من قبل العثمانيين، واستجابة بعض شعوب المنطقة وانحيازها للأتراك، وبالتالي تهجيرها إلى آسيا الصغرى وبلاد الشام ومصر.

ويقع القوقاز الشمالي بين بحر قزوين والبحر الأسود، ويحدد منطقـة (قراطـشاي – شركاسيا) من الشمال إقليم ستافربول وهي جزء منه، فيما يحدها مـن الجنـوب جمهوريـة جورجيا، ويحدها من الشرق جمهورية (كبارديا – بلكاريا) ذات الحكم الذاتي التابعـة لإقلـيم كراسنودار، وكلها تقع فمن جمهورية روسيا الاتحادية.

وقد دخل الإسلام إلى المنطقة (قراطشاي – شركاسيا) فـي القـرنين الـسابع عـشر والثامن عشر، عن طريق بعض الدعاة من الأتراك – العثمانيين والتتار، وأغلبهم كانوا ينتمون إلى الطرق الصوفية التي انتشرت في أنحاء الإمبراطورية العثمانيين وجوارهـا (خـصوصا القادرية والنقشبندية).

وقد خضعت المنطقة لحكم روسيا القيصرية بعد حروب عديدة مع الأتراك العثمانيين، والإمارات المحلية، وقد تم تثبيت ذلك أثر مؤتمر برلين بعد الحرب الروسية التركيـة سـنة ١٨٧٨م.

المدن المنتجعات

يمكن الدخول إلى القوقاز الشمالي من بوابته القصيرة، أي من مطـار المدينـة إلـى (ميزال توفوده) المدينة المشهورة في المنطقة.. كما يمكن الوصول إليها بالقطار؛ حيث ينطلق إليها من مدينة (سوتشي) الواقعة على البحر الأسود.. حيث تبدو الكثير مـن معـالم القوقـاز الشمالي بسهولة جباله وطبيعته الجميلة الخلابة.

ومدينة مينرال نوفودي (المياه المعدنية) هي محطة أو معبر مهم للقوقاز الشمالي، فيها مطار كبير، ومحطة للسكك الحديدية وعدد سكانها ٨٠ ألف نسمة.

المنطقة على العموم إحدى مناطق الاصطياف في روسيا، كما أن وجود ينابيع المياه المعدنية بكثرة في المنطقة قد حتم تحويل عشرات المدن فيها إلى مصحات للاستشفاء ومعالجة عشرات الأمراض، إضافة إلى أن الطقس معتدل، لا تصل درجة الحرارة فيه بالصيف إلى ٣٠ درجة مئوية، ولا تنخفض شتاء إلى ما تحت الصفر إلا في أندر الحالات وتوجد بها مزارع وحقول وغابات خضراء واسعة دائمة الاخضرار في معظم أشهر السنة.

ويشتهر إقليم ستافربول بتربية الخيول (وضمنه بالطبع منطقة قراطشاي شركاسيا)، ومن بينها الخيول العربية، وهي مصدر مهم في الأسواق العالمية، كما يشتهر بالزراعة (قمح وذرة وبنجر وخضروات)، ويستخرج منه الغاز والنفط، وفيه صناعات كيميائية متقدمة، وتصنع فيه الآلات والأسمدة والصناعات الخفيفة.

وبما أن الإقليم الجبلي، فإن فيه سهولا واسعة وفسيحة، وأشهر الأنهار التي تمر فيه نهر كوبان أو قوبان، ويصل عدد السكان في الإقليم إلى حوالي مليونين ونصف مليون نسمة، ومساحته حوالي ٨٠ ألف كيلو متر مربع (١٩٨٩).

ليرمنتوف قتيلا!

خيوط الفجر تتسلل رويدا، ملامح الأشياء تبدأ في الوضوح تدريجيا عند مشارف مدينة (بياتيجورسك)، إنها المدينة التي أحبها الشاعر برمنتوف، ورغم أنه نفى إليها في البداية بسب أشعاره الثورية ضد السلطة القيصرية، غلا أنه أحبها وعاش في منطقة القوقاز تسع سنوات، واستوحى بعض قصائده من طبيعتها.

يمتد الطريق إلى أحدى الغابات.. هناك في قلبها هواء منعش وتغريد طيور وهدوء رائع.. ينتصب تمثال ليرمنتوف، لقد أقيم في سنة ١٩١٥ في المكان نفسه الذي قتل فيه الشاعر (ليرمنتوف من مواليد ١٨١٤).. وقد أقيمت مبارزة إطلاق نار بين الشاعر ومنافسه مارتينوف سنة ١٨٤١، كان فيها مارتينوف أسرع من ليرمنتوف فأرداه قتيلا.

تحيط بتمثال الشاعر تمثال لأربعة نسور سوداء ترمز إلى الحزن.. يمتد الطريق إلى مدينة قراطشايك عاصمة القراطشاي، وهي مدينة حديثة صغيرة، تقع على منحدر تحيط به الجبال، على سور حديقة بلديتها تمثال لامرأة تحمل وعاء لبن رمزا للضيافة.

عدد سكان المدينة يصل إلى ٢١ ألف نسمة ٤٠% منهم قراطشاي، ٤٠% روسي والبقية من بقية القوميات الروسية، ويصل عدد سكان المناطق المجاورة المحسوبة على المجلس البلدي للمدينة حوالي عشرة آلاف نسمة، وقد أسست المدينة سنة ١٩٢٨.

يمر نهر تيباردا بالمدينة وهو أحد فروع نهر كوبان (ينبع من جبال اليروز دائمة الثلج) وإضافة للزراعة، فإن الصناعة تمثل ركنا مهما في حياة ناس المدينة، إذ أن فيها مصانع للالكترونيات والآلات الدقيقة، بالإضافة إلى السياحة التي أصبحت موردا أساسيا للمنطقة، خصوصا بسبب وجود مصيف (ونباي) الشهير فيها..

الرحلة تنتقل إلى نصب شهداء الحرب العالمية الثانية؛ حيث نار الشهيد مازالت متقدة، ثمة نحت لأم تحمي ابنها ورجلين يدافعان.. وقد قامت معارك مهمة في المنطقة مع النازيين للسيطرة على نفط القوقاز.

يقولون هناك لو أمكن للألمان السيطرة على نفط باكو (عاصمة أذربيجان) وبقية المناطق التي يوجد فيها نفط. لكن من الممكن أن يؤثر ذلك على نتائج الحرب.

الطريق يتجه إلى تيباردا ودونباي، وهما لا تبعدان عن مدينة قراطشايك إلا حوالي ٥٠ كيلو مترا، النهر يرافق الطيرق، والتلال تحيط به من الجانبين وسهول خضراء تبرز بين التلال بين فترة وأخرى.

في المدينة (١١) مدرسة ثانوية، و(٩) روضات للأطفال، ومستشفى مركزي سعته حوالي (٢٨٠ سريرا)، ويوجد أربعة مستشفيات أخرى يستولى الواحد فيها أقل من مائة سرير.. أو في المدينة دار للسينما، وناد ثقافي، وجريدة محلية تصدر بخمس لغات (القراطشاي، الشركسية، الأبازية، النوغاي) (عام ١٩٨٩).

تم القضاء على الأمية في المنطقة منذ عشرات السنين، ويتم تعليم لغة القراطشاي لأبنائها في الصفوف الابتدائية الثلاثة الأولى، ثم يتم التعليم باللغة الروسية بعد ذلك، إلا الأدب والتاريخ واللغة، فإنه يتم تدريسها باللغة المحلية لأبناء القوميات المحلية. ليس في المدينة مسجد، بعض المساجد في القرى، لم يتقدم أحد لبناء مسجد في المدينة.

طريق الحرير

في المنطقة عدة أديرة قديمة، بعضها يعود للقرن الثامن الميلادي (خضعت المنطقة للدولة البيزنطية في فترة من الفترات).

طريق الحرير بين أوروبا وآسيا كان يمر من هذه المنطقة، وقد وجد بعض الناس الآثار التي تشير إلى هذا الأمر.. يفد إلى المنطقة حوالي سبعمائة ألف سائح سنويا وهناك أماكن للتزحلق في الشتاء، وأماكن للاستحمام في الصيف.. وأشهر الأماكن هو (دو بناي). ثمة مكان لقطع الأحجار.. أحجار البناء تقطع من هذا المكان وبعضها ثمين كالمرمر، وبعض حجارة الساحة الحمراء في موسكو من هذا المكان وغيره من الأماكن القديمة، كما يتم نحت هدايا تذكارية من حجارة هذا المكان.

ثم بلدة (يتباردا) التي يصل عدد سكانها أكثر من ثمانية آلاف نسمة وتشتهر بمصحاتها العلاجية وتحيط بها الغابات والتلال وتتخللها، وفيها مصانع للآلات الدقيقة، وقد حاول الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية المرور من حمر (اكسوا) القريب منها للوصول إلى البحر الأسود، إلا أنهم فشلوا في ذلك.

عندما يصبحون أسرى

يتم تجاوز البلدة والدخول في محمية طبيعية أنشئت سنة ١٩٣٦ ومساحتها تصل إلى حوالي ٨٦ ألف هكتار، وارتفاعها يصل إلى ١١٣٠مترا عن سطح البحر، داخلها متحف تبدو عنده طبيعة حيوانات الغابة وطيورها، وطبيعة الأسماك التي تعيش في بحيراتها.

دوبناي.. دوبناي

يتم التحرك، يبدأ الشق بين الجبال – الذي توجد فيه المحمية يضيق، وتظهر أشجار الغابة متقصفة مهروسة بسبب تساقط بعض صخور الجبال عليها.. ومازال النهر يرافق الطريق، وخرير الماء مازال تسبيحه عالية الصوت، تسيطر على المكان كله، الجبل عال مدبب الرؤوس، مكسو بالثلج، تخر مياهه عند ٥ جداول، مصدره خيرا هائلا يعلو أي صوت آخر، بيوت قليلة، معظمها خشب، موزعة في الشق المليء بأشجار الغابة، المحاصر بالجبال من ثلاث جهات، ومازال العلو شاهق للجبال المغطاة بالثلج والضباب.

معنا (دو بناي) في لغة القراطشاي الثور البري، واحد رؤوس الجبل تشبه الثور البري، كما أن ثمة رأس يشبه المرأة النائمة، فأطلقوا عليه اسم جبل (المرأة القائمة) أيضا، وذلك يشبه الحصان، وآخر يشبه الإبرة أو السن.. هكذا حملت رؤوس الجبال الأسماء من واقع ما تشبه من حياة الناس.. وأعلى قمة في هذا الجبل (جبل دوبناي) تبلغ ٤٠٤٥مترا، ولا يزيد عدد سكان القرية على ٦٠٠ شخص، يتولون تقديم الخدمات للسائحين في المنطقة، وفيها عدة فنادق ومطاعم ومقاه.

ستالين والمنفى

وثمة كلمات تحمل معاني الكلمات نفسها في لغتنا العربية مثل تاريخ، كتاب، سـلام، ساعات، دقيقة، خيار، زيت.. وغيرها.

ولم لا.. وقد كانت اللغة هنا تكتب بالحروف العربية ومنذ سنوات قليلة وإن تاريخـا طويلا يجمعنا، وإن الإسلام عقيدة وتراث لكل المسلمين بغض النظر عن جنسياتهم وألـوانهم وقومياتهم، ويسبب هذا الأمر فإن الكثير من العادات والتقاليد والسلوكيات يمكـن أن تـصبح مشتركة.

وفي قلب المدينة، وعند النقطة التي يلتقي بها نهر كوبان برافدة تيبارداه ثمة عين مياه معدنية، تسقي من يطلبها.

كان لا بد بعد الرحلة معرفة المزيد عن نفي شعب القراطشاي عن أرضه ووطنه زمن الحرب العالمية الثانية أثناء وجود ستالين على رأس الزعامة السوفيتية فقالوا إن الأمـر قـد حدث مع شعوب أخرى من شعوب الاتحاد السوفيتي، تم نفيها إما إلى سـيبريا، وإمـا إلـى جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية.. ولم يكن النفي لبعض الشعوب المسلمة فقـط، فأغلـب الشعوب التي تم نفيها كانت مسلمة كالقراطشاي، والشاشان انفوش، وتتار القرم، والبلغار، وتم نفي ألمان الفولجا وبعض الأرمن واليونانيين والمماليك أيضا..

وكان السبب المحدد لأمر النفي أنه حدثت بعض الخيانات من قبل بعض الرجال مـن قومية القراطشاي، وقيل أيضا: إن بعض المقربين من ستالين، اغروه بتوسيع رقعة جورجيـا (ستالين جورجي الأصل). وفعلا فإن بعض الجورجيين جاءوا للمنطقة وسكنوا فيها بعد نفيها، وقيل: إن موقع بلادنا مهم إستراتيجيا، لخدمات الكثيرين من القراطشاي أثناء النفي إلى آسـيا الوسطى.. صحيح أنه تم الإيواء في بيوت. ولكنها لم تكن مناسبة تماما، وصحيح أيضا أنه تم توفير مدارس ابتدائية تعلم بالروسية فقط. ومع ذلك فإن الوطن يبقى هو الوطن.. ثـم أعيـد الشعب إلى وطنه سنة ١٩٥٧ بعد قرار خروشوف أيام كان رئيسا للمجلس السوفيتي الأعلى.

في بلاد الشركس

وعلى مسيرة ستين كيلو مترا من مدينة قراطشايك وشركاسيا عاصمة المنطقة كلهـا وعدد سكانها ١٥٠ ألف نسمة.

أسست المنطقة (قراطشاي – شركاسيا) ذات الحكم الذاتي في عام ١٩٢٢، وفي سـنة ١٩٢٦ أعيد النظر في هذا الأمر، فأعلنت القراطشاي منطقـة ذات حكـم ذاتـي، وأعلنـت

شركاسيا محافظة، ثم أعيد تجميع القوميتين في منطقة ذات حكم ذاتي سنة ١٩٢٨، ثم نفي الشعب القراطشاي سنة ١٩٤٤، وبقى الشركس، ثم أعيد جميع القوميتين سنة ١٩٥٧. وأعلنت المنطقة ذات حكم ذاتي داخل مقاطعة ستافربول.

الخطوات تتجه نحو زيارة قرية شركسية اسمها (هبيز)، القرية تبعد عن المدينة حوالي ٥٠كيلو مترا، تحيط بالطريق مزارع وحقول خضراء.. يبلغ عدد سكان القرية أكثر من ٦٠٠ نسمة كلهم من الشركس.

قصة مدينة اسمها (سوتش)

سوتشي هي المدينة السياحية التي كانت الثالثة في الاتحاد السوفيتي بعد موسكو ولينينجراد، عدد سكانها الأصليين ثلاثمائة ألف نسمة، لكنها تستقبل طوال السنة حوالي أربعة ملايين سائح، بينهم حوالي ربع مليون سائح أجنبي خارج روسيا.. تقع على البحر الأسود، وتمتد شواطئها البلدات التي أصبحت ضمن بلديتها حوالي ١٥٠ كيلو مترا.

لماذا سمى البحر الأسود بالأسود؟

أجابوا: إن هناك عدة أقوال في هذا المجال.

من ذلك: إن شواطئ البحر الأسود كانت تحت السيطرة العثمانية حتى سنة ١٨٢٩، وقد أصبح ميناء (سوتس) تابعا للإمبراطورية الروسية حسب اتفاقية ادريانوبل، وتذكر الرواية أن السكان المحليين كانوا يقاومون الأتراك بالنار، فسمى الأتراك البحر الأسود، نظرا لأن البارود أسود.

وهناك رواية أخرى تقول: بأنه توجد حياة في المائة والخمسين مترا الأولى من سطح البحر في حين أن ما تحت ذلك لا توجد فيه حياة؛ حيث يكثر الكبريت والهيدروجين، ولذلك سمى البحر بالبحر الأسود نظرا لهذه الخواص.

سوتش مدينة خضراء مليئة بالغابات وأشجار النخيل، ومزارع الشاي، وعند النظر إلى بيوتها من على ترى غابات بينها بيوت ومعظم أشجارها من الصنوبر والسرو والحور وأشجار الحمضيات.. رطوبتها عالية جدا تصل إلى حوالي ٩٠% مع أن درجة الحرارة في أغسطس لا تتجاوز الثلاثين درجة). شوارعها منظمة، بيوتها جميلة، فنادقها تغض بالناس، شواطئها مزدحمة.. ومع أن شواطئها قليلة الرمال، وإلا أن الناس يسبحون ويتجمعون حتى في المناطق الصخرية، ويستريحون عليها، وطقس المدينة ينتمي إلى طقس المناطق الحارة، القريب من الاستوائي، و٨٠% من مساحة المدينة مليئة بالأشجار والحدائق.

أسست المدينة سنة ١٨٣٨، واعتبرها الروس أيام القيصرية ريفييرا القوقاز؛ حيث بنى فيها الكثير من أماكن الاستجمام.. وتحولت أثناء الحرب العالمية الثانية إلى مدينة طبية عولج فيها أكثر من نصف مليون جندي وضابط.

إن مدينة سوتشي هي جزء من إقليم كراسنودار القائم في القوقاز والتابع لجمهورية روسيا الاتحادية، مساحته ٨٣ألف كيلو متر مربع، ويسكنه حوالي خمسة ملايين، وعاصمة الإقليم مدينة (كراسنودار) وفيها منطقة الأوديجا ذات الحكم الذاتي.

قبل الدخول في المنطقة التي تسمى ماتسيستا ستظهر على الفور رائحة الكبريت، وفعلا إن شهرة المنطقة تقوم على المياه الكبريتية التي تنفجر عيونها في بعض أراضيها حيث تحولت على مادة علاجية منظمة، منذ بداية هذا القرن.

وفي المساء بدأ عرض فرقة من المعمرين، وهم يؤدون الرقص الشعبي الشركسي، الفرقة مكونة من ست نساء وستة رجال، أصغرهم في السابعة والستين، أكبرهم في الرابعة والثمانين.. سبقهم الأكورديون بتقديم تمهيدي، ثم رقصوا كالشباب، لا عكاكيز ليستند على جدار، ولا أحد – وتتوالى فقرات الرقص، وشارك فيها أطفال وصبايا وشبان.. ثم تعود فرقة العمرين، لباس رجالها هو اللباس الشركسي المعروف غطاء الرأس الأسود، قلبق، ورداء أسود، على صدره أمكن لوضع الفشك (الرصاصي)، وسروال أسود، يليه جزمة سوداء، أما السبب في طول معدل الأعمال في هذه البلاد فهو مناخها المعتدل.

أما الصبايا اللواتي اشتركن في الحفل، فهن صور للمواصفات التي كان كتاب السير والشعوب يكتبونها عن المرأة الشركسية من حيث الجمال والصدر العريق الممشوق، والخصر الضامر، وتناسق الجسد، والبشرة (البيضاء الحمراء) ولكن ثمة الكثير من المتغيرات قد دخلت وغيرت تلك المواصفات، فها هي امرأة سمرة غامضة، وأخرى صغيرة وغير ممشوقة، وغيرها صدرها ضامر ويبدو أن اختلاط الدماء قد غير كثير من المواصفات.

لابد أن نغادر المكان ونستعد للرحيل عن منطقة الأعمار الطويلة والأسنان اللامعة.. بعد أن طال مرورنا في بلاد الشركس والقراطشاي.. وبالفعل نغادر، وتبقى رائحة الكبريت متداخلة في الأنوف حتى نرحل عن المنطقة كلها.

المراجع

١- أحمد بهاء الدين مجلة (العربي) عدد مارس ١٩٨٠.

٢- سلامة أحمد سلامة مجلة "وجهات نظر" عدد نوفمبر ٢٠٠١.

٣- أحمد أمين (فجر الإسلام) مكتبة الأسرة ١٩٩٦.

٤- د.ياسين محمد مراد (جغرافية العالم الإسلامي) طبعة ١٩٩١.

٥- د.سليمان عبد المنعم (نحن لا نزرع الكراهية) الأهرام ٣نوفمبر ٢٠٠٢.

٦- رجائي عطية (الإسلام دين وحضارة) مجلة روزاليوسف (من ٢١-٢٠٠٢/٩/٢٧).

٧- د.محمد إسماعيل الندوي (مجلة العربي ١٩٦٥).

٨- محمد حسني زكي (مجلة العربي ١٩٧٦).

٩- أسرة تحرير مجلة الوعي الإسلامي (جامعة دار العلوم بالهند) مايو ١٩٨٠.

١٠- د. محمد السيد سعيد (الهندوس واضطهاد المسلمين في الهند) مجلة العربي اكتوبر ٩٣.

١١- فهمي هويدي (رياح الدعايات المغشوشة) الأهرام ٢٠٠٢/١٠/١.

١٢- فهمي هويدي مجلة العربية (نوفمبر ١٩٨٠، ديسمبر ١٩٨٠).

١٣- محمد صالح (المسلمون في الصين)، مجلة الجيل أكتوبر ١٩٨٥.

١٤- د. ساطع مجلي (على طريق الحرير) عرض د.هاشم حمادي العربي مايو ١٩٩٥.

١٥- د. نوقولا زيادة (عرض لكتاب صيني من العصور الوسطى) مجلة العربي نوفمبر ١٩٨٦.

١٦- فهمي هويدي (أفغانستان بلاد الإسلام المعلق) مجلة العربي سبتمبر ١٩٧٨.

١٧- جيمس أ- فيشز (أفغانستان.. بلاد الشجعان) مجلة (المختار) عدد فبراير ١٩٥٦.

١٨- عبد القادر مراد (الجيش الأحمر يتراجع وينسحب من أفغانستان) مجلة الجيل سبتمبر ١٩٨٨.

١٩- عادل حمودة (ابتسامة القلب في معبد الحب) أهرام ٢٠٠١/٣/١٧.

٢٠- د. محمد رفعت الجوهري (جرح أفغانستان) أهرام ٢٠٠١/٣/١٢.

٢١- فهمي هويدي (ورطة الأمريكان في بلاد الأفغان) أهرام ٢٠٠٢/١٠/٢٢.

٢٢- د. على نور زاده (مسلمو آسيا الوسطى) مجلة العربي فبراير ١٩٩٣.

٢٣- د. شيرين عبد النعيم حسنين (مسلمو تركستان والغزو السوفيتي) طبعة ١٩٨٥.

٢٤- رجاء النقاش – الأهرام ١١ فبراير ٢٠٠١.

٢٥- وثائق مؤتمر جميع الكنائس والطوائف الدينية في الاتحاد السوفيتي (٩-١٢ مايو ١٩٥٢) – إصدار بطريركية موسكو.

٢٦- عبد الرحمن شاكر (الظاهرة السوفيتية الكون والفساد) مجلة العربي يونيو ١٩٩٥.

٢٧- عبد الملك خليل (صحوة إسلامية في روسيا) أهرام ٢٠٠١/٢/١٧.

٢٨- د. مصلح مشكور (نشر الإلحاد بين أفراد المتدينين) صدر بالروسية عن معهد الإلحاد العلمي التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي عام ١٩٦٧) وتمت ترجمته ونشره بمجلة الدعوة السعودية.

٢٩- أحمد حامد (هكذا دخل الإسلام ٢٦ دولة).

٣٠- العلامة الإيطالي الدوميلي (العلم عند العرب دائرة في تطور العلم العالمي) ترجمة د.عبد الحليم النجار، د.يوسف موسى.

٣١- دكتور مكارم الغمري (الشرق السوفيتي – محاولة للعودة للجذور).

٣٢- عبد الملك خليل (آسيا الوسطى في قلب الأحداث مرة أخرى) (الأهرام ١٠سبتمبر ٢٠٠٢).

٣٣- محمد إبراهيم الدسوقي (آسيا الوسطى والقوقاز.. الجبهة الخلفية لحرب الإرهاب). أهرام ١١ سبتمبر ٢٠٠٢.

٣٤- د. محمد المنسي قنديل (كازاخستان – بلاد الشهود والوعود) مجلة العربي أكتوبر ٩٦.

٣٥- د. محمد المنسي قنديل (أوزبكستان – بلاد نصف الابتسامة) مجلة العربي نوفمبر ٩٦.

٣٦- لواء الركن محمود شيت خطاب (فتح بخارى – القصة والعبرة) مجلة العربي مايو ٨١.
٣٧- فهمي هويدي (الطريق إلى سمرقند) مجلة العربي مايو ١٩٨٠.
٣٨- د. أحمد عبد المنعم البهي (قضية في القضاء خالدة) مجلة العربي يناير ١٩٦٦.
٣٩- عبد الرحمن شاكر (اليسار بعد سقوط الحزب البلشفي) مجلة الهلال أكتوبر ١٩٩١.
٤٠- لواء الركن محمود شيت خطاب (فتح طشقند) مجلة العربي أغسطس ١٩٨٢.
٤١- د.محي الدين مبروك (نور الإسلام في أوزبكستان) مجلة الفيصل مايو ١٩٨٥.
٤٢- د.على نور زاده (مسلمو آسيا الوسطى/ النزاع العرقي والبحث عن هوية) مجلة العربي فبراير ١٩٩٣.
٤٣- العالم الروسي كراتشكوفسكي/ ترجمة صلاح الدين عثمان (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) ١٩٦٣ عن جامعة الدول العربية.
٤٤- مصطفى نبيل (أذربيجان – أرض النار والنور) مجلة العربي يناير ١٩٨٤.
٤٥- سليمان الشيخ (الشاشان والأنغوشي من المنفى إلى حياة جديدة) مجلة العربي مايو ١٩٨٧.
٤٦- سليمان الشيخ (الأعمار طويلة والأسنان لامعة في بلاد الشركس والقراطشي) مجلة العربي يوليو ١٩٨٩.
٤٧- د. محمود أبو العلا (جغرافيا العالم الإسلامي) عام ١٩٩١.
٤٨- سليمان الشيخ (جورجيا السوفيتية – الولاء قديم) مجلة العربي ديسمبر ١٩٨٨.
٤٩- سليمان الشيخ (داغستان) مجلة العربي ديسمبر ١٩٨٦.
٥٠- ادين موللر (جنكيز خان فاتح العالم) مجلة المختار عدد فبراير ١٩٤٣.
٥١- د.جمال حمدان (العالم الإسلامي المعاصر) مكتبة الأسرة (١٩٩٧).

المحتويات

مدخل ٥

مقدمة ١٤

الفصل الأول:...٢٤

الملامح الجغرافية لمواقع المآذن الإسلامية في العالم:..................٢٥

أهمية مواقع المآذن الإسلامية في العالم:..............................٢٦

إشعاعات الإسلام العلمية:..٢٧

الفصل الثاني: ٣٦

أولاً: (لجغرافية التاريخية لانتشار المآذن الإسلامية في آسيا) ٣٧

مقدمة...٣٧

انتشار الإسلام في آسيا ٣٨

١- الهند: العودة إلى الماضي، قصة الإسلام في الهند – متى دخل الإسلام الهند – لغزنيون والغوربون – دولة المماليك – أول امرأة تحكم الهند – دلهي ودهلي – الإمبراطور الفنان – قصة (شاهجان) والقلعة الحمراء – روح الإسلام – المسجد الجامع – إلى اجرا – بداية حكم المغول في الهند – أكبر العظيم – الإمبراطور الشاعر – الإمبراطور الولهان – تاج محل– جولة حول تاج محل – الابن يسجن أباه – كفاح المسلمون من أجل الحرية – أبو الكلام ازاد – لم يستسلم أزاد – الإسلام والاستبداد – غاندي – بعث الأمة – جامعة دار العلوم (ديوبند –

الهند) – ما زال الحرص باقيًا على الإسلام – الهندوس واضطهاد المسلمين، وبداية الشروخ – انهيار السوفييت. وعجز الديمقراطية – نتائج خطيرة محتملة – مغزى الأحداث بالنسبة للهند – تفسيرات.. وتفسيرات – شعار الثقافة الوطنية – العرب والتعصب الهندوسي: ٦٦

٢- الصين: البداية – الصين من الجو – لماذا فتحوا الأبواب – لماذا فتح الصينيون الأبواب للإسلام على هذا النحو؟ – مسرحية إسلامية – نقطة الانطلاق – علاقات قبل الإسلام – الإمبراطور يستغيث بالمنصور – سفينة من بلاد العرب – عندما حكم المغول – السيد الأجل – عندما ذهب ابن بطوطة – عودة إلى العزلة – مسجد شارع البقرة – أول كتاب صيني عن القرآن والمسلمين – وفي كتابه أيضًا – ترجمات كاملة للقرآن – علماء أربعة – المسلمون يعلنون الثورة حين بدأت الشروخ – يبشرون بدينهم – وفي ختام رسالته يطلب من الإمبراطور – مواطنون لا أجانب، مساجد بلا مآذن – مسلسل الثورات والمذابح – من المسلمين إلى جلاد ستون – بعثة السلطان عبد الحميد – الغرب وديارهم – البخور العربي – وصف الشعوب الأجنبية – وصف الكتاب – اضطراب الجغرافيا والتاريخ – الكونفوشية والتجارة – في استقبال الزرافة – الفقهاء الأربعة – نقطة التحول – تلك المراحل أربع وليست ثلاثا – القفزة الكبرى – ثورة الملايين – حتى كفن الموتى – وأخيرًا وليس آخرًا (عودة إلى طريق الحرير) – أصل التسمية – البعثة البحرية – البعثة الثانية: ١١٤

٣- أفغانستان: أفغانستان منذ الفتح الإسلامي – أفغانستان في عيون الغرب – صحراء الموت الماعز وجنكيز خان – كابول الساحرة – تخدعك الوجوه – سقف العالم – مع الطبيعة تمر بنفس التجربة – بصمات الجبل مقبرة الغزاة وهكذا كانت الرحلة إلى حيث الجيش البريطاني المقتول! – كابول قرية الأعاجم – وراء الغيبوبة الأرخص قندهار: المجد الغابر – موعودون بالدمار – وعودة إلى مزار شريف – فرسان ثروتهن الماعز – بلد له ماض – حكاية

أفغانستان والجيش الأحمر – بداية الحرب – إنها الشرارة الأولى في الحرب الأهلية – حرب المقاومة – نهاية مرحلة – مستقبل البلد – لببنة أفغانستان – المقابر المثلجة – وفجأة تدمير التماثيل البوذية (في وقضة خارج السياق) – ابتسامة في معبد الحب – النموذج الأفغاني المرشح للتعميم – ورطة الأمريكان في بلاد الأفغان – ١٦٥

ثانيًا: مسلمو آسيا الوسطى ١٧١

مدخل: بداية الرحلة – نشأة تركستان – أما أشهر قبائل تركستان المعروفة فهي– تركستان قبل الفتح الإسلامي – كان سكان تركستان ينقسمون إلى قسمين هما – الفتح الإسلامي لتركستان – تركستان في ظل الخلافة العباسية – الدول التي قامت في عصر الخلافة العباسية – جنكيز خان فاتح العالم – في العالم الشيوعي – بداية الفاجعة وانتشار الشروخ – غزو سيبريا – ثورة استراخان – اقتحام جورجيا – حصار طشقند – الاستيلاء على أمارة خيوه – السيطرة الكاملة على تركستان – تركستان في ظل الشيوعية – أكل لحم الإنسان – وقد تم ذلك بسبب وقائع مؤسفة ودامية – الإسلام والشيوعية – نشر الإلحاد– الدفاع عن سماحه يوسف ستالين – سقوط الاتحاد السوفيتي لماذا وكيف؟! – الثورة على القيصر – التأميم والتملك الجماعي – الجيش الأحمر يتقدم – المعسكر الاشتراكي – مليون نسخة من القرآن – الشرق السوفيتي ومحاولة للعودة إلى الجذور – مشكلة اللغة القومية – البحث عن التراث – الإبداع بلغتين – عزيز النصف أوربي المهم – عزيز النصف أسيوي الشهير – الإبداع والهوية القومية – آسيا الوسطى في قلب الأحداث مرة أخرى – سلطة قضائية – من الهدوء للمناطق الحامية – آسيا الوسطى والقوقاز.. الجبهة الخلفية لحرب الإرهاب – ٢١٨

١ – كازاخستان: أين يكمن الخطر؟ – روسيا موجودة – الإسلام يصل من الجنوب – أشهر العاشقات – ظلال الوجود العسكري الروسي – سحر السهوب – التعليم أيضًا – أقدم من العالم – القوافل تستيقظ – آفاق التعاون بين مصر وكازاخستان – الميراث العسكري السوفيتي – الأرضية المشتركة بين البلدين – آفاق تطوير العلاقات – ٢٣٧

٢ – أوزبكستان جذور الشخصية – الصامت الأكبر – أوزبكستان والتجربة السوفيتية – إسرائيل موجودة – نهر الجنة – بخارى.. زهرة الإسلام – فتح عبد الله بن زياد التمهيدي – فتح سعيد بن عثمان بن عفان – فتح سلم بن زياد – فتح قتيبة بن مسلم الباهلي – أراجيف أعداء الإسلام – عبرة الفتح – في ضيافة الإمام البخاري – سمرقند ياقوتة آسيا الوسطى – طشقند لماذا؟ – دوق موسكو يدفع الجزية! – ابن الأثير.. ليتني مت – الأضرحة وجميلات سمرقند – قضية في القضاء الإسلامي خالدة – وجبة طول اليوم – نقوش على المرمر – غزوة (تنكيز اللعين) – ريكستان: عالم متميز مسجد بي بي خاتم – الأمير والفقيه اللغز – الوجه الآخر لتيمور – طشقند العاصمة والتاريخ – رحلة المصحف العثماني – رئيس مجلس مفوضي الشعب – سطور أخيرة قبل الرحيل عن أوزبكستان – ٢٨٤

٣ – أذربيجان: الرياح العاتية – أقواس قزح – تاريخ من الحروف – الكافيار ينقرض – النفط الأمل والتحدي – بذور الخير – المئذنة متداعية – معكسر اللاجئين – وعودة إلى الحياة في أذربيجان.. وجولة في باكو – صهيل الخيول – الرسم بالكلمات ٣٠٢

٤ – جمهوريات وأقاليم شمال القوقاز – مقدمة – محاولة تفسير – المصادر التاريخية – أسماء قديمة لمناطق في الجبال – ضحية موقع – كانت هناك لغة واحدة................ ٣٠٨

٥ – جورجيا: تفليس الأسطورة – مدينة شرقية – القديم الجميل – جغرافيا جورجيا – جمهورية أوسيتا الجنوبية – (سوليكو).. (سوليكو)! – غذاء أساسي – في أرض الكروم – إيبيريا الجورجية – روسيا وجورجيا.. علاقات الإخوة الأعداء!! ٣١٨

٦ – داغستان: ذكريات التاريخ – داغستان الحديثة – القضاء على الأمية – من على قمة الجبل – ثورة (شامل) – باب الأبواب – الصلاة.. يا أهل القوقاز – كوباتشي – نفوس الناس والزمان – ما رأته العيون وسمعته الآذان – العلاقات مع العرب ٣٣٢

٧ – منطقة (القراطشاي – شركاسيا): ٣٣٤

المدن المنتجعات + ليرمنتوف قتيلا – طريق الحرير – عندما يصبحون أسرى– دوبناي.. دوبناي – ستالين والمنفى – في بلاد الشركس – قصة مدينة اسمها (سوتش) + البحر الأسود لماذا؟ ٣٤٠

المراجع ٣٤٢

مطبع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص.ب: ٢٣٥ الرقم البريدي: ١١٧٩٤ رمسيس

www.egyptianbook.org

E-mail: info@egyptianbook.org